في بيت أحمد أمين..
و
مقالات أخرى

١ . التطرف الديني في الجزائر
٢ . التطرف الديني عند اليهود
٣ . بروتوكولات حكماء المسلمين

تأليف : حسين أحمد أمين







تليجرام : هنا سور الأزبكية
أكبر مكتبة رقمية

فى بيت أحمد أمين..



الطبعة الثانية
١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م

الناشر
مكتبة مدبولى
ميدان طلعت حرب بالقاهرة - ج م ع
تليفون ٧٥٦٤٢١



تليجرام : هنا سور الازبكية
أكبر مكتبة رقمية

في بيت أحمد أمين..

و

مقالات أخرى

١ ـ التطرّف الدّيني في الجزائر
٢ ـ التطرّف الدّيني عند اليهود
٣ ـ بروتوكولات حكماء المسلمين

تأليف
حسين أحمد أمين

مكتبة مدبولي
القاهرة

Backward, turn backward, O time, in your flight,
Make me a child again just for tonight!

D. AKERO.

* * *

The man lives twice who can the gift retain
Of memory, to enjoy past life again

ANON.

مُقدِّمَة

سلطان العقل عند أحمد أمين

بقلم: الدكتور جلال أمين

لا أظن أن شيئاً كان يمكن أن يجلب من السعادة لأحمد أمين أكثر من أن يعرف أن واحداً من أبنائه سوف يستطيع أن يكتب عنه مثلما كتب عنه ابنه حسين، فيرد له جميله علينا بنفس الطريقة التي اختارها أحمد أمين للتعبير عن نفسه، وهي الأدب، وأن يكشف لتلاميذ أحمد أمين ومحبيه من جوانب شخصيته وأسلوب حياته ما لا يمكن أن يعرفه إلا واحد من أبنائه، وأن يعيد للحياة، بهذه القوة، أياماً غالية كان يمكن أن تزول إلى الأبد بزوال أصحابها من الوجود.

وقد طلب مني أخي حسين أن أدلي أنا الآخر بدلوي، وأن أضيف ما أريد إضافته. فرأيت أن أقتصر على معالجة جانب واحد من جوانب حياة وشخصية أحمد أمين الخصبة، إذ قد يكون هذا الجانب قادراً على تفسير أكبر قدر ممكن من جوانب شخصيته وإنتاجه.

هذا الجانب هو ما يمكن أن يطلق عليه «غلبة سلطان العقل» أو «ضعف الهوى» عند أحمد أمين. وحينما أقول إن أحمد أمين كان يتميز تميزاً واضحاً بقوة سلطان العقل فإن هذا القول ليس من قبيل تحصيل الحاصل، الذي يصدق بالضرورة عليه باعتباره عالماً ومفكراً، كما أنه ليس من باب إطراء الابن لوالده.

فهو ليس من قبيل تحصيل الحاصل لأن الذي أعنيه لا ينطبق بالضرورة على كثرة من أبناء جيله وزملائه من الكتاب والمفكرين، إذ أريد أن أزعم أن



تليجرام : هنا سور الازبكية
أكبر مكتبة رقمية

هذه الصفة لا تتوفر بنفس الدرجة عند أدباء وكتاب عظام من جيله كطه حسين أو العقاد أو الحكيم أو المازني، وهو ما سأحاول أن أبينه فيما بعد. كذلك فإن هذا القول ليس قولاً يصدر لمجرد الإطراء، إذ أن ما يمكن أن يسمى «بضعف الهوى» عند أحمد أمين قد يعتبره البعض سبباً لتفوق طه حسين أو المازني أو الحكيم عليه كأديب وإن كان أيضاً سبباً لتفوقه عليهم كعالم ومؤرخ.

أحمد أمين رجل معتدل أشد الاعتدال في أحكامه الشخصية والعامة، قادر على إخضاع عواطفه للمنطق، ويأبى أن يترك لها العنان. وهو من أكثر الناس استعداداً للاعتراف بالخطأ وترحيباً بالنقد العاقل، يحب أن يقلب الأمر على كافة جوانبه فيرى في كل شيء محاسنه ومساوئه. وهو من أكثر الناس نفوراً من النفاق وسأماً منه، إذ أن عقله اليقظ دائماً لا يكف عن تنبيهه إلى عدم المبالغة في تقدير نفسه.

ذهب بعض أصدقائه إلى تفسير هذا الإعتدال عند أحمد أمين بأنه كان في مطلع حياته دارساً للشريعة وقاضياً، فقالوا إنه كان يكتب أيضاً كقاض، ولكني أرفض هذا التفسير. فصفة متأصلة إلى هذه الدرجة في نفسه وتصرفاته، يستبعد في رأيي أن تنتج عن مجرد توليه وظيفة من الوظائف أو عن نوع معين من الدراسة، وليس كل من درس القانون أو تولى القضاء معتدلاً بالضرورة في أحكامه وسلوكه، بل قد يكون الأقرب إلى الحقيقة أنه درس الشريعة وتولى القضاء لأن هذا أو ذاك صادف ميلاً قوياً لديه، والأرجح أنها صفة ولدت معه أو أنها من نتائج تربيته الأولى.

ما مظاهر هذا الإعتدال وضعف الهوى عند أحمد أمين، في سلوكه الفردي والعام وفي إنتاجه الفكري؟

أحمد أمين عندما يتزوج لا يتزوج عن حب، وإنما عن تقدير هادىء لمحاسن العروس وأوجه القصور المحتملة فيها، ومحاسن الأسرة التي يتزوج منها وأوجه ضعفها، وإذ تتغلب الأولى على الثانية يقرر الزواج على بركة الله.

وهو بعد الزواج يقرر بعد تفكير طويل أن أفضل الأشياء للأسرة والأمة ألا يزيد عدد الأولاد عن اثنين أو ثلاثة على الأكثر. وهو يقرر أيضاً بعد قراءة مستفيضة لكتب التربية أنه إذا أحسن تربية الأول قلده بقية الأبناء، فالمهم إذن أن يوجه رب الأسرة عنايته لحسن تربية أكبر أولاده. ولكنه لم ينجح في تنفيذ قراره الأول، ولا يبدو أنه كان على صواب تام في الثاني، فقد تغلبت عليه مخاوف الزوجة وطموحها إلى أن يكون لها عدد غفير من الأولاد عملاً بنصيحة دأبت على سماعها بأن عليها «أن تقص جناحي زوجها لكيلا يطير» وليس أفضل من كثرة الأولاد أثراً في منع الزوج من الطيران بل ومن الحركة. كما أظن أنه كان مبالغاً في تقدير أهمية سلوك الولد الأكبر في التأثير على بقية الأولاد، فلا أظن أني، وأنا أصغر الأولاد، قد تأثرت كثيراً بسلوك أخي الأكبر. وأظن أن أبي قد بالغ هنا، كما بالغ كثيرون من أبناء جيله، ربما بتأثير الفكر الغربي السائد في ذلك الوقت، في الأهمية التي كان يوليها لأثر البيئة على حساب عوامل الوراثة.

وحياة أحمد أمين العائلية حياة هادئة ومستقرة، لم يعكرها زواج آخر أو طلاق أو نزوات طارئة. وهو عادل أيضاً في معاملته لأولاده، فلا أذكر قط أنه أبدى إيثاراً لواحد منا على الآخرين. وهو يريدنا أن نحكم العقل أيضاً ونحن في أشد الأعمار طيشاً، فكل المطالب تحتمل التأجيل أو الإلغاء عدا المطالب المتعلقة بالدراسة أو الصحة. وأكثر الأشياء في نظره كمالي، من الثلاجة الكهربائية والغسالة الأوتوماتيكية إلى أي مظهر من مظاهر التأنق في الملبس أو الأثاث.

وغلبة سلطان العقل عند أحمد أمين تظهر أيضاً في حياته العامة. فهو بعد أن يصبح أستاذاً للأدب العربي في كلية الآداب، وهو لا يزال يرتدي العمامة والقفطان، يتساءل عما إذا كان هذا الزي الذي يناسبه وهو قاض شرعي قد أصبح يناسب الآن منصباً مدنياً بحتاً، ويطيل التفكير في الأمر ويستشير أصحابه. فنفسه لم تتعلق بشدة بهذا الزي أو ذاك، وهو لا يرتدي هذا الزي

أو غيره تقليداً أو خيلاء أو رغبةً في الظهور، وإنما يريد فقط أن يرتدي الزي المتفق مع عمله.

وهو لا ينضم إلى أي حزب من الأحزاب، إذ لا يستهويه واحد منها دون غيره، وقد رأى السياسيين تحكمهم الأهواء وتغرهم المناصب ويفرحون بما لا يفرح به ويأسون على ما لا يأسى له. وإذا كان قد عده البعض من رجال الحزب السعدي فإن الأمر لا يزيد في الواقع عن تقديره الفائق لشخصية النقراشي باشا ونزاهته وليس إعجاباً بسياسة الحزب وتفضيلاً له على غيره. فهو لم ير فارقاً يستحق الذكر بين «مبادىء» هذا الحزب وبين «مبادىء» غيره. وعندما يظن النقراشي أن المودة المتبادلة بينهما قد تغري أحمد أمين بأن يقبل رئاسة تحرير جريدة الحزب اليومية (الأساس)، يعرضها عليه، وكان قد ترك لتوه عمله بالجامعة بوصوله إلى سن المعاش، فيعود أحمد أمين إلى داره يفكر في الأمر ويذكر لنا مزاياه ومساوئه، وهو يشعر في قرارة نفسه منذ البداية أنه لا بد رافض العرض، ثم يرفضه بالفعل رغم ما فيه من وعد بالجاه والسلطان والمرتب المجزي. لا عجب إذن أنه إذ يرشح اسمه للباشوية يرفض الملك الإنعام بها عليه (إذ ماذا قال أحمد أمين في الثناء عليه؟) وإذ يرشحه كبار السعديين وزيراً للمعارف يحتج شباب الحزب (إذ أين ولاء أحمد أمين للحزب؟).

وأذكر أنه قرب نهاية الأربعينات اتصلت به مؤسسة فرانكلين الأمريكية تطلب منه أن يشرف على إصدار كتاب يشترك فيه عشرة أدباء من المصريين وعشرة من الأمريكيين بحيث يكتب كل منهم فصلاً بعنوان «علمتني الحياة» يذكر فيه دروس حياته وما حظي به من تجاربه، فإذا بأحمد أمين يرى جاذبية الفكرة من الناحية الثقافية البحتة، ولكنه لا يرتاح لأنها ممولة من أجنبي، فيطيل أيضاً التفكير في الأمر ويستشير أصدقاءه ويتحول الأمر لديه إلى معضلة فكرية أو مشكلة أخلاقية، إلى أن يطمئن إلى رأي لطفي السيد: «إني أتعاون مع الشيطان لنشر العلم».

وأحمد أمين يظل الصديق الوفي الصدوق لعبد الرزاق السنهوري إلى آخر أيامه، ولكن يجمع أيضاً بينه وبين طه حسين احترام متبادل تعلوه جفوة سطحية. ويشتد العداء بين السنهوري وطه حسين، وهما رجلان لا يقلل من شأن أيهما حدة المشاعر وجموح العاطفة، فيظل أحمد أمين على علاقة طيبة بكليهما، وكأن كلٌ منهما يرى في أحمد أمين ضميره هو، والحق الذي ترفض العاطفة الإعتراف به، فإذا مات أحمد أمين رثاه هذا وذاك بأجمل عبارة وأصدق إحساس.

وترى مثل ذلك في مناسبة أخرى استرعت الانتباه ولفتت الأنظار. فإذ يقع على أحمد أمين ظلم وهو أستاذ في كلية الآداب إذ يرفض مجلس الكلية منحه الدكتوراة على كتبه الشهيرة في التاريخ الإسلامي، لسبب لا صلة بينه وبين استحقاق أحمد أمين للدرجة، تنظم له مجموعة من أصدقائه حفلاً غير معهود يدعى إليه رجال مصر من رؤساء الأحزاب ورؤساء الوزارة والوزراء الحاليين والسابقين، فيجلس هؤلاء جميعاً ليحتفلوا بأحمد أمين ـ وهم الذين لا يطيق واحد منهم الآخر ـ ويشتركوا جميعاً في إلقاء خطب الثناء عليه، قبل أن ينفضوا من خلافاتهم ومشاجرتهم.

ويصل أحمد أمين إلى عمادة كلية الآداب، ثم يستقيل منها احتجاجاً على نقل أستاذ منها دون استئذانه. فيسأله صحفي عن شعوره لدى تركه العمادة فيقول كلمته الهادئة العاقلة: «أنا أكبر من عميد وأصغر من أستاذ». فالسلطة لم تستهوه ولم تنسه لحظة واحدة معنى الأستاذية ومعنى العمادة.

لم يكن من الممكن إذن ألا تظهر غلبة سلطان العقل عند أحمد أمين في فكره وكتاباته. فهو يتفق مع طه حسين وعبد الحميد العبادي أستاذ التاريخ بجامعة الاسكندرية، على الاشتراك في عمل ضخم يؤرخ للإسلام، على أن يتناول طه حسين التاريخ الأدبي، والعبادي التاريخ السياسي، وأحمد أمين تاريخ الحركات الدينية والفلسفية والحياة العقلية بوجه عام. ويتوجه أحمد أمين بكل

نشاطه لفترة تزيد على ثلاثين عاماً لإتمام مهمته، فينتج سلسلة فجر الإسلام وضحاه وظهره، ويختمها بكتاب «يوم الإسلام» وكلها تتميز برصانة التحليل والبعد عن الهوى والدقة في البحث عن الأسباب والمسببات، بينما يتجه طه حسين إلى التأريخ للإسلام تأريخاً أقرب إلى الأدب منه إلى التأريخ والتحليل، فينتج «على هامش السيرة» ويظل هذا هو الفارق الأساسي بين إنتاج الرجلين.

فإذ يكتب طه حسين «الأيام» ويكتب أحمد أمين «حياتي» يقدم لنا طه حسين تحفة فنية ويقدم لنا أحمد أمين صورة صادقة كل الصدق، ليس فقط لحياته بل لحياة مجتمعه في عصره، فيصف الحياة الاجتماعية في الحارة والكتاب والجامعة ويحلل المجتمعات الأوروبية والشرقية التي أتيحت له زيارتها، وكأنه لا يريد الامتاع بقدر ما يريد «التنوير» فتأتي عباراته مباشرة مقتضبة لا تزيد كلمة واحدة عما يفي بالغرض. وقد يحار قارىء طه حسين فيما يرده إلى الواقع وما يرده إلى خيال الكاتب، ولا تصيبه مثل هذه الحيرة وهو يقرأ لأحمد أمين.

وأحمد أمين يخضع نفسه لنفس هذه النزعة العادلة في الحكم على الأشياء والأشخاص. فهو وإن كان يعرف قدر نفسه ولا يغمطها حقها، فإنه لا يكاد أبداً يشعر بالغرور. إنه لو كان لا يعرف لنفسه قدرها ما كان قد أقدم أبداً على كتابة تاريخ حياته، ولكنه مع ذلك يقدم على هذا العمل بوجل شديد وبتواضع جم، وإذا به يجد نفسه مضطراً لأن يبدأ كتاب حياته بالإجابة على السؤال ذي الإجابة البديهية «من أنا حتى أكتب تاريخ حياتي؟» فيكتب في المقدمة «ما للناس بحياتي؟ لست بالسياسي العظيم ولا بذي المنصب الخطير.. إلخ» ولكنه يستمر في الكتابة لأنه يعرف أن لديه بالفعل ما يستحق أن يقال.

في نفس الكتاب يروي قصة شيقة عن نفسه تحببك فيه بما ينطوي عليه من تواضع جذاب قد يصل إلى درجة غمط النفس حقها. فهو يدعى إلى إلقاء

محاضرة في مدرسة القضاء الشرعي وهو لا يزال طالباً فيها. والذي يطلب منه ذلك هو ناظر المدرسة نفسه، الرجل المهيب الفاضل «عاطف بركات». وكانت العادة أن تعرض المحاضرة على الناظر ليقرأها ويقرها أولا يقرها. ويرسل أحمد أمين بالمحاضرة إلى الناظر فيردها الناظر إليه مع رسول دون أن يكتب عليها شيئاً. ويبحث أحمد أمين عن ملاحظات الناظر فلا يجدها فيقول لنفسه «طبعاً، وكيف تعجبه مثل هذه المحاضرة؟ فهذه الفكرة قديمة، وتلك الفقرة أسأت فيها التعبير. والمحاضرة كلها ليس فيها ما يستحق أن يقال» وإذا بالناظر يقابله صباح يوم المحاضرة فيسأله متعجباً «لماذا لم تعلن عن المحاضرة؟» فيجيبه أحمد أمين «لأنها لم تعجبك، إذ لم أجد عليها ما يدل على موافقتك» فيقول الناظر مستنكراً: «أبداً، إنما وجدتها كاملة ليس فيها ما يعلق عليه» فيعيد أحمد أمين قراءة المحاضرة ويقول لنفسه: «ان مع الناظر الحق. فهذا المعنى جديد لم يسبق إليه، وهذه الفقرة بديعة سلسة» ويلقي المحاضرة فيستحسنها الناس فيعتبرها حسنة.

إن هذا الذي نسميه بضعف الهوى أو غلبة العقل عند أحمد أمين قد يكون هو المسؤول عن كونه عالماً ومؤرخاً أكثر من كونه فناناً أو أديباً بالمعنى الضيق للأدب. فليس لدى أحمد أمين عنف طٰه حسين وقوة عاطفته، وليس لديه بوهيمية المازني ولا قوة خيال توفيق الحكيم. ولكن هذه الصفة نفسها هي التي حمت أحمد أمين من الإرتماء في أحضان السياسة والانفعال بتياراتها. وهي نفسها التي حمته من عبودية المنصب وتملق الكبراء، وأسبغت عليه نوعاً نادراً من الشجاعة ما كان ليحظى به لو ارتبط بحزب ارتباط غيره به.

كان يمثل كلية الآداب في مجلس جامعة فؤاد الأول (جامعة القاهرة الآن) وأراد الملك فؤاد لسبب ما أن يمنح مجلس الجامعة الدكتوراة الفخرية لواحد من المستشرقين. ويؤيد معظم أعضاء المجلس مطلب الملك، فيقف أحمد أمين ويده ترتعش يعارض هذا القرار، انفعالاً للحق، وكأن شخص المستشرق ومؤيده قد غابا تماماً عن وعيه، ولا يرى في الأمر كله إلا مسألة الاستحقاق

أو عـدم الإستحقاق. ويحـل عيد جلوس الملك فيتسـابق الكتاب في مـديحه والثناء عليه ويطلب من أحمد أمين أن يكتب مقالاً في هذه المناسبة فيرفض ثم يلحون في الطلب فيجرب، فإذا أعاد قراءة المقال مزقه لأنه لا يحتوي على غير الكذب. ولا أعرف لأحمد أمين مقالاً كتب للوصـول إلى منصب أو كتابـاً ألفه ليتملق الجمهـور. وهو في نهـاية عمـره يلقي بنظرة شـاملة على حياتـه كلهـا فلا يندم إلا على ما تولاه من مناصب منعته في بعض الأحيان من الكتابة.

هل يمكن أن نفسر بهـذه النزعـة أيضاً، غلبـة سلطان العقل في مـوقف أحمد أمين من قضية الأصالة والمعاصرة؟ ذلك أني أعتقد أن هـذه القضية لم تكن محسوسة لديه بنفس الدرجة التي بلغتها عند طه حسين مثلاً، الـذي كان أكثر تعاطفاً بكثير من حركة التغريب، أو عند رشيـد رضا الـذي حسم القضية لصالح التراث، فالقضية عند أحمد أمين معقدة وبالغة الصعوبة. لقد كان في عنفوان شبابه أكثر إعجاباً بالحضارة الغربية منه في نهايـة حياتـه، وإن كان لم يفقـد في يوم من الأيـام إعجابـه الشديـد بالتقـدم التكنولـوجي لدى الغـرب، وما توفره رفاهية الغرب من احترام لآدمية الإنسان. وأذكر أن هذا الإعجاب قد أثار دهشة بل وقدراً من السخط لدى الكاتب الهندي الكبير أبي الحسن الندوي عندما جاء إلى القاهرة وقابل أحمد أمين مدفوعاً بإعجابه الشديد بإسلامياته، إذ رأى عند أحمد أمين افتتاناً ببعض مسالك الغرب لم يكن هو ليرضى عنها. على أن أحمد أمين مع تقدم العمر به قويت شكـوكه في الحضـارة الغربيـة، وكتب ينتقد المستشرقين بعنف. وعبر عن هذا الشك بقوة في كتاب «يوم الإسلام». وبالجملة فإني أعتقد أن أحمد أمين لـم يعثر في هذه القضية على الحل الكامل الـذي ترتـاح إليه نفسـه. ولهذا السبب كتب العقـاد في رثـائـه مقـالاً بعنـوان «المدرسة الوسطى» (نشر بجريدة أخبار اليوم بعد أيام قليلة من وفاة أحمد أمين في ٣٠ مـايو ١٩٥٤) وكـان العقاد يقصـد بذلـك أن أحمد أمين لا ينتمي إلى المدرسة التي ترفض التغريب برمته ولا إلى المدرسة التي تتنكر للتراث.

كلمة واحدة يمكن إذن أن تلخص حياة أحمد أمين وأعماله الفكرية على

السواء وهي «الصدق» فإذا سمحت لنفسي بأن أتكلم كواحد من أولاده فإني أقول إني لا أذكر له مرة واحدة كذب فيها علينا ولو تعلق الأمر بأتفه الأمور، كشراء هدية أو الخروج في نزهة، والنفاق والرياء في السياسة مكروهان لديه لما ينطويان عليه من كذب. والأمانة العلمية في الكتابة مطلوبة لما تنطوي عليه من صدق. والمبالغة في تزويق الكلام وفي العناية باللفظ دون المعنى مكروهة أيضاً لما فيها من كذب. ولأسمح لنفسي هنا أيضاً بأن أقول أنه لهذا السبب كان من أكثر الناس تعرضاً للخداع في البيع والشراء إذ لم يكن يتصور أن يكون المشتري منه أو البائع له قادرين على الإفراط في الكذب. ولهذا السبب أيضاً لم يكن ليستطيع أن يفهم قط لماذا يمكن أن يحتجب الناس عنه فجأة ويكفون عن زيارته لمجرد أنه قد ترك منصباً خطيراً، بينما كانوا لا يكفون عن التودد إليه والتردد على مكتبه ومنزله حينما كان في يده أن يعين شخصاً أو يفصله.

ومع ذلك فقد كان موفقاً توفيقاً غريباً في حياته الخاصة والعامة على السواء، فلم يحرمه صدقه من التمتع بحياة هنيئة في إجمالها، ولا عرّضه لشظف العيش. وهو إذ ينظر إلى حياته بأكملها يسترعي إنتباهه هذا التوفيق، ويندهش له، ويحاول أيضاً أن يفسره بالعقل، فيقول في نهاية كتاب «حياتي» إن هذه الظاهرة.. «يصعب تعليلها العقلي أو تفسيرها بالتحليل الإجتماعي أو النفسي، فكم رأيت من أناس كانوا أذكى مني وأمتن خلقاً وأقوى عزيمة، وكانت كل الدلائل تدل على أنهم سينجحون في أعمالهم إذا مارسوها، ثم باءوا بالخيبة ومنوا بالإخفاق، ولا تعليل لها إلا أن (ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم).

* * *

حقيقة لا يمكن النيل من أهميتها، تشرح ما يعنيه النقاد في حديثهم عن هذا الكاتب أو ذاك حين يقولون إنه «نشأ في بيت علم وأدب»:

فآلاف هي الفوائد التي عادت علينا من أن أبي واسع الثقافة، وكاتب

مشهور، وعاشق متذوق للأدب. . فوائد لم ندركها واعين في حينها، وإن ظلت عقولنا وقلوبنا تتغذى يومياً عليها.

فالأدب في أسرتنا لم يكن «درساً» نتلقاه في ساعات معينة من أيام معينة، نفرغ منه فنعود إلى ما كنا فيه. . وإنما كنا نتنسم عبيره في جو المنزل نفسه، وفي كل ساعة من ساعات اليوم، لا يكاد ينفصل عن سائر مظاهر حياتنا اليومية. . . يدق جرس التليفون فنهرع نحن الأطفال للرد بأصواتنا الرفيعة المتحمسة، والسماعة الكبيرة لا نكاد نستطيع أن نثبتها عند أذننا. . «آلو! من حضرتك؟» فيجيب المتكلم بأنه عباس العقاد، أو توفيق الحكيم، أو محمود تيمور «أحمد بك موجود؟» «دقيقة واحدة» ثم نجري إلى المكتبة صائحين: «بابا. . بابا. . محمود تيمور». فيتوجه أبي إلى التليفون، ونسمعه يسأل محمود تيمور عن سبب تخلفه عن حضور جلسة المجمع اللغوي، ثم يسرد عليه ما دار خلالها، وكيف اقترح فيها إقرار المجمع للكلمة العامية «مُخَنْدَق» لخلو معاجم اللغة من كلمة تعبر عن نفس المعنى بدقة. . ويقص عليه ما كان من موقف طٰه حسين، واعتراض لطفي السيد. . ثم يقرأ عليه رسالة وصلته لتوّه من المستشرق الألماني برجشتراسر يعلّق فيها على ما ذكره في كتابه «فجر الإسلام» عن طبيعة العقلية العربية. . وتتناهى إلى أسماعنا أسماء ابن خلدون والجاحظ والغزالي وابن رشد تنطق في ألفة غريبة، وتتكرر على لسان أبي تكرر أسمائنا نحن عليه، فكأنما هم أقارب لنا أو جيران أو مستأجرو أرض. . وكثيراً ما تهتف به والدتي إذ يفرغ من المحادثة التليفونية، قائلة إنه «إما أن يشرح لها من هو ابن عبد ربه أو ألا يأتي بسيرته، لأن تكرر نطقه بهذا الاسم قد بدأ يغيظها حقاً»! وهو أحياناً يعود من الخارج فيسأل عمن اتصل به تليفونياً. . فتجيب والدتي:

ـــ اتصل بك ابن خلدون مرتين.

ويسأل والدي مبتسماً:

ـــ هل ترك رسالة؟

ـ نعم. . يقول إنه قد بدأ يتململ في قبره من كثرة تناولك سيرته بالحديث!

فأسماء تيمور وهيكل والمازني وطه حسين وغيرهم أسماء مألوفة لدينا مذ كنا في الخامسة أو السادسة، وقبل أن نقرأ لأصحابها حرفاً. . ووالدتي تقلّد لنا أصواتهم وطريقتهم في الكلام، فنضحك لصدق محاكاتها لصوت العقاد الضخم، وبطء طه حسين الشديد، وثرثرة الدكتور السنهوري، وصياح الشاعر علي الجارم بإسمه فكأنما يعلنه للتاريخ: «أنا الجاااارم»، وتبسط عبد العزيز فهمي باشا في الأخذ والرد. . ثم ها هو والدي يقص أمامنا أصل العداء المرير بين السنهوري وطه حسين، وحيرته هو بينهما وكلٌ صديقه الحميم، ويسرد علينا طرائف عن بخل توفيق الحكيم، ويثني على أريحية تيمور وسماحته وطيب خلقه، ويشبه لنا أسلوب طه حسين بحلوى «غزل البنات» ويأتي بأمثلة منه. . أو ها هو يقص علينا ذكرياته عن الشيخ محمد عبده، ونبأ مقابلاته لحافظ إبراهيم، أو يتنبأ بمستقبل باهر في الأدب لموظف صغير بوزارة الأوقاف يدعى نجيب محفوظ. . فإن ولدت قطتنا أسمعنا قصيدة شوقي في القطة التي ولدت بحجرة مكتبه، وإن قدم لنا وقت الغداء باذنجان أنشدنا قصيدته «نديم الباذنجان».

على ضوء هذا وغيره من مئات القصص والتفاصيل عن الحياة الخاصة لأدبائنا وأنماط شخصياتهم، بدأنا نقرأ كتبهم. . فهم ليسوا غرباء علينا. . وباستطاعتي حين أقود محمود تيمور إلى حجرة الاستقبال أن أعبر له عن إعجابي بروايته «سلوى في مهب الريح». . أو حين أرد على العقاد في التليفون أن أخبره أني قرأت له «عبقرية عمر». .

ـ كم سنك يا جحش؟

ـ عشرة. .

ـ تقرأ «عبقرية عمر» في العاشرة؟ لا أعتقد أنك فهمته كل الفهم.

ــ بل فهمته . . فاسألني فيه إن أحببت.

ــ ليس لدي وقت لسؤالك فيه . . ناد لي أباك!

* * *

كان من أول ما تفتح ذهني لإدراكه أن والـدي أديب مؤرخ، وأن احترام الناس له، وإجلالهم إياه، راجعان أساساً إلى إنتاجه في الأدب والتاريـخ، بل وأن طيب معاملة المدرسين والنظار لي، واعتناءهم بأمري عناية خاصة لا يلقاها غيري، مرجعهما أني ابن لهذا الأديب. . كان إذا اصطحبني يوماً إلى النـاظرة في شأن ما، هبت واقفة فـي احترام، ومدت يدها إلى رأسي تربت عليها طوال حـديثهـا معـه . . فـإن دخـل الحجـرة عليّ وأنـا أراجـع دروسي مـع مـدرس خصوصي، تقدم المدرس منحنياً لتقبيل يده . . مثـل هذه الإدراكـات الأولى، وقد ترسبت في ذهني، جعلت الفـكر عندي مذ كنت في السادسة هو المثـل الأعلى، أحل نشاطه المكانة الأولى بين أوجه النشـاط البشري . . وكنت وأنـا طفل إن سألني سائل عما أحب أن أكونه في المستقبل، أجيبه دون تردد، وفي ثقة من قدرتي على أن أكون ما أريد.

ــ عميداً للأدب العربي!

أذكـر مرة إذ كنت في الخـامسة أني دخلت عليـه غرفـة المكتبة دون أن أطرق الباب، ففاجأته واقفاً إلى إحدى خزانـات الكتب المتناهيـة إلى السقف يطبع على غلاف أحد الكتب قبلة! وإذ وقفت أرقبه مشدوهاً إذا به وقد تنبه إلى وجودي يتظاهر بأنه إنما كان ينفخ عن الكتاب ما عـلاه من غبار، ثم يلقي بـه جانباً في غير اكتراث.

تفتحت أعيننـا أول ما تفتحت على نسـخ التصحيح من كتبـه تصل إلى منزلنا لتـراجع، وسعـاة ينتظرون بـالباب ليعـودوا بها، ومـطبعة لجنـة التأليف والترجمة والنشـر نمرّ عليهـا كل يـوم خميس حين كان والـدي يصطحبنـا إلى

اجتماعاته بزملائه من الكتاب أعضاء اللجنة، فنراقب العمال يرصون الحروف، ويديرون الآلات، ويبعثون الطرب فينا بطبعهم أسمائنا على بطاقات.. وكان لمنظر الورقة الكبيرة ناصعة البياض تمر بين الأسطوانتين السوداوين ثم تخرج في مثل لمح البصر وقد امتلأ فراغها بأعمدة الكلمات والصور، أثره الغريب في نفوسنا، نرقبه مأخوذين مفتونين.. فعرفنا وقتها الملزمة وعدد صفحاتها، وطريقة جمع الملازم وطيها وتغليفها، وأنواع الورق وأثمان رزمه، وأوجه استخدام القصاصات المتخلفة منه، فإن كان العامل وقت زيارتنا واسع الوقت، واسع الصدر، فقد يسمح لنا بأن نجرب أيدينا في رص الحروف، أو إدارة الآلة، وتحويل الورقة الكبيرة المطبوعة إلى ملزمة.

وفي البيت، كان إذا أغلق والدي على نفسه الباب وجلس للكتابة، أعلنت الأحكام العرفية، وسكنت الأصوات.. فإذا اللعب يكف، وإذا الكلام أقرب إلى الهمس، إن صاح أحدنا عن غفلة كتم الآخر له فمه المفتوح بكفه، وإن دخل الخادم يتكلم بصوت عال فوجيء بالأصابع إلى الشفاه تحذره: ششش!

* * *

وكان لإجلال الناس والدي أثر غير الذي تحدثت عنه.. فقد كان من أبعث اللحظات على السرور والرضا عندي، لحظة أن يطلب منا المدرسون في الحصص الأولى من العام الدراسي، أن يقف كل تلميذ ليفصح عن اسمه: «إبراهيم الشامي.. خالد البناني.. عمر ذهني».. لا تعليق! حتى إذا ما جاء دوري وقلت في لهجة عادية «حسين أحمد أمين» استلهمني المدرس ليسأل عما إذا كنت ابناً لأحمد أمين المؤرخ المعروف، وعميد كلية الآداب.. وكانت إجابتي بالإيجاب إيذاناً بأن أتلقى طيلة العام معاملة خاصة.

وكان ذلك يثير غيظ التلاميذ.. وقد أتاني بعضهم مرة يسأل: «لم تصر على الإجابة بحسين.. أحمد.. أمين... ولا تكتفي، كما يكتفي الآخرون،

بذكر الاسم الأول والأخير؟!» وكان يزيد من ضيقهم بعض تصرفات المدرسين والنظار حيالي، كتهامسهم مع مفتشي وزارة المعارف إن أجبت على سؤال أحدهم إجابة طيبة، أو تعليقهم على موضوع كتبته بأن «ابن الوز عوام». وقد كان أبي يسألني عقب كل أول يوم من الأعوام الدراسية عن موقع مكتبي من الفصل. فإن أخبرته أن المكتب في أحد الصفوف الخلفية، رفع سماعة التليفون يحادث ناظر المدرسة.. فإذا بالناظر خلال إحدى حصص اليوم التالي يدخل فصلنا وبصحبته فراش، فيهمس في أذن المدرس بكلمة، ثم يخرج.. ويصيح المدرس: حسين أحمد أمين! فأقف.. فيطلب من الفراش أن يحمل مكتبي إلى الصف الأول، وبالرغم من أن معظم التلاميذ كانوا يفضلون الصفوف الخلفية لتمتعهم فيها بحرية أكبر، فقد كان مثل هذا التصرف كفيلاً بأن يلهب صدورهم بالغضب والاحتجاج.

غير أنه من الواجب أن أعترف بأن توقير المدرسين والنظار لوالدي لم يكن وحده المؤثر في تصرفهم تجاهي.. فقد كان أبي يتمتع بسلطة كبيرة في وزارة المعارف، سواء لتوليه أحد المناصب الرفيعة فيها، أو لعلاقته بوزرائها وكبار موظفيها. فكان المدرسون إذا أرادوا الشكوى من وضع معين، أو طمعوا في ترقية أو نقل، فاتحوني لكي أكون واسطتهم لدى أبي.. وكان والدي يسألني أحياناً:

ــ أعندكم مدرس يدعى كذا؟

فأجيبه بالإيجاب..

ــ إنه مرشح لإحدى بعثات وزارة المعارف إلى لندن.. ولكن حذار من أن تخبره الآن.

وإذ أخبر المدرس في اليوم التالي، إذا بالدنيا لا تكاد تسعه من الفرح والتهلل، ويظل يسألني بين حين وحين خلال الأشهر الباقية من العام الدراسي

عن أخبار البعثة وما تم بشأنها، وإذا بمعاملته لي تزداد رقة، وتقاريره عني ترفعني إلى السماء.

فأياً كان السبب في مثل هذه المعاملة إذن، فلا شك أنها أفادتني كثيراً.. فلم يحدث مثلاً أن ضربت في المدرسة أو عوقبت.. وكانت معرفة المدرسين لوالدي كفيلة وحدها بأن أحسن بسببها سلوكي وأتقن مذاكرتي للدروس خشية الإشارة إليّ بالمثل المقابل لابن الـوز عوام، وهو «باب النجار مخلع».. كما أنها أخضعتني لرقابة وعناية كبيرتين في زمن كان عدد تلاميذ الفصول يزيد زيادة تجعل من الصعب إشراف المدرس على كل تلميذ على حدة.. فكانوا ينقلون إلى أبي أنباء مسلكي وطبيعة اهتماماتي، بل وأحياناً بعض النوادر المتعلقة بي، وردوداً ذكية صدرت مني.. وكنت أدهش من إحاطة أبي بها وهي التي حدثت بعيداً عن ناظريه.

حدث مرة أن كلمنا والدي خلال جلسة عائلية عن فصل قرأه في كتاب لمارك توين عنوانه «ما الإنسان؟»، يذهب فيه المؤلف إلى أن تصرفات الإنسان أنانية بطبيعتها حتى في حالات الإحسان والشفقة، ويضرب لذلك مثلاً من يتخلى في ليلة عاصفة باردة عن معطفه لامرأة فقيرة عجوز، قائلاً إن المحسن يعلم أنه لو لم يعط المرأة معطفه لقضى ليلة مؤرقة يعذبه ضميره خلالها، ففاضل بين ميزة الاحتفاظ بالمعطف وميزة استمتاعه بليلة هادئة وضمير مطمئن، فاختار الثانية.

ثم حدث لحسن الحظ أن طلب منا مدرس اللغة العربية بعدها بأسبوعين أو ثلاثة كتابة موضوع إنشاء في «الأنانية»، وكتب لنا على السبورة عناصر الموضوع حتى نستعين بها.. غير أني نحيت هذه العناصر جانباً، وبدأت أسرد نظرية مارك توين على أنها من عندي وثمرة تفكيري.. وبعد بضعة أيام، فاجأني أبي أثناء العشاء، وعلى شفتيه ابتسامة، بقوله إنه علم بأمر موضوع الإنشاء الذي بسطت فيه نظرية مارك توين... قلت في قلق:

ـ أأخبرت المدرس أنها فكرة مارك توين؟

أجاب بالنفي ثم ابتسم.. على أي حال فقد طلب المدرس مني عند إعادته للكراسات أن أقرأ الموضوع على تلاميذ الفصل، مبدياً إعجابه بأولئك الذين يفكرون لأنفسهم، ويطلعون بفكر مبتكر، دون التزام بعناصر الموضوع التي تملى عليهم!

كان مولدي بضاحية مصر الجديدة صيف عام ١٩٣٢. فإن كان قد ذكر في شهادة الميلاد أن المولد كان في حي الجمالية بالقاهرة، فلهذا التزوير قصة.. وهي أن والدتي كانت تصر على أن تقوم بمساعدتها في حالات الولادة قابلة يهودية معينة تدعى فريدة كوهين، أخرجتني ومعظم إخوتي إلى هذا العالم.. ولم يكن من المرخص لفريدة هذه أن تمارس مهنتها إلا في دائرة معينة لا تدخل مصر الجديدة في نطاقها.. فكانت تشترط على والدتي أن يكتب قبالة محل الميلاد في شهاداتنا اسم أحد الأحياء الواقعة في دائرة اختصاصها.

كنا نقطن منزلاً ضخماً، هو ملك لأبي، سكنته العائلة قبل مولدي بسبع سنوات.. وكانت للمنزل حديقة واسعة تحيط به، زرعت بها أشجار الجوافة والمانجو والليمون والمشمش، ثم نخلة واحدة قصيرة لا تنتج ثمراً، وتكعيبة طويلة للعنب تمر تحتها السيارة من الباب الرئيسي إلى الجراج.. وقد كان والدي شغوفاً بتعهد الشجيرات التي يغرسها بنفسه، وكثيراً ما كان يأتي إليها وينحني عليها بنظره القصير كي يرى ما طرأ على أغصانها وثمارها من نمو.. وكان يفضل الكتابة في الحديقة شتاءً، فيأتي له الخادم بكرسي ومنضدة من القش، ثم بعمود طويل من الكتب يختفي وراءه رأس الخادم، فلا يفارق أبي مكانه المشمش إلا بعد أن ترسل إليه والدتي أحدنا عدة مرات ليخبره أن الطعام قد كاد يبرد في إنتظاره.

أما نحن فكنا بالحديقة أكثر شغفاً. ففيها كنا نقضي معظم أوقات فراغنا

مع من تسمح لنا والدتي باصطحابه من الخدم ومعظمهم لا تزيد سنهم عن سننا إلا بأعوام قلائل. . فكنا إن تعبنا من الجري والقفز، وتسلق الأشجار والصعود عن طريق فروعها إلى سطح الجراج، ومحاكاة طرزان وتقليد صيحته، جلسنا نتضاحك على سور قصير من الأسلاك يفصل حديقتنا عن حديقة الجيران، وقد انحنى من تكرار جلوسنا عليه، وتأرجحنا به، حتى كاد يلامس الأرض. . وكثيراً ما كانت تأتي إلينا ابنة الجيران، وهي طفلة يونانية في الثامنة، ذات شعر أشقر وعينين زرقاوين، نحدثها بلغتنا فلا تفهم إلا حدساً، وتحدثنا بلغتها فنغرق في الضحك. . والظاهر أني كنت أشعر نحوها بما يشبه الحب، فقد كان لدي قميص أزرق ذو ياقة منشاة، كنت أحرص على ارتدائه كلما علمت أنها بالحديقة.

غير أن ما أذكره بوضوح غريب (وهي من أعز الذكريات عندي رغم بساطتها)، يوم لعبنا فيه حتى ما كادت سيقاننا لتحملنا، فجلست على ذلك السور وإلى جانبي خادمة سمراء تدعى «صديقة» في مثل سني. . كنا نضحك دون سبب كما لا يضحك إلا الأطفال وقد غطى وجهينا العرق، وشعرنا بالدم يجري متدفقاً ساخناً في عروقنا. . ثم إذا بنا وقد أحاط كل منا كتف زميله بذراعه، وإذا بعاطفة جياشة من الحب الغريب تملأ صدري نحوها، ونحو إخوتي، ونحو الحديقة، ونحو الجيران، ونحو الحياة، وأحس في ثقة أنها تشعر بمثل ما أشعر به. . كنت وقتها في حوالي السابعة، وقد استمر هذا الشعور نحو ثلاث دقائق أو خمس. . غير أني أستطيع أن أقول الآن وقد جاوزت الخمسين إن هذه الدقائق كانت أسعد مدة خبرتها في حياتي، وأني لم أخبر بعدها إحساساً في مثل نقاء ذلك الإحساس وبراءته. .

كان المنزل ـ لكثرة الأطفال فيه ـ يعج بالخدم والخادمات الذين كانت والدتي تحضرهم من القرية أو ترسلهم خالتي إلينا منها. . وقد لعب هؤلاء في حياتي وحياة إخوتي دوراً هاماً خلال فترتَيْ الطفولة والصبا لا أستطيع معه أن أفصلهم عن ذكريات هذين العهدين. . كانوا رفاق حداثتنا وأحد المصادر

الكبرى لسعادتها. . الأمر المزعج الوحيد الـذي كان ينجم عن اختـلاطنا بهم هو انتقال القمل إلينا منهم. . مما كان والـدي يصر بسببـه على أن يحلق شعر رؤوسنا حتى جذوره (وكان هذا في عرفنا نكبـة). . بينما كـانت والدتي تحلق للخدم شعر رؤوسهم، ذكوراً كانوا أم إناثاً!

وقـد شغف الاخوة الثـلاثة الصغـار: أحمـد وأنـا وجـلال، في إحـدى الفترات، بانتحال مهنة التدريس. . فكان أحمد يضع ورقة أسئلة لي ويصحح إجاباتي، وأضع بدوري ورقـة أسئلة لجلال وأصحـح إجابـاته، مستخـدماً في تصحيحها القلم الأحمر. . فلما احتج جلال المسكين بأنه وحده الذي لا يضع امتحاناً ولا يصحح، فكرنا في أن يقوم ثلاثتنا بتعليم الخدم، وكلهم أميون. . وبالفعل، أعددنا جدولاً ووزعنا الحصص، واستخدمنا حجرة زجاجية مشمسة تطل على الحديقة مكاناً للدرس. . ثم تولى جـلال تعليم الحساب، وتـوليت تعليم اللغـة العـربيـة، وتـولى أحمـد، إلى جـانب النـظارة والتفتيش، تعليم الانجليزية، وقد وجد لنفسه نظارة دون زجاج كان يلبسها كلما دخل الفصل. . غير أننا صادفنا في مشروعنا الصعاب. . فالخدم لم يأخـذوا الأمر على النحـو الجدي الذي كنا نرجوه، معتبرين «الحصص» فسحـة لهم يرتـاحون فيهـا من العمل المنزلي، يضحكون أثناءها ويتقاذفـون بالأقـلام والكراسـات التي دفعنا ثمنها من مصروفنا الخاص. . فلم يكن غريباً ألا يحرز أي منهم تقدماً يذكـر، وأن يخرج الجميع بعد انتهاء المشروع كما دخلوه. . ثم إن الحصة كانت في بعض الأحيان تطول، بينما ينتظر مدرس الحصة التالية بالباب وقد نفد صبره، يطل برأسه بين الفينة والفينة يستعجل المدرس بالداخل، وأحياناً يشتمه، فيهرع إليه مدرس الحصة ليلكمه، والتلاميذ يـرقبون المعـركة في حـالة من السـرور والمرح الشديد. .

أمـا الصعوبـة الكبـرى التي أودت بـالمشـروع، فهي تعـارض مـواعيـد الدروس مع مواعيد عمل الخدم. . ولشـد ما كنـا نغضب كلما سمعنـا صوت والدتي من شرفة الطابق العلوي تنادي على أحد الخدم كي يبتاع لها شيئاً من

السوق. . فكان «الناظر» يصيح من الحديقة وهو يضرب الأرض بقدمه:

ــ ألا يحلو شراء الأشياء إلا ونحن في الفصل؟

فتجيبه والدتي:

ــ وماذا أصنع وأبوكم يريد ليموناً مع الحساء؟

والخادم أثناء المحاورة ينتظر النتيجة مبتسماً وعيناه تنتقلان من والدتي إلى أحمد، ومن أحمد إلى والدتي، حتى إذا ما تهيأ للذهاب، ألححنا عليه ورجوناه مستعطفين أن يعود سريعاً، وأن يقطع المسافة عدواً إن أمكن!

كان الاخوة الكبار يحدّثوننا عما لقوه من والدي في صباهم من شدة وصرامة في المعاملة، حتى لقد كانوا يختبئون تحت الأسرة إذا سمعوا صوت السيارة وقد وصلت به إلى البيت وإن لم يكونوا قد ارتكبوا ذنباً، وعن كيف كان لا يسمح بدخول البيت لمن يتأخر منهم بعد ساعة معينة من الليل، فيضطرون إلى المبيت في حجرة البواب في رفقة البراغيث والبق إلى الصباح.

غير أن مثل هذه المعاملة لم يلقها غير الاخوة الأربعة أو الخمسة الكبار. . وقد فسر والدي لنا فيما بعد تغير أسلوب تربيته تفسيرات شتى. . منها اقتران فكرة التربية في ذهنه في بادىء الأمر بطريقة تربية أبيه له. . وهو مفهوم لم يتخلّص منه إلا بعد قراءته في كتب التربية، وأسفاره العديدة، وما دلته عليه تجاربه وملاحظاته. . ومنها اعتقاد كان لديه بأنه إن أحسن تربية الابن الأكبر وقوم أخلاقه، سار بقية إخوته على نهجه دون حاجة إلى تدخل كبير من جانب الوالدين. . ومنها ازدياد إقباله على التأليف منذ حوالي عام ١٩٢٧ حين شرع في كتابة «فجر الإسلام». فإن أحببنا أن نحدد تاريخاً معيناً لهذا التغير الجوهري في أسلوب التربية، فهو تاريخ رحلته إلى تركيا عام ١٩٢٨. . وما زالت لدينا صفحة سطرها في طريق عودته منها بالباخرة، يعترف فيها بخطئه إذ يقسو في معاملته أولاده، ويعاهد نفسه أن يغير من هذه المعاملة، «فأكون معهم ألطف وأعطف وأرق وأكثر مرحاً. . ».

على أي حال فإن والدتي تؤكد لنا أنه حتى في عهد «جاهليته» لم يكن بالقسوة التي توحي بها هذه الصفحة من اعترافه. . وهي تضرب مثلاً لذلك، الليالي التي كان المتأخر في الإياب يقضيها في حجرة البواب، فتقول إنهما ـ أي هي وأبي ـ كانا يقطعان الليل بأكمله ساهرين، يذرع أبي الغرفة جيئة وذهابةً وهو يحس بندم وإشفاق يحاول قمعهما، ويرفض أن يسمح لوالدتي بإنارة الغرفة حتى لا يعرف «الولد الشقي» أنهما مستيقظان بسببه.

غير أنه بالرغم مما طرأ على أسلوب والدي في التربية من تطور جوهري، وبالرغم مما كنا نلمسه منه من عطف وعناية كبيرتين، فقد ظل حاجز قوي من الرهبة يقف دائماً بيننا وبينه، يحول دون رفع الكلفة، أو التجاوب إن حاول أحياناً التبسط معنا أو تشجيعنا على مفاتحته بأسرارنا. . فإن كانت والدتي تقسم أنه كثيراً ما انحنى على الأرض في هيئة الحصان، يحملنا على ظهره ويركض بنا حول الغرفة ونحن نقهقه ونستحثه، فإن هذا التأكيد منها لم يكن ليفلح إلا في إثارة عجبنا لجرأتنا.

كنا نسمي حجرته «أوضة السرير»، ربما لاحتوائها على أفخم سرير بالبيت! وكان يختار لنفسه في الشتاء أكثر حجرات الطابق العلوي مواجهة للشمس، وفي الصيف أقلها تعرضاً لها. ولا أزال أذكر الأيام التي كانت تتم فيها هذه المبادلة (في ابريل واكتوبر من كل عام)، وأفراد العائلة والخدم يروحون ويجيئون بالأثاث والكتب من حجرة إلى أخرى. وكان يستخدم غرفة نومه للقراءة أيضاً. وإذ أن جلّ وقت فراغه كان يخصص للقراءة والكتابة، فقد كانت الساعات التي نجلس إليه فيها ـ عدا أوقات الطعام ـ تختلس اختلاساً، لا يكاد أحدنا يجرؤ على أن يدخل وحده الغرفة وهو منهمك في البحث. فإن دخلنا فلا بد من والدتي معنا نحتمي بها، نمشي وراءها طابوراً على أطراف الأصابع، فإن جلست جلسنا، وإن انتهى حديثها إلى أبي ونهضت نهضنا معها في نفس اللحظة ونخرج وراءها صفاً كما دخلنا. وبالرغم من أن أبي كان دائماً ينحي الكتاب جانباً إن دخلنا عليه، محاولاً أن يتبسط في لقائنا ويبتسم، فقد كنا نشعر

في قرارة أنفسنا أن رفقة الكتاب أحبّ إلى نفسه.

كنت في صباي أحب أبنائه إليه، ربما لما لمسه فيّ منذ البداية من اهتمام بالآداب والتاريخ وإقبال نهم على القراءة. وقد كنت في حداثتي كثيراً ما أرى الله في منامي، يكلمني وأكلمه، فأخبر والدي بما أرى، وأردد ما أسمع، فكان يتأثر لما أرويه، ويقبل رأسي مغتبطاً. حتى كانت ليلة رأيت فيها في المنام نفسي واقفاً عند نهر في صحراء، فإذا بملك من السماء له وجه أخي عبد الحميد يهبط عند الضفة المقابلة من النهر، فيذكر لي أن الله سيختارني نبياً حين أكبر. وأقص نبأ الحلم على العائلة وقت الإفطار، فإذا والدتي تقول في حماس: ولم لا؟ ربما! غير أن والدي ذكرها معترضاً بأن محمداً خاتم النبيين، «ومع ذلك فلا مانع من أن يكون الحلم مبشراً بأن سيكون لحسين مستقبل عظيم» وكنت أشعر بوضوح بأن مثل هذه الأحلام المتكررة يزيد من معزتي عنده.

ومن الطريف أن إخوتي قد استاءوا عند سردي لهذا الحلم، (عدا عبد الحميد الذي سرّه أن أراه في هيئة ملاك!) فاتهموني بعد الإفطار بالكذب والاختلاق، أو على أقل تقدير، بخلطي بين أحلام اليقظة ورؤى المنام. وأذكر أن أحدهم ضربني ساعتها على قفاي ليعزّز من رأيه. وقد شبهتهم والدتي حين رأتهم يهاجمونني بإخوة يوسف النبي الذين ألقوه في الجُب غيرة وحسداً.

كان عبد الحميد شديد التدين في ذلك الحين، يطيل الصلاة ويكثر من تلاوة القرآن. وكثيراً ما جلس إلينا يفقهنا في الدين ويجيب على تساؤلاتنا في حكمة وسعة صدر. وإذ أنه كان يشجعنا على توجيه الأسئلة دون تحرّج، ومهما بلغ فحواها من الجرأة، فقد سألناه مرة:

ـ إذا كان الله خالق هذا العالم، فمن خلق الله؟

وأتانا صوت والدتي، وقد سمعتنا، تستغفر الله العظيم من هذا السؤال.. غير أن عبد الحميد أجابنا في ثقة وهدوء:

ــ سؤال ذكي ومعقول. ولكن لتفرضوا معي أن كائناً ما خلق الله، فإنكم ستتساءلون حينئذٍ: ومن خلق هذا الكائن؟ لنفرض أن كـائناً خلق هـذا الكائن فستتساءلون: ومن خلق هـذا الكائن الثـالث؟ فإن تمسكنـا بهذا التسـاؤل إلى ما لا نهاية فسنصل حتماً إلى الإعتراف بأنه لا بد من كائن لم يخلقه أحد. هذا الكائن الذي لم يخلقه أحد، هو الله.

وقـد نال هـذا الردّ منـه إعجاب الجميـع واستحسانهم، خـاصـة بسبب اللهجة الواثقة التي أدلاه بها، ولسعة صدره وترحيبه بهذا السؤال الشائك.

ولم يكن عبد الحميد مصدراً لتزويدنا بالمعارف الدينية فحسب، بل كان كذلك معيناً من القصص لا ينضب. ومئات هي المرات التي كان يجمعنا فيها حوله على سرير واسع ليقص علينا فصولاً من الروايات الانجليزية المبسطة التي كان يقرأها، فنصغي إليه في نهم وكأن على رؤوسنا الطير، ويتوافد الخدم إلى باب الغرفة للاستماع فلا ندعه يقوم من مكانه إلا إن أقسم لنا أنه لم يقرأ بعـد الفصول التالية للنقطة التي توقف عندها.

أما أخي حافظ، وهو يصغر عبد الحميد بعامين فقد اختـار لنفسه منحى انعزالياً كان غريباً علينا، وموقفاً عقلياً لم نكن وقتئذٍ بالقادرين على استساغته. كان، ولا يزال إلى اليوم حاد العاطفة والمزاج لا يمكنه الحديث في أمر مهمـا تفه شأنه إلا بثّ الحديث جماع روحه وقلبه. كان في ذلك الحين يقدس غاندي إلى حد العبادة، قد بسّط طعامه وملبسه، ويكرر محاولته بين الحين والحين أن يصبح نباتياً. وقد قادته قراءاته عن غاندي وله إلى معرفة تولستوي، فقرأ جملة من كتب الأخير في الدين والفوضوية. والظاهر أن حادث وفاة أعز أصدقائه كان له تأثير عميق في نفسه وفكره. غير أن الطريقة العنيفة التي انتهجها حافظ في التعبير عن أفكاره ونظره إلى أفراد العائلة على أنهم غير أهـل لتلقي الحقيقة، وكثرة شجاراته معنا، وطول خصامه لنا، صدّ قلوبنا عن هـذا النمط الفكري، إلى أن جاء اليوم الذي قبلناه فيه من مصدر آخر!

غير أن حب حافظ الغريب للمسرح الـذي بدا قـوياً واضحـاً عنده منـذ صباه، اضطره في النهـاية إلى العـودة إلى حظيـرة العائلة يلتمس فيهـا ميدانـاً لممارسة مواهبه. فقد كان والدي يفاجئنا أحياناً عند عودتنا من المدرسة بإعلانه عزمه على اصطحابنا إلى دار الأوبرا. مثل هذا الإعلان منه كان دائماً يسكـرنا من البهجة والفرح. ولا أزال إلى اليوم أرى نفسي بوضوح جالسـاً على كرسي مرتفع، في بنطلوني القصير، في مقصورة حمراء الجـدران. ذات مرايـا كبيرة مذهبة الإطار، أتطلع بعينين واسعتين إلى سقف الصالة المذهّب المزين بصور الفنانين والثريا الضخمة في وسطه، وفي يدي قطعة كبيرة من الشوكولاتة التي كان يأتي بها إلينا في المقصورة سكرتير الأوبرا في ذلك الحين، صلاح ذهني. فأما عني فكنت أكثر شغفاً بفخامة الدار ذاتها ومراقبة الجمهور مني بما أشاهده على مسرحها، وأما حافظ فكان يزدرد المسرحيات ازدراداً، يحفظ الكثيـر من حوارها بعد سماعه مرة واحدة، ويدخر في ذاكرتـه الملاحـظات عن حركـات الممثلين وطريقتهم في الأداء حتى إذا جاء المساء التالي رأيناه ينزع من الأسرّة ملاءتين، متخذاً منهما ستارة ينصبها في صالة الطعام، عاهدا إلى أحد الخدم بمهمة شدّ حبل الغسيل الذي ربط بطرفيها حين يعطيه إشارة البدء بينما نجلس نحن على الكراسي التي رصّها في الجانب الأوسع من الصالة. فإن أطل أحدنا برأسه ليرى ما يدور خلف الستارة من الاستعدادات، ترك حافظ ما بيده مزمجراً ليضرب المتطفـل على رأسه ويلوي لـه أنفه. والحق أنـه كان دائمـاً يترك في نفوسنا من الإعجاب بتمثيله وذاكرته وقدرته على المحاكاة ما لا يقل عن إعجابنا بما شاهدناه في الأمسية السابقة.

* * *

حـديثي عن علاقـة حافظ بـالمسرح، يؤدي بي إلى الحـديث عن حب والدتي له، وموقفها من الأدب بوجه عام.

بالرغم من انتماء والدتي إلى عائلة أكثر عراقة وثقافة من عائلة أبي، فإنه

لا هي، ولا أي من إخوتها ذكوراً كانوا أو إناثـاً، تلقى قدراً كـافياً من التعليم. كان جدي لأبي إبناً لفلاح، وكان رغم ضآلة دخله وكثرة أولاده يصر على منحهم أكبر قسط ممكن من الثقافة. بل إنه كان من أوائل المصريين الذين أرسلوا بناتهم إلى المدرسـة. وقد ذكـر والدي في كتـابه «حيـاتي» أن أباه كـان مؤمناً بضرورة تعليم الفتاة لتشارك الرجل حياته مشاركة حقيقية. غير أن عمتي ذكرت لي منذ بضعة أعوام أن الفكرة الرئيسية وراء إرسـالها إلى المـدرسة كـانت أن تتمكن من كتابة خطابات إلى عائلتها بالشكوى من زوجها إن حدث وتـزوجت من شخص غريب عن العائلة، أو اصـطحبها زوجهـا إلى مدينـة بعيدة وأسـاء معاملتها!

أما والدتي فجدها الأكبر هو محمد علي باشا البقلي (الحكيم) أول ناظر مصري لمدرسة الطب، الـذي غضب عليه الخـديو إسمـاعيل فـأرسله مرافقـاً للحملة العسكرية إلى الحبشة حيث قتل. . وكان أبوها قاضياً وفقيهاً في القانون وصديقاً حميماً لعبد العزيز باشا فهمي. . ومع ذلك فالواضح أنه قد أهمل تعليم أولاده إهمالاً فاضحاً. . وكان موته المبكر، دون أن يخلف وراءه ثروة تـذكر، نـذيراً بخـروج الأولاد من مدارسهم، وسعي الـذكور منهم إلى كسب عيشهم بالعمل في بعض الوظائف الصغيرة. وقد قصت علينا والدتي من الأخبـار عنه ما رسم له في ذهني صورة غير جميلة. . فالظاهر أنه كان فظ الطبـاع، شرس الخلق، سيء المعاملة لزوجه. . جاءته امرأة مرة تحاول أن تقدم له هـدية (أو رشوة) حتى يحكم لصالحها في قضية ينظرها. . فإذا به يجر المرأة من شعرها إلى خارج الدار ويجردها من ثيابها، ويضربها بالسوط وهي تـولول وتستغيث، حتى فرق الناس بينهما.

توفي جدي هذا قبل أن يناهز الخامسة والثلاثين، وتبعته جدتي بعد عدة أشهر وهي في حوالي الثالثة والثلاثين، تاركين صبيين وطفلتين. وقد تولى تربية هؤلاء اليتامى والإنفاق عليهم قريب لهم من أكبر أثرياء مصر، هو أحمد عفيفي باشا والد هدية زوجة بهي الدين باشا بركات. . فأما الولدان فسرعان ما وجـدا

لنفسيهما عملاً، وأما والدتي وخالتي فقد قضتا السنوات السابقة على زواجهما في هذه العائلة الكريمة، تعاملان معاملة بقية أطفال الأسرة.. وقد نشأت بين والدتي وهدية منذ ذلك العهد صداقة استمرت حتى وفاة والدتي عام ١٩٥٩.. وكانت تلك السنوات أسعد فترة في حياتها على الإطلاق.. كانت خلالها دائمة الضحك والمرح، لا تحمل هماً ولا تعرف القلق، محبوبة من الجميع، يصر عفيفي باشا على ألا يصطبح بوجه غير وجهها. وكانت تتدلل أحياناً فلا تدخل إليه في الصباح كعادتها حاملة صينية القهوة، وتضحك في الخفاء حين تسمعه يصيح مغضباً: «أين زينب؟ أين زينب؟ لا أريد أن يحمل إليّ القهوة غيرها» وقد عبرت والدتي وهي على فراش الموت عن رغبتها في أن تدفن في مدافن هذه العائلة، فخصصت لها هدية بركات قبراً في موضع تظله أشجار المانجو والمشمش، على بعد عدة أمتار من قبر عفيفي باشا.

وقد احتفظت والدتي على الدوام بتلك الروح المرحة التي بدأت بها حياتها.. فكانت بالرغم مما صادفته فيما بعد من متاعب وأمراض، بشوشة الوجه، منطلقة الضحكات، شغوفة بالمزاح، لا يدخل عليها أحدنا إلا أشرق له وجهها وابتسم.. وقد كان أكثر ما يغيظها من والدي في السنوات الأولى من الزواج على الأقل، قلة الضحك في بيته وبين أفراد عائلته، والتزام وجهه التعبير الجاد، لا يكاد يعرف التعبير عن فرح إلا بشبح ابتسامة، وهي التي اعتادت في منزل أقربائها جواً يضحكون فيه للتافه والملآن، وقد كان هذا الجد الذي لا يعرف هزلاً كفيلاً بأن يقضي على روح المرح عند الكثيرين.. غير أن والدتي ثبتت له.. وما زالت لدينا صورة شمسية صادقة الدلالة، لأبي وقد جلست إلى يساره والدتي مغرقة في الضحك، تشير إليه أن يبتسم على الأقل للمصور، وأن يزيح عن وجهه العبوس..

قضت والدتي سنتين أو ثلاثاً في مدرسة أوروبية بالقاهرة لم تفلح بها، ولم تخرج إلا ببعض الحساب، وبالجمل الانجليزية:

No good, Please, give me the Pencil, come here,

وبعض المفـردات مثل mat, cat, rat, hat (دون أن تعـرف أيها الـدالة على القطة وأيها على الفأر) ثم دعاء «أبانا الذي في السموات» كانت تردده على النحو التالي :

Our fazzar which art in hefenn, halod be zy nem zy will be done, zy kinkumkum.

وقد حاول والدي جاهداً عقب زواجهما أن يعطيها دروساً في الجغرافيـا والتاريخ واللغة حتى يضيّق من الهوة الرهيبة بين ثقافته وثقافتها، وحتى يضمن اهتماماً منها بما كرس له حياته. غير أنه اضطر بعد مدة إلى أن يطرح محاولاته يائساً، وهو يعجب كيف يرفض ذهن امرأة كهذه متقدة الذكـاء أهمية الإحـاطة بموقع بريطانيا أو فتوحات بونابرت.

وكانت النتيجة أن ظلت والدتي لا تستطيع أن تعين موقع مصر من خريطة العالم، لم تسمع بألمانيا إلا حين نشبت الحرب وارتفـع ثمن الصابـون، ولم تسمع بلندن حتى سافر إليهـا أخي محمد وبـدأت تكتب إليه. وهي مـع ذلك تعرف الكثير عن إيران لأن لها صديقة «عجمية» تعرفت بهـا في الترام فصـارتا صديقتين حميمتين، وتعرف عدة جمل يونانية تستخدمها في محادثة الجيران.

كانت تقرأ الصحف ـ عدا الأبواب السياسية منها ـ وتهتم بالأخص بأسعار الذهب، وصفحة الوفيات، والإعلانات المبوبة. فـأما الكتب فثـلاثة أو أربعـة تعشقها عشقاً، وتعيد قراءتهـا كلما فـرغت منها: «مجـاني الأدب» في نسخـة مهلهلة احتفظت بها منذ أيام الدراسة، وكتـاب في مقومـات الصحة وأسبـاب المرض، وحدائق الأمثال العامية لأحمد باشا تيمور، ومجموعة أزجال عثمـان جلال. أما كتب والدي فلم تقرأ منها غير مقال واحد في «فيض الخاطر» بعنوان «ولود وعقيم»، عن حوار بين سيدتين في الترام. وإنما قرأته والدتي لأنها هي السيدة الولود، قد نقلت إلى والدي حواراً دار بينها وبين سيدة عقيم جلست بجوارها في الترام، فرآه أبي جديراً بأن يسجّل في مقال.

كانت تقول لوالدي: «أصحيح أن هناك من الناس من يدفع نقوداً لشراء كتبك؟!» وبالرغم من ذلك الاختلاف الضخم بين ثقافتيهما، فإنه لم يعكر حياتهما الزوجية، ولم يؤثر فيها. فإن كان هو قد شغل بالتأليف والقراءة، فقد شغلت هي بتربية أولادهما الثمانية، فإن التقيا بعد ذلك كان ذكاؤها الطبيعي معوضاً عن نقص تعليمها، ولم يكن جهلها بفتوحات بونابرت سبباً ينغص عليهما حياتهما.

الأمر الذي كان يدهشني منها هو حبها للمسرح الذي لم يكن يقل قوة عن حب أخي حافظ له، اصطحبها والدي عقب الزواج لمشاهدة إحدى كوميديات علي الكسار. وكانت تلك هي المرة الأولى في حياتها التي تدخل فيها مسرحاً. فإذا بها تخرج منه مذهولة تتمتم:

ــ أفي الدنيا مثل هذه الأمور وأنا غافلة عنها؟! يا لشبابي الضائع! يا لخيبتي السوداء!

وباتت من يومها من مرتادي المسرح العاشقين له، تعرف جيداً مسرحيات الريحاني ويوسف وهبي والكسار والمسيري، وتحفظ سطوراً من «غادة الكاميليا» «وعائلة باريت» ترددها في كل مناسبة وبغير مناسبة. أما مسرحياتها المفضلة فمسرحيات موليير، لا ترى شيئاً يفوق «البخيل» أو «المريض بالوهم». فإن شهدت مسرحية محزنة أربكت من معها بعلو صوت بكائها أثناء التمثيل، خاصة إن ذكر فيها أن للأم ولداً متغيباً. وكانت تردد عقب كل تمثيلية تعجبها أن تلك التمثيلية تعالج مشكلتها هي الخاصة، وكإنما كتبها المؤلف عنها.

فرغت مرة من قراءة حدائق الأمثال العامية ولم تجد لديها جديداً تقرأه. فعرضت عليها أن أروي لها قصة كنت قد قرأتها ذلك اليوم، وهي «حاجة الإنسان من الأرض» لتولستوي. وإذ انتهيت من سردها، إذا بي أراها وقد اغرورقت عيناها بالدموع، ثم إذا بها تطرق مفكرة في القصة، حتى إذا ما استوعبت مغزاها رفعت رأسها قائلة:

ــ «ربنا يسعدك يا حسين! إنت حاتطلع راجل عظيم».

وكأني أنا مؤلف القصة! ثم طلبت مني أن أقص عليها قصة أخرى، فقصصت «الشيطان وكسرة الخبز»، وذكرت لها أن مؤلفها هو نفس مؤلف القصة الأولى وأريتها صورته. وفي اليوم التالي ابتعت مجلداً يضم ثلاثاً وعشرين من قصص تولستوي القصيرة بالانجليزية، فكنت أترجم لها القصة جملة جملة، حتى إذا ما فرغت من تلاوة واحدة أربكتني بدعائها وشكرها. وكثيراً ما كانت بعد ذلك تطلب مني أن أحكي لها حكاية من تأليف «الرجل ذي اللحية الطويلة» (وهي تسميتها لتولستوي). فإن لم يكن لديّ الجديد، جعلتني أعيد عليها حاجة الإنسان من الأرض أو «رجلان عجوزان» أو «شرارة مهملة تحرق الدار»، وهي القصص الأثيرة عندها.

لا أذكر متى سمعت عن الله لأول مرة، أو عن محمد، أو متى أو كيف بات لي دين.

غير أن أقدم ما أذكره في هذا الصدد، أن سحور الأهل في رمضان كان يفتنني.

كنا نلح على والدتي متوسلين أن توقظنا للسحور كما توقظ الكبار. فكانت ترفض مشفقةً حيناً وتقبل مشفقةً حيناً. فإن رفضت هددناها بالصوم دون سحور، وإن قبلت تناولنا السحور ولا نصوم. فروضة الأطفال تصرّ على إذن كتابيّ من ولي الأمر بالصيام، وإلا أجبرت الطفل على تناول اللبن والبسكويت صبحاً، والغداء ظهراً. ووالدي يأبى منح هذا الإذن، غير أنه في أيام الجمعة والإجازات يسمح لنا بالصيام نصف نهار، ويقول إن من صام من الصغار نصف نهار فكإنما صام النهار كله، له ثواب كامل. ثم تأتي والدتي فتفتي بأن من صام أول رمضان ومنتصفه وآخره فكإنما صام الشهر كله، له ثواب كامل. فكان صومنا في طفولتنا لا يزيد في الغالب على ثلاثة أنصاف أيام!

فالسحور إذن هو ما كان يجتذبنا، وتغير نظام اليوم، والمأكولات الشهية

غير المألوفة عند الغروب، والفوانيس الموقدة بهيجة الألوان نطوف بها في الطرقات، وغناؤنا مع الخدم: «يا فاطر رمضان. يا خاسر دينك. كلبتنا السوداء تقطع مصارينك»، وإخراج ألسنتنا للغير حتى يعرف من قدر احمرارها ما إذا كنا صائمين أم غير صائمين. والكلبة السوداء التي تنهش أجسام المفطرين كانت أول فكرة كوّنّاها عن الجحيم.

ومن الغريب الخليق بالضحك، أن والدي الذي كان يحرص أشد الحرص في أحاديثه معنا على أن ينمي فينا نظرة إلى الدين مستنيرة واسعة الأفق، لا تشوبها أوهام أو خرافات أو تعصب، لم يعن بأن يحول بين الخدم وبين حديثهم إلينا في الدين، فإذا بنا وقد انتقلت إلينا منهم أبشع الصور. فمن والدي نسمع أن الجنة هي في حقيقة الأمر طمأنينة الروح وسكينتها، والجحيم هو العذاب الناجم عن تأنيب الضمير ووخزه. ومن الخدم نسمع أن الجنة هي المكان الذي نأكل فيه أفخر أنواع الفاكهة وصنوف الحلوى، والجحيم هو حيث يجبرنا الزبانية على تجرع مقادير هائلة من الماء المغلي، يفقأون أعيننا بحرابهم، ثم يعيدون خلقها ليسملوها من جديد. والمسيحيون عند أبي هم عباد الله وأهل الكتاب. وهم عند الخدم لا يختلفون عن الكفار في شيء، عظامهم زرقاء، ومصيرهم الكلبة السوداء. وكانوا إذا لمحوا قساً في الطريق في ثيابه السوداء ولحيته الكثّة، عدوا خلفه يغنون ساخرين من ملبسه ولحيته، حتى يلتفت إليهم مهدداً فيعودوا إلينا ضاحكين.

ولا أنكر أن تأثير أحاديث الخدم في نفوسنا كان في طفولتنا أقوى من تأثير أحاديث والدي في الدين. فالمانجو والأناناس كانا أقرب إلى مفهومنا من سكينة الروح. والماء المغلي الذي كان يؤلمنا ويعذبنا كلما استدعينا للاستحمام، أدنى إلى فكرتنا عن العذاب من وخز الضمير الذي لم نكن قد خبرناه بعد، والعدو في الشوارع ضاحكين وراء قسيس غريب الزي، أظرف لدينا من فكرة أهل الكتاب.

كنا إذا نقلنا إلى والدتي نبأ خطأ ارتكبه أحد الخدم، صاح الخادم بنا: «يا فَتّان! القرآن يقول: والفتنة أشدّ من القتل!».

وتؤلمنا الفكرة، فنقصد والدي مستفسرين: «أصحيح يا أبي أن الفتّان له عذاب يفوق عذاب القاتل؟». فيجيب والدي:

ــ الفتنة المقصودة هنا هي الكفر.

فنهرع فرحين إلى الخدم، ونخرج لهم ألسنتنا:

ــ الفتنة المقصودة هنا هي الكفر.

ــ ومن قال لك هذا الهراء؟

ــ والدي.

فيعض الخادم على لسانه لا يجرؤ على أن ينقض قول سيده الكبير، عضو المجمع اللغوي.

صوّر الخدم لنا الجحيم على أنه حفرة هائلة تلتهب فيها النيران، يعلوها حبل دقيق رقيق فكأنما هو شعرة أو خيط. وعلى الناس جميعاً يوم القيامة أن يسيروا فوق هذا الخيط. فأما من كان مؤمناً وصلحت أعماله فسيرى الخيط وكأنه قنطرة عريضة يعبرها إلى الجنة في ثقة وثبات قدم. وأما من بغى وفسد فستزل قدمه بعد خطوة أو خطوتين، فيهوي إلى الحفرة يتردى فيها أبد الآبدين. فما أطلعوني على هذه الصورة حتى وجدتني لعدة أيام أتدرب على السير فوق القضيب الحديدي الرفيع بظهر السرير، استعداداً لليوم الآخر. ولم أنته إلا بعد أن سقطت سقطة عنيفة من فوقه كاد أن ينكسر لها ظهري. وقد هتف بي أخي جلال حين شاهدني أقع:

ــ وستكون سقطتك في الآخرة أبشع وأشنع إن شاء الله!

لم يكن يفسد علينا يوم «وقفة» العيد سوى إرسالنا إلى الحلاق. فوالدي

يصر على أن نستقبل العيد برؤوس «نظيفة». وضياع شعرنا إنما كان يعني عندنا ضياع فرص الوسامة والأناقة. وقد كنا نكذب أحياناً فندعي أن صالون الحلاق مغلق، فإن أرسل والدي خادماً يستوضح الخبر وأتاه بكذبنا، عاقبنا بأن يحلق لنا رؤوسنا بنفسه، فتزداد وجوهنا بشاعة. فكنا عادةً نفضِّل الإستسلام والطاعة. وإذ نجلس بين يدي الحلاق، نتوسل إليه أن يترفق بشعرنا، وأن يترك لنا منه قدراً معقولاً، بينما تغمز الخادمة له ألا يترفق. والحلاق بطبيعة الحال أميل إلى إطاعة الخادمة، فهي تحمل أوامر السيد. وقد يأمر السيد بإعادتنا إليه إن لم يحلق لنا الكفاية، فيكون في ذلك له عناء إضافي، دون أجر إضافي. وإذ نهبط في النهاية من الخشبة المرتفعة التي تضاف للأطفال إلى المقعد، ونتأمل وجوهنا في المرآة، تدمع أعيننا من الغيظ، ونخرج إلى الطريق أذلاء مطأطئي الرؤوس، بينما تضحك الخادمة في تشفٍ ومرح.

حتى إذا وصلنا إلى البيت، فحص أبي رؤوسنا فرداً فرداً، فيبدي استياءه غالباً، ورضاه في القليل النادر. ثم يأمر بالحمام أن يعد. وما كان الاستحمام بأخف عبئاً علينا من الحلاقة. فالماء ساخن نصرخ لسخونته، والليفة خشنة تلهب جلودنا. وقد كانت والدتي في السنوات الأولى تتولى أمرنا، فكانت إذا صرخنا تترفق بنا، فتضيف ماءً بارداً أو تخفف من تلييفها أجسامنا. فلما كبرنا بعض الشيء تولى أبي عنها هذه المهمة، فلم نكن نصرخ إلا إذا كان الألم لا يحتمل. وهو يدخل الحمام ومعه ثلاثة منا أو أربعة فنخلع ملابسنا ويغطس هو في الحوض الضخم الممتلىء بالماء، فنتسلق الحوض وراءه كالقطط الصغيرة حتى نقع فيه. وكنا نراقب جسمه الضخم العاري في رهبة وتعجب، ونتساءل في أنفسنا عما إذا كانت أجسامنا حين نكبر ستصبح رهيبةً مهيبةً مشعرة كهذا الجسم الذي ملأ الحوض فلم يترك لنا سوى أركان ضيقة منه حشرنا فيها حشراً، والماء المختلط بالصابون يدخل عيوننا فيلهبها عند كل حركة.

وبانتهاء الاستحمام ينتهي جانب العذاب من يوم «الوقفة». فها هي الحلل الجديدة قد وصلت من عند الخياط ملفوفة بالورق المرشق بالدبابيس،

وها هو أبي وقد انفرد في غرفته، نسمعه ينزع الأغلفة عن علب كثيرة، نعلم ما بها ولا نتحدث عنها، حتى يكون التوزيع منها في الغد مفاجأة سارة لنا. حتى إذا ما هبط المساء، أتى كل منا بكرسي من صالة الطعام، يضعه بجوار سريره، فنعلق سترة الحلة الجديدة على ظهر الكرسي وعليها رباط العنق. وعلى المقعد نضع السروال وفوقه القميص المكوي والحزام في شكل دائرة. وتحت الكرسي الحذاء الجديد وفي كل فردة منه فردة من الجورب الجديد. وقد كانت عملية ترتيب الملابس فوق الكرسي وتحته من أحب الأشياء إلينا، لا نتخيل عيداً بدونها. ولا أعدو الصدق إذا قلت أن العيد فقد بهجته منذ تخلينا عن هذه العادة. وكان إذا «كبر» أحدنا وأبطل هذه العادة، نظرنا إليه نظرة اشمئزاز وضيق. فهو يضحك منا ويقول إننا لا نزال أطفالاً صغاراً. ونحن نشتمه ونقول أنه قد بات يظن نفسه كبيراً، وأن الخسارة خسارته.

فلا نكاد ننتهي من «تحضير الكرسي» حتى نقفز إلى الأسرة للنوم ولو كان في السماء بقية من نور. فغدا نقوم قبيل الفجر. فأما من ظن نفسه كبيراً فقد أبطل عادة الاستيقاظ المبكر هي الأخرى، فلا ينهض من فراشه إلا مرغماً، منتفخ العين، وقد تم إعداد لحم الخروف ووضع على المائدة. وأما المتمسكون بطفولتهم فينهضون في الثالثة فيغتسلون، ويشرعون في ارتداء الملابس قطعة قطعة في تمهل وتلذذ، بينما تتناهى من الطريق أصوات تصيح فتشق هَدْأَة الليل: «جزار! جزار!».

ونهرع مع والدتي إلى السطح والدنيا ما زالت ظلاماً حالكاً، فنودع الخروف ونربت على رأسه وفروته مشفقين وفي أعيننا الدمع، ثم نراقب في سرور وشغف عملية ذبحه ونفخه وتقطيع أوصاله. ونتوجه إلى المسجد، فنظل نردد مع المرددين: الله أكبر كبيراً، والحمد لله كثيراً، وسبحان الله بكرة وأصيلاً» وإذ نفرغ من الصلاة، ونصافح من يكون عن يميننا وعن يسارنا متمتمين: حرماً، جمعاً. حرماً، جمعاً»، نسرع بالتقاط أحذيتنا الجديدة التي كنا أثناء الصلاة نراقبها من طرف أعيننا للاطمئنان عليها، ثم نعود إلى المنزل عدواً. فأبي الآن

في الإنتظار بغرفته وقد إستيقظ وفتح نوافذها يستقبل النور. نهنئه فيقبّلنا، ويفتح درجاً يخرج منه نقوداً ورقية وفضية جديدة تلمع من فرط جدتها. فيسلم كلاً منا «عيديته». ثم يفتح خزانته ذات السلسلة الحديدية فيخرج صنوف الحلوى واللعب. وإذ يأخذ كل منا نصيبه، نجري إلى المطبخ حيث والدتي مشغولة بالخروف، قد احتفظت بفروته جانباً لرجال الإسعاف. فتعطي كلاً منا جزءاً من مخ الخروف وقد سلقته. ثم نساعد الخدم في إعداد المائدة، وحمل الصحون والمأكولات إليها، ونتوجه لإيقاظ من لم يكن قد استيقظ بعد من الأخوة «الكبار».

نشبت الحرب العالمية الثانية وأنا في السابعة من العمر. وقد علمت بنبأ نشوبها من مصدرين: من والدتي حين رأيناها تخزن كميات هائلة من الصابون والزيت وغيرهما من السلع، ومن بائع الكراسات والأدوات المكتبية حين تقاضى مني قرشاً كاملاً ثمناً لكراسة اعتدت أن أدفع ثمناً لها نصف قرش فسألته عن السبب.

لم تلعب الحرب في حياة أسرتنا دوراً كبيراً أو صغيراً. وذكرياتي عنها يمكن أن أوردها هنا في فقرة أو فقرتين، وهي ذكريات ليست في مجموعها بالبغيضة.

فمنها: أن والدي حين بدأت إغارات الطائرات الألمانية على مطار ألماظة بمصر الجديدة، فكر في بناء مخبأ بالبيت، خاص بالعائلة، يكفيها مضايقات الانتقال ليلاً إلى المخبأ العام. وبالفعل، بنى حائطاً سميكاً من الطوب قبالة نافذة المطبخ بالطابق السفلي، وحشد إلى جانبي النافذة أكياساً من الرمل. وقد كان لاجتماع العائلة في هذا المطبخ في الظلام، حين تدوي في مصر الجديدة صفارات الإنذار، أثر بهيج، حتى لقد كان فرح الأطفال منا بالصفارة أكبر من انزعاجهم منها.. أذكر أنه كانت قد أجريت لي وقتذاك عملية «الطهارة»، وكان صديق أخي عبد الحميد قد أهداني بهذه المناسبة سلة جميلة

بها أرنبان جبليان رائعان. فكنت إذا بدأت الغارة وحملني والدي للنزول بي إلى المخبأ، أصر على اصطحاب الأرنبين. وفي المخبأ، كنا نقهقه عالياً إذ نرى خالتي نعيمة على ضوء الشمعة تتظاهر بالرعب الشديد وهي تولول:

ــ كدا يا هتلر! حزقتني يا هتلر؟!

وكإنما هي المقصودة من وراء هذه الغارات!

أما ذكريات الحرب البغيضة فجلها يتصل بالجنود البريطانيين في القاهرة. كان يخيل إلينا أنهم سكارى على الدوام، فسلوكهم شائن، وكان مجرد رؤيتنا لهم في الطريق كفيلاً بإزعاجنا، واختيارنا الانتقال إلى الرصيف المقابل لتجنب الاقتراب منهم. وقد كانت عربات المترو دائماً تغص بهم. فإن اضطررنا إلى ركوبها ظللنا طوال المسافة ندعو الله ألا يحدث بيننا وبينهم احتكاك. وقد حدث مرة أن جلس جندي إنجليزي سكران قبالتي ووالدي في المترو، فوجه الجندي إلى أبي إهانة دون مبرر، غلى الدم في عروقي بسببها. فما عدت إلى البيت، حتى أخرجت كراسة جديدة من الدرج، وشرعت في تأليف كتاب بعنوان «أهوال الحروب»، كان أول ما خطّه قلمي في الأدب، وقد اتخذت فيه من حادث إهانة والدي محوراً لإثبات عدالة حق مصر في أن تستقل!

* * *

ثم شرعت في سن الثامنة في تأليف كتاب عن عمر بن الخطاب، مثلي الأعلى في ذلك الحين، وقصدت أن أجعله في ثلاثة مجلدات ضخام، فما وصلت إلى الصفحة الثلاثين حتى كانت المادة في جعبتي قد نفدت. غير أني لا أزال أذكر بوضوح اليوم الذي بدأت فيه العمل في ذلك الكتاب. كنت يومها مريضاً، أرقد في فراش والدي، وأبي على أريكته يكتب في «ضحى الإسلام».. وإذ أخبرته بالفكرة، نزل إلى مكتبته يجمع لي بعض الكتب التي ستفيدني في البحث.. فنشرتها أمامي على السرير كما كنت أراه يفعل،

وفتحت الكراسة مسنداً إياها إلى ركبتي، واضعاً طرف القلم في فمي أدق به أسناني، مفكراً في الفقرة الأولى من الكتاب، وهي نفس حركات أبي حين يشرع في الكتابة. ثم سألته عما إذا كان بالإمكان أن أتخذ لنفسي منظاراً كمنظاره، فأجاب بالنفي، فعدت إلى الكراسة. وبعد لحظات من التفكير العميق، أنزلت القلم من بين أسناني وكتبت:

«كان عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، رجلاً عظيماً حقاً. . .»!

ثم اضطر أبي بعد ساعة إلى الخروج، تاركاً إياي مستغرقاً في الكتابة، فما أن ترك المنزل حتى هب الإخوة والخدم، كعادتهم عند خروجه، يحدثون الضجيج. فقمت من الفراش إلى الباب وفتحته أوبخهم وأطلب منهم التزام الهدوء «لأني أكتب»، متوقعاً أن يلتزموا حيال هذا النشاط مني ما يلتزمونه مع أبي. غير أنهم ضحكوا ساخرين فشتمتهم. وعندما عاد أبي من الخارج شكوتهم إليه.

ثم كتبت تحت تأثير قراءاتي لجرجي زيدان روايتين تاريخيتين، هما أطول وأكثر تعقيداً في الحوادث من أن تصدرا في العادة من صبي في العاشرة. الأولى «الوليد بن يزيد» رواية غرامية تقع حوادثها في العصر الأموي، والثانية «إبنة فردريك» عن الحروب الصليبية ووقوع ابنة أحد قواد الصليبيين في الأسر بعد غرق أبيها ثم وقوعها في غرام أحد المسلمين في جيش صلاح الدين، واضطرارها في النهاية إلى مفارقته والعودة باكية إلى وطنها.

غير أن أهم مؤلفاتي طرا في فترة الصبا هي رواية «العقاب»، رواية عصرية قامت إحدى قريباتي برسم الصور لها، ثم دفعت بها إلى مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، فطبعوا منها مائتي نسخة على حساب والدي، أرسلت إحداها إلى والد صديقي ممدوح، «فضيلة الشيخ مصطفى عبد الرازق وزير الأوقاف، مع أطيب تحيات المؤلف»! وقد كان الشيخ مصطفى عبد الرازق، رحمه الله، يحبني حبه لابنه، وكثيراً ما كان يحضر مذاكرتي مع

ابنه للدروس في حديقة منزله الرائعة بكوبري القبة، أو في مكتبته الضخمة، فيقرأ معنا في كتب الأدب القديمة ككتاب الأغاني والعقد الفريد، ويحدثنا عن ذكريات صداقته لأبي في شبابيهما. فما مضى أسبوع على إرسال الرواية إليه حتى فوجئت إذ أعود عصراً من المدرسة بأبي يقول لي:

ـ خطاب لك من الشيخ مصطفى.

ـ وفتحت المظروف بأصابع ترتعش:

«وزارة الأوقاف

مكتب الوزير

ولدنا الأديب الفاضل السيد حسين أحمد أمين،

سرني أن تلقيت في مطلع العام الهجري الجديد، هدية منك طيبة، تبشر بما لك من مستقبل مرجو في عالم الأدب. فإن كانت روائح الجنة في الشباب كما يقول أبو نواس، فلا غرو أن أتنسم روائح الجنة في مشرق عام جديد من هديتك الكريمة.

أسأل الله أن يجعلك قرة عين لأبويك، وأن ينفع بك البلاد».

وكدت أطير يومها من الفرح، لا تسعني الدنيا، أدفع الخطاب إلى كل من أقابله ليقرأه، آخذاً إياه معي إلى المدرسة، مشيراً للمدرسين والتلاميذ إلى عبارة «الأديب الفاضل» لأتأكد من أنهم لاحظوها. فما هبط مساء اليوم التالي حتى كنت قد عقدت العزم على أمر..

إن كانت الرواية قد أعجبت الشيخ مصطفى عبد الرازق إلى هذا الحد!، (والشيخ مصطفى ليس ممن يستهان بهم في عالم الأدب، فهو الذي اكتشف عبقرية نجيب محفوظ وشجعه)، فلماذا لا أرسلها إلى يوسف وهبي، لعله يقبل أن يخرجها للسينما، وأن يمثل الدور الأول فيها؟ لقد كان من عادتي أن أرسل إلى يوسف وهبي كل عيد بطاقة تهنئة من البطاقات التي أتولى طبعها بنفسي في

لجنة التأليف. فكانت تصلني منه بعد أيام بطاقة تحية وشكر. . فلعله يذكرني الآن بالخير والامتنان. ولا مانع من إخفاء سني عنه، (كنت وقتها في الثالثة عشرة)، حتى لا يظن الرواية عملاً صبيانياً فينحّيها جانباً دون قراءة.

وبالفعل، وضعت نسخة من «العقاب» في مظروف كبير، وأرسلتها إليه بالبريد المسجل، مع تحيات المؤلف، راجياً إياه أن يدرس إمكان إخراجها ومعبراً له عن إعجابي العظيم به.

وقضيت الأسابيع التالية في أحلام جنونية: فها أنا ذا راقد في فراشي أغط في النوم، حين أسمع دقات وقرعاً عنيفاً متواصلاً على الباب. . (كان هناك جرس، غير أني فضلت القرع على الباب!) وأقوم لأفتحه وما زال النوم في عيني، فإذا بيوسف وهبي خارجه مرتدياً عباءة سوداء.

ـ هل أنت حسين أمين؟

ـ نعم.

ـ مؤلف رواية العقاب؟

ـ نعم، نعم!

ويرمقني مشدوهاً وهو الذي كان يتوقع أن يجدني رجلاً في الثلاثين أو الأربعين، ثم يفتح ذراعه ويحتضنني، تماماً كما فعل الشاعر الناقد نكراسوف مع دوستويفسكي الشاب.

وأصحبه إلى والدي، فيهتف به يوسف وهبي عند رؤيته باللغة العربية الفصحى:

ـ سيدي! لقد ظهر نجم جديد في سماء الأدب.

ويهرع إخوتي إلى الصالون وقد سمعوا أن يوسف وهبي في البيت. وإذ يعرفون سبب حضوره إذا بموقفهم مني يتغير، وإذا هم يعاملونني باحترام جم.

ويلتفت الممثل الكبير إليّ قائلاً:

ــ سأقوم بالدور الرئيسي في الفيلم إن أذنت لي . . وإنه لمن حسن الحظ أن بيت ديفيز ستحضر إلى مصر خلال الأسبوع القادم، وسأعرض عليها دور بطلة الفيلم. ولا شك عندي في أنها ستقبله. فإن حدث وقبلته، فقد فُتحت أمامك أبواب هوليوود.

ثم أتخيل في لذة شديدة افتتاحية الفيلم:

ستوديو مصر يقدم . . (موسيقى).

«العقاب». . . (موسيقى عنيفة).

««العقاب». . رواية من تأليف الأديب الفاضل حسين أمين جعله الله قرة عين لأبويه (موسيقى أشد عنفاً) حسين أحمد أمين. . . الصبي الذي شهد له مفكرو مصر من أمثال الشيخ مصطفى عبد الرازق بالامتياز والتفوق، يقدم لنا وهو في الثالثة عشرة باكورة إنتاجه . .

ثم أسماء الممثلين والمخرج ومهندس الصوت. . .

كان بيتنا يغص بالمدرسين الخصوصيين، لا يلمس والدي في أحد منا ضعفاً، أو مايظنه ضعفاً، في مادة من المواد إلا جلب لنا فيها مدرساً خصوصياً يعوده مرة في الأسبوع أو مرتين. بل إنه ليكفي أن يشتد اقتناع أبي لسبب من الأسباب بالفوائد الجمة لدراسة علم أو فن معين، حتى يرى أن دروس المدرسة وحدها غير كافية، كما حدث مثلاً بصدد الرسم، إذ فكر مرة في أن يحضر لنا مدرساً فيه، ولم يتخل عن فكرته إلا بعد أن توسلنا إليه ضارعين أن يعفينا منه، نظراً إلى أن أمسياتنا كادت أن تكون بأسرها نهباً للدروس الخاصة، وقد كانت ألسنتنا تزل في بادىء الأمر، إذ كنا أحياناً نعود من المدرسة، خاصة في بداية العام الدراسي، فنثرثر كما يحب الصبية أن يثرثروا عن مدرسيهم، تارة في صدق غير هادف وتارة في كذب غير متعمد، فنشكو من ضعف هذا المدرس أو ذاك في مادته! وإذ كنا لا نقصد من مثل هذا الحديث سوى الدردشة الفارغة، فقد كان يزعجنا أن نرى الوالد يصدقنا في سذاجة، ويهتم للأمر في قلق، فيفكر

أحياناً في نقلنا من الفصل الذي نكون فيه إلى فصل لا يدرس فيه ذلك المدرس «الخائب»، وأحياناً في طلب نقل المدرس الخائب نفسه إلى فصل لا نكون فيه، وأحياناً يطمئن مخاوفنا ويهدىء من روعنا بوعده أن يحضر مدرساً خصوصياً في البيت يعوض فقر مدرس المدرسة! فنكاد حينئذٍ نعض على ألسنتنا ندماً، خاصةً إن كنا لا نعني مما قلناه حرفاً، ومرات هي التي جاءنا فيها خبر نقل مدرس شكونا من «خيبته» و«ضعفه» رغم تأكيد الناظر لوالدي أنه أبعد ما يكون عن الخيبة والضعف، ورغم أننا قد نكون في تلك الأثناء قد تعلمنا احترامه وحبه، وبدا لنا ما كان خافياً علينا من علمه الغزير.

وقد سهل على والدي الإمعان في هذا الباب، كثرة معارفه من المدرسين. فكان إذا أحب مدرس التعبير عن امتنانه لفضل أسداه والدي إليه، أو أراد التقرب منه بغية نيل فضل مستقبل، عرض أن يعطي الأنجال الأعزاء دروساً خصوصيةً. فيذهب الأنجال الأعزاء ضحايا الفضل الذي تم والفضل الذي سيجيء. وكانوا نادراً ما يقبلون على جهدهم أجراً. وكثيراً ما وضع لهم أبي مبلغاً من المال في مظروف، ودفعه إليّ كي أسلمهم إياه، فكانوا إذا رأوا المظروف وخمّنوا ما فيه ردوه.

* * *

بل إني لأذكر أن أستاذاً للفلسفة بكلية الآداب تطوع مرة أن يعطي أحد الأنجال دروساً في الفلسفة، فاختارني والدي لهذه الدروس في وقت كانت كل فكرتي فيه عن الفلسفة هي شرود الذهن، وهي فكرة مصدرها والدتي التي كانت إذا رأت منا شعراً هائشاً، أو ملبساً زرياً شبهت هيئتنا بهيئة «الفيلسوف». وقد كان هذا الأستاذ أثقل الناس روحاً، وأكثرهم ادعاء. بدأ دروسه لي بشرح نظرية المثل عند أفلاطون. فلما لم يجد مني تجاوباً، ولم يتبين في وجهي لذة الفهم، تقهقر إلى رأي سقراط في المعرفة، فإلى الجدل عند السفسطائيين، ذاكراً لي بعض نوادرهم وأحاجيهم الطريفة حتى يحبب الفلسفة إليّ! فلما لم

يفلح ذلك معي رأى أن يعرف لي الفلسفة، وكيف أنها حب الحكمة، وكيف قلب الإنسان القديم ناظريه في السماء. . . إلى آخره. . ثم اقتصرت الدروس بعد ذلك على روايته لبعض الطرائف المتعلقة بحياة الفلاسفة، كشجارات سقراط مع زوجته وأسبابها، واعتداء شوبنهاور بالضرب على سيدة ثرثارة في المسكن الذي يشغل حجرة منه، ووفاة ديكارت نتيجة لبرد أصيب به وهو في طريقه في الخامسة صباحاً إلى كريستينا ملكة السويد التي كانت تصر على تلقي دروس الفلسفة في تلك الساعة المبكرة. . غير أنه حتى هذه القصص الشيقة كانت تخرج باردة ممجوجة من فم هذا الأستاذ الذي كان يعاملني بازدراء جم، والذي كان إذا رآني مقبلاً للدروس دون سترة أو رباط عنق، نظر إليّ في دهشة وتساؤل من فوق منظاره الغليظ، ثم يأمرني في حدة أن أصعد لإتمام ملبسي بحيث يتفق وهيبة الدرس. ولعلني حين ضقت به ذرعاً تمنيت لو أنه لقي مصير ديكارت فيموت من برد يصيبه وهو في طريقه إليّ. وأخيراً تمكنت من أن أخلق في ذهنه فكرة استحالة تقبلي للفلسفة، فاعتذر لوالدي عن اضطراره لقطع الدروس، بحجة أن الوقت «لم يحن بعد»، فودعه والدي في أسف، وودعته في غير ذلك.

* * *

غير أن عناية والدي كانت منصبة أساساً على تعليمنا اللغات تعليماً متقناً. فانتقى لنا مدرساً ممتازاً للغة العربية، وآخر لا يقل امتيازاً للإنجليزية، وثالثاً وسطاً للفرنسية، وجارة ألمانية متزوجة من مصري لتعليمي الألمانية. وقد ظل الأولان منهم يدرسان لي ولأخوتي مدة عشر سنوات.

فأما مدرس العربية فكهل طويل نحيل، محني الظهر من فرط الطول، ذو شعر أشيب، ووجه طويل، وطربوش أطول. كان حين بدأ معنا مدرساً أول في إحدى المدارس الثانوية العريقة ثم أصبح خلال السنوات العشر ناظراً لها. وهو قريب لوالدي من بعيد، أخلاقي متزمت، باهت الإبتسامة، لا يطربه غير

طرائف أشعب، ولا يهزه غير مرثيات الخنساء. وهو مع هذا بالغ الفصاحة، شديد التمكن من اللغة والنحو، قوي مخارج الألفاظ، واسع الإطلاع في كتب الأدب القديمة. كان يجلس للدرس فلا يتكلم إلا فيه، ربما لضيق وقته وكثرة ما يعطيه من الدروس الخاصة، وربما لأنه لم يكن يرى أن تكون بين الأستاذ وتلميذه غير علاقة الدرس. ومع ذلك فلا بأس حين تبعث والدتي إلينا في المكتبة مع الخادمة بطبق من الكعك أو الحلوى، أن يقطع الدرس ريثما يفرغ من الأكل، وفُتات الكعكة تتناثر على سترته أو تتجمع عند طرفي فمه، سارداً أثناء مضغه النهم المسموع الصوت إحدى ملحْ الطفيليين الخاصة بالفالوذج.

حاولت مرة أن أصرّح أمامه برأيي. كان يشرح لي يومها باب المدح بما يشبه الذم، فساق مثلاً قولة: «أنا أفصح العرب، بيد أني من قريش»، ودعاني إلى الإعجاب بالبلاغة فيها. وإذ قلت صادقاً أني عاجز عن مشاركته رأيه، تجهم وجهه واحمر، وسكت دقيقتين كاملتين كإنما يغالبْ أثناءهما الغضب. ثم قال في برود وتأفف:

ــ هذا قول أشرف الخلق. وسواء تبينت البلاغة فيه أم عجزت عن تبينها فهو قول بليغ . . . هلم إلى الدرس.

فلم أعد معه إلى مثلها قط.

بدأ معي لسوء الحظ بداية سيئة. ذلك أنني قصّرت بعد درسه الأول في حفظ أبيات كلفني بحفظها من قصيدة لشوقي لعلها «مصائر الأيام». فلما سألني عنها في الدرس التالي ولم أحر جواباً، شكاني إلى والدي، فوبخني أمامه توبيخاً عنيفاً، مانحاً إياه «حق الإلتجاء إلى الضرب إن لم يكن يجدي غير الضرب معه». وبالرغم من أنه لم يلجأ قط إلى استخدام هذه الرخصة، فقد أثارت شكايته مني، أو كما كنت أسميها، وشايته بي، وإهانة والدي لي أمامه، حفيظتي عليه، وفتوري نحوه لزمن طويل، رغم محاولته إسترضائي فيما بعد.

كان كثير العيال، ثقيل الحمل، لا يكاد يمر عام دون أن تأتي له زوجه

بمولود. وقد كان أبي يوبخه على إفراطه في النسل، ويحذره من أخطار إنجابه في مثل تلك السن المتقدمة على صحة الطفل. فكان يعتذر بعذر أو بآخر، ثم لا يلبث أن يعود. وكان لهذا كثير الطلبات والرجاوات: إذا دخل والدي علينا الغرفة هب من كرسيه لتقبيل يده، (مما كان يحدث لدينا نحن الصبية أثراً غير طيب)، ويظل نحو ربع ساعة يتملق أبي، ويبالغ في الثناء على كتبه الجديدة، واصفاً كل كتاب بأنه خير ما كُتب في الأدب العربي الحديث، وأروع كتب أبي على الإطلاق. فإن حاول والدي أن يقاطعه ويصرفه عن مثل هذا الحديث، استمر غير عابىء. حتى إذا ما فرغ بدأ يشرح شكاته ويبسط رجاءه، من علاوة أو درجة أو غير ذلك. فكان والدي عند هذه النقطة من الحديث يصرفنا من الحجرة حتى لا نسمع أستاذنا راجياً أو شاكياً فتقل هيبته في نفوسنا. حتى إذا ما انصرف والدي عُدنا، فينفخ الأستاذ بأنفه في منديل، ثم يمسحه مسحاً عنيفاً. ثم هو يعبث بسبحته بعض الوقت متمتماً بعبارات لا نميزها، ثم يهز رأسه هزة، ثم يعود إلى الدرس.

فأما مدرس الإنجليزية فصديقنا الذي نترقب زيارته في شغف، وخليصنا الذي يبيح لنا الحديث فيما نريد الحديث فيه، والتعبير الحر عن كل ما يراودنا من أفكار، دون ما حرج أو استحياء. كان وقت أن بدأ معنا لا يكاد يتجاوز الخامسة والعشرين. وهو ابن صديق لأبي، دفعه والدي دفعة في مستهل حياته العملية فأحب أن يعبر عن امتنانه بإعطائنا الدروس. ومع ذلك فموقفه من أبي غير موقف المتملق المستصغر شأن نفسه. فهو إن حدث صدق، وإن سئل عن رأيه عبر عن رأيه، لا يقبل يداً ولا يكثر من طلب، وهو ما رفع من قدره في أعيننا.

وقد كان لدى والدتي على رف واحد بالمطبخ، ثلاثة أصناف من البن، متفاوتة الجودة، تصنع القهوة من كل صنف منها لطائفة معينة من الناس: بن يمني ممتاز تُصنع القهوة منه لطٰه حسين وعبد الرزاق السنهوري وأحمد لطفي السيد وأمثالهم من علية القوم، ثم بن برازيلي يصنع منه لمن قلّ في المقام عن

هؤلاء، وبن وسط مخصص لسكرتير والـدي وأقاربـه الفقراء. وقـد كان كلمـا طُلب إلى الخادم إعداد فنجان قهوة لضيف، أتى إلى والدتي يتلقى تعليماتهـا الخاصة بنوع البن الذي يستخدمه، فلا تشير عليـه به حتى تستفهم عن هـوية الزائر. والغريب أنها كانت تأمر لمدرس الانجليزية هذا بقهوة الـطبقة الأولى، طبقة طٰه حسين والنقراشي باشا، وهو خروج عن مفهومها الطبقي فيه غموض. غير أن لهذا الخروج في واقع الأمر سراً:

ذلـك أنه حـدث في يوم من الأيـام في السنة الأولى أو الثـانية من سني تدريسه لنا، أن تقدم إلى والـدي يطلب يـد إحدى أختيّ. كـان قد سمـع أن لوالدي بنتين، ففكر في الزواج من إحداهما رغم أنه لم يكن قد رأى أياً منهما، تاركاً لوالدي اختيار المناسبة له. وما زلت إلى اليوم أذكر ساعة أن دخل والدي علينا المكتبة وأخذه منا لبضع دقائق إلى غرفة الصـالون ليعتـذر له بـأن البنتين مخطوبتان بالفعل ولو لم يكونا لشرفه وأغبطه أن يزوجه إحداهما، وليعرض عليه تزويجه من ابنة أخ له، (إذ كان لوالدي في ذلك الحين حرية مطلقة في تزويج من شاء من بنات العائلة ـ قريباتهن في درجة القرابة وبعيداتهن ـ بمن شاء من الرجال، دون أخذ رأيهن، وهي سلطة انكمشت فيما بعـد حين اشتدت ثـورة البنات على ممارستـه لهذا الحق). غيـر أن المدرس اعتـذر بدوره وعـاد إلى المكتبة يضحك مرتبكاً وقد احمر وجهه. وقد راقبنـاه نحن الصبية وهـو داخل (وكنا على علم بالموضوع كله) وفي قلوبنا ألم وإشفاق وقد ازدادت معزته لدينا وتعلقنا به. ومن وقتها ووالدتي ترسل إليه في المكتبة القهوة الممتازة. . . ومرت الأيام والسنون، وتزوجت أختاي وأنجبتا، غير أنه ما من خلاف كان يحدث بين إحداهما وزوجها إلا عبرت والدتي عن «حسرتهـا» وأسفها إذ لم تتـزوج الفتاة مدرس الانجليزية، «ذلك الشاب الممتاز الودود» (بالرغم من أنها لم تـره قط) بدلاً من هذا الزوج الذي «لا يقدرها حق قدرها»! وكانت والدتي إذا سألتنا عمن معنا في المكتبة وأجبناها بأنه مدرس الانجليزية، تسألنـا دون تخلف وبصوت مرتفع:

ـ أهو الذي كان قد تقدم لخطبة أختكم؟

فنشير إليها متوسلين أن تخفض من صوتها حتى لا يسمع! كنا لا نشعر منه ربما لشبابه وحيويته بذلك التنازل في الحديث الذي ينفر الصغار من الكبار. فهو مهتم بما نهتم به نسأله عن الشيء فيطيل التفكير فيه وكإنما سألناه سؤالاً عميقاً. فإن تجرأنا وسألناه عن السبب في أنه لم يتزوج، (وهو باقٍ إلى يومنا هذا دون زواج) أجاب على استفهامنا إجابة نطرب لإخلاصها ونطرب أيضاً لإقباله على الرد وكإنما كان ينتظر فرصة كهذه كي يفتح صدره. فهو صبيّ يدرِّس الصبية؛ ينظر في المعجم معنا أو في دائرة المعارف البريطانية للبحث عن معنى غمض عليه، أو نقطة يجهلها، ويأخذ بالكلمات المفيدة أو المعلومات الجديدة مذكرة لنفسه. وهو كثير الضحك لدرجة قد تذهل الغير وتثير العجب بل والإرتباك. يضحك لما يستأهل الضحك وما لا يستأهله حتى ليكاد البعض يظن به نوعاً من الخبل، وإن كان الجميع لا يملكون إلا الاستجابة له، وتلقي العدوى منه. وهو وسيم سرنا أن نكتشف في ملامحه شبهاً قوياً بملامح الممثل الإيرلندي تايرون باور. وهو شبه لم يكن هو ليعترف به، وكان ينكره في تواضع وهو يضحك. ولشد ما ساءنا أن اضطرته الأيام إلى لبس نظارة، ففسد الشبه. ثم أفسده أكثر وأكثر بمضي السنين امتلاء وجهه وجسمه، وغلبة سيماء الموظف على هيئته وزيه.

فأما دروسه فنصفها في اللغة، ونصفها حديث في الأدب. فهو محب للأدب يجيد الكتابة. ألف وهو في السادسة والعشرين رواية لقيت نجاحاً لا بأس به، ثم اتجه بكليته إلى الترجمة فترجم روايات لتوماس هاردي وغيره بأسلوب عربي رصين. وهو لا يفرض علينا موضوعات الإنشاء، وإنما يترك لنا حرية الكتابة فيما نشاء، فكنا نختار غالباً موضوعات شخصية لا نتقيد فيها بطول، كالمركز الذي نحب أن نتبوأه حين نكبر، ورأينا في الدين، وعيوبنا وكيف يمكن التخلص منها، إلى آخره. حتى إذا ما تنبه إلى أن مثل هذه الموضوعات ليست من النوع الذي يُطلب منا الكتابة فيه في امتحانات

المدرسة، أسرع فهبط بنا إلى الأرض، وأعطانا موضوعاً محددّ الطول عن الكلاب، أو الطيارة التي تفاخر سيارة، أوالصحة التي هي تاج على رؤوس الأصحاء. . . فكنا نضحك من هذه الموضوعات الأخيرة، ولكن نستجيب، مقدرين الدوافع إليها، والحاجة إلى التمرن على الكتابة في مثلها.

بيد أن أكثر ما حبّبه إليّ ما كان يُبديه من ثقة بمستقبلي، وتقديره للعناصر الطيبة في شخصيتي. وقد طلب مني وأنا في التاسعة أو العاشرة من العمر وعداً بأن أعينه وزيراً للمعارف متى ما صرت رئيساً للوزراء. فأعطيته الوعد في جد وحماس. ثم لكأنما أراد أن يضمن لنفسه هذا المنصب، فأشرف على تزويدي بثقافة تشرّف أي رئيس للوزراء، يصحح ما أكتبه من قصص وينقدها، ويمدني بقائمة تلو قائمة بأسماء الكتب الواجب قراءتها، ويشجع انتهاجي أسلوباً خاصاً بي في الكتابة.

ولقد كان أخوف ما أخافه حين التحقت بكلية الحقوق فانقطعت الدروس، أن تنقطع الصلة بيننا. غير أن هذا لم يحدث. وكثيراً ما أزوره ساعة أو ساعتين في حال الأدب في العالم العربي، ثم يسألني عن نشاطي الفكري وأسأله عن نشاطه. والراجح أن يكون أمله في وزارة المعارف قد زال زوال شبهه بالمثل الإيرلندي.

فإن كنت قد تطلعت في يوم من أيام صباي إلى منصب رئيس وزراء له الأمر والنهي والتعيين في كبريات الوظائف، واضعاً بين الحين والحين قائمة بأعضاء الوزارة تضم أسماء من أكون راضياً عنهم من الأخوة والأصدقاء، إن تشاجرت مع أحدهم بسبب قلم أو لعبة شطبت اسمه من القائمة، وإن بلغ شجارنا حد التلاكم والضرب زججت به في السجن، وإن كانت قد داعبت مخيلتي بعد ذلك أو قبل ذلك فكرة أن أصبح مدرساً أضرب بعض التلاميذ وأكافىء البعض، أو فكرة أن أكون إماماً عادلاً عملاقاً كعمر بن الخطاب، أو دجالاً مشعوذاً قوياً مثل كاليوسترو وراسبوتين، أو قائداً عسكرياً على غرار

نابليون، أو قديساً من طراز غانـدي، أو مفتشاً للغـة العربيـة أو التاريـخ أدخل الفصول في ثقة فيرتعد المدرسون ارتعاداً، أقول: إن كانت قد خطرت ببالي في وقت من أوقات صباي هذه الفكرة أو تلك، فإنما ليوم أو بعض يوم، أو أسبوع على أكثر تقدير، تخطر، فتراود، ثم تمضي لا تعود. فكرة واحدة فحسب بدأت تراودني في السادسة، ولم تترك رأسي بعد ذلك، وهي أن أكـون كاتبـاً. فأنـا رئيس وزراء أديب، وعمر بن الخطاب أديب، ودجـال أديب، وقديس أديب، وقـائد يضـع الخطط الحـربية أثنـاء النهار، ويكتب القصص والـروايات أثنـاء الليل. . .

«هَبْكُم قد ضللتم الطريق إلى واحـة بالصحـراء» ـ هكذا كـان أبي يردد أمامنا ـ «ثم صادفكم في الطريق عشرات من الأدلّاء كل يـدعي أن باستـطاعته إرشادكم إلى الواحـة. فأي المـرشدين تنتقـون وأنتم ترون بعضهـم يشيـر إلى اتجاه، والبعض الآخر يشير إلى الاتجاه المضاد؟ تختارون نيتشه أم تولستوي؟ توما الأكويني أم برتراند راسل؟ هيجيل أم شوبنهاور؟ هذه بالضبط هي المشكلة الأولى في القـراءة: انتقاء المـرشـد إلى الحيـاة الفضلى، والمجيب لكم عن أسئلة تشغل القلب والعقل. وكما أنكم لن تختاروا غيـر الدليـل الذي طـابت سمعتـه، وأرضى مطمـح الكثيرين قبلكم، كـذلك فـلا تقبلوا على القراءة إلا للعظماء حقاً، الجادين حقاً، الذين شغلوا أنفسهم بالإرشاد للإرشاد لا للتكسب أو طلبـاً للمجد. فـإن تساوى في السمعـة إثنان فكـرهما على طـرفي نقيض، فلا بأس في تجربة كل منهما فترة معينة، حتى يدلكم القلب أيهما أقـرب إلى نفوسكم. . .».

وكذا بتنا نحن ننظر إلى القراءة. فلم يحدث أن قرأت في صبـاي رواية من روايات الجيب وغيرها من القصص البوليسية التي كان يقبل عليها أقـراني من الصبيـة. وكان روايـات جرجي زيـدان ومحمود تيمـور ومسرحيـات توفيق الحكيم أخف قراءاتي طرا، سرعان ما انتقلت بعدها إلى كتب العقاد وهيكـل وطٰه حسين، فتراجم بلوتارك، فأعمال جوته وتشيخوف، فابن حزم والغزالي،

وابن تيمية في سن الخامسة عشرة، فنيتشه وأفلاطون في السادسة عشرة. ولا تزال في أيدينا أعداد من مجلة «الثقافة» التي سمح لنا والدي، صاحب امتيازها، بالكتابة فيها في صبانا، تحمل مقالاً لأخي جلال في مناقشة إثباتات ديكارت الأربعة لوجود الله، كتبه وهو في الخامسة عشرة، ونقداً بقلمي لفلسفة ويليام جيمس كتبته في السادسة عشرة، وتحليلاً لأخي حافظ لمؤلفات الفيلسوف الإسلامي الهندي عنايت خان كتبه وهو دون العشرين.

كنا أحياناً نجد صعوبة في إقناع والدي بحاجتنا إلى حلة أو حذاء جديد، صعوبةً تغضبنا منه. أما فيما يتعلق بالكتب، فالباب مفتوح على مصراعيه نشتري منها ما أحببنا. فهو يأذن لنا بأن نأخذ من مكتبة النهضة المصرية التي تتولى نشر مؤلفاته أي عدد من الكتب دون قيد، ثم تحاسبه المكتبة في آخر العام. وقد كنت أكثر أبنائه استغلالاً لهذه الرخصة. ولم يحدث أن اعترض أبي على إسرافي في هذا الإستغلال إلا مرة واحدة، حين قرأ في كشف الحساب السنوي اسم كتاب في تاريخ العالم من خمسة عشر مجلداً بلغ ثمنه أربعين جنيهاً!

* * *

وقد علمنا والدي ألا نسمح للآراء الشائعة للنقاد أو الناس بأن تحد من حريتنا في الحكم على ما نقرأ:

«لا تخشوا أن تخالفوا مفكراً في آرائه، أو أن تعبروا عن عدم رضائكم عن كتاب مشهور. فكما أن الفيلسوف الألماني شبنجلر يحذر الدول الغربية من التنازع فيما بينها حتى لا تفقد احترام شعوب مستعمراتها من الملونين فتسعى إلى المطالبة بالاستقلال، كذلك فإن اختلاف الفلاسفة والنقاد في أحكامهم يعطيكم الحرية الكاملة في أن يكون لكم رأيكم الخاص... لا تخشوا أن تحكموا على هيجيل بالادعاء والسفسطة والغموض، ولا تدعوا شهرته تخيفكم، فكذا هو رأي شوبنهاور فيه. وتولستوي يرى أن شكسبير مؤلف

رديء، وأن نيتشه نصف مجنون. . . فمهما كونتم من رأي سيىء في أحد المفكرين، فستجدون له صدى في مفكر مشهور مثله. ويمرور الوقت، سيكون بوسعكم الاستغناء حتى عن هذا التعضيد، والوقوف ولو ضد الناس أجمعين. وهذه هي ميزة القراءة الكثيرة، فهي تزيد من حريتكم في إطلاق الأحكام».

وهو نفسه يتبع هذه القاعدة إلى منتهاها: لا يخجل من التعبير عن كراهيته للموسيقى الغربية بأسرها، خفيفها وجادها، وتفضيله الاستماع إلى أغنية أسمهان «ليت للبراق عيناً» على الاستماع إلى سيمفونية لبرامز. أذكر أنه فرغ يوماً من قراءة عدد من التمثيليات الإغريقية التي ترجمها طه حسين إلى العربية، فما أغلق الكتاب حتى شرع يخبط كفاً بكف يعجب لأمر ذلك الإجلال والتقديس اللذين يكنهما الناس، أو يتظاهرون بأنهم يكنونهما، لكتاب المسرح الإغريق. . لم يجد في كل تلك الصفحات الكثيرة سطراً واحداً أعجبه، أو حكمة طرب لها. فقام من فوره يتصل بالدكتور طه تليفونياً، يسأله أن يشرح له في صبر وإخلاص ما يمكن أن يعجب القارىء في الأدب التمثيلي اليوناني.

وربما كان من أهم ما سمعته من والدي بصدد القراءة، ملاحظته التالية:

«لن يكون بوسع أمرىء أن يغوص في أعماق إنسان آخر ويفهمه، حتى يحبه كل الحب، وحتى يتلاشى لديه التمييز بين نقائصه وفضائله، ويغرم بمجموع صفاته. كذلك فيما يتصل بالقراءة. فهي لا تكاد تكون مجدية إلا إن أحببت كاتباً حباً تضيع معه التفرقة بين الضعيف من أدبه والقوي، حباً يضيء لك الغامض ويكمل الناقص. . . إن حبك القوي لزوجتك تعينك على فهم النساء كلهن، ويكون أكثر قيمة من معرفتك السطحية لعشرات العشيقات. وكذا سيكون غرامك بأديب أو مفكر معين أعظم قيمة من اطلاعك السريع على أعمال مائة من المفكرين. وتأكد أن تحمسك الحقيقي الشديد لأحدهم يعني أنك قد وفقت إلى من سيمكنه مساعدتك مساعدة إيجابية على إنضاج شخصيتك، وتنمية مواهبك وقدراتك الخاصة».

ومع ذلك، فقد حدث أثناء زيارته للندن، حين اختير عضواً بمؤتمر المائدة المستديرة الخاص بمشكلة فلسطين عام ١٩٤٦، أن أرسلت إليه خطاباً أذكر له فيه أني قد بدأت في قراءة أوسكار وايلد، وأني شديد الإعجاب به. ولا أدري كيف وجد من الوقت ما سمح له بتحرير رده التالي الذي بدأه هكذا دون تمهيد أو تحية:

«في إحدى الوثائق التي عُثر عليها في مدينة كولونيا بألمانيا، والتي يرجع تاريخها إلى عام ١٤٩٩، بعد اكتشاف الطباعة: إن الله تعالى، بحكمته اللانهائية، قد مكن الإنسان من اكتشاف ذلك الفن المجيد، فن طباعة الكتب، الذي نستطيع بفضله أن ننتج نسخاً منها لا حصر لها، مما يهيىء الفرصة لكل فرد أن يقرأ بنفسه، أو أن يسمع غيره وهو يقرأ له، عن أفضل السبل لنجاة روحه.

«تلك هي النظرة السليمة الوحيدة إلى فن الأدب. فهل هي مما تجده عند صديقك وايلد؟

«هذا الوغد، كما أفضل أن أسميه، ما كان ينبغي أن يخدع صبياً ذكياً مثلك، لم يفقد حاسته الخلقية، ولم يصب ذوقه الفني ما أصاب ذوق الناس في زمننا هذا من انحراف.

«. . . أريد أولاً أن أنبهك إلى ضرورة أن نكوّن لأنفسنا أساساً نحكم على هديه على ما نطّلع عليه من فنون، حتى يكون بمقدورنا لفظ الزائف منها، فلا نسمح له بأن يشوّه عقولنا، ويؤثر في قدرتنا على الحكم الصائب. فإن سلّمت معي بأن مهمة الفنون، كما سبقت أن ذكرت لك، إن هي إلا توجيه حياتنا الروحية، وجب اعتقادك بضرورة اتخاذ موقف واعٍ إزاء ما قد يعرقل من هذا التوجيه. وحذار من التأثر بالنقاد في هذا الصدد، أو إتاحة الفرصة لهم أن يكيّفوا لك حكمك. فالحكم على الفن مسألة ضمير، ضمير كل شخص على حدة. وليس بوسع ناقد مهما كان شأنه، متى رأيت أن عملاً فنياً معيناً يعرقل

حياتي الروحية، أن يثبت لي العكس. وكثيراً ما تكون الحياة الروحية لدى النقاد من الموات، بحيث تجدهم قد فقدوا حاسة التمييز بين الخبيث والطيب، إن لم يكونوا قد اتخذوا موقفاً عدائياً من الفن الطيب الذي يظهر لا أخلاقية موقفهم من الحياة.

«سل نفسك عقب الفراغ من قراءة عمل أدبي عما إذا كنت قد صرت بفضل قراءتك إياه إنساناً أفضل، عما إذا كان عزمك قد قوي على أن تكون علاقتك بمن حولك أكثر إنسانية ونبلاً. فإن كان جوابك بالإيجاب، فإن الكتاب الذي قرأته هو عمل فني من الدرجة الأولى».

«ثم طبّق ذلك على أوسكار وايلد، إني واثق من أنك لم تخرج من قراءته أكثر طيبة ونبلاً، وأنك لم تنظر إلى من حولك بعدها نظرة أشدّ تفهماً وعطفاً وإنسانية. العكس تماماً هو الصحيح: وهو أنك صرت أكثر احتقاراً للناس، واستخفافاً بهم وبأمانيهم وبما يكدحون من أجله، وأشد انفصالاً عن مظاهر الحياة حولك».

«كان المفكرون والفنانون القدامى إن أرادوا أن يقولوا شيئاً قالوه، لا يمسكون بأقلامهم إلا إن كانوا يريدون أن يقولوا شيئاً، فإن أمسكوا بالقلم كتبوه. أمر بديهي؟ إنه ليس بديهياً عند صديقك وايلد، وعند الأكثرية من الكتاب المحدثين...».

لم أكن في أي وقت من الأوقات، حتى في سني طفولتي، قليل الثقة بالنفس، أو حتى معتدلها. وقليلون هم الذين يبرئونني من صفة الغرور.

وقد تآلفت العوامل منذ البداية على تقوية هذه الثقة وتدعيمها. ففي البيت، تفضيل والدي إيّاي، ومحاباته لي، واعتناؤه الخاص بي باعتباري خليفته في الأدب، وفي المدرسة، تفوّقي الدائم في الدروس، وكراهية التلاميذ لي، وحرص المدرسين على إرضائي من أجل والدي الذي كان قد وصل في ذلك الحين إلى منصب العمادة في كلية الآداب وعضوية المجمع اللغوي،

وأتت لـه كتبه عن فجـر الإسلام وضحـاه وظهره بنصيب ضخم من الإعجـاب والتقدير.

وقـد كانت السنـوات الثلاث التي قضيتهـا في روضة الأطفـال، والسنة الأولى من المـرحلة الابتدائيـة، أهم السنـوات في تكـوين شخصيتي وتكييف استعـداداتي. قد خلقت مني صبيـاً جم المطامـح، شديـد الإحساس بـذاته، لا يرهب الناس ولا يتوق إلى صحبتهم، ولا يرضى بغير مركز الزعـامة في أي أمر من الأمور، لهواً كان أم جدّاً. وإنه لمن النادر حقاً أن تعثر على صبي أشد غراماً بالسيطرة على من شاء الخضوع لها ومن لم يشأ، قليل الاحتفال بمشاعر الآخرين؛ قليل الحرص على إرضائهم.

لم أكن بأية حال من الأحوال أذكى تلاميذ الفصل، بل ولا أحد أذكيائه. ولو كنت ذكياً لما نلت درجات الامتياز في جميع المواد، من اللغات والتاريخ إلى الجبر والطبيعة، ووكإنما هي عندي سواء. صحيح أنني كنت أفضّل اللغات ومجموعة المواد الأدبية والنظرية، واستثقل الحساب والكيميـاء وعلم الأحياء. غير أن إجادتي للمجمـوعة الثـانية كـانت كإجـادتي للأولى، وكنت أبـذل في مذاكرة ما استثقله أضعاف الجهد الذي أبذله في دراسة ما أحب، حتى أتفوّق في كل شيء. كان هناك بالفصل من يفضُلني في الحساب، ومن يفضُلني في الإنشـاء أو الكيمياء، غيـر أنه لم يكن لـزميل طـوال سني الدراسـة الابتدائيـة والثانوية مالي من روح عدوانية، ومن هـو من الطمـوح، أو من الغباء، بحيث يقبل على مذاكرة ما لا يحب أكثر من إقباله على مذاكـرة ما يحب. لهـذا كان ترتيبي دائماً، باستثناء مرتين أو ثلاث، الأول في الفصل.

أذكر المرة الأولى التي كان ترتيبي فيها الثاني لا الأول. كنت حينئذٍ في التاسعة من عمري، في السنة الثـانية الابتـدائية. وكنـا نجلس في الفصل في انتظار مدرس الحساب، نجاتي أفندي، كي يتلو علينا نتيجة الفترة الثانية. وكان التلاميذ فيما بينهم يتنبأون بمن عساه يكون الثاني والثالث والرابع، تاركين لي

مكان الأولوية كأمر مسلم به. وإذ دخل نجاتي حاملاً النتيجة - خيّل إليّ أنه صوّب نحوي نظرة فيها شماتة وتشفّ انخلع لها قلبي. فقد كان هذا المدرس بالذات يدرك ما بي من غرور. وهو يدرك خطورته، ويدرك ضرورة اقتلاعه أو التخفيف من حدّته على الأقل. وكثيراً ما كان يتقدم إلى زوج أختي، وهو زميل له، يجأر بالشكوى من تصرفاتي ويقترح عليه الحلول. فما أن فتح الكشف يتلو النتيجة منه، وما أن وقع على سمعي أنني ثاني الفصل لا أوله، حتى اسودّت الدنيا في عيني، ومالت بي الأرض والجدران من حولي... هُيّىء إليّ حينذاك أن أعين التلاميذ قد اتجهت كلها صوبي تعبر عن فرح لا يعبأون بكبته... وخيل إليّ أنهم قد اكتفوا من النتيجة بهذا القدر، فلم يعطوا بقيتها اهتماماً ولم يعبأوا بما قد يكون عليه ترتيبهم هم! غير أني جززت على أسناني حتى لا أبكي أمامهم وأظهر تأثري. فما وصلت إلى البيت حتى ألقيت بكراساتي وكتبي على الأرض، ورميت بنفسي بين ذراعي والدي أجهش ببكاء لم أجهش بمثله بعدها قط، مما ذُعر له الجميع. فلما علموا السبب تنفّسوا الصعداء وضحكوا، مما زادني بكاءً وعويلاً. فأما والدي فقد ظل يربّت على رأسي مهدئاً حتى هدأت، وحتى انتهى نحيبي من عويل صاخب، إلى بكاء خافت، إلى شهقات متقطعة. ثم دعاني إلى أن أمسح دموعي وأغير ثيابي، واصطحبني إلى دار الإذاعة حيث كان مدعواً لإلقاء حديث فيها، فاستأذن المذيع أن أجلس معهما في الأستوديو أثناء الإذاعة. وقد أذن المذيع على ألا تصدر مني حركة أو صوت. وجلست مبهوراً أرقب المصباح الأخضر فالأصفر فالأحمر يضيىء على التوالي، وأتحسس بأصابعي جدار الغرفة الفلّيني، وتخامرني فكرة الصياح فجأة حتى يسمعني إخوتي في البيت فيقولون: «هذا حسين!»، فأضحك في نفسي ضحكاً مكظوماً لهذه الفكرة. فما انتهى الحديث حتى كان الألم قد ولّى، وما انتهت الفترة الثالثة حتى كنت قد عدت إلى الأولوية من جديد.

* * *

وقد كان خليقاً بي، وقد أثبتّ تفوقي في الدروس، وأرضيت غريزة السيطرة في ميدانها، أن أترك لغيري من الصبية فرصة أن يبرزوا في غيرها من الميادين، فيكون ثمة توازن يخفف من حنقهم عليّ. ولكن عبثاً! ففي قاعة الموسيقى أنا المغنّي وهم بعدي يردّدون. وفي جماعة التمثيل الممثل الأول وهم التالون. وأنا في الملعب قائد أحد الجيشين وفرعون الذي به يأتمرون. كل هذا دون أن تكون لديّ موهبة خاصة لا في الغناء ولا في التمثيل ولا في الحرب والضرب، مما يجعلني أعجب أشدّ العجب كيف سمح التلاميذ لي، وأنا الذي لا سلطان لي عليهم في فناء اللعب، بأن أكون قائدهم، بل أن يشركوني في لهوهم على الإطلاق، وكيف رضيت ضمائر المدرسين أن يسندوا إليّ الأدوار الرئيسية في التمثيل، ويكلّفوني بالغناء.

وإني لأذكر والخجل يملأني يوماً جلس إلينا فيه المدرس المشرف على جماعة التمثيل، يمازح أحد التلاميذ البارعين في التمثيل كل البراعة، الخائبين في الدروس أثقل الخيبة، قائلاً له إنه لا يفلح في التمثيل إلا الخائب البليد. فما ظنك إذ تراني أقوم هاتفاً بالمدرس:

ــ فماذا عني، وأنا المجيد للتمثيل والدرس جميعاً!

فإذا المدرس يحدجني طويلاً بنظرة يمكن تخمين طبيعتها، ثم إذا هو بعد هذه النظرة وهذا الصمت يشيح بوجهه عني ليواصل ما كان فيه من حديث.

ثم أذكر وأنا في خجل أشدّ أن مدرس العربية، ويدعى يوسف المحجوب، كان قد اتفق مع الإذاعة على أن يقوم تلاميذ فصله بتمثيل مسرحية شعرية من تأليفه في برنامج «ركن الأطفال». وكانت المسرحية عن بلال مؤذن الرسول، بلال بطلها، وهو يغني فيها عدة أغنيات من بينها أغنية رائعة اللحن، مطلعها:

أحد! أحد! رب أحدْ

ولا ولدْ	لا والد
كفو أحدْ	ومالهُ

وحدث أن اكتشف المدرس الشاعر موهبة حقيقية في الغناء لدى تلميذ هادىء وسيم ضئيل الجسم. ما أن اكتشفه حتى نحاني. عن دور بلال مسنداً إليّ دور رأس الكفر أمية بن خلف! فما ظنك إذ تراني أقبل الدور دون اعتراض، وأستعد معهم إذ يستعدون، متظاهراً بالرضا وعدم المبالاة، حتى إذا جاء يوم التمثيل، وتفقد المحجوب ممثليه كي يصطحبهم إلى دار الإذاعة، بحث عني فلم يجدني، وسأل فأخبروه أني معتذر لمرضي، وما كان بي يومها مرض، أو كان بي مرض ولكنه غير المرض الذي اعتذرت به.

* * *

فإن سألني سائل أن أقرن صباي بحادث معين يميّزه ويشير إليه، ويلخّص في بضع فقرات قصار الصبي الذي كنته، لَطَغَا إلى ذهني على الفور الحادث التالي:

كنت وقتها في الثامنة من العمر في السنة الأولى من المرحلة الابتدائية: طفلاً ليس بالوسيم، طويل الوجه، غليظ الأنف، كثّ الحاجبين. فإن حكمتُ من الصور الشمسية لي المنتمية إلى ذلك العهد، قلت إنني كنت دائماً مقطب الحاجبين في عظمة، يشعّ من عينيّ الواسعتين بريق طالما كان مثار التعليق والتندّر. فكثيراً ما أهاب بي والدي ألا أقطّب، وألا أبرق عيناي. فإن أجبته بأن هذا مما لا إرادة لي فيه، ردّ ضاحكاً:

ـ بل تتكلّفه لعلمك أنه من مظاهر العظمة.

وأحتج عليه معترضاً في إخلاص، فيقاطعني مهدئاً:

ـ حسناً، فلتحاول إذن أن تغصب نفسك على ألا تقطب أو تبرق، فهما يضرّان بالنظر.

اختارتني إدارة المدرسة كي أكون عرّيف الفصل، أحل محل المدرسين في فترة الدقائق العشر التي تفصل بين حصة وأخرى، فأحافظ قدر الإمكان على النظام بين التلاميذ، أسمح لهم بالحديث دون صياح، وبالتنقل الهادىء بين المقاعد دون الجلبة والضوضاء. فإن خرج أحدهم عن هذه الحدود المقررة، أبلغت اسمه مدرس الحصة التالية فيعاقبه أو يعفو عنه. . كان هذا هو كل المطلوب من العريف. غير أني، لسبب ما، تجاوزت حدود سلطاتي تجاوزاً غريباً لا أدري كيف صبر التلاميذ عليه، في حين كان من الممكن لأيّ عصيان أو تمرد على منهجي أن يجلب عليّ تقريع الإدارة. ذلك أنني لم أكتف بأن أحرّم عليهم الكلام الهادىء فيما بينهم، والتنقل بين المقاعد خلال دقائق الراحة تلك، بل اغتصبت لنفسي حقوق المدرس، فأصبحت أطلب من هذا التلميذ أو ذاك أن يقف ويقرأ جهراً في كتاب المطالعة، مستوقفاً إياه بين الحين والحين لأسأله أو أسأل جاره عن معنى هذه الكلمة أو تلك! صحيح أنني لم أجرؤ في بادىء الأمر على الضرب بالمسطرة إن بدر من أحدهم ما يغضب، غير أني كنت آمر المشاغبين منهم أن يتركوا مقاعدهم إلى أركان الفصل، فيديرون وجوههم إلى الحائط ريثما يأتي المدرس. فكان المدرس إذا وصل يعجب أشد العجب لهذا العريف وسلطانه، ولإطاعة التلاميذ إياه أكثر من إطاعتهم بعض المدرسين.

ثم حدث في يوم من الأيام أن تأخر مدرس الحصة عن الحضور مدة تزيد على ربع ساعة. فظللت واقفاً عند السبورة، وفي يدي المؤشر، أستمع إلى مطالعة تلميذ. وفي هذه الأثناء كان ناظر المدرسة يمرّ بالردهات لتفقّد النظام، فسمع ضجيجاً وضحكاً صادرين من الفصل المقابل لفصلنا عبر الردهة. وإذ فتح الباب فجأة دون طرق، رأى مدرساً مسكيناً يحاول عبثاً ضبط النظام، بينما وقف بعض تلاميذه عند النافذة غير عابئين به، وجلس بقيتهم يتحادثون ويتضاحكون. فما رأوا الناظر أمامهم حتى خيّم عليهم جميعاً سكون الموت. وتقهقر الوقوف منهم إلى مقاعدهم، بينما بدأ العرق يتصبب من جبين المدرس

الذي أشار إليه الناظر أن يتبعه إلى الردهة. وهناك أنبه الناظر أعنف تأنيب، وسأله إن كان غير قادر على أن يحفظ كرامته ووقاره أن يترك مهنة التدريس لغيره.

ثم تركه الناظر إلى فصلنا الذي تناهى إليه منه عبر الباب صوت هادىء يطالع. وإذ فتح الباب، وقف نصف دقيقة مشدوهاً يرقب هذا التلميذ الصغير في الثامنة، وفي يده المؤشر، يصغي مقطّباً إلى زميل له واقف عند درجه يقرأ، وبقية التلاميذ جلوس ينظرون في كتبهم.

صحت بالتلاميذ:

ــ وقوف!

فهبّوا واقفين تحية للناظر الذي أومأ إليهم برأسه أن يجلسوا. ثم تقدم مني وما زالت في عينه دهشة:

ــ أين المدرس؟
ــ لم يأت بعد.
ــ أنت عريف الفصل؟
ــ نعم.
ــ ما اسمك؟
ــ حسين أحمد أمين.
ــ ابن عميد كلية الآداب؟
ــ نعم.
ــ برافو يا حسين. إستمر.

ثم خرج. واستأنف التلميذ المطالعة. فما مضت دقيقة حتى عاد الناظر وقدأحضرَ معه المدرس المسكين من الفصل المواجه.

ــ وقوف! (هكذا صحت).

غير أن الناظر أشار إليهم بسرعة ألا يقفوا، وطلب مني أن نمضي فيما كنا فيه. وظل الإثنان يرقباننا مدة، والناظر يحدج المدرس بين الحين والحين بنظرة ذات مغزى. ثم أخذه وانصرف.

وصلت تفاصيل هذا الحادث إلى أبي من مصدرين: من زوج أختي الذي كان يدرس اللغة العربية لفصلنا ذلك العام، ثم من الناظر نفسه بعد يومين. وقد كان سرور أبي وقتها عظيماً. وسرعان ما شاعت القصة بين أفراد العائلة الذين اشتهرت بينهم منذ ذلك الحين بأني «صبي ذو شخصية». أما في المدرسة، فقد سارع تلاميذ الفصل المواجه إلى مقارنة قصتهم بقصة تلاميذ فصلنا، مؤلفين من القصتين قصة واحدة سرت أنباؤها إلى سائر الفصول. وظللت مدة أسبوع لا أنزل إلى فناء المدرسة في فترات الفسح إلا وأشارت الوجوه والأصابع إليّ. ثم جرّبت بعدها أن أوسّع حدود سلطاتي خلال الدقائق العشر، فإذا التلاميذ لا يقاومون ولا يشكون.

* * *

لم يكن من المتوقع إذن أن تجلب لي شخصيتي هذه حب التلاميذ، وإن كسبتْ احترامهم. وما زلت أذكر عدداً منهم كانوا على استعداد لافتراسي افتراساً لو أن الفرصة فقط حانت. غير أن أمراً معيناً كان يحول بينهم وبين تنفيذ هذا القصد.

ذلك أنه كان لي طوال سنوات الدراسة الابتدائية ما يمكن تشبيهه بالحرس الخاص:

كان بفصلنا في السنة الأولى تلميذ مسكين، زريّ الهيئة، رث الثياب، بالغ القذارة. كنا كثيراً ما نرى القمل يزحف جهاراً من تحت ياقة قميصه المهلهلة، أو يسقط من شعره الطويل المرسل على الدرج. وقد بلغت به القذارة وقوة الرائحة مبلغاً جعل التلاميذ يرفضون بإصرار مشاركته في المقاعد

المزدوجة بالفصل، ذاكرين السبب للمدرسين في صراحة، وفي حضرته. فكان يخصص له مقعد وحده في آخر الفصل، سرعان ما كان يلوثه بالحبر والطباشير ودهن الطعام الذي يحمله. وقد انتقلت عدوى احتقاره من التلاميذ إلى المدرسين الذين كانوا كثيراً ما يجدون في كراساته بقعاً زيتية كبيرة، فيرفضون تصحيحها، ويقذفون بها في وجهه. فكان يتلقى إهانات الجميع له في استسلام ذليل، وكإنما لم يكن من الممكن له أن يتوقع غير ذلك.

كان التلاميذ إذا لاحظوا في مؤخرة سرواله أو ظهر كمه مزْقاً، فاجأوه من الخلف فزادوا المزق اتساعاً حتى تظهر منه ملابسه الداخلية ظهوراً شائناً. . فأما حذاؤه فكان يغطي خدوشه بالحبر الأسود محاولاً إخفاءها. وكان الحصى كثيراً ما يتسرب من خروق نعله فيؤذي قدميه. فإن خلع حذاءه في الفصل لنفض الحصى منه، انبعثت من جوربه وقدمه رائحة فظيعة تملأ الصفوف الخلفية من الفصل، فيسدّ التلاميذ أنوفهم بحركات مبالغ فيها. وكان المدرسون إذا طلبوا منا إحضار كراسات جديدة في اليوم التالي، ظل الصبي أسبوعاً أو أسبوعين عاجزاً عن شراء الكراسة، معرضاً نفسه لتأنيب المدرسين وسخرية التلاميذ، حتى يدسّ في يده مدرس طيب ثمن الكراسة، فيقبله دون تردد، بل ودون شكر.

كان اسمه عطية. غير أني في يوم ما لاحظت أن التلاميذ قد بدأوا فجأة ينادونه بأبي ظريفة، وهم يقهقهون قهقهات عالية طويلة، يمتقع لها وجه الصبي امتقاعاً أليماً. وكان يصحب هذا النداء في العادة تلميحات وإشارات غامضة إلى الفول والطعمية، والسلطة والزيت، وتعريض فاحش بأبيه. ثم تناهى إليّ سرّ ذلك. فقد حدث أن اكتشف أحد التلاميذ أن لوالد عطية هذا محلاً صغيراً في سوق الخضار بمصر الجديدة سمّاه محل «أبو ظريفة» يقف فيه الوالد لبيع السندوتشات، ويعاونه الصبي مساءً بتقديم أطباق الفول والطعمية إلى الجالسين: وقد شاهد هذا التلميذ عطية نفسه في جلباب أبيض يقوم بالخدمة

في المحل. فأسرع في اليوم التالي يطلع زملاءه على الأمر، وعلى موقع المحل واسمه. فأثار فيهم الخبر سروراً ومرحاً لا يعرفان حداً. ومن يومها بدأوا ينادونه بأبي ظريفة، ويصيحون به أن «الشكك ممنوع، والزعل مرفوع، والأجر على الله» ويسألونه متغامزين عن مصدر بقع الزيت في كراساته. ثم تآمر عدد منهم على الذهاب إلى المحل في المساء لتناول وجبة هناك. فكانوا يجلسون إلى إحدى المناضد، وينادون عطية كي يحضر لهم السندوتشات. فكان المسكين يلبّي طلباتهم وهو يرتعد بؤساً. وأحياناً يصيحون به أو بوالده أن الطعمية باردة، أو أن الفول به ذبابة، ويشتمونه أو يشتمون أباه.

وأحياناً أخرى يتركون لزميلهم بقشيشاً عبارة عن مليمين أو ثلاثة، إمعاناً في إذلاله والسخرية به.

لم أتخذ في بداية الأمر موقفاً. حتى جاء يوم وجدتهم فيه قد التفوا حوله في الفناء، وأثقلوا عليه إثقالاً لم يتمالك هذا الصبي له، وهو الذي اعتاد التظاهر باللامبالاة، واعتاد التلاميذ أن ينسبوا إليه تبلّد الإحساس، فانفجر بالبكاء والعويل والصراخ والشتائم وهو يضرب الأرض بقدميه. هنا تقدمت في غضب فصرفت التلاميذ عنه، وصحبت الصبي إلى مقعد بالفناء أهدئه. فبدأ الغلام يشرح لي، وهو يشهق بالبكاء، كل ما يعانيه منهم، ويخبرني بأمر الصبية الذين يترددون على محل أبيه، والإهانات التي يكيلونها له. فوعدته بأن شيئاً من هذا لن يتكرر بعد ذلك اليوم.

وصعدنا إلى الفصل. فما جاءت فترة الدقائق العشر حتى أخذت مكاني عند مقعد المدرس:

ـ هذا إنذار مني إليكم. هو الأول والأخير. من أطاعه فهو خير له، وسيرى من لا يطيعه عاقبة عصيانه. قد أَجَرْتُ عطية منذ اليوم فهو في حمايتي. فالويل الويل لمن يتعرض له. والويل الويل لمن تخطّى عتبة محل أبيه أو سمّاه أبا ظريفة.

صاح أحدهم:

ــ فإلى من نتوجه إذا رغبنا في طبق من الفول؟

قلت للصائح في هدوء:

ــ تعال هنا.

قال لا:

ــ لا؟

ــ لا ثم لا.

قلت وقد غلى الدم في وجهي:

ــ وحياة أبي وأمي، وشرف النبي، لن أدخل هذه المدرسة قط يا أسامة إن لم تجد نفسك مفصولاً منها في بحر يومين على الأكثر.

ثم تركت الفصل مسرعاً إلى زوج أختي في حجرة المدرسين، فأخبرته باكياً بالموضوع كله، مكرراً قسمي ألّا أعود إلى المدرسة إن لم يُفصل أسامة، وهو الذي صوّرته على أنه المسؤول عن كل ما لحق عطية من إهانات. فتركني زوج أختي إلى الناظر بعد أن طلب مني مقطباً، وفي حدّة، أن أعود إلى الفصل. فما مضى ربع ساعة حتى جاء إلى الفصل، فاستأذن من مدرس التاريخ أن يعلن أمراً إلى أحد التلاميذ:

ــ أسامة الشاذلي!

فوقف التلميذ، بينما كان قلبي يخفق بشدة من الفرح.

ــ أسامة الشاذلي. لا تأت من الغد إلى المدرسة. فقد أمر الناظر بفصلك أسبوعاً. وسيعُلن أبوك بالسبب. فإن تكرر منك ما حذّرك حسين منه، فسيكون فصلك نهائياً.

لن أحاول أن أصف وقع هذا الإعلان على التلاميذ، أو أثره في تعضيد

مركزي. غير أني ذاكر أنني كوّنت بعد ذلك اليوم عادةً جديدةً، هي بسط حمايتي على التلاميذ الفقراء والمضطهدين. كان يكفي أن يشكو التلميذ إليّ سوء معاملة زملائه له، حتى أعلن أنه قد بات في جواري. أو أن يشكو تلميذ من أن اثنين من التلاميذ؟ «الأقوياء» قد احتكرا منضدة تنس الطاولة، لا يسمحان لغيرهما باللعب، حتى أتوجه إليهما طالباً منهما التنحي عن المنضدة. قد يكون الدافع إلى ذلك شعوري بالحاجة إلى جماعة تحميني، أو ربما شعوري بالحاجة إلى حبّ البعض يعزّيني عن كراهية الغالبية، أو ربما هو مجرد الرغبة في التحدي والسيطرة. على أني لم أحاول قط أن أستغل رابطة الولاء القوي التي أصبحت تربط هذه الجماعة بي، والصحيح أن أفرادهاهم الذين كانوا يفرضون خدماتهم عليّ. فكانوا يجنّبونني مشقة التوجه إلى المقصف لشراء مشروب أو حلوى، بأن يعدو أحدهم لإحضار مطلبي. وقد حدث في أحد الأيام أن علمت أن ثلاثة من التلاميذ الكبار عقدوا النية على انتظاري خارج المدرسة بعد انتهاء الدروس، كي يكيلوا لي ضرباً مبرحاً لسبب من الأسباب. فأوعزت إلى «الجماعة» أن يعدّوا للأمر عُدّته، وأن يتبعوني عن بعد. فما أن خرجت من الباب، ورأيت الثلاثة يقتربون مني في خطوات سريعة وفي أعينهم الشر، حتى أعطيت الجماعة إشارة البدء. فانهال على الثلاثة سيل منهمر من الطوب والحجارة الضخمة شجّ جبين أحدهم، ففرّ وهو يولول من الألم والدم يملأ وجهه ووراءه زميلاه يعدوان. ثم أعطيت الجماعة الإشارة بالكفّ، فكفّوا.

كانت أول نظرية، أو فكرة مجردة، تخامر ذهني نظرية جدّ غريبة:

كلفنا مدرس العربية بكتابة موضوع إنشاء عنوانه: «الشخصية التي أودّ أن أكون مثلها حين أكبر». فجلس كل منا يفكر دقيقتين أو ثلاثاً في الشخصية التي تستهويه، أو مثله الأعلى، ثم شرع يكتب. وكان أن اخترت شخصية محمد فريد، وحشدت للموضوع أغبى التعابير وأكثرها ابتذالاً: «محمد فريد. . . رمز

الإخلاص والتضحية... محمد فريد... روح الوطنية الصادقة وقلب الثورة النابضة»، أو شيئاً من هذا القبيل. ثم سلّمنا الكراسات. فلما عاد المدرس بها بعد تصحيحها، تبين أن الحاصل على أعلى الدرجات شخص غيري يدعى طارق، أغرقه المدرس بالثناء عليه، ثم طلب منه أن يقرأ على التلاميذ موضوعه جهراً.

استمعت إليه وهو يقرأ فامتقع وجهي من الحسد. فموضوعه ممتاز حقاً، (اعترفت لنفسي بذلك بعد الفقرة الأولى)، لقد اختار له شخصية محمد النبي، وبدأه بالعبارة التالية:

«أمثلك أكون؟ هيهات هيهات وأنت ما أنت! أفغيرك إذن أحتذي؟ هيهات هيهات وأنت ما أنت! فأنت غايتي عالماً أنني غير بالغها، وأنت مناري مدركاً أنني لست مدركه. فحسبي فخراً أنك غايتي، وكفاني زهواً أنني اخترتك لنفسي مناراً، يا منار الصفوة والمبصرين...»!

وبالرغم من أني حصلت على الدرجة التالية مباشرةً لدرجة طارق، فقد رأيت نفسي أتوجه إلى حجرة المدرس بعد الحصة، أستوضح منه السبب في أنه لم يعطني الدرجة الأولى كالعادة!

قال لي:

ــ سأترك لك الحكم وَلْتَكُ عادلاً. فقد استمعت بنفسك إلى ما كتبه طارق. فأي الموضوعين بالله عليك أفضل.

قلت: مقطباً:

ــ موضوع طارق.

صاح في دهشة:

ــ فما بالك إذن تطالب بالدرجة الأولى؟

هنا تكونت في ذهني إجابة عجيبة، أو قل، نظرية عجيبة، لم أنطق بها لإدراكي غرابتها، ثم لأنها وقتها لم تكن واضحة كل الوضوح عندي.

فكّرت:

صحيح أن طارقاً قد كتب موضوعاً يفضُلُ موضوعي بمراحل. وصحيح أن موضوعي سخيف مملّ غير أهل إلا للسخرية والازدراء. ولكن!... ولكن ماذا؟ ولكني كنت قد بدأت أعتقد أنه لا ينبغي للمدرسين من الآن فصاعداً أن يقدروا الدرجات لي على ضوء إجادتي لما أكتب، أو صحة حلّي للمسائل وإجابتي على الأسئلة... فعلى أي أساس إذن تريدهم أن يقدّروا درجاتك؟... على لا أساس.. يكفي أن يعطوني أعلى درجة على الدوام.. ولماذا؟ لأنك عريف الفصل؟.. لا، ليس هذا بالضبط.. وإنما لأني... حسناً، فلاقلها صراحة: لأني حسين! لأن شخصيتي هي ما هي. لأنهم في تقدير الدرجات ينبغي أن يأخذوا بعين الاعتبار طبيعة الشخصية التي يتعاملون معها فحسب، وأن يعطوا كل امرىءٍ الدرجة التي تناسبه وتليق به، ولأن شخصيتي أنا على الأقل قد باتت فوق أن تقدّر بالدرجات لما يصدر عنها!

أعاد المدرس سؤاله:

ـ لماذا تطلب الدرجة الأولى إذن وهذا اعترافك؟

فتأملته لحظة شارد الذهن. ثم هززت رأسي. ثم انصرفت.

* * *

لم تكن المسافة بين البيت والمدرسة بأبعد من أن أقطعها سيراً على قدميّ. فهي على مسيرة نحو ثلث ساعة. غير أن الشوارع التي كان عليّ أن أجتازها إليها كانت شوارع رئيسية عريضة، تخترقها قطارات المترو والسيارات العامة، لذلك رتّب والدي أن يوصلني السائق صباحاً بالسيارة، ثم يعود فينتظرني بها آخر النهار عند باب المدرسة.

كنت أبغض التوجه إلى المدرسة بالسيارة أشد البغض، أجلس منكمشاً إلى اليمين في المقعد الخلفي منها كالحيوان الأسير، وأنا أشد ما أكون خجلاً وبؤساً. لم يكن ثمة غيري من التلاميذ وابن وزير العدل الوفدي صبري أبو علم

من يحضر في سيارة. وأية سيارة! سيارة سوداء ضخمة من طراز «كرايزلر» يقودها سائق أسود، مشرّط الوجنتين، حسن الهندام. وأجلس فيها أنا التلميذ الذي لا تكاد رأسه تظهر من النافذة، في بنطلون قصير، وعلى ركبتيّ كراستان وبضعة كتب، أمرّ في الشوارع التي تخترقها بزملائي متوجهين إلى المدرسة سيراً وهم يضحكون ويجرون ويركلون بأقدامهم الزلط ويتسلقون أسوار الحدائق الخاصة لقطف زهور الياسمين أو ثمار المانجو والجوافة، يخرجون ألسنتهم لصاحب المنزل إن أطلّ من الشرفة يشتمهم. كنت أغبطهم حريتهم، وأشعر بقوة بأنه ليس من العدل ولا من الحكمة ولا من التناسب ولا من رفاهة الحس أن أتوجه للدراسة في مثل هذه العربة الفخمة وزملائي يمشون. أفأنا أقل قدرة منهم على عبور الطرق الرئيسية وقضبان المترو؟ فأي غرض إذن يخدمه توجهي بالسيارة، وهو الذي لا يفلح إلا في زيادة شعور العداء لدى التلاميذ نحوي؟

غير أن ثمة عاملاً أهم وأخطر: فقد تمكّنت حتى الآن من أن أثبت تفوقي على التلاميذ في الفصل وغيره بالوسائل المشروعة. وها أنا ذا أجدني أضطر رغم أنفي إلى إحراز تفوق آخر بغيض، هو تفوق المال. وهو تفوق في نظري غير مشروع، يذهب برونق المركز الذي كوّنته بقوة شخصيتي، بل وينال من هذه القوة ذاتها. فلم أكن لأطيق أن ينسب أحدهم سلطاني على التلاميذ إلى ثرائي. وكنت أنفر لذلك من كافة مظاهر التأنق في الملبس، أو الإسراف في الإنفاق. ولم يكن هناك ما يطربني قدر طربي إذ أتأمل صورة نابليون، في معطفه البالي وحوله الماريشالات في بزّاتهم الفخمة الموشّاة، وهو مع ذلك كالبدر بين النجوم، لا تلتفت الأنظار إلا إليه.

أردت أن أشرح لوالدي ما يعتمل في صدري، فلم يسعفني بيان. فكثيرة هي الأفكار والمشاعر التي كانت تراود ذهني وقلبي في ذلك الحين دون أن أملك القدرة على التعبير عنها. حتى وقع حادث كان أصدق إنباء من الكلام. ذلك أنه في يوم ما، إذ خرجت من المدرسة وركبت السيارة، وبدأت السيارة تتحرك، إذا

بحجر كبير يأتي مندفعاً من الخلف، فيرتطم بزجاج السيارة ويهشمه، فتتناثر قطعه الصغيرة الحادة حولي. وقد ذعر السائق أشد الذعر، فلما اطمأن إلى أني لم أُصب بسوء، قفز من السيارة غاضباً هائجاً، وقصد التلاميذ الواقفين عند باب المدرسة. يحاول أن يعرف أيهم فعل هذا. غير أن عددهم كان كبيراً، ولم يشأ أحد منهم أن يفصح عن اسم قاذف الحجر، بينما وقف معظمهم يبتسمون في تحدّ وسرور. ولم يجد السائق في النهاية بدا من العودة إلى مقعده بعد أن سبّهم سباً غليظاً. وإذ حانت منه التفاتة إليّ، رأى الدموع تنهمر من عيني مدراراً.

ــ معلهش يا حسين بك. واحمد الله على سلامتك. إنهم صبية من أولاد الجواري لا أصل لهم ولا عائلات. فماذا عساك تتوقع غير هذا ممن لا أصل له؟ صبية لم يروا في حياتهم سيارة إلا من الخارج. من لهم بأب كأبيك يحسن تربيتهم؟

وفي المساء دخلت على والدي حجرة المكتب فوجدته يكتب:

ــ أبي. لن أذهب إلى المدرسة بالسيارة بعد اليوم.

ــ ولم لا؟ (قالها مقطباً وقد ضايقته لهجتي).

ــ ألا ترى يا أبي أنهم يغيرون؟ أنهم قذفوا الحجر لحقدهم أن لدينا سيارة؟

ــ سأطلب من ناظر المدرسة التحقيق. وتأكد أن القصة لن تتكرر.

صحت في نفاد صبر:

ــ ولكنهم يكرهونني من أجل السيارة! أيسرّك أن يكرهني التلاميذ لهذا السبب؟

ــ فكيف تنوي الذهاب والمجيء إذن؟ أتحب أن يوصلك الخادم وينتظرك ساعة الانصراف؟

ــ لا.

ـ فإن تشترك في سيارة المدرسة؟

ـ أبي، إن لي قدمين كسائر التلاميذ، وجميعهم يذهب سيراً إلى المدرسة.

قلتها بلهجة عنيفة لم أجرؤ على استخدامها من قبل معه.

قال بحدة وهو يعود إلى النظر في أوراقه:

ـ ستذهب بالسيارة كما كنت تفعل.

ـ لا.

نحّى الورق جانباً وقد احمر وجهه احمراراً أرهبني، بينماكان قلبي ينبض بعنف.

ـ أتظن أنك ستمارس «قوة شخصيتك» تجاهي يا كلب؟

ـ أنا لست كلباً.

صاح بقوة:

ـ أغرب عن وجهي!

وبدرت منه حركة وكأنه يهمّ بضربي، فغادرت الغرفة في بطء.

وظل أياماً عديدة بعدها لا يوجّه إليّ كلمة، ألقي عليه تحية الصباح فلا يردّ. وقد غيّرت مكاني إلى مائدة الطعام، فبعد أن كنت أجلس إلى يساره، اخترت لنفسي مكاناً قصياً من المائدة. أما المدرسة فبتّ أقصدها سيراً وأعود منها سيراً بمفردي. غير أن خصامنا آلمني وأثار في نفسي اضطراباً عنيفاً. كنت أعلم جيداً أني لن أرضخ. ولكن، ما عساه يحدث لو أنه هو أيضاً كان عازماً على ألا يرضخ، وهو الذي لا يقل صلابة في الإرادة عني؟ ألا يعني هذا أنه لن يكلم أحدنا الآخر قط؟

وحلّ أثناء فترة الخصام موعد كان قد ضربه لاصطحابنا لشراء أحذية لنا. فلما جمع إخوتي استعداداً للذهاب، قال لأحدهم مقطباً:

ــ إذهب واسأل الولد (حسين) عما إذا كان يريد الحذاء أم لا يريد.

فرددت على اخي بأني لا أريده. فلم يكن أحب له أو لي أن يتم صلحنا من أجل الحذاء، ولو كان مجرد حجة لإنهاء الخصام.

وجاء الصلح بعد أسبوعين. كنا على مائدة الغداء. وإذ تناولت المغرفة أغرف لنفسي من وعاء الحساء، شعرت بعيني والدي تحدجاني طويلاً من تحت حاجبيه الكثّين. ثم قال بلهجة تعمّد أن يجعلها جافة:

ــ أيمكنك أن تخبرني بالضبط عن السبب في عزوفك عن استخدام السيارة؟

أجبت في أدب جم محاولاً إخفاء فرحي:

ــ التلاميذ يا أبي يكرهونني إذ أحضر وأنصرف في سيارة. أفكان يسرّك لو أن قطعة من الزجاج المكسور أصابت وجهي؟

ــ فأنت على ثقة إذن من استطاعتك قطع المسافة وحدك؟

ــ نعم.

ــ وتلزم الحذر عند عبورك الشارع الرئيسي؟

ــ نعم.

ــ لا تعبر قضبان المترو حتى يمر؟

ــ نعم.

ــ فعلى مسؤوليتك إذن؟

ــ نعم.

ــ فافعل.

في روضة الأطفال لم أكن أطيق الفتيات الصغيرات معنا. فهن في نظري

كـائنات ضعيفـات تافهـات الشأن، كثيـرات البكـاء إلى حـد يثيـر الاشمئـزاز والضيق، لا يحسنّ لعباً ولا عدواً ولا ضرباً، ولا حول لهن ولا قوة. فماذا نصنع بهنّ؟ وكانت بفصلنا طفلة تدعى نادية. (لا أدري كيف علق اسمها إلى اليـوم بذاكرتي) شديدة التعلق بي، إن جلست على مقعد جاءت تجلس إلى جواري، فـإن قمت قامت تقتفي خـطاي. وهي تعـرض عليّ دائمـاً كـل مـا يكـون في حوزتها، من حلوى أو طوابع بـريد أو ورق ملوّن أو خـرز أو بلى. فإن رفضت عرضها دمعت عيناها وشرعت في البكاء، فأضطر أن آخذ منها ما بيدها بسرعة، تفادياً لدموعها، ثم أتخلص منه فيما بعد، فما كان هناك ما هـو أثقل عليّ من إعجابها، أو ماهو أجلب لسخرية الصبية وضحكهم من ملاحقتها لي.

ثم يمضي الزمن، فإذا بي لا أجد صحبة الفتيـات الصغيرات سيئـة إلى هذا الحد! فإن شئت الحق، فلمرافقتهن سحر خاص ليس في مرافقـة الصبية الذكور. فهن إن تحسَّسْنَ العضلات في ذراعي صدرت عنهن صيحات إعجاب هي أحلى سمعـاً من الموسيقى العـذبة. وهن فـاتنات في ضعفهن وجهلهن، فاتنات في حاجتهن إلى حمايتك وشرحـك لما يغمض عليهن. إن قتلت لهن حشرة أفزعتهن، دهشن لجرأتك وشجاعتك، وإن تسلّقت شجرة لقطف ثمـرة لهن، أعجبن بخفّتك وسعة حيلتك، وإن أبعدت عنهن صبيـاً يضايقهن، فقـد تعطف عليك إحداهن بقبلة امتنان وشكر.

ثم تقل هذه العلاقة جمالاً بتقدم السن بهن وبك، ويدخلها عنصر بغيض غير واضح، تزيد قوته ووضوحه يوماً بعـد يوم، ويـزيد فسـاد العلاقـة بازديـاد إحساسك وإحساسهن به. فهن الآن أكثر تحفظاً في معاملتهن إياك، أقل إقبالاً على صحبتك وإبداء الإعجاب بك. فإذا العداء يعود من جديد. ولكنه عـداء مختلف في طبيعته. فأنت الآن سرّ بالنسبة لهن، وهن سر بالنسبة لك. وعداؤك لهن ليس راجعاً الآن إلى اشمئزاز من ضعف، أو احتقار لكثرة بكاء، أو سخرية لعدم إجادة الجري واللعب، وإنما هو راجع إلى اضـطراب لا تدري مصـدره

أو مبرّره يغشاك في حضرتهن، وعجب من تصرفات لهن تبدو متكلفة متصنّعة أو صعبة الفهم. فلماذا لا يتحسَّسْن الآن عضلاتك حتى لو طلبت إليهن أن يفعلن؟ ولماذا يسحبن أيديهن بسرعة إن تلامست الأيدي عرضاً؟ ثم ما هذا التكلف الآن في الملبس، وهذا الحرص الشديد في اللعب بحيث لا يصعدن شجرة أو ينقلبن على رؤوسهن؟ وما علّة هذا التهامس المستمر بينهن، وكثرة ضحكهن الغبي أثناء الهمس؟ وما هذه النظرات الحادة من أمهاتهن إن انحسر عن الرّكبة طرف ثوب؟

* * *

يروي بلزاك أن طفلاً وطفلة لأحد الملوك وقفا أمام لوحة زيتية للرسام تيسيان تصوّر آدم وحواء عاريين. سأل الطفل أخته:

ــ أيهما آدم وأيهما حواء؟

فأجابته الطفلة:

ــ أمَا إنك لغبيّ! ألا تراهما دون ثياب؟ كيف يمكننا إذن، أن نعلم أيهما المرأة وأيهما الرجل؟!

لم تكن فكرتي قبل العاشرة بأكثر وضوحاً. وإذ لم يكن أبي أو أمي يلفظ بكلمة لي عن العلاقات الجنسية قط، فقد كان عليّ أن ألتقط بنفسي المعلومات الخاصة بها، صحيحها وخاطئها، من هذا المصدر أو ذاك، أجمعها وأوفّق بينها، وأحاول أن أخرج بفكرة عامة عن طبيعتها. وإذ كنت دائماً شديد العزوف عن الاختلاط بالطلبة، عظيم النفور من رفع الكلفة مع الناس في الحديث، فقد ظللت أمداً طويلاً جاهلاً بأبسط المعارف الجنسية وأيسرها، مما هو معروف لدى كل طفل بالريف.

أذكر ظهر يوم شديد القيظ من أيام يونيو. كنت وقتها في العاشرة. قد آوى أفراد العائلة للنوم بعد الغداء، وبقيت وحدي في غرفتي أفرغ مكتبي من

كراسات العام الدراسي المنصرم. ثم شعرت بظمأ، فصعدت إلى السطح حيث غرف الخدم بنية أن أطلب من الخادمة (وهي فتاة قروية في الثالثة عشرة) إحضار مشروب مثلج لي من السوق. ناديت عليها فلم أسمع رداً. وإذ دفعت باب غرفتها، إذا بها راقدة على سريرها الخشبي تغطّ في النوم وقد تعرّت من ملابسها تماماً. ومكثت أرقبها مذهولاً بضع لحظات، وقد شعرت بقلبي يقفز ويضطرب في صدري وكإنما هو كرة من مطاط. ثم فررت أعدو لاهثاً إلى حجرتي:

«كيف؟ ما هذا؟ كيف؟ أهذا ممكن؟ أهذا معقول؟ أأنا في وعيي؟ أم أنها خدعة؟ أكان هذا هو الحال دائماً؟ أهو... أهو الحال معهن جميعاً؟ فلماذا أبقوه سراً طول هذا الوقت؟ أفي الأمر ما يحتاج إلى إخفاء؟ أهذا هو السبب إذن في أن أخواتي لا يستحممن معنا؟ وما الداعي إلى هذا؟ ومن عساني أسأله عنه؟ أتراهم يوبّخونني لو أني سألت؟ أهذا هو السبب في أن أبي وبّخ أخي حين شاهده يكلم ابنة الجيران؟ فما وجه الاستهجان في هذا؟......».

أثار هذا الحادث في نفسي اضطراباً شديداً وحيرة أشد. رأيت الخادمة بعده بساعة وقد استيقظت وارتدت ملابسها، فلم أستطع أن أرفع إليها عينيّ إلا خلسة:

«إنها تتصرف وكأن شيئاً لم يحدث! تتصرف تماماً كما كانت تفعل قبل نومها! كيف؟ أكانت هكذا طول الوقت؟».

ثم ما عدت أخرج إلى الشارع بعدها فأرى فتاة صغيرة أو كبيرة إلا تساءلت:

«أهي أيضاً كذلك؟ فلماذا تمشي في هدوء هكذا وكأن شيئاً لم يحدث؟».

وازدحمت في رأسي مئات الأسئلة تريد الجواب. غير أني أحسست لسبب ما بأن الأمر أدق من أن أسأل عنه.

ثم حدث بعد أيام أن نزلنا إلى الحديقة كعادتنا نلعب مع الخدم. وإذ وقفتْ عند شجرة وانحنيت عليها أجمع ما علق بجذعها من قطرات الصمغ، جاءت الخادمة المذكورة من خلفي ترقب ما أصنع، ووضعت ذراعها على كتفي. فإذا بي ألكمها في صدرها بقوة وقد احمر وجهي، ونحيت ذراعها عن كتفي في عنف.

كنت في ذلك الحين أكتب قصة. وقد ورد فيها أن راعي غنم (هو بطل قصتي) كان يعيش مع خطيبته الحبيبة في كوخ واحد: «تجدهما في المساء وقد جلسا عند باب الكوخ، يتناجيان كعصفورين، حتى إذا ما ثقلت جفونهما دخلاه، فناما على سريرهما متعانقين»! . . . وقرأت القصة على أبي عقب الفراغ منها. فلما وصلت إلى هذه الجملة لمحته يبتسم. ثم قال:

ـ حسبتك قلت إنها خطيبته.

ـ هي كذلك.

ـ فاشطب إذن هذه الجملة الأخيرة.

ـ ولم؟

ـ ليس لها في الواقع داع.

اللعنة عليهم جميعاً! ما كل هذا الغموض؟

* * *

غير أن الوقت يمضي فيعود ميلي إليهن من جديد. وهو ميل فيه مع ذلك شيء من غرابة، وشيء من ألم، وشيء من عداء. أصبحت أقع في حب كل فتاة أراها. أتوجه إلى السوق فأسمع فتاة تقول لبائعة: «شكراً يا خالة»، فأعود إلى البيت مضطرباً أحتضن وسادتي وأقبلها متمتماً: «إنها ملاك طاهر. إنها ملاك!» ثم أخرج فتسألني فتاة عن الطريق، أو عن الوقت، فأقع في غرامها وأتمتم: «إنها ملاك!». وتجلس فتاة إلى جواري في الترام فيلامس كتفها كتفي: «إنها ملاك!». وتناديني ابنة الجيران باسمي، فلا أرى له وقعاً أجمل وأعذب من وقعه إذ تنطق به.

وأتوجه يوماً إلى السينما لمشاهـدة فيلم «المأخـوذ» الأمريكي. فـإذا بي أخـرج من الدار وقـد وقعت على حبي العظيم وغـرامي الأبـدي.. إنجـريـد برجمان، إلٰهة الجمال وربة الطهر. وأصبحت من يومها حريصاً على مشاهـدة كافة أفـلامها، أجمـع صورهـا من الصحف والمجلات، وأبتـاع من مصروفي مجلة «الشاشة الفضية» لمتابعة أخبارها، وأحاول رسم صورة زيتية لها. وبدأت من يومها عادة كتابة اليوميات، أبثّ صفحاتها غرامي وشوقي وقصائـدي فيها، فبقيت هذه العادة معي إلى اليوم، وقد تضخمت اليوميات بمرور السنين حتى بلغت عشرين مجلداً.

حدث مرة أن نسيت درج مكتبي مفتـوحاً وخـرجت. فما كـان من أخي حافظ إلا أن فتحه وفتّش فيه حتى عثر على يومياتي فقرأها. وأعود من الخارج فلا أقابـل أخاً من اخوتي . أو أختاً إلا ضحـك أو ضحكتْ في وجهي ضحكاً مكظوماً. ثم بدأ كل منهم يبث كلامه التلميحات ويقهقه، حتى أنشـد أحدهم في لهجة تمثيلية:

«فينوس ويحك! قد خجلت أمامها...».

وهو شطر بيت من قصيدة نظمتها فيها. وأدركت لحـظتها أنهم قـد قرأوا اليوميات. وهرعت إلى الدرج. فلما وجدته مفتوحـاً شرعتُ في بكـاء وعويـل وتـوجيـه سيـل من الشتـائم إليهم جميعـاً، حتى سمعني أبي فجـاء يسـألني ما الخطب. وإذ أخبرته بالأمر، قطب جبينه في غضب حقيقي، ووبّـخ حافـظاً وعنّفه، وسمعنا منه يومها لأول مرة شيئاً عن حُرمة اليوميات والرسائل والأسرار الخاصة.

وغرقت في بحر من أحلام اليقظة: فهـا هي إنجريـد برجمـان تفكر في القيام برحلة سياحية إلى مصر، أرض الفراعنة، فتأتي إلى القاهرة ومعها حبيبها جريجوري بيك (بطل فيلم «المأخوذ»). غير أنها ما تصل حتى تصاب بمرض خـطير يُخشى منـه على حياتهـا. وأقرأ في الجـرائد نبأ مرضهـا، فأمـرّ يوميـاً

بالمستشفى الذي ترقد فيه أستفسر من الممرضات والأطباء عن حالهـا، تاركـاً باقة من الزهر، (كنت وقتها أقرأ رواية «غادة الكاميليا» للمرة الرابعة)، دون أن أدلي باسمي وتعجب هي لأمر هذا العاشق المجهول الوفيّ، وتتوق إلى رؤيته، خاصةً أن جريجوري بيـك كان قـد هجرهـا إذ مرضت وبـات يقضي وقته في الحانات والملاهي الليلية. وأصعد إلى غرفتها، فتنشأ على الفـور بيننا عـلاقة حب عميقة خالدة، ونتعاهد على الوفاء الأبدي. ويكون لحبنا ـ بطبيعة الحال ـ أثره في التعجيل بشفائها. فنقضي فترة نقاهتها بالأقصر، أشرح لها الآثار وأسرد تاريخ الفراعنة. ثم أبسط أمامها تعـاليم الإسلام فتعجب بهـا كل الإعجـاب، وتسأل كيف أنها لم تسمع بهذه التعاليم من قبل، فأذكر لها شيئاً عن المحاولات الخبيثة للمستشرقين في الغـرب أن يخفوا نـور هذا الـدين القويم ويشـوّهـوا صورته. ونعود وقد تم شفاؤها من الأقصر إلى القاهـرة في يخت يضعه الملك فاروق تحت تصرفنا حين يسمع بقصة حبنا الغـريبة، وأتـرجم لها أثنـاء رحلتنا النيلية أشعار امـرىء القيس وزهير بن أبي سلمى فتحبهـا، وتروي لي قصـائد بايرون وشيلي وكيتس فأطرب لها!

كنا في نهاية شهور الصيف، في طريق العودة من رأس البر، قد أوصلنا الزورق البخاري في السابعة صباحاً إلى ساحل دمياط، فعبرنا طريقين أو ثلاثة ملؤها القضبان الحديدية والحجارة، حـاملين أمتعتنا الكثيـرة الثقيلة إلى حيث يقف قطار القاهرة، ينتظر القيام في التاسعة. وقد كانت لوالدي عادة في السفر كثيراً ما كنا نستنكرها في نفوسنا ولا نستطيع أن نبوح إليه باستيـائنا منهـا. فهو يريد أن يكون سفره خـالياً من المتـاعب والمضايقـات. يقصد بنـا جميعاً إلى إحدى عربات القطار ومعنا الأمتعة كلها، عاهداً إلى أخي الأكبر، محمـد، أن يهتم بنا وبالتذاكر والحقائب، «خاصة هاتين الحقيبتين. . . ، أتسمـع؟ خاصـة هاتين الحقيبتين» مشيراً إلى الحقيبتين اللتين أودعهما كتبه وما قد يكون قد ملأه أثناء الإجازة من كراسات. ثم يحيّينا على أن يرانا في محطة العـاصمة، وقـد يأخذ من إحدى الحقائب رواية لتوفيق الحكيم أو لتيمور، فيضعها تحت إبطه،

ويمضي بها إلى مقعده في عربة أخرى بعيدة.

استقر مجلسنا في العربة. ونظرت أتأمل الجالسين قبالتنا. كانت أسرة طيبة المظهر، من أم في الأربعين بدينة مليحة الوجه، وعمة أو خالة في الخمسين، ثم فتاة في الخامسة عشرة، لم أكن قد رأيت قبلها في حياتي من يفوقها حسناً وجمالاً ورقة. فهي شقراء الشعر طويلته، زرقاء العينين ناعستهما، ذات وجه بيضاوي دقيق التقاطيع، وجسم نحيل قد دثّرته أمها بشال ثقيل كانت طوال المسافة تتعهد إحكام التفافه حول صدر ابنتها. كانت في بادىء الأمر نائمة أو كالنائمة، مسندة رأسها الملائكي إلى كتف قريبتها عن يسارها. ثم أفاقت فجأة، ونظرت حولها وفي عينيها جزع، وانخرطت في سعال طويل مؤلم دمعت له عيناها، واحمرت وجنتاها احمراراً شديداً. وإذ حانت مني نظرة إلى المنديل الأبيض الذي غطّت به فاهاً أثناء السعال، إذا بي، لفزعي الشديد، أرى المنديل وقد ظهرت فيه بقع حمراء متناثرة، تأملتها الفتاة في قنوط، ثم دسّت المنديل في حقيبتها في بطء وضعف.

هدأت الفتاة وانقطع سعالها، وابتسمت لأمها ابتسامة ضيّقة هزيلة، فأجابتها الأم القلقة بابتسامة. ثم دخلت والدتي ووالدتها في حديث أذكر أنه بدأ عن الحقيبتين اللتين أوصى والدي أخي بأن يوليهما اهتماماً خاصاً. فقد سمعت السيدة الوصية، ورأت ما عانيناه من مشقة إذ نحاول رفعهما إلى الرف لشدّة ثقلهما، فالتفتت إلى والدتي مداعبة تراهن أن الحقيبتين إنما تحويان قضباناً من الذهب.

أجابت والدتي:

ـ ذهب؟! هي كذلك أو أغلى من الذهب عند صاحبها. وهي عندي لا تعادل هذه الربطة من الفطير (المشلتت) التي أراك قد أتيت بها.

ـ فماذا بهما إذن؟

ـ كتب وحياتك عندي.

ـ لا أصدق!

ـ فبادليني إذن هذا الفطير بهاتين الحقيبتين بما عسى أن يكون بهما من كنوز. أو بحقك فخذيهما دون فطير، وسيكون لك مني الثواب والدعاء، فهما عندي أثقل من ضرّة، وتأخذ من وقت صاحبها أكثر من الضرّة بكثير!

هنا ضحكت الفتاة المصغية إلى الحوار ضحكة مرحة، فضحكتُ أنا أيضاً وقد سرني سرورها.

ـ أزوجك كاتب إذن؟

ـ كذلك يدّعي.

سألت الفتاة والدتي:

ـ أكاتب قصصي هو؟

ـ والله يا بنتي ما قرأت له حرفاً، فلا تسأليني.

ـ فما اسمه؟

ـ أحمد أمين.

ـ لم أسمع به.

صاحت والدتي في انتصار:

ـ أسمعت به بذمتك؟ بيد أنه يظن الناس إنما تلهج ألسنتهم بذكره! شكراً لك يا بنيّة. والله ما أن أصل إلى القاهرة حتى أخبره بأني قابلت في القطار من لم يسمع عنه في حياته قط، ولم يقرأ من كتبه الأربعين حرفاً. علّ ذلك ينزله من عليائه، ويعيد إليه صوابه.

ـ ألا يسرّك أن تكوني زوجة لأديب مشهور؟

ـ أين هو السرور، خبّريني؟ في انشغاله عنك وعن أولاده بكتبه، أم في شرود ذهنه، أم في تلك النسوة اللاتي يأتينه مدّعيات حب الأدب؟ والله لا سرور سوى ربما بأن الكتب قد بدأت تدرّ دخلاً لا بأس به. أتظنينه يوماً لاحظ فستاناً جديداً اشتريته، أو قرطاً تحلّيت به؟ أبداً يا روحي. أجيئه بالفستان الجديد

فأجده إما قارئاً أو كاتباً. أقول له: «أنظر وقل رأيك» فيرفع رأسه بمشقة ويقول: «هـه!». فأعيـد عليـه الجملة. «رأيي في مـاذا؟». «في الفستـان.. في هـذا الفستان الجديد» فيقول كالمذهول: «ماله؟». أصيح وقد تبدّد كل سروري به: «ما رأيك فيه؟» فينظره وأنـا واثقة من أنـه يقلّب في ذهنه جملة ممـا كان يقـرأ أو يكتب، ثم يقول: «جميل». فوالله لو سألته وقتهـا ما هـو الجميل، وعن أي شيء أتحدّث، ما درى!

واستغـرقت الفتاة في الضحـك. غير أن ضحكهـا لم يطل، إذ سـرعان ما اتصلت به نوبة أخرى من السعال العنيف تناثرت لـه خصلات شعـرها على جبينها، وأسرعت تخرج منديلاً نظيفاً كوّرته على شفتيها. وراقبتها والدتي هذه المرّة ففهمت ما بها، وتبادلت مع أم الفتاة نظرة ذات مغزى.

همست الفتاة:

ــ إني عطشى.

فهببتُ من مقعدي إلى زمزمية كانت معنا بها عصير الليمون، وملأت لها الغطاء إلى حافته، فشربت حتى رويت.

ــ تريدين المزيد؟

ــ لا. شكراً لك.

وابتسمت لي ابتسامة كدت أطير لها.. وإذ رأيت والدتي قد دخلت في حديث آخر مع السيدتين، فقد انتقلتُ إلى الجلوس إلى يمين الفتاة.

ــ ماذا بك؟

ــ دعك من الحديث عني. قل لي: ما اسمك؟

ــ حسين.

ــ أستكون أديباً مثل والدك يا حسين؟

ـ نعم. وقد كتبت بالفعل روايتين، وكتاباً عن عمر بن الخطاب.

ـ أريد أن أراها يوماً ما.

ـ لن يكون في الدنيا ما هو أحبّ إليّ من ذلك. أين تسكنين؟

ـ في مصر الجديدة.

صحت في فرح:

ـ هناك نسكن نحن. يا لحسن الحظ، فسأراك إذن؟

وابتسمت لفرحي، ومدّت يدها إلى رأسي تربت عليها. وهممت أن أمسك بهذه اليد فأنهال عليها تقبيلاً، غير أني أحسست بعين والدتي ترقبني. فاكتفيت بأن صببتُ لها قدحاً آخر من عصير الليمون.

وقطعنا المسافة إلى القاهرة في حديث عذب لم أنس حلاوته قط، نلعب حيناً، ونقوم إلى الممر حيناً، ونتحدث فيما أقرأ، وفيما تقرأ (كانت تقرأ ديوان «أنت وأنا» لبول جيرالدي)، وعن الحفرات التي كنا نحفرها أمام العشة في رأس البر حتى يقع فيها الباعة المتجولون، وكيف وقع في إحداها الدكتور عبد الرزاق السنهوري إذ قدم لزيارة أبي، وعن آمالها هي: وهي إن تسكن كوخاً في قمة أحد الجبال بسويسرا، تتزحلق على الجليد شتاءً، ثم تهبط لصيد السمك صيفاً، وتكتب شعراً كشعر لامارتين.

ووصلنا إلى محطة العاصمة فافترقنا. وما أن احتللنا مقاعدنا في السيارة حتى قالت والدتي في لهجة حازمة:

ـ لا يشربنّ أحدكم من هذه الزمزمية التي شربت منها الفتاة. فلديها داء السلّ.

ليس بوسعي أن أصف شعور الاستياء والانقباض الشديد الذي غمرني إذ أسمع هذه الجملة تقال بمثل تلك اللهجة الواقعية الصريحة. وأقسمت في

نفسي لأنتقمنّ للفتاة من والدتي بأن أشرب كل ما تبقى في الإناء من عصير فور وصولنا إلى البيت. بل ومن نفس الموضع الذي مسّته شفتاها. وهو ما صنعته فعلاً. غير أن شعور الغضب من والدتي دام أياماً بعدها.

كان هذا هو أول حب حقيقي لي. فبالرغم من أني لم أر الفتاة بعدها قط، فقد ظللت عاماً كاملاً أفكر فيها في شغف عميق، تدور حولها أحلام يقظتي ومنامي، أقول فيها الشعر، وأتصور نفسي مخترعاً للدواء الذي سيشفيها من مرضها، ثم أمبراطور على الشرق كي أجعل من هذه الفتاة رائعة الجمال امبراطورة عليه. وقد أطلعت أبي على ما نظمته فيها من قصائد فأعجبته، فلما سألته عن رأيه في نشرها، قال إنها رغم جودتها ليست بالجودة التي تؤهلها للنشر. فألقيت بها في الدرج.

كانت الفتاة قد ذكرت لي أنها تسكن في الفيلا رقم ٧ من شارع دمياط. وقد مررت بهذا البيت عشرات وعشرات من المرات، أطوف به عسى أن أراها تخرج أو تدخل فيه، أو تطل من إحدى نوافذه، فلم أرها مرة واحدة. وكنت في طوافي أشبه بالمتعبد الخاشع، أقف على الرصيف قبالته فأنظم الأبيات في هذا البيت المنزّه كالعتيق الذي يضم حبيبتي بين جدرانه:

يا دار سلوى فانظري ذاك الذي
يرنو إليك بقلبه المتأمّل
مهما صنعتُ من القصائد سُلّماً
سأرى الحبيب إليَّ ينظر من علِ!

ثم حدث بعد ذلك بعام، بعد أن انتقلت من مدرسة مصر الجديدة الابتدائية إلى المدرسة النموذجية الثانوية، أن لاحظت أن سيارة المدرسة كانت توصل أحد التلاميذ وتأخذه عند ناصية من ناصيات شارع دمياط، قريبة من بيت فتاتي. فرأيت أن أسأله عن رقم بيته علّه يكون جاراً لها.

قال: سبعة.

صحت به وقد أمسكت بياقتي سترته.

ـ سبعة؟!! سبعة شارع دمياط؟! ألك أخت إذن؟

قال في برود:

ـ لا:

قلت مقطباً:

ـ كيف لا؟

قال وهو في مثل تقطيبي:

ـ كيف كيف لا؟

ـ ليست لك أخت؟

ـ قلت لك لا.

ـ وتسكن في المنزل رقم سبعة؟

ـ هذا هو الوضع.

ـ منذ متى؟

ـ منذ عشر سنين.

ـ فمع من تسكن؟

ـ وما شأنك أنت؟

صحت مزمجراً كالأسد:

ـ ما شأني؟ أجب يا رأس الخنزير وإلا فتحت نافوخك.

ـ فافتحه إذن.

ـ مع من تسكن؟

ـ مع أبي وأمي.

ـ ومن ؟

ـ لا أحد.

ـ لا أحد على الإطلاق؟

ـ لا أحد.

ثم أطلق ساقيه للريح.

وأصابني ذهول. كيف! لا أحد سوى هذا الخنزير ووالديه؟ فبماذا كنت أطوف إذن؟ وأي دار إذن كتبت فيها الشعر، وراقبت نوافذها في خشوع، أحفظ مداخلها ومخارجها وأحجارها حجراً حجراً، وأضيع وقتي على الرصيف قبالتها؟

وأصبحت من يومها لا أمر بالدار إلا بصقت تجاهها في غضب، ثم مرت الأيام، فأصبح بوسعي أن أضحك كلما مررت بها.

عندما قامت جماعة من نخبة رجال معهد التربية بتنفيذ فكرة إنشاء مدرسة نموذجية بمصر تكون بمثابة مدرسة أرستوقراطية على غرار المدرستين البريطانيتين إيتون وهارو، أثار الموضوع معارضة قوية صاخبة في إلصحف، وفي وزارة المعارف، بل وفي مجلس الوزراء نفسه، غير أن الجماعة مضت قُدُماً في مشروعها لا تحفل بمعارضة أو نقد، وأعلن زعيماها عن أهداف المدرسة ونظامها في صراحة وروح من التحدّي خليقين بالإعجاب. فالمدرسة لن يؤمها غير أبناء الطبقة الأرستوقراطية في مصر، (الأرستوقراطية المالية والفكرية)، ثم عدد من الطلبة من الطبقات الأخرى ممن تشهد لهم المدارس التي كانوا فيها بالنبوغ الجم. والمتقدمون بطلبات الإلتحاق بالمدرسة يُجرى لهم امتحان دخول بالغ الصعوبة، فلا يُقبل طلب إلا لمن اجتازه، ولن يزيد عدد الطلبة بالمدرسة بأي حال من الأحوال عن مائتين، يلحق بكل فصل ما بين خمسة عشر طالباً وعشرين، حتى يتسنّى للمدرس معرفة تلاميذه معرفة وثيقة، ويتمكن من أن يمنح كل فرد منهم قسطاً وافراً من العناية والإشراف.

فأما دروسها فتختلف اختلافاً بيّناً عن الدروس في غيرها، إلا في السنوات الدراسية التي تنتهي بامتحان شهادة عامة يشترك فيه تلاميذ المدرسة مع تلاميذ المدارس الأخرى، فهي تهتم اهتماماً فائقاً بالتربية البدنية والأخلاقية والإجتماعية. وفي الأسبوع يومان يتوجه فيهما كافة الطلبة إلى ملعب الحرس

الملكي المجاور للمدرسة بحدائق القبة، ليمارسوا الألعاب الرياضية من الثالثة عصراً إلى السابعة مساءً. ثم يوم ثالث في الأسبوع للنشاط الاجتماعي، من جمعيات للتمثيل أو التصوير أو الموسيقى أو الرسم أو الكشافة، إلى النادي الإنجليزي الذي حشدت بقاعته كتب الأدب الانجليزي (أصلية ومبسّطة)، وأسطوانات للموسيقى الكلاسيكية، يُحرَّم على الطلبة فيه الحديث إلا بالانجليزية، ويقوم أعضاؤه بتحرير مجلة أسبوعية بتلك اللغة. وينتسب كل تلميذ إلى أسرة من أربع هي خاصة بالنشاط الرياضي والاجتماعي: أسرة محمد علي (وشعارها اللون الأحمر في ملابس الألعاب) وأسرة صلاح الدين (وشعارها اللون الأخضر)، ثم أسرة أحمس (وشعارها الأزرق)، وأسرة المعز (وشعارها الأصفر). وتتبارى هذه الأسر في مختلف أوجه النشاط، على أن تمنح كؤوس دورية لأبرزها في كل مجال على حدة.

وأما الغاية المعلنة فخلق طبقة من الشباب أرستوقراطية الثقافة والخلق، تكون أهلاً للقيام بأعباء الدولة المختلفة فيما بعد، من سياسية وفكرية وفنية. وقد ذكر رئيس الجماعة أن «من شأن نظم هذه المدرسة أن تربي في التلاميذ الصغار حسن السلوك والاستقامة الخلقية في جميع الأوقات، في المدرسة وفي البيت وخارجهما، حتى يصبحا عادة راسخة، كما تنمي في نفوس الطلبة الكبار نزعة الاهتمام بشؤون غيرهم، وتعويدهم على تحمل المسؤوليات منذ زمن الدراسة».

لم تفلح انتقادات المنتقدين في زحزحة إدارة المدرسة عن خططها ونظمها قيد أنملة. اتهمها الشيوعيون بأنها من وحي السياسة الاستعمارية البريطانية تربي جيلاً من الشباب ممالئاً في نزعته لانجلترا. وعاب عليها بعض الوزراء والكتاب أن خريجيها سيجدون أنفسهم أجهل الناس بالشعب المصري، وأقلهم إحساساً بمشاكلهم، وسينمو فيهم ميل قوي إلى الانعزال، وإلى إقامة سد بينهم وبين واقع الأحوال. بينما كتب بعض الصحفيين وعدد من رجال التربية يفرقون بين النمو الطبيعي والتضخم السرطاني، ويشبهون

المدرسة النموذجية بالتضخم السرطاني داخل المجتمع، إذ تسعى إلى خلق جماعة صغيرة من الصفوة، وسط بحر زاخر من جمهور الشعب منخفض المستوى في التعليم والثقافة والطباع.

فأما الإنتقاد الأول (بأن فكرة المدرسة كانت بإيعاز من بريطانيا) فإني أميل إلى رفضه. وأما الإنتقادان الثاني والثالث فقد ثبتت صحتهما وبعد نظر القائلين بهما إلى أبعد الحدود. لقد تركت المدرسة في نفسي وفي نفوس غالبية زملائي أثراً لا يمحى. وطويلة شاقة هي السنوات التي قضيناها بعد التخرج منها في محاولة الاندماج في المجتمع حولنا ومسايرته وفهمه، وفي محاولة تنمية الاهتمام بالأوضاع السياسية والتحمس لاتجاه دون اتجاه. كنا ـ ولا نزال ـ جزيرة في محيط، وهو وضع لا يزال مصدراً هاماً لصنوف التعاسة الحادة، والسعادة العظيمة لنا. ثم جاء سفري إلى انجلترا للعمل والدراسة، فالتحاقي بالسلك الدبلوماسي واضطراري إلى الإقامة في الخارج من جديد لسنوات عديدة، جاءا يقضيان على البقية الباقية من القدرة على الاندماج والتأقلم.

فالمدرسة النموذجية إذن هي ثاني أهم العوامل في تكويني بعد والدي.

إلتحقت بها أنا وأخي جلال وصديقي ممدوح مصطفى عبد الرازق (سفير مصر الآن في يوغوسلافيا)، فما لبثنا أن شعرنا بعد شهرين أو ثلاثة بأن طلبة هذه المدرسة في جانب، وطلبة باقي مدارس القطر في جانب آخر. لم تكن لتجد بيننا من يدخن، أو من يغازل الفتيات في الطريق، أو من يتفوه بألفاظ فاحشة بذيئة، أو من يفكر في التشويش على مدرس. فهنا أبناء الوزراء، ورئيس الوزراء، وشيخ الأزهر، ورئيس الديوان الملكي، وسفرائنا بالخارج، وكبار رجال التربية، ومشاهير الأطباء والمهندسين والأدباء. وهنا مدرسون من طراز مختلف، جميعهم من معهد التربية، والكثيرون منهم حاصلون على شهادة الدكتوراه في التربية من إنجلترا أو الولايات المتحدة. فإن بدر عن أحد الطلبة أدنى إخلال بالنظام وقواعد السلوك، كان استنكار الزملاء حوله رادعاً له عن أن

يكرر إخلاله. ثم هذا سيف الرفت مصلت على رقاب الجميع، على أتم أهبة لأن يهوى في أية لحظة ولأهون الأسباب، دون اعتبار لمركز الأب. ثم أنى لنا أن تنتقل إلينا عدوى سوء السلوك من الغير، أو أن نأخذ عن طلبة المدارس الأخرى فاحش الألفاظ وسقيم العادات، وساعات الدراسة والرياضة البدنية والنشاط الاجتماعي تكاد تمتد يومياً إلى غروب الشمس، فلا تترك لنا فائضاً من قوة أو وقت؟.

لا عجب إذن أن يُكِنّ لنا طلبة المدارس الأخرى عداء ما بعده عداء، وكراهية مرّة، مع تظاهرمنهم باحتقارنا تظاهراً أملاه الحقد والحسد. وإذ كان لتلاميذ مدرستنا زي موحد، فاقع اللون، يميزنا من على بعد مائة ياردة، فقد كان تلاميذ المدارس كلما لمحونا في ستراتنا الأرجوانية في الطريق عدوا خلفنا كي يمطرونا بوابل من السباب حيناً، ومن اللكمات حيناً وهو موقف سرعان ما أشعرنا بقوة بأن لنا وضعاً خاصاً، وأننا من عجينة خاصة، ما دامت مدارس العاصمة قد وجدت داعياً للتحالف ضدنا.

غير أن هذه الكراهية كانت تبدو على أشدها في أوقات الأزمات السياسية وإضرابات المدارس. ذلك أن مدرستنا لم تكن لتشترك في إضراب قط. فقوانين المدرسة صارمة في هذا الصدد. وتلاميذها ليسوا من الصنف الذي يجيد خطابة أو هتافاً أو سيراً في مظاهرات في الطريق. زد على ذلك أن آباء التلاميذ كانوا عادةً من الذين يوجه الاضراب ضدهم. فها نحن نصغي في فصولنا إلى الطلبة في الشارع يهتفون ضد حافظ عفيفي رئيس الديوان الملكي، أو محمود فهمي النقراشي رئيس الوزراء، وبيننا في الفصل ابنان للأول، وابن للثاني. وكثيراً ما كان طلبة مدرسة القبة الثانوية ـ بحكم قرب موقعها من مدرستنا ـ يمرون أثناء تظاهرهم على مدرستنا يحاولون «إخراجنا» وإشراكنا فيما هم فيه، يصيحون بنا أن «الوطنية فوق العلم»، وأن «يحيا تضامن الطلبة». فنراقبهم من فناء المدرسة في وجوم وصمت، لا ننبس ببنت شفة، ويراقبوننا هم من الشارع في غضب واشمئزاز. وكان الجرس يدق قبل موعده في مثل تلك

الظروف يدعونا إلى فصولنا، فنمضي إليهـا بقلوب ثقيلة منقبضة، لا لأننـا كنا راغبين في «التضامن» مع الطلبة، وإنما لكرهاتنا أن نتهم في وطنيتنا ورجولتنا. فكان المدرسون يهدئون حزننا وقد فطنوا إلى مـا بنا، فيحـدثونـا عن كيف أن الـوطنية الحقـة هي في الـدراسـة والتسلح بـالعلم، لا في السيـر هـاتفين في الشوارع أو في قذف الطوب، وكيف أن المستعمر نفسه يسره أن يخرج الطلبة المصريون في مظاهرات حتى تضعف حصيلتهم من العلم، وحتى نـظل على حـالنا أمـة متخلفة، وعن كيف أنهم، أي المـدرسين، على أتم استعـداد لأن يكونوا أول من يعرض نفسه لرصاص الانجليز لو كـان للتظاهـر مبرر حقيقي، ونتيجة فعالة. «أما هؤلاء الأوباش فغرضهم الأكبر هو الخـروج من المدرسـة، وإثارة الشغب حيناً، ثم التوجه إلى دور السينما بعد ذلك». فكانت هذه الأقوال منهم تهدئنا، فنعود بعدها إلى الالتفات للدرس. أما طلبة القبة، فكانوا إذاً رأونا نعــود إلى الفصـول دون أن نتجــاوب معهم، يستمـرون في الصيــاح دقيقـة أو دقيقتين، يشتموننا ويلعنون آباءنا ويطعنون في وطنيتنا. ثم ينصرفون بعد أن يكـونوا قـد غيروا بـالطبـاشير من المكتـوب على اللوحة النحـاسية عنـد بـاب المدرسة، فإذا بها:

«المدرسة النموذجية الثانوية... للبنات»!

كان أهم أثر للمدرسة النموذجية في شخصيتي هو الأثر التالي: إذ بينما كانت الزعامة التي استطعت انتزاعها في مدرسة مصر الجـديدة زعـامة سهلة، كانت كفيلة بأن تجعلني أرضى بالسيطرة الزائفة التي لا قيمـة لها، وتبشـر بأن أصبح في المستقبل زعيماً سياسياً دجالاً أو شيئاً من هذا القبيل، كان للنموذجية أثرها في تنمية احتقاري للانتصار السهـل، وتوجيـه اهتمامي كله إلى تهـذيب النفس وتقويمها وتثقيفها ثقافة حقيقية دسمة. كنت في مدرسـة مصر الجـديدة عرّيفاً وزعيماً لتلاميذ لم يربط بيني وبينهم، عدا ممدوح عبد الرازق، صـداقة قط، ولم أشعـر في يوم من الأيـام بأني زميـل لهم. أما هنـا في النمـوذجيـة، فالجميع زملائي، قد نشأت بيني وبين عدد منهم صداقات لا تزال قائمة إلى اليوم.

ومجال التفوق مفتوح دون فرصة للتهريج وفرض السيطرة ، تفوق في الدروس أو الألعاب الرياضية أو التمثيل أو الأدب أو ما شئت. ونظام الامتحانات والدرجات هنا غير معروف. والشهادات تقتصر على ذكر الملاحظات. والترتيب فيها راجع إلى تقدير المدرسين. وقد ظل ترتيبي هنا الأول كما كنت. غير أن هذا لم يعد الآن مهماً كما كان. يكفي أن تذكر الشهادة أن شخصيتي «تسير نحو التكامل بخطاً سريعة ثابتة»، أو أن في أخلاقي وتصرفاتي «رجولة يحمد عليها»، حتى أرضى وأطمئن. فهنا في هذه المدرسة وأدت طموحي إلى الشهرة والمجد، وأصبحت على استعداد لقبول فكرة أن أكون قديساً غافل الذكر، أو أديباً ممتازاً لا يقرأ كتاباته أحد. فإن جاءت الشهرة بعد ذلك، فأهلاً بها وسهلاً.

* * *

غير أن هذا التطور في شخصيتي لم يأت إلا تدريجاً، وبعد عام أو عامين من الدراسة في المدرسة النموذجية.

التحقت بها مجهولاً من المدرسين والطلبة، فكان عليّ أن أبدأ من جديد. وقد كانت معاملتهم إياي في الأيام الأولى، (معاملة الفرد العادي) تسبب لي الألم واللذة في آن واحد: الألم لجهلهم ماضي، واللذة لثقتي من أن تصرفاً إثر تصرف يصدر عني. هنا سوف يبني من جديد صرح سمعتي السالفة، فأثبت أن الشخصية الممتازة لا بد فارضة نفسها على ما حولها أينما حلت:

«He sings each song twice over,

lest you should think he never could recapture,

the first fine careless rapture!».

وقد كان من بين الحوادث الأولى التي لفتت إليّ الأنظار بالمدرسة، الحادث التالي:

كان زوج أختي، وهو المرحوم الدكتور عبد العزيز عتيق، شاعراً. وكانت

له إلى جانب دواوينه، عدة كتب مطبوعة تتضمن تمثيليات شعرية طويلة، كتبها لطلبة المدارس الابتدائية والثانوية، بالاشتراك مع صديق عمره المرحوم سيد قطب، وهو الذي كان قد أشار عليه بالتقدم لخطبة ابنة أحمد أمين. وكان عتيق يعدني أحياناً بمبلغ خمسين قرشاً عن كل تمثيلية طويلة أحفظها من تمثيلياته. فما أسرع ما كنت أحفظها وأسمعها له!

وقد حدث خلال السنة الأولى من دراستي بالمدرسة النموذجية، أن أعلن مدرس العربية أنه قد اختار لفصلنا تمثيلية «صقر قريش عبد الرحمٰن الداخل» لتمثيلها في حفل نهاية السنة الدراسية، وهي إحدى تمثيليات عتيق وقطب التي كنت قد حفظتها. ثم قال إنه سيقرأها علينا أولاً، ثم يوزع الأدوار. وإذ بحث في أوراقه عن الكتاب ليقرأ منه، تبين أنه نسيه في حجرة المدرسين، فأمر أحد الطلبة بأن يحضره من مكتبه. غير أني أسرعت بالوقوف لأعلن بلهجة غير المكترث أنه لا حاجة لإحضارها، نظراً إلى أني أحفظها برمتها.

ــ تحفظ ماذا برمتها؟

ــ التمثيلية.

ــ تمثيلية «صقر قريش»؟

ــ نعم.

ــ تحفظها كاملة؟

ــ نعم.

وحدجني المدرس والطلبة بنظراتهم، بينما ثبتّ عيناي على القمطر أمامي.

ــ فلنسمعها منك إذن.

ــ الفصل الأول: يرفع الستار عن عبد الرحمٰن الداخل جالساً مطرقاً محزوناً في حجرته. يدخل عليه خادمه بدر.

عبد الرحمٰن: إيه يا بدر، ما وراءك؟ قل لي!

هات، قصّ الأخبار في صدق قولِ!

هاتها، هاتها على أيّ شكل.

بدر: ماذا أقول وقد غدونا في الحياة مهدّدينا.

من معشر نقضوا العهود وأصبحوا في الغادرينا!

عبد الرحمٰن: نقضوا العهود؟

بدر: أجل، وصاروا يقتلون ويظلمونا. . . .

وعهد المدرس إليّ دون تردد بدور عبد الرحمٰن، إلى جانب مهمة الملقن لسائر الممثلين.

وقد كانت اللذة القصوى التي خبرتها ذلك اليوم إزاء اندهاش الطلبة والمدرس، منشطة لرغبتي في إدهاش من حولي بسعة علمي. وكان لزوج أختي الفضل الأكبر في مساعدتي على تحقيق هذه الرغبة وتوجيهها الوجهة السليمة. فكان إذا عرف مني الموضوع الذي يتناوله الدرس التالي، سواء في التاريخ أو الأدب أو غيرهما، جلسنا معاً في الأمسية السابقة، لا لاستذكار الدرس فحسب، بل وللنظر أيضاً في المراجع المطولة في مكتبة أبي. فإن كان الدرس التالي في التاريخ عن سقوط الدولة الأموية. وتأسيس الدولة العباسية، قرأنا في هذا الموضوع في «فجر الإسلام وضحاه».

وإن كان الدرس التالي في اللغة العربية في المعلقات السبع، حدثني عتيق عن خلف الأحمر وحماد الراوية، وعن احتمال أن يكون الكثير من الشعر الجاهلي ـ كما ذكر طٰه حسين في كتابه الشهير في الموضوع ـ قد وضعه الرجلان في بداية العصر العباسي ونسباه إلى الشعراء الجاهليين، ثم عن فائدة هذا الشعر الموضوع مع ذلك في التعرف على أحوال العرب قبل الإسلام. فكنت إذا حل وقت الدرس؛ أتحين الفرص للإدلاء أثناءه بما أكون قد حصلته من معلومات، وإنشاد ما أكون قد حفظته في الليلة السابقة من قصائد. ولا أزال أذكر التعبير على وجوه الطلبة ومدرس الدين حين فرغ من قراءة خطبة جعفر بن أبي طالب أمام نجاشي الحبشة، فقمت أسرد البراهين التي وردت في كتاب

أبي «فجر الإسلام» على أن هذه الخطبة لا بد وأن تكون منسوبة كذباً إلى جعفر، ومنها أنه قد ورد بها ذكر الصيام الذي لم يفرض على المسلمين إلا بعد مرور سنوات طويلة على المناسبة التي يزعمون أن هذه الخطبة قد ألقيت فيها.

ـ هذا جائز، (هكذا قال المدرس مرتبكاً وقد ساءه أن يتشكك الطلبة في قيمة الخطبة بعد الذي سمعوه)، ولكنها مع ذلك قيمة في حد ذاتها إذ توضح لنا حال المسلمين في ذلك الوقت، وما لاقوه من أذى الكفار، وطريقة استمالتهم لنجاشي الحبشة.

ـ هذا حق، (هكذا قلت)، ثم جلست. وطفق المدرس يرمقني بعدها صامتاً بعض الوقت، لا يدري أيهنئني على ما فعلت، أم يفترسني افتراساً.

وجاء إذ كنت في الثانية عشرة يوم عيد، وقع فيه حادث كان له أثر مفاجىء في حياتي استمر قرابة عامين.

كانت لي ابنة عمة في الخامسة عشرة تدعى نعيمة. كانت جميلة براقة العينين، تفيض ذكاء وحيوية وصحة ونشاطاً. لم يكن بوسعها، إن جاءت لزيارتنا مع أمها، أن تجلس في مكانها دقيقتين متواليتين. فكانت تنتحل عذراً أو آخر حتى تخرج من الصالون، وتدخل علينا حجرة المكتب، لا نكاد نتهيأ للنهوض لمصافحتها حتى نجدها قد أقفلت كتبنا وكراريسنا في مثل لمح البصر، وهرعت نازلة إلى الحديقة دون أن تلتفت خلفها، واثقةً من أننا سنتبعها على الفور. وفي الحديقة، كانت تتولى دون منازعة مكان الزعامة في ألعابنا، رغم حضور من يكبرها في السن بين إخوتي. فهي التي تأمر وتنهي، وتقترح الألعاب، وتختار أعضاء الفريقين، وهي التي يحتكم إليها في أمر كل من يتهم بالغش أو الخطأ. فإن عبرت عن رغبتها في عنقود عنب، تسابق الصبية منا يصعدون التكعيبة لتلبية طلبها. والغريب أنه بالرغم من أنها كانت نادراً ما تضحك (بالعكس، كان وجهها يكاد يكون دائم التقطيب)، فقد كان مجرد وجودها كفيلاً بأن ينشر بيننا جواً من المرح والسعادة والحيوية الزائدة.

ثم حدث أن زارتنا الفتاة مع أختها الكبرى يوم وقفة عيد الأضحى. واتفقنا، أخي أحمد وأنا، مع الفتاتين على أن نلتقي قرب موقف المترو بشارع عماد الدين في الساعة التاسعة من صباح العيد للذهاب إلى السينما معاً. وفي صباح ذلك اليوم المشؤوم، كنت وأحمد في الانتظار على الرصيف المواجه للموقف، حين شاهدنا نعيمة وأختها في المترو القادم تستعدان للنزول... لم يكن القطار قد وقف بعد، وكان سلم النزول في غير الجانب المواجه للرصيف الذي كنا عليه.. وإذ التفتُّ إلى أحمد أعيد عليه رجائي أن نذهب إلى فيلم «أحدب نوتردام» بدلاً من فيلم «شبح الأوبرا» الذي اقترحه، إذا بنا نسمع صرخة نسائية مدوية، وصيحات رعب من الركاب والمارة عند الجانب الآخر من القطار، وزمارة المحصل تصرخ منبهة السائق أن يتوقف. وإذا حشد من الرجال قد تجمع قرب السلم، قد انحنوا على شيء عند العجلات.

صاح أخي بي في حدة:

ـ قف هنا مكانك وإياك أن تتحرك. أتسمع؟

ثم عدا يعبر الطريق، بينما تسمرت في مكاني أرتعد. كان يقصد بطبيعة الحال ألا أتبعه إلى قطار المترو حتى لا أشاهد الحادث ومن سقط فيه. غير أن رغبة مخالفة تماماً كانت تعتمل في نفسي في تلك اللحظة: الرغبة في أن أفر في الاتجاه المضاد. كنت أشعر دائماً بأني لو تجنبت الأزمة، أية أزمة من الأزمات، وتغيبت عن مكانها مدة كافية، لوجدتها عند عودتي قد حلت حلاً مرضياً، أو خفَّت وطأتها على الأقل... والتفت إلى اليسار، فشاهدت المترو المتجه إلى مصر الجديدة يغادر المحطة. فإذا بي أعدو حتى أبلغه، فأقفز فيه.

قلت لنفسي وما زلت ألتقط أنفاسي:

ـ سيعود أحمد إلى البيت في الثانية، فيسألني موبخاً أين اختفيت وقد طلب مني الانتظار، ويخبرني أنه بعد البحث عني توجه إلى السينما مع نعيمة وعائشة، ثم يثني على فيلم «شبح الأوبرا» ويقص عليَّ قصته، ونجلس إلى

الغداء كالعادة. سأشعر حينئذٍ ببعض الندم إذ قد ضاعت عليّ نزهة الصباح. غير أن الفرح بأن كل شيء على ما يرام، سيكون أضعاف الندم.

غير أن كل شيء لم يكن على ما يرام. عاد أحمد في الواحدة. سمعته وهو يصعد السلم يسأل الخادم عني فأجابه بأني قد عدت. فلما دخل الصالة ورآني قابعاً في ركن منها في خجل، ألقى عليّ نظرة غاضبة، ثم دلف إلى حجرة أبي دون أن يوجه إليّ كلمة.

وشاع الخبر بعد لحظات. لقد سقطت نعيمة تحت عجلات القطار وقطعت ساقاها.

* * *

لم أر نعيمة بعد ذلك اليوم قط، رغم أنها عاشت بعده نحو عشر سنوات. غير أن القصص والشائعات التي تواترت إلينا عنها طوال تلك المدة لم تكن تعرف حداً:

ذكر لنا أنها ما سمح لها بالعودة من المستشفى إلى بيتها حتى اختارت لنفسها غرفة منعزلة منه، لازمتها ملازمة أبي العلاء داره، لا تخرج منها قط، ولا تسمح بدخولها إلا لأمها وإخوتها. كانت النوافذ دائماً مغلقة، لا تريد لضوء النهار أن ينير ما بالداخل. بل قيل لنا إنها ظلت مدة عامين تأبى النوم على السرير، وتنام على الأرض في قميص رفيع صيفاً وشتاءً. وقيل إنها لم تكن تسمح لأحد أن يكنس الغرفة، وإنها كانت تجمع التراب وتحافظ عليه محافظتها على شيء ثمين، وقد رفضت قبول الكرسي ذي العجلات الذي جاءها والدي به. ثم وصل إلينا أنها أصيبت بالسل، وأنها قبلت بعد إلحاح أمها وبكائها أن تستخدم السرير في النوم، وأن تلبس الصوف. وشاع الاعتقاد في العائلة بأن الفتاة قد جنت.

وتمر سنوات تسع، فإذا بأبي وقد وصلته في يوم من الأيام رسالة طويلة

من نعيمة، يدفعها إلينا لقراءتها وهو يهز رأسه في عجب. كانت الرسالة من أربع عشرة صفحة، كتبت بخط أنيق جميل، ولم يرد بالخطاب كله (وهو بالعربية الفصحى) خطأ نحوي واحد. كان عبارة عن نقد شامل لمؤلفات والدي في مجموعها، لأسلوبه ومنهاجه في التفكير وطبيعة الموضوعات التي اختار أن يكتب فيها. نقد جميل لا يخلو من عمق، ولا توحي أية جملة منه برغبة في إطراء أو إيلام. أذكر منه:

« عرضت تطور الحياة العقلية للمسلمين في كتبك الأولى ـ وهي كتبك التي سيقدر لها البقاء في رأيي ـ فاستطعت أن تفرض نفسك على الحياة العلمية فرضاً، وأن تصبح ثقة في تاريخ الثقافة الإسلامية.... غير أنك أخطأت في تقدير قواك وطبيعة مواهبك، فظننت أن باستطاعتك أن تنتج في كل شيء، وأن تسيغ كل شيء، كما أسغت تاريخ الفكر الإسلامي وحضارة العرب. وها أنت اليوم تكتب فيما ينبغي ألا يكون لك به شأن، فأصبحت كتاباتك لا تطفىء ظمأ ولا تشبع نهماً، تاركاً شمس كتبك الخالدة، فجر الإسلام وضحاه وظهره، معلقة في السماء، تريد لها أن تكمل دورتها.... ».

ورد عليها أبي معتذراً:

« ... لقد كان في نيتي أن أسير في السلسلة عصراً فعصراً إلى يومنا هذا. ولكن شاء القدر أن أصاب في نظري بما جعل الأطباء يحرمون عليّ كثرة القراءة، وخصوصاً في الليل. والاستعانة بالغير لا تكفي. فقد كنت أستطيع أن أتصفح الكتاب الكبير في ساعات، فأقف منه على ما يلزمني وما لا يلزمني. أما قراءة الغير فلا تجزي هذا الإجزاء.. لذلك وقفت عن العمل في تلك السلسلة، وبدأت أؤلف كتباً أساسها تجارب ومطالعات سابقة مما ادخر في الذهن على توالي الأيام.... ».

ومن يومها بدأت بين أبي وبين نعيمة مراسلات تكاد تكون أسبوعية. أخبرنا أهلها (حين ذكرنا لهم رسائلها) ، أنها لم تنقطع طوال السنوات السابقة

عن القراءة، تنفق على الكتب ما يخصصه لها أبي من مصروف شهري، وأنها قد باتت تتقن العربية والفرنسية إتقاناً تاماً. ولم تكن تقتصر في رسائلها على الحديث في الكتب، فكانت تتحدث كثيراً في الجنس، موردة آراءها في الزواج والحب، دون أدنى إشارة إلى نفسها. وقد كانت آراؤها في غير الكتب ساذجة في تحمسها، سطحية في مثاليتها. وأخبرتنا أمها بعد أشهر أن تراسلها مع أبي كان له أثر طيب في رفع روحها المعنوية، وأن فكرة الخروج من غرفتها إلى العالم، وأن تنشر بعض ما تكتب في مجلة والدي «الثقافة»، بدأت تخامر ذهنها.

ثم جاءنا أنها خرجت، وأنها أصيبت في الطريق بنوبة قلبية، ماتت على أثرها.

* * *

لا أستطيع القول بأن الألم الناتج عن حادث سقوط نعيمة تحت عجلات القطار كان كافياً لتبرير ما طرأ على تفكيري وأسلوب معيشتي من تغير جوهري. لقد هزتني مأساة الفتاة، وكنت أحب صحبتها. غير أن الحادث وحده لا يفسر ذلك التدين العنيف المتطرف الذي بدأ معي بعده بيوم واحد، واستمر عامين، والذي ترك وراءه حين خفت حدّته آثاراً لا رجوع فيها.

كانت الحالة أقرب إلى الهوس الديني منها إلى التدين.

بدأت فجأة في أداء الصلوات الخمس في أوقاتها وعلى نحو منتظم. ثم قرأت أن هارون الرشيد كان يصلي مائة ركعة في اليوم الواحد. وإذ كنت أسمع دائماً من والدي عبارات الإزراء بهارون الرشيد، قلت لنفسي إنني لست دونه، فأخذت في الصلاة مائة وعشر ركعات في اليوم. فإن تبقى لي من الوقت بعد المدرسة والمذاكرة والصلاة ما يسمح بالقراءة، أقبلت على تلاوة القرآن وصحيحي البخاري ومسلم وقصص الأنبياء وسير الصحابة والتابعين، مستبعداً ما كنت شديد الشغف به من روايات جرجي زيدان ونجيب محفوظ. واطلعت

أثناء قراءتي في التاريخ الإسلامي على قصة حرق مكتبة الاسكندرية، واتهـام بعض المؤرخين الأوروبيين لعمر بن الخطاب بأنه هو الذي أمر بإحراقهـا، «إذ كان يعتقد أن القرآن قد تضمن كل شيء». وبالرغم من أن ما قرأته كان دحضاً لهذا الاتهام، فإن فكرة إحراق الكتب راقتني. فإذا بي في بعض الأحيان ـ وإن لم تكن أحياناً كثيرة ـ أستل من مكتبة والدي بعض مـا أعرف من الكتب أنـه يتضمن أفكاراً إلحادية، ومن مكاتب إخوتي بعض المجلات التي تحوي صوراً لنساء في ملابس البحر، وأتسلل بها إلى سطح المنزل، أصب عليها نقطاً من الجاز، ثم أشعل النار فيها متمتماً ببعض الآيات القرآنية.

تميزت شخصيتي خلال تلك الفترة بالقتامة الكئيبة والجدية المفرطة، لا أعرف مرحاً أو ضحكاً أو لهواً. وعرفت أثناءها بثقل الدم الشـديد. فمـا من موضوع يفتح أمامي إلا حولته إلى الـدين، وذكرت حكم الشـرع فيه، ومـا قد يكون للنبي من حديث بصدده. وما من سلوك يبدر من أحد إخـوتي أخال فيـه تعارضاً مع الدين إلا حاولت أن أقومه بلساني أو بقلبي. وقد ضج إخـوتي في النهاية مني، ومن سعيي إلى هدايتهم إلى الطريق القويم. فتحول صبرهم عليّ إلى سخرية مني، ملقبين إيّاي هازئين بالشيخ حسين، كلمـا شعروا بـأنني في سبيل الوعظ صاحوا: «اللهم اجعلنا من بركـاتك يـا سيدنـا الشيخ!». فكـانوا بذلك يفلحون في إسكاتي، وأراني أستعيـد وقتها في ذهني ذكـرى صبر النبي على ما لاقاه من أذى المشركين من قريش.

. . . في الليـل، حين آوي إلى فراشي الـذي أشارك فيـه أخي أحمد، كنت أتمتم مدة طويلة بعدد من الآيات القرآنية بصوت خفيض، فلا يسمع منها غير «بسبسبسبس». فيصيح بي أحمد حين يبلغ به الضجر مبلغه:

ــ كفاية بسبسة، الله يقلب دماغك!

ويصحب طلبه بركلة قوية من قدمه أو ضربة بركبته. فـإن لم أسكت قام

مزمجراً إلى أبي يرجوه أن يأمرني بـالسكوت. وأسمـع صوت أبي من الصـالة يهتف بي:

ــ نَمْ يا حسين!

فأتردد عندئذٍ بين الطاعة وبين عدم إطاعة الوالدين فيما يـأمراني بـه مما يخالف الدين. ثم أطيع.

* * *

قضينا صيف أحد هذين العامين بـالاسكندريـة في شقة من عمـارة كان أصحابها يسكنون الطابق الأول. كانت العائلتان تتزاوران يومياً، وقد نشأت بين فتيات عائلة المؤجر وشبان عائلة المستأجـر علاقـات وثيقة كـان والد الفتيـات يغض عنها ـ أو لعله كان يشجعها ـ على أمل أن تنتهي شهور الصيف بزواج. فأما الأرجح فهو أن إخوتي لم يستمتعوا بصيف استمتاعهم بذلك الصيف. وأما المؤكد فهو أني لم أخبر من العذاب ما خبرته فيه. هُيىء إليّ أن المكان أشبه ببـابل مصغـرة: الفتيات مـا بين صاعـدة تجري، وهـابطة تعـدو، هـذه تلبس (الشورت)، وتلك يهتز ثدياها اهتزازاً عنيفاً مع كل سلمة تهبطها، وثالثة تلبس (بلوزة) لا تدري ألبستها للستر أم للكشف. وكان شعوري إزاء ما أرى شعـوراً مختلطاً: فأنا أطيـل النظر إلى (البلوزة) مـا في ذلك شـك، وإلى الصدر يعلو ويهبط عند نزول صاحبته الدرج. بدليل ما أردده بعدها في السر من دعاء. غير أن نومي كذلك قد بات مضطرباً، أظل أتقلب من جنب إلى جنب حتى أسمع أذان الفجر فأقوم للصلاة.

دخلت عليّ يوماً إحدى تلك الفتيات الصالة فوجدتني أجلس إلى النافذة مقطباً، وفي الصالة ابن خالة لي. قالت له الفتاة:

ــ تراهنني أنني سأجعل ابن خالتك هذا يبتسم؟

أجاب ضاحكاً:

ــ أراهنك!

فأخرجت من حقيبة يدها إصبع (روج)، وفتحته، وسارت به إليّ تريد أن ترسم به على وجهي. وبالرغم من أني ابتسمت من قبل أن يلمس الإصبع وجهي، رافعاً يدي لمنعها، فقد صممت على تنفيذ ما أرادته وانحنت بجسمها كله عليّ تتظاهر ومحاولة التغلب على مقاومتي... احمر وجهي وانتفض جسمي انتفاضات سريعة من الاضطراب. غير أني تمنيت في نفس الوقت أن يطول الصراع المصطنع. وأحسّت هي باضطرابي فزادها ذلك إلحاحاً. ثم إذا بي وقد صدرت مني حركة عنيفة لم تكن الفتاة تتوقعها، فإذا بها تتعثر إلى الخلف، وتسقط على الأرض سقطة ارتضم لها رأسها برجل كرسي رطمة قوية، فقامت ممسكة رأسها بيدها، وأدبرت خارجة تلعن غاضبة محنقة.

حتى تخيّلي للجنة التي كنت سأدخلها يوم القيامة، لم يكن يخلو من العنصر الجنسي. فالحور العين هن أول ما يقفز إلى مخيلتي، لا يفوقهن في الأهمية غير رضا الله عز وجل. فإن قرأت في تاريخ الأمويين والعباسيين وقررت في نفسي أن أدعو الناس حين أكبر إلى العودة إلى ذلك النمط من الحياة الذي عرفه السلف الصالح، وجلست أتخيل هذه العودة لو تمت، كان أول ما يتبادر إلى ذهني صورة الجواري في ثياب فضفاضة شفافة وأوضاع ساحرة خلابة، بينما أجلس بينهن على الحشايا أستمع إلى غنائهن وعزفهن.

وتطورت الحال معي إلى الوسوسة والخزعبلات. أضع في فمي قطعة من الحلوى فلا أكاد أذوقها حتى يهتف بي هاتف أن الله يريدني أن ألقيها من فمي. وأسير في الطريق فأقول في نفسي إن الله يريدني أن أدور حول هذا العمود أمامي ثلاث مرات، فأفعل دون أن أعبأ بما قد يظنه فيّ المارة من خبل. وأدخل السينما فلا يكاد الفيلم يبدأ حتى أتوهم أن الله لا يريدني أن أشاهد هذا الفيلم، فأغمض عيني وأحني رقبتي حتى يظن الجالس إلى يساري أني مريض فيعرض مساعدته عليّ. وقد أعارني أحدهم خلال ذلك الصيف كتاباً يحوي عدداً من الأحاديث الموضوعة المنسوبة إلى النبي! كان غذاءً جديداً من الخرافات.

واضطر أبي في النهاية إلى التدخل حين رأى حالي يتطور من التدين إلى الهوس. فنحى كتبه وكراساته ليخصص الساعات الطوال لإقناعي بأن ما أنا فيه ليس من الدين في شيء، ويسرد القصص عن سماحة الرسول ومرونته وسعة أفقه.

في السينما، كنت أغمض عيني دائماً عند مناظر القبلات وما شابهها، عدا مرة واحدة (كانت في أواخر العام الثاني من ذلك الطور) أثناء فيلم «فتى من بروكلين» لداني كاي، لم أستطع أن أحول بين نفسي وبين الحملقة أكثر مما ينبغي في بطلة الفيلم، حملقة أشعرتني لأول مرة بقرب تصدع البناء الذي استغرق عملي فيه نحو عامين.

عندما اكتشفت جماعة منا بالمدرسة الابتدائية شيئاً اسمه الشفرة، فكرنا في تكوين جمعية سرية نستخدم الشفرة فيها. وإذ أنه ما من حاجة إلى استخدام الشفرة في جمعية موالية للحكومة، فقد قررت جمعيتنا أن تكون مناهضة لها. وقد اجتمع خمسة من التلاميذ، كنت أحدهم، في غرفة بمنزلنا خافتة الإضاءة (تعمدنا أن تكون خافتة الإضاءة لتكرار استخدام الصحف في ذلك الوقت لعبارة «الذين يعملون في الظلام»، وهي عبارة ألهبت مخيلتنا دون أن نفهم معناها بدقة). فوضعنا في الجلسة الأولى رموزاً للحروف، ودوّنها كل منا في مفكرة جيب صغيرة، وفي الجلسة الثانية قواعد اختيار الرئيس والوكيل وأمين الصندوق وانتخابهم في اقتراع سري، وحلفنا في الجلسة الثالثة يمين الولاء للجمعية أمام الرئيس، وحددنا قيمة الاشتراك الشهري ثلاثة قروش.

فأما الغرض الأساسي للجمعية فقلب نظام الحكم بالقوة، وإجبار الملك فاروق على التنازل عن العرش والاستيلاء على أمواله، وطرده هو وأمه وأخواته من البلاد مع منحهم مرتبات شهرية كافية. وقد اقترح أحد أعضاء الجمعية إعدامهم، أو (إعدام الملك على الأقل). غير أننا أقنعناه بضرورة ضبط النفس، لتجنب الظهور بمظهر سفاكي الدماء. وناقش المجتمعون شكل نظام الحكم

الجديد: جمهورية أم ملكية مستنيرة. وقد كنت أميل إلى إعلان ملكية مستنيرة (لغـرض خفيّ في نفسي لم أفصح عنـه). غيـر أن البـاقين أيـدوا شكـل الجمهورية. فأما عن الوسائل التي ستتبناها الجمعية في سبيل تحقيق أهدافها، فكتابة المنشورات (بخط اليد إلى حين التمكن من شراء آلة كاتبة)، ووضعهـا سراً في صناديق البريد بـالعمارات التي نسكنهـا أو نزورهـا، وكتابـة شعارات «يسقط الملك» و«تحيا الجمهورية» على حيطان دورات الميـاه بدور السينمـا وما يشابههـا (أي يشابـه دور السينما)، ومحـاولةِ إقنـاع من نتوسم فيـه الخير، والروح الثورية، وحب الوطن، بوجوب العمل على إسقاط الملكية، مع التزام الحيطة والحذر حتى لا نضع ثقتنا فيمن ليس أهلاً لها. كما تعهد ثلاثة منا كتابة بالالتحاق بعد إتمام الدراسة الثانويـة بالكليـة الحربيـة، لضمان تـأييد الجيش للثورة ووقوفه خلفها، أو إقناعه، على الأقل، بالامتناع عن التدخل.

كان الاجتماع الرابع مخصصـاً لدراسـة النظم التي نـريد تـطبيقها عقب التخلص من الملك. وقد واجهنا هنا صعوبة لم نواجه مثلها وقت وضع الشفرة وانتخاب مجلس الإدارة. فمعلوماتنا ضئيلة في هذا الصـدد، والقول بـوجوب تحقيق عدالة اجتماعية في ظل النظام الجديد، والقضاء قضاء مبرماً على الفقر والجهل والمرض لم نجـده، مع صغـر سننا، كـافياً. فقـد كانت تتنـاهى إلى أسمـاعنا، وتقـع تحت أبصارنـا، عبـارات شتى عن الشيـوعيـة والـرأسمـاليـة واشتراكية إنجلترا واشتراكية الإسلام، فهمنـا من مجموعهـا فهماً غـامضاً أن العدالة الاجتماعية هنا ظلم اجتماعي هناك، وأنه قد أصبح من المضحـك أن يطالب المرء بالعدالة الاجتماعية على إطلاقهـا، دون أن يحدد أي نمط منهـا يريد. ولم يكن يعقل أن تتخذ جمعية سرية من الرأسمـالية مبـدأ لها. لـذلك ترددت الجماعة في اجتماعها الرابع هذا بين الشيوعية واشتراكية انجلترا. أراد اثنان منا اشتراكية انجلترا. غير أن ما كنا نقرأه في الجرائد في ذلك الحين عن ضبط خلايا شيوعية، واتهام أفرادها بحيازة المطابع السرية وتوزيع المنشورات،

مال بالثلاثة الآخرين إلى اختيار الشيوعية، فأقررناها مبدأ للجمعية. وكان نصيرا اشتراكية انجلترا من الأدب وسلامة الذوق بحيث رضخا لقرار الأغلبية، ولم يتعنّتا في التشبث برأيهما.

وبدأنا نجمع المعلومات عن الشيوعية. فالفكرة الوحيدة في رؤوسنا عنها هي أنه ليس في النظام الشيوعي غني أو فقير، وأن الكافة متساوون في الدخل. وهي فكرة لا تكاد تكفي وحدها لوضع أنظمة ومجموعات قوانين أو حتى لدستور. وإذ كنت أعلم أن أحد أصدقاء والدي، وهو المرحوم مفيد الشوباشي، شيوعي، فقد انتهزت فرصة مقابلتي له في أحد الاجتماعات الأسبوعية للجنة التأليف والترجمة والنشر، وسألته عن خير كتاب في الشيوعية يوصى بقراءته. أجاب بلا تردد:

ـ رأس المال لكارل ماركس!

واشتريت في اليوم التالي ترجمة الدكتور راشد البراوي للكتاب، وجلست متلهفاً لقراءته، مسلحاً بالورق والقلم كي أنقل مقتطفات منه يمكن استخدامها في المنشورات. فلم يحدث أن صادفت في حياتي ما هو أصعب على الفهم، ولا أثقل ظلاً ولا أبعث على السأم وأدعى إلى التثاؤب والملل من ذلك الكتاب. (والظاهر أن هذا الانطباع الأول عن الكتاب كان من القوة بحيث حال دون بذلي لأية محاولة لاحقة لقراءته حتى يومي هذا).

غير أن اعترافي أمام أعضاء الجمعية في اجتماعهم الخامس باستحالة فهمي لمضمون «رأس المال» لم يوهن من عزمها أو يثبط من حماسها. واستمرت الجمعية في نشاطها العملي ثلاثة أسابيع كاملة لا تعرف الكلل أو الملل. وكان أهم ما أنجزته خلال تلك الأسابيع، قصيدة قمت بنظمها على وزن قصيدة لأحمد شوقي كانت أم كلثوم تغنيها في ذلك الحين في مدح

الملك:

المُلك بين يديك في إقباله
عوّذت مُلكك بالنبي وآلهِ

عارضتها بقصيدة مطلعها:

عرش ينوء الشعب تحت ظلاله
وترى بإذن الله شر مآلِهِ
وغد وأنت الوغد في أخلاقه
تيس وأنت التيس في أعمالِهِ
يرديك نصرانيه بصليبه
والمنتمي لمحمد بهلالِهِ

وفي نهايتها:

ثوروا على هذا المليك وآله
واقضوا على الحشرات من أمثالِهِ

وقد أكبر الرفاق هذه الموهبة في النظم عندي وأدركوا أهميتها في جمعية كجمعيتنا وفي تعبئة الرأي العام. فقاموا بنسخ عشر نسخ منها لتوزيعها على نطاق واسع، غير أن حادثاًمؤسفاً وقع لأحد زملائنا أثناء تأديته لواجبه الوطني. ذلك أنه وهو في طريق عودته من المدرسة، دلف خلسة إلى إحدى العمارات الكبيرة كي يودع نسخة من القصيدة في أحد صناديق البريد. وإذ مد يده بالورقة إلى فتحة الصندوق، شعر بيد غليظة على كتفه تستوقفه، هي يد بواب العمارة، وأخذ البواب القصيدة منه يقرأها دون أن يدعه يفلت من قبضته. فما وصل إلى «ثوروا على هذا المليك وآله» حتى رنت على قفا الرفيق صفعة مدوية قوية، تلتها قرصة في الأذن ولكمة في البطن، مع سيل من السباب البذيء، والتظاهر بنية استدعاء الشرطة. وبالرغم من أننا عزينا صديقنا في اليوم التالي بأن ستالين سجن ست مرات، وأمثلة أخرى مما يلاقيه المناضلون في كل مكان من تعذيب

وتنكيل واضطهاد، وبأن بواب العمارة الذي هو في حقيقة أمره من الكادحين لم يدرك بعد أن مثل نشاطنا هذا في مصلحة طبقته، فإن حماس الزميل للجمعية طرأ عليه من يومها فتور ملحوظ، لم يلبث أن انتقلت عدواه إلى بقية أفرادها، فلم يمض شهر على إعلان تأسيسها حتى أعيدت إلى كل عضو بها القروش الثلاثة التي كان قد دفعها، بعد خصم حصته من النفقات الإدارية.

* * *

ثم تلت ذلك فترة العامين من التدين الشديد. وقد التقيت خلالها في الاسكندرية بزميل لي في المدرسة في مثل تديني يدعى خليفة. كنا نلتقي كل صباح فنسير جيئة وذهاباً على شاطىء ميامي، كل يشير للآخر إلى ما يصادفنا من مناظر لا يرضى عنها الدين، ثم نعبر معاً عن استنكارنا لها، مستعيذين بالله منها، ونحاول أن نلفت أنظار النساء في ملابس البحر إلى تعبير الاشمئزاز على وجوهنا. وخطر لخليفة يوماً أن ننتقم للدين من كل هذا الفجور الذي يملأ الشاطىء، وأن نقدم على عمل يرى فيه هؤلاء البابليون يد الله وغضبه. وفي ساعة مبكرة من صباح اليوم التالي، التقينا في مكان محدد بالشاطىء وقد أتينا بمجموعة من الخرق الصغيرة وقدر من الجاز وأعواد الثقاب. فكنا نشعل النار في الخرقة، ونلقي بها في الكبينة من إحدى فتحات نوافذها، ثم ننتقل إلى الكبينة التالية. فعلنا هذا في ست من الكبائن أو سبع، ثم عدنا لاهثين إلى البيت نرتقب وصول الأخبار إلينا عن «حريق هائل يجتاح الشاطىء» فلما قصدناه عند الظهر، إذا الأمور تجري فيه كالمعتاد.

ثم بدأ العام الدراسي الجديد فجددت صلتي بخليفة. وقد لاحظت منذ الأيام الأولى أنه يقتصر في صلاته بالمدرسة على خمسة أو ستة من الطلبة ذوي طابع خاص يميزهم عن غيرهم. فهم أعفّ الطلبة لساناً وأعزفهم عن اللهو والهذر، وأقلهم اعتناءً بالملبس. فإن كانوا لا يتمتعون بذكاء كبير، ففي جدهم واجتهادهم عوض عن الذكاء. وهم يلتزمون في علاقاتهم بقدر من السرية

عظيم، وكثيراً ما نراهم في أوقات الفسح منتحين ركناً من أركان حديقة المدرسة يتحادثون بصوت خفيض، لا يشاركون رفاقهم في لعب البلي والجري والضحك. فإن انضم إليهم غريب شعر من فوره أنه قطع عليهم حديثهم الخاص. وهم في معاملتهم لمن ليس في حلقتهم يتخذون سمت التنازل شأن الأخ الكبير العاقل. وبالرغم من أنهم كانوا يبادرون بمدّ يد المساعدة إلى كل من احتاج إليها، فقد شاع بين الطلبة وصفهم بثقل الدم. وقد ميزهم عن غيرهم أنهم كانوا إذا ذكروا النبي، أو ذكر النبي في حضرتهم تمتموا على الفور: ﷺ، فعرفوا لذلك في المدرسة بجماعة ﷺ.

عرفني خليفة بهم فكرهتهم منذ اللحظة الأولى: ربما لتفضيل خليفة لهم عليّ، وربما بسبب لهجة التعالي والإرشاد التي كانوا يتحدثون بها إليّ، بل ربما لأن شعوري نحو خليفة نفسه كان قد أخذ يتغير لإحساسي بأنه يعاملني معاملة الهادف إلى أمر، وأنه يتبع أساليب مرسومة للوصول إلى هذا الهدف، وكأني أداة يمكن استخدامها بعد علاجها.

بدأ بأن سرد عليّ قصة حياته: كيف أنه كان فاسداً شريراً (كان وقتها في الرابعة عشرة من العمر!)، ثم كيف أنه مرض مرضاً خطيراً كاد الأطباء ييأسون من شفائه منه. غير أن الله تعالى شاء له النجاة فإذا به يقوم من فراش المرض إنساناً غير الذي كانه. وها هو أبوه (وهو قاض شرعي) يقرأ معه أثناء فترة النقاهة كتاب الغزالي «المنقذ من الضلال» ويشرحه له فإذا الكتاب نور أضاء له عقله وقلبه. فعرف الحق وأقسم ليكرسن حياته لتعريف الآخرين به. ثم قال عني إني أشبه في الملامح شقيقاً عزيزاً له اختطفه الموت في ريعان شبابه وأنه لذلك يكنّ لي مودّة خاصة، ويريد أن يفيدني من تجاربه وثمار تفكيره (كنا في سن واحدة) موفراً عليّ الآلام الشديدة التي عاناها قبل أن يدرك الحق. وقد كان لخليفة هذا فضل تعريفي في ذلك الوقت بكتابات ابن تيمية وابن حزم، وهي الكتابات التي ظلت الأثيرة عندي من بين كافة كتب التراث الإسلامي إلى يومي هذا.

ثم إذا به في أحد الأيام ينتحي بي في جانب الفنـاء أثناء فسحـة الظهـر ويقول:

ـــ أتسمع عن الأستاذ الشيخ حسن البنا؟

ـــ زعيم جماعة الأخوان المسلمين؟ قد سمعت به.

ـــ وما رأيك فيه؟

ـــ كل ما أعرفه عنـه أنه نشـر منذ أسبـوعين في جريـدة الإخوان خـطاباً مفتوحاً إلى أبي يعرض عليه فيه الإنضمام إلى الجماعة، ويقول إن مكاناً ينتظره في الصف الأول من صفوفها.

قال فجأة:

ـــ أتحب أن تقابله وتسمع منه؟

ـــ وكيف لي بذلك؟

ـــ سيحضر هذا المساء إلى بيتنا لزيارة أبي، وهـو يرحب دائمـاً بمقابلة الشباب.

ـــ ليس لديّ مانع.

واستأذنت أبي عصراً في الذهاب، فتردد لحظة يفكر، ثم أذن لي، على أن أسرد عليه عند عودتي ما دار من حديث، ثم قال وأنا أتأهب للإنصراف:

ـــ إن سألك الشيخ البنا لماذا لم أجب على خطابـه المفتوح، فقـل إنه لا علم لك بالموضوع.

* * *

في شقة خليفة بحيّ كوبري القبة، كان الشيخ حسن البنا جالساً مع أربعة أو خمسة من الضيوف الآخرين في حجرة الاستقبال عتيقة الطراز، وقد كسيت مقاعدها بالقماش الأبيض. كانوا فيما عدا الشيخ البنا، يحتسون القـرفة. وإذ

عرّفهم خليفة بي، ذكر للشيخ البنا أنني ابن الأستاذ أحمد أمين، فأبدى الشيخ على الفور دلائل الاهتمام، وخبط بكفه الغليظ ثلاث مرات على حشية الكرسي المجاور له إشارة إلى أن أجلس بجانبه.

ثم واصل حديثه مع أحد الحاضرين:

ـ المسألة يا مولانا خلافية إلا فيما يتعلق بالطعام والشراب. فالحديث متفق عليه والنهي شديد. والنبي ﷺ يقول: «لا تشربوا في آنية الذهب والفضة، ولا تأكلوا في صحافهما»، ويقول «الذي يشرب في آنية الذهب والفضة فكأنما يجرجر في بطنه نار جهنم» ولا قياس مع النص، ولا مناص من الامتثال.

أجاب محدثه:

ـ يا أستاذ، أنا أحكم بقوانين نابليون، وفضيلة القاضي يحكم بالكتاب والسنة، وكل منا ملزم بشريعته!

ـ الأمر إنما جاء للمسلمين عامةً وأنت واحد منهم.

ثم التفت الشيخ البنا فجأة إليّ:

ـ إذن فأنت ابن أستاذنا الجليل أحمد أمين. لقد قرأت كل حرف كتبه أبوك مرات ومرات، وأقولها مشهداً الله على ما في قلبي إني أراه قد استكشف تاريخ الحياة العقلية للمسلمين استكشافاً لم يسبق إليه.

كان يتكلم بصوت جهوري عميق، وبسرعة عجيبة وكأنما يسمع لنفسه في أقصر وقت ممكن درساً حفظه.

وبدأت أردّ بأن أبي يبادله شعور الاحترام والإجلال، فقاطعني بحركة من يده ورأسه وكأنما هو يرفض ما يقال من قبيل المجاملة:

ـ لعلك سمعت منه أنني وجهت إليه خطاباً مفتوحاً بجريدتنا أدعوه فيه

إلى الانضمام إلى الجماعة. أحدثكم في هذا الأمر؟

حاولت أن أكذب فلم أستطع، فلهجته الحاسمة وسرعته في الكلام التي توحي بالرغبة في الحصول بسرعة على الردّ الصحيح لكي يتمكن من الانتقال إلى النقطة الهامة التالية، لم تتركا لي مجالاً سوى لأن أجيب:

ـ نعم.

فلماذا لم يردّ إذن؟

ـ أبي يرى أن جماعة الإخوان المسلمين بدأت بداية طيبة محمودة في دعوتها الدينية، غير أنها انحرفت بعد ذلك عن غرضها الأصلي بتدخلها في السياسة. وهو لا يرى الربط بين السياسة والدين.

ـ لا يرى الربط بين السياسة والدين؟!!

قالها في تهيج شديد وهو يشدّ لحيته السوداء بأصابعه الخمسة، وكإنما هي المرة الأولى التي سمع فيها هذا الانتقاد يوجّه لجماعته!

ـ لا يرى الربط بين السياسة والدين!! أنا بصراحة لا أفهم هذه العقلية. لا أفهمها إطلاقاً. (قال ذلك موجهاً حديثه إلى الآخرين). قد أفهمها من ملحد علماني، نعم، أما ممن لا شك في صدق إيمانه كأحمد أمين فلا.. هي نفس العقلية التي ألحظها في الشيخ مصطفى عبد الرازق وهيكل باشا.. كيف يمكنكم أن تفسروا هذا؟ كيف يمكنكم أن تفسروا أن أكبر علماء المسلمين شأناً عندنا يتحدثون عن عدم ارتباط السياسة بالدين، وكإنما لم يسمعوا قط عن الرسول ﷺ؟ ألم يكن الرسول يربط بين السياسة والدين؟ أيمكن أن نتصور شأن الإسلام الذي كتب أحمد أمين تاريخه لو لم يكن النبي ﷺ قد أحدث هذا الربط؟ ما رأيك؟

هززت كتفي لا أدري بم أجيب.

ـ تحب أن تفهم؟

ـ نعم.

ـ فاسمع إذن. الواضح من ملامحك أنك فتى نجيب، فاستمع إليّ واشرب قرفتك قبل أن تبرد. ما نعنيه بربط السياسة بالدين هو الإرادة أن تحكم هذه الأمة لا وفق دستور من وضع بشر قد يخطئون، وإنما وفق أحكام القرآن الكريم والسنة الشريفة، وهي أحكام لا يمكن أن يعتورها خطأ. ما العيب في ذلك؟

ـ يقول والدي إن مقتضيات العصر. . .

ـ ماذا؟ (صاح مستنكراً دون أن يدعني أكمل جملتي، وهو يخبط الأرض بعصا في يده) كيف إذن يسمي نفسه مسلماً ويحل لنفسه الكتابة في الإسلام؟ مقتضيات العصر؟!!

ـ أنا أرى أن أحكام القرآن وسنة النبي . .
ـ صلى الله عليه وسلم.
ـ صلى الله عليه وسلم، تصلح لكل زمان ومكان.

ـ أنت ترى ذلك، ولكنه يرى أن القرآن لم يحو كل ما يمكنه أن ينظم علاقاتنا وأوضاعنا التي تختلف عما كان قائماً وقت النبي عليه الصلاة والسلام، وكإنما لم يكن من السهل على الله عز وجل أن يرى ما سيكون في المستقبل!! ومع ذلك فلننظر إلى الأوضاع التي لم تختلف. خذ السرقة مثلاً. القرآن يقول: اقطعوا يد السارق. فلماذا لا يقطعونها اليوم؟

ـ أبي يقول. . .
ـ هذه سفسطة لا تفسير للدين. (أيضاً دون أن ينتظر إكمالي للجملة). في عهد النبي كانوا يقطعون يد السارق، وكفى بذلك تفسيراً. . عبد العزيز باشا فهمي أيضاً ظهر مؤخراً ببدعة جديدة في الدين، محاولاً أن يثبت أن القرآن لا يسمح بتعدد الزوجات. ولكن النبي والصحابة كانوا يتزوجون بأكثر من واحدة. . ما أريد قوله هو أن الحكومة الحالية تحكم بما يخالف الشرع، بما

يخالف حكم الله، ومن يحكم بما يخالف حكم الله والشرع حقّت محاربته وإسقاطه. ومن ثم فلا مفر من ربط السياسة بالدين إن أردنا أن نهيّىء مجتمعاً يرضى الله عنه، ويمكن للمسلم فيه أن يعيش حياة إسلامية حقة.

ثم ابتسم الشيخ البنا في وجهي فجأة وكأنما هو يعتذر عن لهجته المتحمسة:

ـ لا يمكن للمسلم في يومنا هذا أن يكون مسلماً حقاً إلا إن وحّد مع غيره من الأتقياء المخلصين جهودهم في سبيل تهيئة المجتمع الصالح. العمل الفردي لا يجدي. الصلاة والصوم والزكاة لا تكفي. والجهاد في سبيل فرض حكم الله واجب. هذا ما تبيّنته حين كنت في مثل سنك يا سيد حسين. الجماعة قوة والمسلم بمفرده غير ذي شأن. وإذ أن جماعتنا هي الجماعة الوحيدة في أمتنا التي نصبت أمام عينها هذا الغرض، فإن الانضمام إليها واجب ديني، هو الحل الوحيد. وإني أقولها مخلصاً مؤمناً: إن رفض الانضمام إلى جماعة الإخوان المسلمين إعراض عن الإسلام بأسره... قل هذا لأبيك!

ثم حوّل عني وجهه بغتة، فلم يوجّه إليّ كلمة واحدة بقية الجلسة. ونقلت عند عودتي نص الحديث إلى والدي، فهز رأسه مرتين أو ثلاث، ولم يعلق.

لم أجد في حديث الشيخ حسن البنا ما يغريني بالانضمام إلى الجماعة. وقد كان خليفة يتوقع أن يكون لقائي بالشيخ نقطة تحول في حياتي. فلما سألني بعدها عن انطباعي وارتآه سلبياً، فترت مشاعره نحوي فتوراً ملحوظاً، وكذا مشاعري نحوه ونحو أصحابه. ثم إذا بحادث يقع حوّل هذا الفتور عندي إلى عداء صريح ومجابهة مريرة، ألا وهو حادث اغتيال رئيس الوزراء في ذلك الحين، محمود فهمي النقراشي، على يد أحد أفراد جماعة الإخوان المسلمين، وقيل إنه كان بإيعاز من الشيخ حسن البنا.

كان النقراشي، زعيم السعديين، صديقاً حميماً لأبي، يسكن داراً قرب

دارنا، وكثيراً ما يتزاوران. وقد رأيته لأول مرة إذ كنت صبياً في روضة الأطفال. دخلت علينا مدرسة الفصل ذات صباح تخبرنا أن النقراشي باشا وزير المعارف سيزور روضتنا خلال النهار، وأنها ستطلب منا كتابة جملة، فمن كتبها ولم يخطىء في كلمة منها ناب عن الفصل في الترحيب بالضيف. وكانت الجملة:

«رأس المجلس رئيس من الرؤساء».

فلم يكتبها سليمة غيري. وإذ تقدمت في فناء المدرسة للترحيب بالوزير صافحني وقبل رأسي وسألني عن اسمي. وعندما سأل عما إذا كنت ابن أحمد أمين، تقدمت ناظرة المدرسة تجيب نيابة عني بالإيجاب، وتضيف قولها إن ابن الوز عوام. فعاد يقبل رأسي ويصافحني من جديد، ثم قال:

ـ حجم رأسه وبريق عينيه وحدهما يحكمان بذكائه.

ومن وقتها بات النقراشي عندي زعيم الأمة دون منازع، لا أقبل من أحد قولة سوء فيه. فما اغتالته جماعة الإخوان حتى تبلور عدائي لها ولمرشدها العام.

وكان بالمدرسة السعيدية الثانوية التي انتقلت إليها بعد تحولنا للسكنى بالدقي، عدد من الطلبة الشيوعيين، يتزعمهم فتى يدعى الدفراوي، شديدو العداء للإخوان. وكثيراً ما كان يحدث بين الفريقين احتكاكات واشتباكات، خاصة أثناء فترات الاضطراب السياسي. وقد صور لي خيالي أنه قد يكون بإمكاني إذا ما انضممت إلى هذه الطائفة الأولى، أن أستغلها في ضرب الطائفة الثانية كخطوة أولى في سبيل تحقيق أهدافي. حدث مثل هذا من قبل في مختلف عصور التاريخ. فكنت أتسلل أحياناً مع الدفراوي في فترة فسحة الظهور إلى الفصول الخالية، نفتح أدراج الطلبة من الإخوان، ونترك فيها ورقة تحوي عبارات السب والتهديد وتنتهي مكان التوقيع بعلامة زد Z (إذ كان فيلم «علامة زورو» في ذلك الوقت من أشهر الأفلام لدى الطلبة).

وقد تبينت إدارة المدرسة بعد وصول عدد من الشكاوي إليها خطورة

الأمر، فكلفت من يقوم من الفراشين بحراسة الفصول أثناء الفسح، مما وضع حداً لنشاطنا في هذا الميدان.

وفي يوم من الأيام سألني الدفراوي عما إذا كنت أقبل التبرع لإحدى المجلات التي يصدرها الطلبة الشيوعيون بالجامعة. وإذ أجبته بالإيجاب أخبرني أن محرراً فيها سيزورني ذلك اليوم في المساء لاستلام المبلغ، والاتفاق معي على الموضوعات التي أرى الكتابة فيها وإرسالها للمجلة. وأخبرني عن هذا الرفيق أنه طالب بالهندسة جدّ فقير، يسكن في شبرا، ويقطع المسافة يومياً إلى الجامعة سيراً، على الأقدام.

وفي المساء (لن أنسى ذلك المساء قط) كنت في حجرتي أستعد للذهاب مع العائلة إلى الأوبرا حين هتف بي والدي، وكان بالشرفة: ـ حسين! صديق لك يناديك في الحديقة.

صديق لي؟ لا بد أنه ذلك الشيوعي. وأحسست لحظتها بخجل شديد من نفسي أن يناديني أبي في براءة وسلامة نية، ظاناً أن الزائر صديقي حقاً، وأن الزيارة زيارة عادية، في حين كنت في واقع الأمر على وشك الإقدام على خطوة ستسهم في سقوط الطبقة التي تنتمي إليها عائلتي. فأنا الخائن إذن لطبقتي ولعائلتي وأبي. ومع ذلك فقد نزلت لاستقبال الزائر. وقد بدا منظره بثيابه الرثة، وحذائه القديم، جالساً في حجرة الاستقبال الفخمة، شاذاً غريباً. أعطيته مبلغاً من المال، وطلبت له الشاي وبعض الحلوى والسندوتشات. ثم شعرت برغبة قوية خبيثة في أن أزيد من إدراكه لثرائي. ففرّجته دون مناسبة أو داع على غرف الطابق الأسفل، على صالة البنج بنج، والمكتبة، والبلياردو المصغر الذي أهداه إليّ والدي في عيد ميلادي، ومجموعة الأسطوانات الضخمة من الموسيقى الكلاسيكية. كل هذا لأشعره أنني شيوعي لا لمصلحة، لا لأني فقير مثله، وإنما عن مبدأ وتفكير عادل، وضد مصلحتي الخاصة. والغالب أني أفلحت في بهره، كما أنه من المحتمل أن يكون قد ظن بي البلاهة والسذاجة إذ تكون لي آراء مثل آرائه.

أكملت ارتداء ملابسي، وتوجهت إلى دار الأوبرا مع العائلة. وفي المقصورة، ظل شبح هذا الزائر يطاردني ويقلقني. لقد وجه ماركس وإنجلز في نهاية بيانهما الشيوعي حديثهما إلى العمال قائلين: «ليس ثمة ما قد تفقدونه غير أغلالكم، بينما سيجلب النصر لكم عالماً بأسره». فالمبدأ الشيوعي إذن هو لأولئك الذين لا يملكون شيئاً يخشون فقده. أما عني فلديّ ما أخشى فقده، ولن أحصل في ظله على أكثر مما لديّ. ولو كان هذا الطالب يملك ما أملك لما اعتنق المبدأ. فما هذا الغباء إذ أعرض نفسي للخطر؟.. ينبغي عليّ إذن أن أكف عن الاتصال بهم.. أن أكوّن نفسي من الآن فصاعداً، بعيوبي ومحاسني.. دون خجل.. ودون تدخل. إن أبي تسوؤه مماطلة مستأجري الأرض في دفع إيجارها. وكذلك تسؤوني.. فلتسؤني إذن ولأكن الرأسمالي الذي أنا هو، دون خجل، ودون تدخل، ودون أدنى محاولة مني للتغيير.....!

مرت فترة المراهقة بي دون التسبب في إزعاج أو متاعب لأحد. فمن الجائز أن أكون قد شعرت في بعض الأحيان برغبة في التدمير، في أن أهب من فراشي ليلاً فأمسك بالعصا وأهشم جميع نوافذ البيت، أو أن أكون قد خبرت فترات من الانقباض والاكتئاب الشديدين، أو أن يكون شعوري الغامض بالرغبة الجنسية قد أثار عندي قدراً من الحيرة والألم. غير أن هذه الاضطرابات الداخلية لزمت مكانها فلم يحس بها الغير إحساساً كبيراً، ولم يلمس المحيطون بي وقتها سوى إقبال نهم مني على قراءة سير الأبطال، وتفضيل للعزلة. مع قدر غير مستحب من الغرور.

بدأت أتبين الرغبة الجنسية عندي نتيجةً لعدة عوامل: مجلات كمجلتي «دنيا الفن» و«الدنيا الجديدة» التي كانت تغص بصور النسوة العاريات والمقالات عن الغريزة الجنسية، ثم الأفلام الأجنبية التي بدأت في الإقبال على مشاهدتها منذ سن الرابعة عشرة، ثم أحاديث الهمس بين زملائي في المدرسة.

ومع ذلك فقد ظللت مدة لا أستطيع أن أدرك بوضوح طبيعة هذا الأمر..
التحقت بخدمتنا في ذلك الحين خادمة تدعى سميرة، فتاة شهوانية ضئيلة الجسم، رقيقة الوجه والملامح، ذات عينين ناعستين شديدتي السواد. كانت هاتان العينان تتجهان دوماً إلى الذكور في أي جمع، مع اتخاذ موقف الحذر والمخاتلة من والدتي وأختاي، فإن نزلت معنا إلى الحديقة للعب، شعرنا بأنها لا تشارك في اللعب مشاركة حقيقية. يدير أحدنا وجهه للحائط ليدع بقية اللاعبين يختبئون. فإن مضيت إلى ركن من الجراج أختبىء به، جاءت هي للاختباء معي، بينما المفروض أن يختبىء كل من اللاعبين في مكان بمفرده.
فإن دخلت المكتبة أبحث عن كتاب، أو جلست لإصلاح لعبة أو ساعة، إذا هي تدخل وتقترب حتى يلامس جسمها جسمي، وتنظر في عيني نظرة ذليلة خبيثة.
وهي تشعرني دائماً بثدييها إذ تلتصق بي. فكان يعتورني وقتها اضطراب لا أدري كنهه، مع إحساسي بأن في الأمر ما يشين. فهو دائماً يتطلب الخداع والكذب، لا تلتصق بي في حضرة أحد إلا من يصغرني سناً، فإن دخلت والدتي أسرعت بالابتعاد وشعر اثنانا بالارتباك، بينما ألمح في عيني والدتي نظرة الشك. وهذا الاقتراب الشديد وقت إصلاحي الساعة غير لازم تماماً لاشتراكها معي. بل هي لا تفهم شيئاً في إصلاح، وإنما هي مجرد حجة منتحلة للاقتراب. وإصلاحي للساعة أو اللعبة وقت قدومها يضطرب ولا يتقدم، وأحس بقلبي يدق بشدة وبدمي يغلي، فالأمر كله أساسه الغش والتظاهر.
وكنت أدرك هذا وأستعين أحياناً على شعوري إزاءها بالصلاة، دون أن أفهم بوضوح على أي شيء أستعين، وأظل أردد في حرقة: يا رب، يا رب، دون أن أكمل الدعاء، فيظل الدعاء معلقاً، وأحس نحوها أحياناً بالغضب الشديد إذ أفقدتني هدوئي، فألتمس الحجج الواهية لأصعد إليها في السطح فألكمها في وجهها بقوة، وأرقب الدم يسيل من بين أسنانها، بينما تظل هي ترمقني بنظرتها الحائرة الذليلة، متظاهرة بأنها لا تعلم ما جنت، ثم تشرع في البكاء، فتحل الشفقة عندي مكان الغضب، وأحيط كتفها بذراعي مهدئاً معتذراً، وأربت على

شعرها، فإذا نحيبها يخفت، وتشرع في مسح دموعها مسندة رأسها إلى صدري. ثم غضبت والدتي عليها لسبب ما، فأرادت أن تحلق لها شعرها كله، (وهي عقوبتها التقليدية للخدم) وقد رفضت الفتاة ذلك في إصرار. صاحت والدتي بها:

ـ أتتحدّينني؟

ـ لا أتحداك وإنما لا أريد لشعري أن يقص.

فطردتها أمي من الخدمة.

وقد سرني طردها سروراً زائداً، متنفساً له الصعداء، ظاناً أني قد تحررت به إلى الأبد من شعور منغص غريب. غير أني كنت مخطئاً في هذا الظن.

كان لي صديق حميم بالمدرسة السعيدية يدعى نبيل. وقد لاحظت منه خلال السنة الأخيرة من الدراسة الثانوية تغيراً واضحاً تجاهي، وعزوفاً عن صحبتي إلى صحبة ثلة كان أفرادها يتبادلون المجلات والكتب، ويجتمعون في فترات الفسح لقراءة فقرات معينة من كتاب «ألف ليلة وليلة» وغيره يغرقون أثناءها في الضحك. وقد آلمني عزوف هذا الصديق ألماً شديداً. فلما قررت سؤاله صراحة عن سر تغيره، أجاب في إخلاص:

ـ إن التكلف ليس من سمات الصداقة.

ولم أفهم ما يعني. فسألته في حيرة:

ـ أيّ تكلف؟

أجاب بأنه يعني رفضي مشاركة الغير في الحديث عن النساء والجنس. وقد كانت هذه المحادثة القصيرة، لا معرفتي بسميرة، أول مانبهني تنبيهاً واعياً إلى مشكلة الجنس.

انضممت إلى الثلة مجاملة لصديقي، وسعياً إلى اكتساب مودته من جديد. وقد سرَّ أفرادها أن يشاركهم اهتماماتهم أول الفصل وأحد المعروفين

لدى إدارة المدرسة بحسن السلوك، مما يضفي نوعاً من الشرعية على هذه الاهتمامات. فقرأت معهم في «ألف ليلة»، وتكلّفت الضحك لنكاتهم الجنسية. وكان البعض يسرد، أو يلفق، القصص عن صلاته بفتيات. وسرعان ما أصبح لدى كل فرد ما يحكيه، إن كذباً وإن صدقاً، فإن سألوني ابتسمت ابتسامة من يخفي شيئاً، وإن ألحّوا ملقّبين إياي بدون جوان الكتوم، اختلقت لهم قصة عن علاقة بيني وبين ابنة الجيران.

كانوا يعلمون كذبي، خاصة وهم يرون وجهي يحمر احمراراً شديداً إذ أسمع البذيء من ألفاظهم. وعزوفي عن استخدام ما يستخدمون من تعابير. غير أنهم كانوا يريدون إطرائي وأن يكسبوا لأنفسهم نفس الإطراء والتصديق. وبالرغم من أن كل فرد منا كان يشك في صدق الآخرين، فقد كانت تلك القصص والخبرات المزعومة تقلقنا، أو تقلقني على الأقل، وتدفعني إلى أن أسائل نفسي أحياناً عما إذا كنت الوحيد بينهم من لا صديقة له. وبدأت مرحلة كنت كلما شاهدت خلالها في الطريق فتى يرافق فتاة، انتابني الحزن والغم، خاصة إن كان سن الفتى يقارب سني.

* * *

ثم كان يوم مشهود يوم أعلن إلينا أكبر أفراد الشلة سناً أن عائلته قد سافرت إلى الريف مدة يومين، تاركةً له الشقة وحده، وأن ابن عم له، وهو طالب بكلية الطب، قد وعد بإحضار امرأة إلى الشقة في المساء، وسأله أن يحضر معه عدداً من أصدقائه إن شاءوا.

وعرض علينا الحضور، فقبل البعض ورفض البعض، وكنت بين الرافضين، غير أن من قبل منهم لم يكونوا ليتركوا أول الفصل وشأنه. فتمادوا في الإلحاح حتى قبلت. ولكي يطمئنوا على أني لن أخلف الوعد، مر عليّ عدد منهم في المنزل مساءً لاصطحابي.

وذهبت. وجلسنا في صالون بالي الأثاث، عاري المصباح، ننتظر طالب

الطب والمرأة، وسألت الزميل صاحب الشقة عما إذا كـان قد شـاهد المـرأة، فأجاب بأنه شاهدها عصراً حين ذهب مع ابن عمه للمعاينة والاتفاق. وقال إن شعرها أصفر، فسرح خيالي لهذه الجملة الأخيرة. شقراء الشعر، وربما زرقاء العينين. فلعلها فتاة لا بأس بها على الإطلاق. لعلها فتاة كريمة قد اضـطرتها الظروف القاسية إلى احتراف هذه المهنة. فهل من الممكن إنقاذهـا؟ أن أقوم تجاهها بدور أرمان ديفال مع مرجريت جوتييه؟ سأدخل الغرفة عليها فأدهشهـا بألا أقربها، وأقضي الوقت المخصص لي في سؤالهـا عن حياتهـا وظروفهـا، وأناشدها العودة إلى صوابها، ثم أعطيها المبلغ وأخرج. فإن نشأت بيننا علاقة حب فسأتزوجها رغم كل معـارضة. فليس هنـاك ما هـو أسمى من إنقاذ نفس خاطئة. وإرجاع الشاة الضالة إلى القطيع..

وأخيراً وصلت الشاة الضالة إلى الشقة، فإذا هي إلى البقرة أقرب. امرأة في الأربعين، تلبس ملاءة لف، شديدة السمرة، ذات شعـر مصبوغ، وأسنـان مذهبة، وألفاظ نابية، ما أن رأت جماعتنا حتى دقت صـدرها بكفهـا متظاهـرة بالانزعاج.

ـ ثمانية؟! أتريدون قتلي؟!

ولم تطلب إنقاص العدد، وإنما طلبت زيادة الأجر. ثم اختلى بها طالب الطب للتأكد من خلوها من الأمراض.

وتسمّرت في كرسيي أرتعد وقد أحسست بنوع من الحمى مقبلة، لاعناً نفسي أن قبلت الحضور، وأن انضممت إلى هذه الثلة، ثم قفـزت إلى ذهني فكرة الفرار، فقمت أسأل صاحب الدار عما إذا كان بشقته تيليفون. فلما أجاب بالنفي، قلت إني سأنزل إلى الطريق من أجل مكالمة تيليفونية هامة ثم أعود. فما وصلت إلى باب العمارة حتى أطلقت ساقي للريح.

وعدت إلى بيتنا محموماً فنزعت ملابسي ودخلت الفراش، مسبباً الفزع لوالدي ووالدتي إذ شاهداني أتصبب عرقاً وارتعشت بشدة ثم انخرطت في

البكاء، وكلما تبينت عطفاً متزايداً من أمي زاد بكائي وخجلي إذ تلمسني بيدها. فلما خرجت تعد لي عشاء وانفردت بوالدي، لم أملك أن قصصت عليه ما حدث. فقطب جبينه وأطرق إلى الأرض مفكراً.

ـ لا أدري ما أقوله لك. لقد أسأت صنعاً ثم أحسنت إذ تداركت الأمر. فلتترك هذه الجماعة، ولا تضع نفسك مرة أخرى في تجربة مماثلة. لقد أنجاك الله هذه المرة. فالأمر أبشع مما يمكنك أن تتصوّره. وقد كانت التجربة كفيلة بأن تفسد إلى الأبد علاقتك بالنساء.

ومع ذلك فقد أسفت بعد أيام أن أخبرت والدي. فقد أثار اعترافي حيرة لديه وطول تفكير، بينما كنت قد قررت في حزم أن أقطع علاقتي بتلك الشلة بل وحتى بصديقي نبيل. غير أن الواضح أن الحادث أثار مخاوف أبي، وأن تفكيره قاده إلى ضرورة شرح العلاقات الجنسية لي، وأن يشرف على تطور موقفي منها. فانفرد بي يوماً وبدأ حديثه وأسئلته وهو في ارتباك يزيد على ارتباكي. غير أني شعرت إذ أستمع إليه باستياء شديد، وبأنه إنما يفعل ما يفعل نتيجة إحساس بواجبه لا كأمر طبيعي، فكإنما قد قرأ في كتاب أن عليه التحدث مع أبنائه في هذه الأمور. فرجوته ألا يستمر. وشعر هو باستيائي فاحمر وجهه وسكت.

واتخذت من يومها موقفاً بالغ التعفف والشدة من موضوع الجنس، لا أشترك في حديث فيه، وأتخطى بناظري الفقرات الفاضحة في الكتب، فإن تفوه أحد الطلبة بعبارات جنسية بذيئة أمامي عنفته وأبديت احتقاري له وهدّدته بإبلاغ إدارة المدرسة. فكان الطلبة في البداية لا يعبأون بهذا التقريع أو التهديد، إلى أن وقع حادث جعلهم يأخذون التهديد مني على نحو جدّي:

كان بفصلنا طالب هو ابن أحد أمناء القصر الملكي، وسيم الوجه، ممتلىء الجسم، مخنّث السلوك. وكان قد استحوذ على لب عدد من الطلبة، يتبعونه أينما ذهب، ويحيطون به في فناء المدرسة إحاطة السوار بالمعصم، إن لحقته إهانة أو عدوان تولوا الانتقام له نيابة عنه. وهو كذلك مقرّب لدى بعض

المدرسين، خاصة مدرس الألعاب الرياضية الذي كان بادي الشغف به.

ثم حدث أن خرجنا في رحلة مدرسية إلى حلوان، وقضينا ثلاث ليال في مخيمات بالعراء. وصادف أن كان مبيتي في نفس الخيمة مع هذا الطالب ومدرس الألعاب وعدد آخر من الطلبة. وإذ هبط الليل وآوينا إلى الفراش، استيقظت في الثانية صباحاً على صوت بالخيمة، ورأيت المدرس يتسلل من مكانه إلى فراش الصبي، ويوقظه برفق. فما أدركت ما يجري حتى أيقظت جاراً لي من الطلبة في هدوء، وأشرت له إلى مكان المدرس حتى يكون شاهداً معي على ما رأيت.

وفي اليوم التالي لانتهاء الرحلة، كان أول ما صنعت بعد وصولي إلى المدرسة أن توجهت إلى حجرة الناظر أخبره بما حدث.

صاح مزمجراً:

ــ عندك إثبات لما تدّعي؟

قلت في هدوء:

ــ نعم.

وخرجت أنشد الطالب جاري. فأتى المسكين إلى حجرة الناظر بائساً لا يدري ما يقول. وأدركت من جملته الأولى أنه سيحاول القول بأنه لم ير شيئاً، فحدجته بنظرة نارية أربكته. ثم قص على الناظر ما حدث. فلما فرغ طلب الناظر منا الانتظار خارج غرفته، ودق الجرس يطلب من الفراش استدعاء المدرس إليه.

وجاء المدرس، باسم الوجه كعادته، لا يدري سبب استدعائه، فلما رآني وزميلي واقفين خارج حجرة الناظر، ظن أننا إنما استدعينا لنيل الجزاء على أمر ارتكبناه. فحيّانا غامزاً بعينه:

ــ حتى أنت يا حسين؟! ماذا يمكن أن تكون قد ارتكبت؟

غير أننا لم نرد تحيته. ونحينا عنه وجهينا في وجوم.

وانقضى ثلث ساعة، خرج المدرس بعده في حالة مخالفة تماماً للحالة التي دخل بها، شاحب الوجه، ذليل النظرة، يمسح عرقة بمنديله. وإذ وقعت عيناه علينا، توقف متردداً، ثم تقدم منا وتمتم:

ــ غفر الله لكما ما صنعتما.

ثم انصرف.

وعلمت المدرسة بعد يوم بأمر فصل الطالب والمدرس نهائياً.

قال والدي حين سمع بحادث المدرس:

ــ إن قلقي عليك ليفوق قلقي على أي من إخوتك. وأكاد أرى مستقبلك أمامي رؤى العين، مستقبلاً مشحوناً بالمتاعب والاصطدامات. فإن كان حسن الحظ قد مكّن لك حتى الآن من أن تنتصر، وأن تحقق كل ما تصبو إليه، فتأكد أن الحال لن يكون هكذا دائماً. وإنك لمن النوع الذي إن صادف حائطاً ظل يخبط برأسه حتى يقع الحائط أو تُشجّ الرأس. والغالب الذي أخشاه أن يكون شجّ الرأس نصيبك.

ــ فهل أخطأت إذن إنْ أبلغت الناظر؟

ــ ليس هذا ما أعنيه. وإنما أعني طبيعتك وشخصيتك بوجه عام. إنك صلب. عنيف. وقد يجلب عليك عنفك كراهية زملائك اليوم، ورؤسائك حين تكبر.

ــ لن يكون لي رؤساء أبداً.

ــ كيف يا بني؟ كل شخص في الدنيا له رؤساء.

ــ أنت لا رئيس لك.

ــ كيف؟ أفليس عبد الرحمٰن عزام رئيسي في الجامعة العربية؟ أليس لطفي السيد رئيسي في مجلس الجامعة المصرية؟

ـ إن بسمارك يقول: لا أستطيع بطبيعتي أن أكون واحداً من العازفين في فرقة موسيقية، فإما أن أقود الفرقة أو أتجنّبها.

ـ هـذه أقوال ستؤدي بـك إلى التهلكة. فـاسمـع مني وألن عـريكتـك ولا تسـع إلى تشكيل النـاس حولـك وفق ما تهـوى، أو تعتبرهم مجـرد أدوات تستخدمهم لنيل أغراضك. فإن كنت تستشهد بأقوال بسمارك أو نابليون، فاتعظ أيضاً بنهايتهما.

ثم هزّ رأسه وأضاف في حزن:

ـ غير أن الأيام كفيلة وحدها بأن تثبت لك صحة ما أقول. كل ما أخافه هو ألا تدرك ما أعني إلا بعد حشد من التجارب المؤلمة.

في اليوم الأخير من شهر مايو عام ١٩٥٤، كانت وفاة والدي عن ثمانية وستين عاماً.

* * *

لا أملك إلى اليوم نفسي من العجب كلما فكرت في بساطة معيشته وقلة احتياجاته: مأكله وملبسه ومختلف عاداته. فإفطاره كوب من اللبن وقـطعة من الجبن، وغداؤه خال من النشويات لإصابته بمرض السكّر البولي، وعشاؤه اللبن الزبادي وبعض الفاكهة. فأما الشاي فلا يكـاد يشربـه، وفنجان القهـوة يشربـه عقب الإفطار، وآخر بعد ساعة من النوم عقب الغداء. وأما الخمر فلا يقـربه. ثم لا إفراط في شيء غير التدخين، فالسيجارة لا تكاد تفارقه، غير أنه لا يكاد يشعلها حتى يلقي بها بعد نفسين أو ثلاثة، ثم يشعل أخرى بأصابع يد ترتعش.

وهو قليل الاحتفـال بالملبس. غيـر أنه لم يهمله كليـة إلا في السنوات الثلاث الأخيرة من حياته بعد إصابته بجلطة في ساقه وتدهور صحته، فاستغنى عندئذٍ نهائياً عن رباط العنق الذي كان يضايقه دوماً ولكنـه يحتمله قبل ذلـك،

ولم يعد يستنكف من الظهور أمام الناس ولحيته لم تحلق، أو يستقبل ضيوفه مرتدياً جلبابه.

وبساطته في أسلوب معيشته تنعكس في كتاباته وأسلوبه الأدبي. فهو لا يعرف تأنقاً أو حذلقة، وإنما هو قلم يجري بما يعنّ له من خواطر، والجملة عنده على قدر الفكرة. وهو يكتب للعامة كما يكتب للخاصة، ولا يسعى إلا إلى إفهام. غير أنه مع استنكاره للتأنق أو الحذلقة في كتابات غيره، كان يدرك ـ فيما أعتقد ـ أن أسلوبه دون أن يستحق وصفه بالأسلوب الأدبي الرفيع. ولا أزال أذكر، بشيء من العجب والإشفاق، كيف أبهجه أشدّ البهجة أن يتحول عباس العقاد إلى الاعتراف به أديباً بعد صدور كتابه «حياتي»، بعد أن ظل دوماً قبلها يصرّ على وصفه بالبحاثة أو المؤرخ العالم.

فثقته بنفسه لا تتعدّى الثقة بمبادئه الخلقية وموقفه الأساسي من الحياة. أما بصدد كتاباته فإعجاب النقاد والقراء، أو حتى إعجاب أولاده، كان يجلب إلى شفتيه ابتسامة الرضا الشديد، وقد يؤرّقه ويُبئسه لبضعة أيام هجوم في صحيفة.

* * *

وهو خجول حييّ في المحافل العامة خجل العذراء وحياءها، لا ينتقص من خجله ما يلقاه الناس به من توقير ومودّة. إن سار سار مطرقاً، وإن دلف إلى قاعة اجتماع أو مجلس قوم اضطربت خطواته وتعثّر. وقد دفعه ذلك الضعف الشديد في بصره إلى أن يتجنب النظر إلى الناس حتى لا يحسب أحدهم أنه لم يحيّه استكباراً، أو تجاهله عامداً، في حين أنه لم يتعرّف عليه لضعف بصره. وقد حدّثنا مرة عن كيف قصده رئيس الوزارة في محفل عام ليصافحه ويهنّئه على كتاب جديد له، فسأله والدي عن اسمه، وهو ما أحرج الرئيس وأغضبه! وهو مع خجله هذا عنيف المعارضة ـ ربما أعنف مما ينبغي بسبب هذا الحياء

نفسه ـ حين يرى مبدأ يهدر، أو أخلاقيات تُنتهك، حتى إن كان (أو قل، خاصة إن كان) معارضه من علية القوم ورؤسائهم.

وهو شديد التواضع دون أدنى تكلف، تحيته للوزير كتحيته للساعي أو الخادم، وبابه مفتوح لهذا كما هو مفتوح لذاك. وقد كان يزوره في المستشفى وقت إجراء عملية الشبكية له وزراء وأعيان، وسعاة وفلاحون، فيأذن لهم جميعاً بالجلوس حول سريره، حتى تكاد ساق رئيس الديوان الملكي تلامس ساق فرّاش مكتبه بكلية الآداب.

وكان سخياً إلى أبعد الحدود، ساذجاً أشدّ السذاجة في أمور المال، ولا أظنه كان ليترك مليماً واحداً لأسرته لولا حرص والدتي وحسن تدبيرها. فهو يمدّ يد العون دوماً لأقربائه الفقراء. والباعة تتهلل وجوههم إن هم رأوه يدخل محالهم، (إذ كان غالباً ما يشتري حاجيات البقالة والفاكهة بنفسه)، فهو لا يساوم ولا يتشكك في عدالة أسعارهم. وقد يخطىء، بسبب ضعف بصره، فيعطي الورقة من فئة العشرة جنيهات ويحسبها جنيهاً، بل وقد يزيد على الثمن المطلوب حتى ينتقي البائع له أفضل بضاعة.

وقد كان مع هدوئه وتواضعه وطول صمته وقلة كلامه قويّ الشخصية مؤثراً فيمن حوله. وهي قوة نابعة أساساً من قوة خلقه ونبل مبادئه ومسلكه وعدله وموضوعيته. فالعدل والموضوعية سمتان بارزتان فيه، سواء في حياته الخاصة أو العامة، وهي السمة الغالبة في كتاباته، إلا فيما تعلّق منها بفرقة الشيعة الذين لا أظنه أنصفهم أو حاول محاولة جادّة أن يلمّ بأدبهم ووجهة نظرهم قبل أن يصدر أحكامه القاسية عليهم. وهو حريص دائماً على الإلتزام بحدود المنطق، وكان يُرجع ذلك إلى اشتغاله زمناً طويلاً بالقضاء.

وسمة أخرى بارزة فيه، وغالبة عليه، وهي الحزن. حزن عميق دائم حتى في حالات الرضا، ولحظات المجد، وساعات الإستجمام. فهو نادراً ما يضحك. وإن راقته نكتة أو استخفّه موقف فأقصى ما هناك ابتسامة حزينة.

ولا شك في أن حزنه هذا نجم عن نشأته الأولى، فحياته بعدها كانت سلسلة من الإنجازات والإرتقاء والنجاح، ولم يكن في حياته الخاصة أو العامة (حتى أصابه المرض)، أدنى مبرر لمثل هذا الحزن العميق، كما أنه لم يعرف من مولده إلى وفاته ضائقة مالية.

* * *

وقد تفسِّر موضوعيته وعدله كراهته للحزبية، وعزوفه عن الإشتغال بالسياسة. وقد حاول في شبابه الأول أن يهتم بالسياسة فلم يفلح: «فقد كنت أخاف السجن وأخاف العقوبة. ولعلّ من أهم أسباب خوفي إشفاقي على والديّ وقد أصبحت ابنهما الوحيد بعد وفاة أخي، إذا سمعا بحبسي أو عقابي هدّ ذلك من كيانهما الذي أشرف على السقوط. وقد علّمني أبي الإفراط في التفكير في العواقب. ومن فكّر في العواقب لم يتشجّع. والسبب الثاني أن مزاجي مزاج علمي لا سياسي. ولهذا كنت أختلف عن كثير من زملائي السياسيين كمحمود فهمي النقراشي وصبري أبو علم بأنهم كانوا يؤمنون بسعد زغلول كل الإيمان، ويعتقدون صحة كل ما ذهب إليه وارتآه، ويؤولون ما يصدر عنه من خطأ ويلتمسون الحجج لتبريره. ولم أكن على هذا المذهب، بل كنت أؤيد سعداً وأنقده، وأؤيد عدلي يكن وأنقده، وليس هذا هو المزاج السياسي الذي يؤمن بكل ما يصدر عن الحزب ويتحمس له...».

كذلك يفسر هذا العزوف منه عن الاشتغال بالسياسة عدم تعيينه في أحد المناصب التي توصف عادةً بالخطيرة، وعدم نيله رتبة الباشوية. وقد قصّ علينا كيف أن سعد زغلول امتعض منه يوماً وازوّر بوجهه عنه إذ أجابه والدي برأي جاء موضوعياً على نحو لم يستسغه سعد، فإذا هو يتمتم في ضيق:

ــ إنت موش عاجبني النهاردة!

وقد حاول الشيخ حسن البنا ـ كما سبق أن ذكرت ـ ضمه إلى جماعة الإخوان. كما حاول صديقه النقراشي زعيم السعديين ربطه بالحزب السعدي،

وهو حزب كان يضم الكثيرين من أصدقائه كالدكتور عبد الرزاق السنهوري. وأذكر أن النقراشي فاتحه مرة في منزلنا بالاسكندرية حتى يتولّى رئاسة تحرير صحيفة الحزب الجديدة «الأساس»، فأبَى رغم ضخامة المرتب المعروض، فأرسل إليه إبراهيم باشا عبد الهادي ليحاول كرّة أخرى إقناعه، فعاد إلى الاعتذار بأنه أديب وباحث لا يأبه كثيراً بأمور السياسة، ولا يصلح لمثل هذا المنصب.

غير أن كثرة أصدقائه من بين السعديين جعلت البعض، والقصر نفسه، يعتبرانه سعدياً، خاصة أن المراكز الرفيعة التي كان يتولاها إنما كان يتولاها متى وصل السعديون إلى الحكم، ويفقدها متى عاد الوفد. وكان أبرز سوء فهم لحقيقة اتجاهات أبي هو عندما قررت اللجنة الدائمة لجوائز الدولة في الأدب منح هذه الجوائز عام ١٩٤٨ لوالدي ولعباس العقاد وطٰه حسين ومحمد حسين هيكل. ذلك أن الملك، عندما رفعت إليه القائمة لإقرارها، شطب بيده اسم طٰه حسين منها باعتباره وفدياً معادياً له، ثم تردّد في إقرار بقية الأسماء بالنظر إلى أن هيكل من الأحرار الدستوريين، بينما العقاد وأحمد أمين (في رأيه) من السعديين، وأشار بأن يُختار رجل واحد من كل من الحزبين. غير أن اللجنة رفضت أن تستبعد العقاد أو أحمد أمين، وأرسلت إلى الملك من أفهمه أن الثاني ليس سعدياً، وأن الأمر على أي حال يتصل بالأدب لا السياسة. فقبل الملك في النهاية.

وأقيم في قاعة الاحتفالات بجامعة فؤاد احتفال ضخم كان ذروة حياة والدي الأدبية وتتويجاً لها وله. فهو لم يمنح فيه جائزة الدولة للأدب فحسب، بل درجة الدكتوراه الفخرية كذلك التي قرر مجلس كلية الآداب خلعها عليه. وقد حضرت مع كافة إخوتي هذا الاحتفال، فكانت دموع الفرح لا ينقطع تدفقها من عينيّ طواله، فما تقدم أبي في روبه الجامعي من المنصة ليتسلم براءة الجائزة من إبراهيم عبد الهادي، حتى قمت من مقعدي أصفق بكل ما فيّ

من قوة، ولم أملك نفسي من أن ألتفت إلى الجالسين جواري قائلاً:

ــ هذا أبي!

وكان إحساسنا جميعاً وقد رأيناه يخرج منديله ليمسح دموعه أن ذلك اليوم كان أعظم أيام حياته.

* * *

وهو مع كراهته للملك وسروره بعزله، لم يجد في الكثير من تصرفات عبد الناصر خلال السنتين الأوليين من الثورةمدعاة للإعجاب. وأجدني إلى اليوم أبتسم كلما تذكرت كيف كان يجلس في اهتمام شديد للاستماع إلى خطب عبد الناصر في المذياع، ثم يقوم في غضب وألم لإغلاقه بعد دقائق معدودات حين تتكرر الأخطاء النحوية على لسان «الخطيب»، وهي أخطاء كانت تؤذي مسمعه أيما إيذاء.

وقد كان في مواقفه السياسية شيء من تناقض: فهو يتمتع، كما يشهد الكافة، بجرأة شديدة في الحق، وكثيراً ما كان يقاوم ويعارض ويحتدّ ويقدّم استقالته من عضوية لجان ومجالس إدارات حين كان يرى اعتداء على قيم يؤمن بها، كاستقلال الجامعة مثلاً. وهو مع ذلك لم يهاجم الملك في مقال أو كتاب، ولا هو انتقد تصرفاً ساءه من جانب حكومة الثورة، كما لا أعتقد أنه ساهم في شبابه في الحركة الوطنية ضد المستعمر البريطاني بأكثر من موقفين أو ثلاثة، كلها خاصة بتوحيد صفوف المسلمين والأقباط.

* * *

كان الصراع بين القديم الموروث والجديد الذي اتصل به عن طريق القراءة والأصدقاء والحياة، يحتدم دوماً في نفسه على أحدّ صوره، وبصدد كافة المجالات: في علاقته بزوجه وأبنائه، وفي أسلوب معيشته، وفي كتاباته. فجذوره في القديم، (في الجو العائلي الذي نشأ فيه، وفي المجتمع الذي

عرفه في شبـابه، وفي الأزهـر حيث درس)، أعمق من أن يستأصلهـا الجديـد الطارىء. وحماسـه للتغيير والإصـلاح ومسايـرة العصر، أقـوى من أن تطفئـه التقـاليد المـوروثة. وقـد تحوّل من العمـامة والجبّـة إلى الزيّ الأوروبي على مضض وبناءً على إلحاح أصدقاء له. غير أنه لم يرتح تماماً إلى الزيّ الجديد، ولا كان يستشعر الراحة إلا في جلبابه في بيته. فإن جلس إلى طعام بين أهله، أو إلى كتاب في حجرة مكتبه، تربّع أو رفع رجله على قاعدة الكرسي أو الأريكة وكإنما هو في رواق الأزهـر. وهو يستغني بأصابعه عن الشوكـة والسكين. وقد يستنكر في قرارة نفسه من أولاده تصرفاً لم يكن ليحلم أن يتصرفه في حياة أبيه، أو عقيدة تخالف عقيدته، غير أنه يؤمن كذلك بحقهم في أن تكون لهم حياتهم الخاصة، وعقائدهم المبـاينة، ويـرضخ رضـوخ الحكيم لمقتضيات التـطور، واختلاف الأجيال. ولا أذكر أنه حاول قط أن يفرض اهتماماته الفكرية على أحد منا، ولا أن يجبر أحداً على صلاة أو صوم. كما لا أذكر أنه استخدم عنفاً معي إلا مرة واحدة، كنت أقرأ له فيها صحيفة، فتكررت مني أخطاء نحـوية، فـإذا هو يخطف مني الجريدة ويضربني بها ثلاث ضربات على فمي!

غير أن القديم يتمثل فيه أكثر ما يتمثل في علاقته بأمي. فهو لا يصطحبها معه في زياراته أو رحلاته أو نزهاته، ولا يشركها في اهتماماته العقلية أو شؤون حياته العامة. فإن حادثها حادثها عن الأهل أو مشاكل الأولاد والخدم. بل إنه، وهو ما نجده اليوم بالغ الغرابة، لم يكن يناديها باسمها قط، ولا كانت هي تناديه باسمه. فإن أراد أن يدعوها رفع صوته أو تنحنح، أو نـادى نداءً مبهمـاً عامـاً. اللهم إلا في حالات تبسط مؤثرة، أو رضا شديد، أو اعتراف بذنب، فكان وقتها يناديها بالست أم حمادة! فـإن كتب إليها من بلد سـافر إليـه، كانت خـطاباتـه لضرورة ملحة، ولم يستهلّها بتحية أو حتى بلفظة «عزيزتي»، وإنما كان يدخل رأساً في الموضوع، ويذكر المطلوب. ومن خطاباته التي بعث بها إليها مرة من رأس البر، وكان قد سبقنا إليها، (وهو خطاب لا نزال نذكره في محيط الأسرة

ونضحك لتذكّره أشدّ الضحك) ما يجري على هذا النحو:

«١ ـ ثلاث مخدات.

٢ ـ شمسية البلاج.

٣ ـ مجموعة الكتب التي تركتها على المكتب.

«أرجو إحضار هذه الأشياء معكم، والسلام». !

* * *

لم تبدأ رحلاته إلى أوروبا إلا وهو في منتصف العقد الخامس من عمره، حين بدأ اسمه يلمع في ميدان التأريخ الإسلامي، وصار يدعى إلى مؤتمرات المستشرقين، أو يكلف بمهام كحضور مؤتمر المائدة المستديرة في لندن عام، ١٩٤٦. فإن تذكرت اليوم ما كان يرويه لنا عند عودته من انطباعات عن الحياة الأوروبية، تذكرت لفوري كتاب «تخليص الابريز في تلخيص باريز» لرفاعة الطهطاوي. فهو منبهر بأمور صارت عند أبنائه وحفدته من الأمور العادية المألوفة: كالأمانة والنظافة والنظام وقلة الضوضاء ودقة المواعيد والديموقراطية وإطاعة القانون. وقد تأثر تأثراً عميقاً إذ رأى إرنست بيڤين وزير الخارجية البريطاني يحضر مؤتمر المائدة المستديرة في حلّة رثّة، وياقة قميص بالية، وقارن لنا بين هيئته وهيئة وزرائنا على تفاهة شأنهم. كما تأثّر تأثّر الشيخ محمد عبده من قبله إذ رأى الشعوب المسيحية أشدّ التزاماً من الشعوب الإسلامية بقاعدة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. فإن كان قد سطّر في السنوات الأخيرة من حياته إدانة لمادية الغرب، فقد كان بوجه عام أميل إلى الإعتراف بتفوق الغرب في كل مضمار تقريباً، وإلى التحسر على حاضر العالم الإسلامي.

كذلك كان يكنّ احتراماً عميقاً لكبار مستشرقي عصره، من أمثال هاملتون جيب وبرجشتراسر وشفالي ومرجوليوث، خاصة الأول الذي كان يزوره كلما حضر إلى مصر، والذي تولّى كتابة مادة «أحمد أمين» في الطبعة الثانية من دائرة

المعارف الإسلامية، ويردّد أمامنا قولة محمد عبده: «إن المستشرقين ألّفوا في تاريخ الإسلام ما لا نظير له في مؤلفات المسلمين». غير أنه مع أخذه ملاحظاتهم على أجزاء كتابه «فجر الإسلام وضحاه وظهره» على نحو جدّي، ومع استفادته استفادة جمّة من نتائج أبحاثهم التي كان يكنّ أعظم تقدير لما بذلوه فيها من جهد، لم يكن موقفه منهم موقف التبعية أو الانقياد ولا كان غافلاً عن عنصر سوء النية لدى عدد منهم. ولو أنه عاش حتى رأى تدهور حال الإستشراق، وضحالة معظم ما ينشر اليوم في هذا الميدان، لكان موقفه على غير ما كان عليه.

* * *

كانت القراءة والكتابة عماد حياته، ومتعته الكبرى. وقد يجد المثقف في أيامنا هذه جوانب ضعف وثغرات خطيرة في ثقافة والدي، مع تقدير عميق في الوقت ذاته للشوط الذي قطعه في هذا المضمار. فهو يذكّرني بالمثل القائل: «الثعلب يعرف أشياء صغيرة كثيرة، والقنفذ لا يعرف غير شيء كبير واحد». فوالدي كالقنفذ في هذا المثل؛ لا يكاد أحد يضاريه في معارفه الإسلامية، وفي إلمامه بتاريخ حضارة الإسلام وعلومه. أما فيما عدا ذلك فثمة خلل كبير، تداركه بعض كتاب عصره كالعقاد، بل وطٰه حسين. فهو لا يعرف شيئاً عن الموسيقى الغربية ولا يستسيغها، والأسماء الرنانة في ميدانها هي عنده مجرد أسماء. وهو لا يكاد يقرأ قصصاً أو مسرحيات غير بعض ما يهديه إليه من مؤلفاتهم أدباء عصره، كتوفيق الحكيم، ومحمود تيمور، والروائي الشاب نجيب محفوظ، تجنباً للحرج حين يقابلهم بعدها. فلا أعتقد مثلاً أنه قرأ في حياته رواية لتولستوي، أو دوستويفسكي، أو مسرحية لموليير. وهو لا يعرف شيئاً عن الأوبرا والباليه، ولا عن فن التصوير والنحت، ولا أظنه زار متحفاً للفنون في مدينة أوروبية إلا من قبيل «الواجب». كذلك فقد كانت معارفه الخاصة بالتاريخ، عدا التاريخ الإسلامي، بل وحتى بتاريخ مصر القديم،

شديدة القصور. وفي ظني أن أي شاب يعرف اليوم عن الماركسية وغيرها من المذاهب الاقتصادية أكثر مما كان يعرفه أبي.

غير أنه مع كل هذا القصور لم يكن يتظاهر بعكسه، ولا كان الأمر يؤرّقه. كل ما هنالك هو أنه حين ضعف بصره ضعفاً شديداً وصار مهدّداً بفقده، أحس بحسرة شديدة إذ لم يعن في شبابه بتنمية اهتمامات وهوايات مختلفة، ولم يهو غير القراءة والكتابة اللتين أصبح الآن مهدداً بأن يحرم منهما. فكان يردّد قوله: «لو أني نمّيت في نفسي هواية الاستماع إلى الموسيقى مثلاً، لكان في لجوئي الآن إليها العزاء عن فقد البصر».

وهو لم يشرع في تعلم لغة أجنبية إلا بعد أن جاوز الخامسة والعشرين. وقد اختار الانجليزية (لم يعرف غيرها)، وأتقنها قراءة وإن لم يتقنها كتابة أو حديثاً. وكان بقية عمره كثير القراءة فيها، ولكنه اقتصر على قراءة أبحاث المستشرقين وكتب الاجتماع والمنطق والفلسفة، خاصة كتب برتراند راسل وجود اللذين كان يعجب بهما. وكانت تستهويه العقلية الأنجلوسكسونية ومنطق الانجليز ونمط عيشهم وأخلاقهم وتحفظهم في إصدار الأحكام، ويفضّل ما يكتبون على ما يكتبه اللاتينيون. بر إنه كان دائماً يشعر أثناء زياراته لفرنسا، أو بين جمع من الفرنسيين، كالسمكة خارج الماء.

وكنت أعجب لقلة نظره، نسبياً، في الشعر العربي، وضعف تعلقه به واحترامه له. فهو يستنكر منه غلبة المدح، وبذاءة الهجاء، وجعجعة الفخر، وتكلّف المشاعر، وزيف الوصف. وأعتقد أن زكي مبارك كان محقاً حين اتهم والدي بالعجز عن استساغة الشعر العربي، وبأن تفضيله المعلن لابن الرومي وأبي العلاء على سائر الشعراء ليس تفضيلاً مخلصاً حقيقياً وإنما جاء اتباعاً لرأي العقاد في الأول، وطه حسين في الثاني، وتسليماً بحكميهما على الشاعرين.

أما أحبّ كُتاب العربية إليه فهو أبو حيان التوحيدي قبل كل كاتب، يليه

الجاحظ فابن عبد ربه. وكان لسبب ما، ربما لاشتراكه في تحقيق الكتاب وعمله فيه مدة طويلة، يفضِّل «العقد الفريد» على أغاني أبي الفرج. أما مذهب المعتزلة فيفضله على سائر المذاهب، لاعتقاده الخاطىء أن مدرستهم أكثر المدارس الإسلامية التزاماً بالعقلانية والمنطق وحرية الفكر. ولم يكن يتعاطف مع الصوفية التي هي في رأيه أحد أسباب ما أصاب العالم الإسلامي من كوارث وانحطاط. ومع ذلك فالغزالي قريب دائماً إلى قلبه، وكتابه «المنقذ من الضلال» من أحب الكتب إليه. وقد أدهشه وسرّه سروراً عظيماً، وأنا أقرأ له في المستشفى «اعترافات تولستوي»، ذلك الشبه الغريب بين الكتابين، وتلك التجربة الروحية الواحدة التي خاضها كل من حجة الإسلام والكاتب المسيحي الروسي.

* * *

وهو يحب الغناء الشرقي ويطرب له، شديد الإعجاب بأم كلثوم، عظيم الاحترام لها. وقد كانت أم كلثوم كثيراً ما تتصل به تليفونياً قبل ساعة أو ساعتين من بدء حفلها الشهري، تسأله في إعراب أو اشتقاق كلمة وردت في قصيدة تغنيها، أو تخبره برأيها في مقال له. غير أنه كان يفضل أسمهان عليها بسبب نبرة الحزن العميقة في صوتها. فإن استمع إلى موال قديم، ظل يهز رأسه طيلة الوقت طرباً. وهو يترنم بهذه المواويل بصوت جميل عميق خافت مرتعش كلما جلس مع أحدنا إلى لوحة الشطرنج واستغرق في التفكير في الخطوة التالية. فالشطرنج هو اللعبة الوحيدة التي يعرفها، علّمنا إيّاها وأتقنّاها وصرنا نغلبه فيها. وكان يعجب إعجاباً ساذجاً بمنولوجات ثريا حلمي، ويغني معها إذا استمع إليها في المذياع: «فتح يا بني فتحّ، شوف مين بيكلمك!». أما عن السينما فلا يزورها غير مرة في السنة أو السنتين، فإن قصدها فمقعده دائماً في الصف الأول أو الثاني قرب الشاشة، حتى يستطيع أن يميّز ما يُعرض، ولا يذهب لمشاهدة غير فيلم مصري. وهو يفضّل المسرح، خاصة إن كانت المسرحية

لشوقي أو عزيز أباضة أو محمود تيمور، وكان من بين ممثليهـا صديقـه الممثل القدير أحمد علّام.

وهو لا يمارس شيئاً من الرياضة البدنية غير السير على الأقدام والسباحة، حتى أصيب بالجلطة فحرم من كليهما. غير أنه في شبابـه كان شـديد الشغف بالمشي لمسافات طويلة عند جبل المقطم وفي صحراء مصر الجديدة، أو في عزبته التي اشترك مع الدكتور السنهوري في شرائها. وهو لا يروقه شيء كمنظر غروب الشمس في الريف أو على شاطىء البحر، يخرج إليه لمراقبته، ويفضل الغروب على الشروق أيضاً لما يوحي به الأول من مشاعر حزينة لا يـوحي بها شروق الشمس.

* * *

أحبّ أصدقائه إليه الدكتور السنهوري: كل منهما يرتاح إلى ذلك الالتزام الصارم بالمنطق لدى الآخر، والبعد عن الهـوى عند إطـلاق الأحكام. وكـان السنهوري يحب الاستفادة من رسوخ قدم والدي في التاريخ الإسلامي والأدب العربي، فهو يعشقهما دون أن تسمح له دراساته القانونية بوقت طويل يقضيه في القراءة فيهما. وكان والدي يحب الاستفادة من إلمام السنهوري بالقانون الذي اشتغل به أبي زمناً ثم انصرف عنه كلية إلى التاريخ والأدب. وكانت المكالمات التليفونية بينهما تستغرق عادةً ما بين ساعتين أو ثلاث! إن اتصل السنهوري به مساءً هرعنا إلى إعداد مقعد لوالدي بجانب التليفون، وأحضرنا له علبة سجائره والكبريت وكوب ماء وكل ما قد يحتاج إليه خلال الساعـات التاليـة، ثم نحييه منصـرفين إلى حجراتنـا على أن نـراه في الصبـاح! كـل ذلـك قبـل أن يلتقط أبي السماعة ليبدأ مكالمة لا يعلم غير الله متى تنتهي!

وقـد كان، على حـدّ علمي، على علاقـة طيبة بجميـع أدبـاء عصـره، ولا أذكر أنه كان بينه وبين أحدهم ما يشبه الخصومـة غير زكي مبـارك، بسبب سلسلة طويلة من المقالات نشرها الأخير في مجلة «الرسالة» بعنوان: «جنايـة

أحمد أمين على الأدب العربي»، يردّ فيها على سلسلة أخرى طويلة من المقالات نشرها والدي في مجلة «الثقافة» بعنوان: «جناية الأدب الجاهلي على الأدب العربي». أما الأديب الأثير عنده فأشبههم به خلقاً وطباعاً، وهو محمود تيمور. وكثيراً ما كان يجتمع بتوفيق الحكيم، سواءً في مقهاهما المفضل على البحر بالاسكندرية في شهور الصيف، أو في اجتماع كل خميس في مقر لجنة التأليف والترجمة والنشر، حيث كانت تلتقي نخبة من مفكري مصر وأدبائها وعلمائها ورجال التربية فيها. وقد كان والدي يأذن لي وأنا بعد صبي في المرحلة الابتدائية من دراستي بحضور تلك الندوات. وأذكر أني كنت كلما استفسرت من توفيق الحكيم عن كتب أقرأها، أو آداب ينصح بأن أغترف منها، أسرّ إليّ بالنصيحة أن أركّز كلية على الآداب الغربية دون الأدب العربي، «اللهم إلا إن شئت أن تتمكن من اللغة العربية، فلا بأس من النظر بين الفينة والفينة في العقد الفريد أو الأغاني»، طالباً مني وهو يضحك أن أكتم أمر هذه النصيحة عن والدي حتى لا يغضب منه!

أما عن العلاقة بين أبي وطٰه حسين فأمرها خلاف أمر علاقته بهذا أو ذاك. كان كل منهما في شبابه يعشق صحبة الآخر عشقاً، ولا يجد الراحة إلا في حضرته. وكانت أفضال طٰه حسين على والدي كبيرة، ليس أقلها أنه هو الذي رتّب نقل والدي من القضاء الشرعي إلى كلية الآداب عام ١٩٢٦، حيث وجد والدي في النهاية، وبعد طول تجارب، مجاله الطبيعي. غير أن فترة تولّي والدي لمنصب عمادة كلية الآداب أصابت صداقتهما بضربة لم يفق منها حتى مات. فقد أراد طٰه حسين، وهو المدرك تماماً لأياديه السابقة على والدي، أن يسيطر على أمور الكلية أثناء عمادة والدي لها، بينما أبى والدي إلا أن يصرّف هذه الأمور وفق ما يمليه عليه عقله وضميره. فكان أن اتهمه طٰه حسين بالجحود، وكان أن تنكّر له وازورّ بوجهه عنه، وكان أن ماتت صداقة يندر أن نجد في يومنا هذا مثيلاً لقوّتها وخصوصيتها.

إلا أن الاتصال بينهما عاد ودّياً قرب النهاية، حين أصيب والدي في عينيه

ورقد طويلاً بالمستشفى. وكان لطٰه حسين مرة أخرى فضل البدء بالمصالحة. فقد أتاه يزوره في المستشفى. وكان اللقاء بينهما الذي حضرتُهُ مؤثراً إلى أبعد حدّ. وإن أنس لن أنسى منظر طٰه حسين الضرير وهو يدخل حجرة المستشفى يقوده سكرتيره من ذراعه، وإذ يسمع أبي، وهو معصوب العينين، صوته، يمدّ يده في لهفة في اتجاه الصوت، فأمسك أنا بيد والدي، ويمسك السكرتير بيد طٰه حسين، حتى تلتقي اليدان فيتصافحان.

ثم صداقة قوية أخرى كانت تربطه بقانوني بارز آخر، وإنسان عظيم، هو عبد العزيز باشا فهمي. وكان والدي يكثر من زيارته وهو طريح الفراش في منزله بمصر الجديدة، ويصطحبني إليه. فعبد العزيز فهمي يحمل لوالدي مودة عميقة، ويكنّ أعظم الاحترام لخلقه القوي، ويرتاح إلى طبعه الهادىء. وكنت أعجب أثناء استماعي إلى الحديث لتلك المرارة التي شعر بها عبد العزيز فهمي تجاه سعد زغلول، حتى بعد مرور نحو عشرين عاماً على وفاة الأخير. ولم يكن والدي يكنّ إعجاباً ضخماً لسعد زغلول يدفعه إلى معارضة فهمي وتخطئته. وأذكر يوماً زرنا الرجل فيه، فرأينا إلى جانب فراشه هرماً عظيماً من نحو سبعين من علب سجائر البستاني كتب على ظهرها عبد العزيز فهمي بخط مرتعش قصيدة طويلة صعبة من ثلاثمائة وستين بيتاً في ذم الحياة، وفي مختلف أوجه القصور في حياتنا المصرية، (نشرتها لجنة التأليف والترجمة والنشر فيما بعد في كتيب مستقل). وأحبَّ المضيف أن يُسمع ضيفه القصيدة. وإذ كان كل منهما ضعيف البصر، فقد طلب المضيف إليّ، وأنا بعدُ الطالب بالمدرسة الثانوية، أن أنشدها، مقدّماً إليّ علبة إثر علبة. وكان أن وجدت في القراءة صعوبة لم أجد صعوبة مثلها في شيء من قبل أو من بعد، وتكرر وقوعي في الخطأ وتلعثمي، ووالدي ينظر إليّ بين الحين والحين نظرة غاضبة تكاد تلتهمني التهاماً. فلما تركنا منزل الرجل، ظل أبي في السيارة طوال رحلة العودة إلى منزلنا يكرّر في حزن:

ــ كسفتني يا ولد... كسفتني..!

كان طويلاً عريضاً قويّ البنية. ولا أذكر أنه عانى قبل الستين إلا من ضعف البصر ومرض السكر. وقد استعان على الأول بقارىء يقرأ له لعدة ساعات في اليوم، فإن انصرف قرأ له أحد أبنائه أو تولّى القراءة بنفسه، لا يكاد يفصل بين الكتاب ونظارته السميكة للغاية غير ثلاثة سنتيمترات. كما استعان على مرض السكر بنظام في الأكل صارم، وحقن الأنسولين كل صباح ومساء. غير أنه أصيب في الستين بانفصال في شبكية العين، واضطر إلى الرقاد على ظهره في المستشفى ثلاثة أشهر معصوب العينين، لا يتحرك يمنة أو يسرة بأمر الطبيب. وقد خرج من هذه الرقدة إنساناً غير الذي كان. ليس فقط لأن العملية لم تنجح وكادت البقية الباقية من بصره أن تذهب أدراج الريح، ولكن حالته الصحية والمعنوية بصفة عامة تدهورت هي الأخرى تدهوراً شديداً سريعاً. فسرعان ما أصيب بالجلطة في ساقه وبشلل نصفي. وصادف ذلك المرض إحالته إلى المعاش لبلوغه الستين، وانفضاض جمع من حوله كان يظنهم من مريديه فإذا هم من مريدي الانتفاع من وراء صلتهم به حين كان في وسعه أن ينفع. وكان يحزن أشد الحزن حين كان يجد صندوق بريده في الأعياد خالياً إلا من بطاقة تهنئة أو بطاقتين، في حين كان ساعي البريد منذ زمن غير بعيد يأتيه بالبطاقات والرسائل أكواماً مكوّمة. بل إنه حتى بعض أصدقائه المخلصين قلَّ اتصالهم به وسؤالهم عنه وزياراتهم له بعد مرضه، واكتفى البعض بمكالمة تليفونية بين الفينة والفينة. وكان هذا التنكر له منهم، من أكبر منغصات سنواته الأخيرة.

كان وقتها إذا دق جرس التليفون في البيت، هرع إليه في لهفة وهو يتحامل على ساقه المريضة عسى أن يكون المتحدث صديقاً له. فإن لم تكن المكالمة له، نادى على المطلوب منا وناوله السماعة وعاد إلى مقعده حزيناً يجرّ ساقه خلفه. ولا أزال أذكر يوم عيد لم يزره فيه للتهنئة غير شاب مخلص من طلبته في الجامعة، هو الدكتور إحسان عباس، فزادت هذه الزيارة المفردة من إحساسه بالوحشة والمذلة، وأبى أن يستقبل ضيفه.

وفي مساء يوم ٢٩ رمضان عام ١٩٥٤، كان قد أنهى استعداده للسفر إلى الاسكندرية في اليوم التالي لبدء إجازته الصيفية، وجلسنا معه في شرفة الطابق الأعلى من المنزل نتحادث إلى ساعة متأخرة من الليل. وكان في حالة نفسية مطمئنة منبسطة. وفي الصباح، أصابته الذبحة الصدرية. واستدعينا الطبيب، فلم يحضر إلا بعد أن كان قد مات.

بالرغم مما ذكرته من أنه لم يحاول قط فرض اهتماماته وآرائه ومنحى تفكيره علينا، وبالرغم من انشغاله ساعات طوالاً بالقراءة والكتابة، وبنشاطه في الحياة العامة، فقد ترك في نفوس أبنائه، وربما تلاميذه، أثراً عميقاً لا يعرف حداً، وهو تأثير قائم فيمن ورث عنه منا عزوفه عن السياسة واهتمامه بالدراسات الإسلامية أو من لم يرثهما، وفيمن تديّن أو لم يلعب الدين دوراً رئيسياً في حياته، وفيمن خلفه عند وفاته رجلاً أو صبياً. فموقفنا جميعاً من الحياة هو في جوهره نفس موقفه الأخلاقي الجاد، ومن السلطة ـ أي سلطة ـ هو نفس موقفه وتمسكه بحرية الرأي. وقد تأثرنا بمعاشرة هذا الإنسان العظيم عن قرب حتى بات من الصعب علينا بعده أن نحترم في أيامنا هذه رئيساً وقد رأينا رئاسته، أو كاتباً وقد شهدنا موقفه الجاد من صنعة الكاتب، أو مسؤولاً في الحياة العامة وقد خبرنا إخلاصه وتفانيه في نهوضه بالمسؤولية. فالمثل الإنجليزي يقول: «إياك إياك أن تستأجر خادماً خدم عند من كان يفضُلُك»..... ولم ير أولاده بعده من يفضُلُهُ. رحمه الله.

سر الخلاف بين والدي وطٰه حسين

من بين الأوراق التي خلّفها والدي عند وفاته كراسة صغيرة من ست وعشرين صفحة، يحمل غلافها العنوان التالي:

«قصة العمادة، أو، حوادث سنة ١٩٤٢». والكراسة في حوزتي، قد سجّل فيها والدي بخطّه في نحو ألفي وستمائة كلمة قصة وأسباب الخلاف الذي دبّ بينه وبين الدكتور طٰه حسين خلال الفترة التي تولّى والدي فيها عمادة كلية الآداب بجامعة فؤاد الأول. (القاهرة) .

ويتضح من دراسة هذه المخطوطة أمران:

الأول: أنه كتبها لنفسه لا للنشر، بدليل الطابع الشخصي الغالب، وضعف عنايته بأسلوبها ولغتها، وإشاراته دون إيضاح إلى شخصيات مجهولة عند الجمهور، كإشارته إلى زوج أختي في عبارة «وتحت إلحاح عبد العزيز. .» وإلى سكرتير لجنة التأليف والترجمة والنشر في عبارة «وفي ١٨ أكتوبر كلمني عبد المتعال أفندي في التيليفون قائلاً. . .»، إلى آخره. . .

الثاني: أنه كتب نحو أربعة أخماسها دفعة واحدة، (ربما في أوائل عام ١٩٤٣)، ثم ظلّ يضيف فقرات تتناول ما يجدّ بصدد علاقته بطٰه حسين حتى وقت انقطاع المخطوطة في نحو أواخر ١٩٤٣.

وفيما يلي نص المخطوطة، مع بعض إيضاحات أضفتها للضرورة،

ووضعتُها بين أقواس، وتبدأ بحرفيْ ح.ا. هذا ولم أحذف من النص غير اسم أستاذ سابق بكلية الآداب اتّهمه والدي بالدس بينه وبين طٰه حسين، مكتفياً بالحرفين الأولين من اسمه.

قصة العمادة

في ١ ابريل سنة ١٩٤٠، اخترت عميداً لكلية الآداب، عقب تعيين الأستاذ شفيق غربال وكيلاً مساعداً لوزارة المعارف، وكان الترشيح بانتخاب أعضاء مجلس الكلية، فنلت ١٦ صوتاً، ونال مصطفى بك عامر ١٥ صوتاً، والدكتور (محمد) عوض والأستاذ (عبد الوهاب) عزام كل منهما ٨. وقد أيدني في هذا الترشيح الدكتور طٰه (حسين)، وعمل على تزكيتي في الخارج الدكتور (أحمد عبد الرزاق) السنهوري وكان وكيلاً لوزارة المعارف. وكان وزير المعارف إذ ذاك (محمود فهمي) النقراشي باشا، وكان له من الفضل عليّ في هذا الموضوع أنه بمجرد أن أبلغ بنتيجة الانتخاب، وافق على تعييني عميداً بعد ساعتين من الإنتخاب، وأبلغ ذلك لإدارة الجامعة في يومها.

(ح.ا: يقضي نظام الجامعة بأن يختار مجلس الكلية ثلاثة من بين أساتذتها، تُرفع أسماؤهم إلى وزير المعارف لاختيار أحدهم عميداً للكلية، ومع فوز والدي بأغلبية الأصوات، ورغم صلته الوثيقة بالنقراشي باشا، فقد كان في اختيار النقراشي له مفاجأة له. «فأنا رجل دخيل على الجامعة بحكم تربيتي الأزهرية الأولى، وتربيتي شبه الأزهرية في مدرسة القضاء. وأنا رجل لم أتعلم في جامعة مصرية ولا أجنبية، وأنا رجل لم يتعلم لغة أجنبية إلا ما تعلمته من اللغة الانجليزية بعناء وبقدر محدود. فكيف أختار لهذا المنصب وأرأس الأساتذة الأجانب والأساتذة المصريين ممن تعلموا في الجامعات الأوروبية ونحو ذلك؟» («حياتي» ـ دار الكتاب العربي، بيروت، صفحة ٢٤٨). وقد ورد في ذلك الكتاب أن تاريخ تعيينه عميداً هو إبريل ١٩٣٩، والصحيح ما أثبته في المخطوطة).

وقد حمدت الله على هذا لأنه جاء مكافأة حسنة لجدّي في عملي. ولكن سرعان ما أحسست بِهَمٍّ يملؤني من تصور مسؤوليتي نحو الأساتذة والطلبة والطالبات، وما تتطلبه العمادة من انصراف لها عن المجهود العلمي الذي أبذله، وضعفي في اللغة الانجليزية فيكون بعض العسر في التفاهم مع الأساتذة الأجانب.

وسرت مستعيناً بالله، فأبديت حزماً وعدلاً ونشاطاً في تسيير الأمور بما يمكنني. وانتظمت الأمور وسارت سيراً حسناً. وكان مركزي في مجلس الجامعة، وعلاقتي الشخصية بعبد الرحيم عثمان سكرتير الجامعة تساعد على سير كل ما أطلب من الإدارة، وعلاقتي بوكيل المعارف (السنهوري) تساعد على تسيير ما أطلب في وزارة المعارف.

وجرت العلاقات بيني وبين الدكتور طٰه حسنة لما بيننا من صداقة قديمة، ولإقراري بجميله في مساعدتي في الانتخاب.

(ح.ا. لم يقتصر فضل طٰه حسين على والدي على مساعدته في انتخابات العمادة. فهو الذي سعى حتى نقل والدي من القضاء الشرعي الذي لم يستسغه قط إلى التدريس في كلية الآداب. كتب طٰه حسين عن هذا يقول: «... وهو في أثناء هذا كله (أي عمله في القضاء الشرعي) قلق لا يعرف اطمئناناً ولا استقراراً، ويلتمس نفسه في كتب الفقه وفي علوم الدين كلها فلا يجدها، ولا يجدها في ذلك التعليم المحدود ذي الآفاق الضيقة الذي كان يلقى في مدرسة القضاء. وهو يحاول أن يخرج من حياته تلك التي أضلّ فيها نفسه، فيتّصل ببيئات المطربشين، وينشىء معهم لجنة التأليف والترجمة والنشر، ويأخذ في تعلم اللغة الانجليزية. ويخيل إليه أن الأمد بينه وبين نفسه قد أصبح قريباً. ولكنه على ذلك يلتمسها فلا يظفر بها. وألقاه في يوم من أيام حيرته تلك، وإذا هو ضيق بعمله في القضاء أشد الضيق، وإذا هو طامح إلى شيء مجهول لا يحققه ولكن طموحه إليه شديد. كل ما يعنيه هو أن يخرج من حياته

تلك التي لا يستطيع عليها صبراً. ونفترق في ذلك اليوم وقد أزمعت في نفسي أمراً، فإذا كان الغد تحدثت بما في نفسي إلى أستاذنا الجليل أحمد لطفي السيد، فإذا كان المساء دعوت أحمد إلى لقائي، وعرضت عليه التعليم في الجامعة، فيشك غير طويل، ثم يستجيب. ولا يكاد يستقر في كلية الآداب شهراً وبعض شهر حتى يجد نفسه تلك التي طال البحث عنها وشقي بالتماسها أعواماً طوالاً. (من مقال «أحمد أمين العالم» في كتاب «أحمد أمين بقلمه وقلم أصدقائه»، لجنة التأليف، ١٩٥٥). وقد أكّد أحمد أمين هذه القصة في «حياتي» صفحة ١٩٩. وكان تعيينه مدرساً بكلية الأدب عام ١٩٢٦، وكان وقتها قاضياً بمحكمة الأزبكية بالقاهرة).

بدء الخلاف:

ولكن سرعان ما بدأت العلاقات بيني وبينه تفتر. وسبب ذلك ـ على ما يظهر لي ـ أنه كان يتوقع أن أعمل في الكلية حسب إشارته وطوع أمره. ولكن هذا ليس من طبعي. فأنا متأثر بالقضاء، أتحرّى العدل وأطالب به وأعمله مهما كانت النتائج. فلما خالفته في رأيه وعملت على تنفيذ ما أراه الحق، غضب وتغيّر، وبدأت الأمور تجري مجرى الخصومة.

وأذكر من هذه الحوادث الأولى أنه أراد أن يرقي (سليمان) حُزَيّن أستاذاً مساعداً للجغرافيا رغم (إرادة) قسم الجغرافيا، وكتب بذلك تقريراً مع أن هذا من اختصاص قسم الجغرافيا، وقسم الجغرافيا يرشح (عبد المنعم) الشرقاوي. وعرضت الأمر على مجلس الكلية، وأيدت ترشيح الشرقاوي، وخرجت الأغلبية له. فغضب طٰه وقال في المجلس بأعلى صوته: «إنكم تلعبون!» فغضبت من ذلك، ورفعت الجلسة.

وكذلك من أوائل ذلك مسألة عبد الرحمٰن بدوي، إذ لم يقيد اسمه للماجستير، وأراد أن يدخل الامتحان من غير أن يُقيّد لمدة سنة كما هو نص اللائحة. فعرضت الأمر على مجلس الكلية، فأجله إلى سنة. ولم يكن الدكتور

طٰه حاضراً. وكان لبدوي هذا علاقة ببعض الوزراء، فرجوني فلم أقبل، فرجوا الدكتور طه، فطلب أن تعرض المسألة على مجلس الكلية من جديد، فوافقت، وأخذ الرأي على فتح باب المناقشة من جديد أولاً. وحضر الدكتور طٰه في هذه الجلسة ليُظهر نفوذه، فكان هناك ٨ أصوات بفتح باب المناقشة و ٨ للرفض، فأيدتُ الرفض، وغضب طٰه.

وكان له رجاءات في المجانية، قبلتُ بعضها ورفضتُ بعضها لعدم استحقاقهم كل ذلك أغضب طٰه، فاتخذ شكل الخصومة، ووقف موقف المحارب.

ويمكن تلخيص أسباب هذه الخصومة فيما يلي:

(١) أنه يريد فرض إرادته على من يشتغل معه، فإذا خالفه في أمر ناصبه العداء. وهكذا مع شفيق غربال إذ رفض له قبول طالب مجاناً فثار عليه ولم ينقذ الموقف إلا نقله. (أي نقل غربال إلى وزارة المعارف)،

(٢) ترحيبه وتشجيعه لمن ينقل إليه كلاماً ولو مختلقاً. وقد قام بهذا الدور في حقي حبيب الذي كان سكرتيراً، و «أ. أ»، فكانا ينقلان ويختلقان،

(٣) أظن أن الغيرة كانت تعمل عملها، فالنجاح في العمادة الذي وُفقت إليه أثار شيئاً من الغيرة، وهذا طبيعي.

بعد ذلك طلب الدكتور طٰه ترقية كامل حسين إلى (درجة) مدرس. فعرضتُ المسألة بكل أمانة وإخلاص على مجلس الكلية فرفض المجلس ذلك لعدم كفايته. فثارت ثائرة الدكتور كيف يرشح شخصاً بصفته رئيساً لقسم اللغة العربية ثم يرفض مجلس الكلية قوله وإشارته. فخاصم المجلس، واستقال من رياسة قسم اللغة العربية، وهاج لذلك هياجاً شديداً.

وكان مثل هذا الدور تماماً يمثل في وزارة المعارف، إذ كانت علاقته بالدكتور السنهوري كعلاقته معي، فأراد أن يملي إرادته في وزارة المعارف فأبى

السنهوري، فكانت الخصومة. وقد أصلحت بينهما مرتين فدام الصلح أياماً ثم عاد إلى ما كان. فأدركت أن السبب لا يمكن علاجه لأنه يرجع إلى الطبيعة لا إلى سبب ظاهري، فامتنعت عن السعي في الصلح، فكان هذا مما أخذه عليّ أيضاً الدكتور طٰه.

وهكذا شأنه في المجمع اللغوي، عملت مراقبة الثقافة أعمالاً فاعترض رئيس المجمع على عملها بدون علمه، ورشّح الدكتور طٰه عبد العزيز أحمد لعمل في المجمع فلم يوافق المجمع عليه، فآلى الدكتور طٰه أن يخاصم المجمع وألا يحضر جلساته. وهو لا يحضر المجلس إلى اليوم.

(٤) ومن الأسباب أن خُلُق الدكتور طٰه هو الحاجة إلى تدليل دائم، فهو يريد الشيء ويتظاهر بأنه لا يريده. وأقرب الناس إليه من يدلّله فيرجوه في قبوله، وهكذا. وقد ضاق صدري من هذا لإفراطه فيه وعدم قدرتي على مجاراته. وقد جرّبت ذلك في مواقف عدة.

مزاجان مختلفان:

وعلى الجملة فمزاجانا مختلفان.

هو يعمل للشهرة وأنا لا أحبها ولا أحب الظهور، وعندي نزعة صوفية تهزأ بكثير من مظاهر الدنيا،

وهو يقيس الأشياء ويحكم عليها بشخصه فلا يتحرّج من أن يكيل للمقربين إليه ما يشاء ولو لم يستحقوا، ويحرم المبعدين منه ولو استحقوا. وعنده المحسوبية لا إلى حدّ. وطبيعتي طبيعة القضاة في العمل على ما أعتقده مبدأً وعدلاً وحقاً، وكذا السنهوري. وهو يعمل حزبياً وأنا أعمل قومياً أو إنسانياً. وهو يتعالى ويترفّع وأنا أتواضع في إباء. وهكذا اختلفت طبائعنا وأمزجتنا مما جعل العلاقة بيننا فاترة.

(ح.ا. ناقض أحمد أمين نفسه بصدد هذه النقطة الأخيرة إذ فسّر في

كتابه «حياتي» ص ٢٥١ ـ ٢٥٢ الصداقة والألفة بينه وبين طٰه حسين باختلاف مزاجيهما وطبيعتيهما. كتب يقول: «هو أقرب إلى المثالية وأنا أقرب إلى الواقعية. وهو فنان يحكمه الفن وأنا عالم يحكمه المنطق. وهو يحب المجد ويحب الدويّ، وأنا أحب الاختفاء وأحب الهدوء. وهو مغال في الحكم على الأشخاص وعلى الأشياء، وأنا بطيء. وهو عنيف إذا صادق أو عادى وأنا هادىء إذا صادقت أو عاديت. وهو واسع النفس أمام الأحداث، وأنا قلق مضطرب غضوب ضيق النفس بها. وهو ماهر في الحديث إلى الناس فيجذب الكثير، وليست عندي هذه المقدرة فلا أجتذب إلا القليل. وهو في الحياة مقامر يكسب الكثير في لعبة ويخسره في لعبة، وأنا تاجر إن كسبت كسبت قليلاً في بطء وإن خسرت خسرت قليلاً في بطء، يحب السياسة لأنها ميدان المقامرة وأنا لا أحبها إذ لا أحب المقامرة. ولعل هذا الخلاف بيننا في المزاج هو الذي ألّف بيننا، فأشعره أنه يكمل بي نقصه وأشعرني أني أكمل به نقصي».

الضيق بالعمادة:

بعد مضيّ سنة عليّ في العمادة أحسست بضيق منها. وكانت وزارة المعارف للدكتور (محمد حسين) هيكل باشا، فرجوته أن يُعفيني منها فأبى. وكان ذلك في أوائل الإجازة الصيفية. وكررت ذلك في أوائل السنة (الدراسية، أكتوبر ـ نوفمبر ١٩٤١). وكان علي باشا إبراهيم مديراً للجامعة جديداً، وكتبت له الاستقالة فأبى بحجة أن هذا يعدّ مظهراً لعدم الرغبة في التعاون معه. فمضيت السنة الثانية. وفي آخرها كانت الوزارة الوفدية قد أتت، وولي وزارة المعارف نجيب الهلالي. فكررت عليه الاستقالة فأبى، وألححت فوعد بالنظر في ذلك بعد الاجازة، واعداً لي بأنه سيعمل كل ما يريحني.

وكانت رغبتي في الاستقالة مبنية على أسباب:

(١) أني شعرت بتفاهة العمادة، فأوراق تقرأ وتُمضى في أشياء تافهة، مما يصرف عن العمل الجدي،

(٢) كثرة الرجاءات من الطلبة في المجانية، ومن هيئة التدريس في العلاوات والترقيات وفي قبول الطلبة ونحو ذلك مما لا يحصى. وأصبح صدري ضيقاً بهذا الرجاء، أنفر منه واشمئز ولا أرتاح له، وقد أغضب الناس في صدّهم، وكثيراً ما حدث ذلك.

(٣) أسفي على حرماني من لذة القراءة والتأليف، وهي في نظري أجدى وأنفع.

(ح. ا. في «حياتي» ص ٢٤٩: «ها أنذا في عمادة كلية الآداب، قد شغل وقتي كله بأعمال إدارية أكثرها لا قيمة له. فكل الأوراق تعرض عليّ حتى شراء مكنسة، وكل أعمال الطلبة والأساتذة تعرض عليّ حتى الكلمة النابية يلفظها طالب، إلى شكاوي الطلبة وما أكثرها! وتزاحم المدرسين والأساتذة على العلاوات والدرجات وتسوية الحالات وما أصعبها! فكان هذا شغل وقتي حتى لا أستطيع أن أفرغ للعلم إلا قليلاً، ولا أن أفرغ للنظر في المسائل الأساسية كمناهج التعليم وطرق التربية إلا بقدر. وهذه عدوى من نظام الحكم في مصر حيث تتركز الأعمال كلها في يد رئيس المصلحة، وما كان أحرى بالجامعة أن تتخلّى عن ذلك، وتوزع الاختصاص ويتفرّغ العميد للمسائل المهمة. ولكن أنّى لنا ذلك!»).

كل هذا جعلني أتمنى الظرف الذي يتيح لي أن أخرج من العمادة في رفق وهدوء... والناس حولي وأهلي لا يفهمون ذلك، ويودّون بقائي عميداً، لما يتبعها من الوجاهة التي أراها تافهة، ولما يقضون من وراء ذلك من منافع شخصية تافهة في نظري، كالوساطة في قبول أولاد الناس بالمجان ونحو ذلك.

تدخل نجيب الهلالي في شؤون الجامعة

فلما جاءت حكومة الوفد (فبراير ١٩٤٢) شعرت بأن الجو لا يلائمني كثيراً، وأنا طول حياتي لم أنتم إلى حزب ولم أعمل بحزب.

شعرت بأن نجيب الهلالي وزير المعارف يتدخل في شؤون الجامعة من غير طريقها المعتاد، فلا يعبأ بمجلس الجامعة ولا بإدارتها، ويتصل بمن شاء أن يتصل به فيما يريد.

وقد حدث أن قابلته مرتين لهذا الغرض، وشرحت لـه خطر ذلـك على استقلال الجامعة، مـرّة على أثر تشريع تخفيض نسبة النجاح، فقلت له: «إني أشعر باستقلال الجامعة يُهدم بهذه الطرق». فأكد لي أنه حريص على استقلال الجامعة حرصي، وأن مجلس الجامعة كثيراً مـا يخطىء ولا يبني حكمـه على دراسـة صحيحة. فقلت: «إن كـان يخطىء فـالبرلمـان يخطىء ولا من يقـول بإهماله. ومعاليك رئيس الجامعة يمكنك أن تحضر في المجلس أو تنيب عنك من ترى عند نظر المسائل الهامة، وتشرح وجهة نظر الوزارة، وتسمع وجهة نظر المجلس، وبعد ذلك لك تمام الحرية القانونية في أن تعمل ما ترى».

واعتذر بأنه يأخذ رأي مدير الجامعة في كل ما يعمل، فقلت: «إن مدير الجامعة غير مجلس الجامعة، وموافقة المدير لا تجزىء».

وأخيراً، وبعد مناقشة طويلة وإظهار رغبتي في الاستقالة، كلمني كـلاماً طريفاً في تقديره لي، وثقته بي، والعمل لخيـر الجامعـة ووعدني من الآن ألا يعمل عملاً في المستقبل إلا بعد أخذ رأي مجلس الجامعة. فشكرت له ذلك وانصرفت.

ولكن حـدث بعد ذلـك بنحو أسبـوعين أن اجتمع عنـده بعض العمداء وشفيق غـربال والـدكتور طٰه، ونـظروا في تعـديـل نـظام الامتحـان في كليـة الحقوق. وأخذ الوزير رأيي في تعديل مثله بكلية الآداب بالتليفون، فأبـديت اعتـراضي على هـذا النـظام. ولكني علمت في المسـاء أنهم أجـازوا هـذا التعديل، وأرسلوه إلى وزارة المعارف. فلم أنم هذه الليلة. وفي الصباح ذهبت إلى وزير المعارف، وانتظرته حتى حضر، فدخلت عليـه محتجاً على تشـريعه لكلية الآداب من غير حضوري. فاعتذر بأن الاجتمـاع كان للنـظر في تعديـل

الامتحان في كلية الحقوق ولم يكن من رأيه تعديل الامتحان في كلية الآداب، وأن الدكتور طه هو الذي ألح عليه في ذلك. وأراد أن يبرهن على أنه لم يشأ أن يتعدّى على كلية الآداب بأن أعطاني المشروع وأعطاني تمام الحرية في قبوله أو رفضه، بشرط أن أتحمل مسؤولية رفضه إذا هاج الطلبة. فأخذت المشروع، وعرضته على لجنة الامتحان بالكلية فاستحسنوه بعدما أدخلوا عليه تعديلات داخلية. وانتهى هذا الموقف أيضاً. وقد تبينت أن الأمور ستجري في غير مجراها الطبيعي، وأن الاحتكاك سيستمر في كل خطوة.

وكان أن حدث أن الدكتور طه عُين مستشاراً فنياً بوزارة المعارف. وكان الدكتور السنهوري قد تفوهم معه على أن ينقل مستشاراً ملكياً، فقبل ولكن حدث أن أحيل فجأة إلى المعاش من غير سبب ظاهر، وعين الدكتور طه مستشاراً على أن يأخذ ماهيته من درجة الوكيل. فرأيت أن هذا ظلم صارخ للدكتور السنهوري، ولم أُبرّىء الدكتور طه من هذا العمل الظالم، وإن كنت لم أحدّد بالضبط مقدار مسؤوليته. ولكنه على كل حال مسؤول لدرجة ما. فنفرت نفسي منه لهذا السبب أيضاً.

ولما عين في الوزارة ظهرت أعراض هدم استقلال الجامعة أيضاً على يده، فهو ينظر كل شيء دون مجلس الجامعة، ويبتّ في كل شيء. وهذا ما لم أستطع احتماله.

وفي هذه الأثناء لمّح لي بأنه يريد التعاون معي، فرفضت. فقد قال لي يوماً إننا سننظر معاً شؤون جامعة الاسكندرية. ورفضت أن أكون عضواً في مجلس دار العلوم. وقلت له يوماً بالتيليفون إنني أرفض كل لجنة وكل عضوية بالوزارة، فكان جوابه: «إني فاهم»، أي أنه فاهم أني رافض التعاون معه. وألحّ عليّ بعدُ وزير المعارف أن أقبل عضوية مجلس دار العلوم، فاعتذرت.

وبهذا تشكّل الموقف شكل خصومة وعدم تعاون.

وحدث أن وزارة المعارف قطعت خطوات واسعة في إنشاء جامعة فاروق في الإسكندرية، وشاع أنها ترشح بعض (أعضاء) هيئة التدريس من كليات القاهرة لنقلهم إلى الإسكندرية، والإشاعات تترامى هنا وهناك، وفيهم بعض المدرسين بكلية الآداب التي أنا عميدها ولا أعرف من ذلك الأمر شيئاً. ولم يخاطبني أحد في أمر من يُنقلون إلى الإسكندرية ، والمدرسون يذهبون إلى وزارة المعارف، ويرجو بعضهم في النقل، وبعضهم في عدم النقل، ويساوم من يريد النقل على ما يكافأ به، وهكذا. وتترامى إليّ الإشاعات ولا يخاطبني أحد رسمياً في ذلك. ولكن لم أستطع أن أحتج على هذا لأنه لم يصدر شيء رسمياً.

وأخيراً قرأت في «الأهرام» أنه صدر الأمر بتعيين مصطفى بك عامر وكيلاً لجامعة فاروق. فتأثرت جداً إذ لم يؤخذ رأيي في هذا وهو أستاذ عندي، والواجب أن يؤخذ رأي رئيس المصلحة فيمن ينقل من عنده، إن لم يكن قانونياً فأدبياً. فلم أطق الصبر على هذا، وكتبت بعد قليل من قراءتي هذا الخبر جواب استقالتي، وذكرت فيه أن هذه الاستقالة بناءً على إجراء حركة النقل من الكلية.

ومضى يومان أو ثلاثة ولم تقبل الاستقالة ولم يخاطبني أحد بشأنها. وعلمت أن وزير المعارف كان قد طلب أن يمرّر تعيين مصطفى عامر على مجلس الجامعة، ولكن عبد الرحيم بك عثمان فسر مادة القانون التي تقول «بعد أخذ رأي الجامعة المختصة» بأن المراد مدير الجامعة لا مجلس الجامعة. ورأيت أن هذا خطأ من جهتين: من جهة أن الجامعة ليس معناها مديرها وإنما معناها مجلسها ما لم يُنَصّ على المدير، وثانياً، وعلى فرض صحة هذا، فآداب اللياقة والعرف الجاري تقضي بأن يؤخذ رأي رئيس المصلحة، (وهو عميد كلية الآداب)، فيمن ينقل من عنده.

على كل حال صممت على الاستقالة، فلما استبطأتها اتصلت برئيس

تحرير «الأهرام» أنطون بك الجميل، ورجوته في نشر خبر الإستقالة لأستحثهم على قبولها. فحدث اجتماع في وزارة المعارف بعد ذلك بيوم، وأعلن في الجرائد قبول استقالتي؛ وأن مدير الجامعة قبلها ورفعها إلى الوزير فقبلها، والدلائل واضحة أن عملاً كهذا لم يُعمل من غير أخذ رأي الدكتور طٰه وإشارته وإيعازه.

وبعد ذلك بأيام كلمني الأستاذ فريد أبو حديد، وأخبرني أنه يسعى لإزالة الخلاف بيني وبين الوزير والدكتور طٰه، ولرجوع الوزير عن قبول استقالتي، فأبنت له أن ذلك غير ممكن. وأتاني مرة وقال أن الدكتور طٰه وعده بأن يقيدني على الدرجة الأولى حرف أ، فقال له فريد: «بل أعطها له فعلاً»، فقبل الدكتور طٰه بشرط عرض المسألة على الوزير وقبولي هذا الحل. وعرض فريد عليّ ذلك فأبيت.

وعقب ذلك زارني الدكتور طٰه في البيت فلم يجدني. ورددت له الزيارة فوجدته. فكلمني في العدول عن الاستقالة، فأبديت له أني مصمم عليها. وكان كلامه كجس نبض، فلم يلحّ. ولعله كان ينتظر رأي الوزير فإذا وافق ألحّ. وعلى كل حال أخبرني فريد بعد ذلك أنه كلم الوزير، فقال الوزير لفريد: «وهل أحمد أمين يقبل؟» فقال فريد: «لا» فقال الوزير: «ففيم الكلام؟» «وأخبرت فريد بعنف أنني لا أقبل مثل هذا الكلام، لأنني صممت على الاستقالة بسبب وهو الاعتداء على الجامعة، فكيف يُحل هذا بإعطاء درجة أو وعد بدرجة؟ إن هذا يسقطني في عيني وأعين الناس.

وإلى هنا انقطع الكلام في هذا الموضوع، وانقطع ما بيني وبين الدكتور طه ثانية. وقاطعت الوزارة، فلم أشترك فيها في لجان ولا في وضع أسئلة ولا إمتحان ولا حديث في راديو الوزارة ولا شيء من هذا.

وكتبت مقالاً في «الصداقة والصديق» في (مجلة) الثقافة، ذكرت فيها وصف صديق مخلص، وفيها بعض تلميح على الدكتور طٰه. فرد بطقطوقة في

«الأهرام». من غير ذكر اسمي، ولكن في وضوح، متهماً إيّاي بأني عطفت عليه في بؤسه وحسدته في نعيمه، وأن هـذا ومن أنكره في بؤسـه وعرفـه في نعيمه كحمارَيْ العبادي.

وانقطعت بعد هذا الصلة بيننا تماماً.

(ح. أ. كتب والدي في ترجمته الذاتية ص ٢٥١ ـ ٢٥٢ معلقاً على هذه الأحـداث: «وكانت مـأساة العمـادة أني فقدت بهـا صـداقـة صـديق من أعـز الأصدقاء، وما أقل عددهم. كان يحبني وأحبـه، ويقدرني وأقـدره، ويطلعني على أخص أسراره وأطلعه، وأعرف حركاته وسكناته ويعرفها عني، ويشاركني في سروري وأحزاني وأشاركه، وكنت هواه وكان هواي، واستفدت من مصادقته كثيراً من معارفه وفنه ووجهات نظره، سواء وافقته أو خالفته، فأصبح يكون جزءاً من نفسي يملأ جانباً من تفكيري ومشـاعري.. وجـاءت العمادة مفسـدة لهذه الصـداقة لأنـه ـ بحكم طبيعته ـ أراد أن يسيـطر، وأنا بحكم طبيعتي أردت أن أعمل ما أرى لأني مسؤول عما أعمل. ثم ولي منصباً أكبر من منصبي يستطيع منه أن يسيطر على عملي، فأراد السيطرة وأبيتها، وأراد أن يحقق نفسه بأن ينال من نفسي فأبيت إلا أن أحتفظ بنفسي. فكان من ذلك كله صراع أصيبت منـه الصداقة، فحزن لما أصابها وحزنت، وبكى عليها وبكيت».

هـذا ولم أعثر لا على مقال والدي «الصداقة والصديق» من بين مقالات المجلدات العشـر من «فيض الخـاطـر»، ولا على طقـطوقـة طـه حسين في مجلدات أعماله الكاملة، طبعة بيروت).

بعد العمادة

(ح. أ. بعد سنتين من العمادة لم يؤلف خـلالهما والـدي كتابـاً أو يتمم بحثاً، عاد إلى كتبه ومكتبته ليبدأ في إعداد الجزء الأول من «ظهر الإسـلام»، وتحقيق كتاب «الإمتاع والمؤانسة» لأبي حيان التوحيدي، والاشتراك مع الدكتور زكي نجيب محمود في تأليف كتب «قصة الفلسفة اليونانية»، ثم «قصة الفلسفة

الحديثة» ثم «قصة الأدب في العالم». غير أن تغيراً هاماً كان قد طرأ على نمط حياته بعد هجره للعمادة. كتب يقول: «تركت العمادة وعـدت أستاذاً، وخلت يدي من كل سلطة إدارية. وأتت وزارة [الوفد] لا تعدّني من رجالها، فلم يكن لي شأن في علاوات وترقيات، وليس لي قبول في شفاعـات. وإذ ذاك سفرت لي وجـوه قبيحة من إنكـار الجميل وقلة الـوفاء. هـذا كان صـديقي يوم كنت أستطيع نفعه، فلما سلبت مني هذه القدرة تلمس الوسائل ليكون عدوّي، فإن لم يجد أسباباً اختلقها. وهؤلاء الذين كانوا يتهافتون على إقامة حفلات تكريم لي يوم انتخبت عميداً فـأرفضها، لم يفكـروا في إقامـة حفلة وداع يوم تـركت العمادة. وهذه التليفونات التي كانت تدق كل حين للسؤال عن صحتي، وطلب موعد لزيارتي لإظهار الشوق أولاً، والاطمئنان على صحتي ثانياً، والرجاء في قضاء مسألة ثالثاً، لم تعد تدق إلا للأعمال الضرورية التي ليس منها سؤال عن صحة، ولا إعلان أشواق. وهذا صندوق البريد الذي كان يمتلىء بالخـطابات المملوءة بالطلبات والرجاوات أصبح فارغاً إلا من خـطابات عـائلية أو مسـائل مصلحية. وهذه أيام الأعياد التي كان يموج فيها البيت بالزائرين من الصباح إلى المساء يهنئون بالعيد، أصبحت كسائر الأيام، أجلس فيها على المكتب فـأقرأ وأكتب، ولا سائل ولا مجيب. وهذه صورة للناس لم تكن جديـدة عليّ، فقد قرأت مثلها في الكتب وسمعت عنها في الأحاديث.. لكن لعل أسوأها أثراً في نفسي ما شاهدته من قلة الوفاء في بعض طلبتي: فقد كنت أعتقد أن الرابطة العلمية فوق كل الروابط، وأن حق الأستاذية فوق كل الحقـوق. أما أن طـالباً يخرج على أستاذه ويخاصمه، ويقدح فيه بالكذب والأبـاطيل، فشيء لم أكن رأيته، فلما رأيته استعظمته، وحزّ في نفسي وبلغ أثره أعماق قلبي، ولم أعـد بعد ذلك أثق بالناس كما كنت أثق، ولا أركن إليهم كما كنت أركن» ـ «حياتي» ص ٢٥٥ و ٢٥٦.

ونعود الآن إلى ما تبقى من المخـطوطة، وهي بضـع فقرات واضـح أن

والدي كان يضيفها كلما جدّ جديد على صلته بطٰه حسين، ثم انقطعت فجأة في حوالي ديسمبر ١٩٤٣).

* * *

رسمت لنفسي خطة في التدريس في الجامعة: وهي أن أقصر نفسي على التعليم وعلى أربع حصص أؤديها في يومين، وأذهب قبيل الحصة وأعود بعيدها، وأعتزل حضور مجلس الكلية، ولا أقبل عضوية مجلس الجامعة، وحجتي في ذلك أن وزارة المعارف والدكتور طٰه سيطرا على كل الأعمال الإدارية، فما شاءا نُفّذ، وما لم يشاءا لم ينفّذ، فلا معنى إذن لمجلس، ولا خدعة في نظام ديموقراطي الشكل استبدادي المعنى.

وسرت على هذا النظام طول سنة ١٩٤٢ وسنة ١٩٤٣، وأرحت نفسي وانقطعت لعملي العلمي، فعكفت على إنفاذ الجزء الأول من «قصة الأدب في العالم» وأتممته مع زكي نجيب محمود في عام.

* * *

وحدث يوم ٢٩ مايو ٤٣ أن دعتني الست قوت القلوب الدمرداشية للعشاء في بيتها، فأجبت ولم أعرف المدعوين. وذهبت فوجدت وأنا داخل الدكتور طٰه وأسرته واقفين على مدخل الباب الداخلي ومعهم سعيد بك لطفي [مدير الإذاعة المصرية الأسبق وشقيق أحمد لطفي السيد باشا] وفكري أباظة. فاحترت قليلاً ماذا أصنع. ووجدت الواجب يقضي عليّ بالتسليم عليهم جميعاً، ففعلت. ولكن الدكتور طٰه تردد بضع ثوان في مد يده إليّ حتى اضطر سعيد بك لطفي أن يهتف باسمي لينبهه على الواجب، فمد يده في ارتخاء وبرود. وكنت أظن أن من حولي لم يدركوا هذا المنظر، ولكن علمت بعدها أنهم لاحظوا ذلك، وأن الست قوت القلوب شكت للدكتور [إبراهيم؟] مدكور إساءة الدكتور طٰه إليّ في بيتها.

ومن ذلك الحين صممت ألا أقرئه سلاماً، ولا أضع يدي في يده.

في يوم ١٣ سبتمبر سنة ٤٣ شعرت بضيق من جو الجامعة، فقدمت طلباً بالإحالة إلى المعاش مع معاملتي معاملة بقية الموظفين من إعطائي درجة أستاذ أ، وضم سنتين إلى خدمتي، وإعطائي الفرق بين المعاش والمرتب مدة سنتين. وأقنعت علي باشا إبراهيم بهذا الطلب، فوعدني بمقابلة وزير المعارف سريعاً وإجابته. ولكن مضى زمن طويل ولم أسمع شيئاً. ثم قابلته، فأخبرني أن الوزير يرفض هذا، فقدمت طلباً ثانياً أتنازل فيه عن الدرجة، وأكتفي بضم سنتين.

وفي يوم الاثنين ١٨ أكتوبر سنة ٤٣ كلمني عبد المتعال أفندي [سكرتير لجنة التأليف والترجمة والنشر] في التليفون قائلاً إن الدكتور طه يريد أن يقابلني، وهو يسأل عني في اللجنة، ويسأل هل تحضر إلى اللجنة ليزورك. فقلت له: «سأحضر الساعة السابعة» وفعلاً ذهبت في الساعة المحددة، وحضر الدكتور طه.

فما زال يقنعني بالعدول عن الاستقالة نحو ساعتين حتى عدلت نزولاً على رجائه وتذكيراً بالصداقة القديمة. وفي هذه الجلسة تعاتبنا طويلاً وأبلغته ما في نفسي مما فعله معي أثناء عمادتي، وما فعله مع الدكتور السنهوري. وقد دافع عن نفسه في كل ذلك طويلاً، ثم انصرف. . . وفي أثناء الحديث أفهمني أنه اتفق مع الوزير على إعطائي الدرجة، فقلت له: «إن الدرجة ليست محل مساومة، وخير ألا تُذكر في الموضع». وأخبرني أن الوزير سيكتب لي خطاباً رداً على طلبي يبلغني فيه أسفه لأنه لم يقبل استقالتي حرصاً على مصلحة الطلبة.

وانتهى فصل طلب الإحالة على هذا الوجه. وقد مررت على النقراشي باشا أستشيره فيما تم، فقال إنه لو أخذ رأيه ما وافق على الاستقالة، فأما وقد تم على هذا الوجه فمن الخير، «ولا بأس إذا هم أعطوك الدرجة، فهذا حقك، ولا محل لتخوفك من أن يظن بك أنك إنما قدمت الاستقالة رغبة في الدرجة».

كما أشار [النقراشي] عليّ بالتحفظ في العلاقة بالدكتور [طٰه]. لأنه قد تلون باللون السياسي الواضح.

بعد نحو أسبوعين زرت الدكتور طٰه رداً لزيارته ووجدته في بيته. فمكثت عنده نحو عشر دقائق. وكان الكلام عادياً والمقابلة فيها شيء من التحفظ.

بعد نحو ثلاثة أسابيع دعانا الدكتور [أحمد] زكي [المدير الأسبق لجامعة القاهرة] على عشاء أنا والدكتور طٰه و (عبد الواحد أو عبد الوهاب) خلاف وفريد [أبو حديد] و [الدكتور محمد] عوض. وكانت سهرة لطيفة خفيفة.

وتحت إلحاح ابني [محمد] و [زوج ابنتي] عبد العزيز أفندي رجوته [أي الدكتور طٰه] في التليفون أن ييسر سبيل البعثة لابني [إلى إنجلترا] ويعين عبد العزيز في المعهد [الثقافي] المصري في لندن، فوعد.

[ح. أ. وقد أوفى الدكتور طٰه بوعده بصدد الإثنين].

* * *

إلى هنا تنتهي مخطوطة والدي «قصة العمادة». وقد ظلت العلاقة بين الرجلين طوال السنوات الخمس التالية يشوبها الفتور والتحفظ، حتى أصيب والدي في عينيه عام ١٩٤٨، فأتاه طه حسين يزوره وهو راقد في المستشفى، وعادت الإلفة بينهما إلى مجراها القديم، وأكثرا من التزوار واللقاء. فلما مات والدي كتب طٰه حسين في رثائه يقول:

«... كانت حياته كلها مغالبة، ولم تستقم له الأمور على ما أحب في يوم من الأيام مذ كان صبياً.. كان يريد أن يغير الدنيا من حوله. وليس تغيير الدنيا ميسراً للناس، ولكنه كان يريد أن يحاول من ذلك ما يستطيع، فيستقيم له التغيير في بيئته الخاصة، وفي بيئته الجامعية بعض الشيء، ويستعصي عليه في بيئات كثيرة كل الإستعصاء، فيسعد قليلاً، ويشقى كثيراً. فكنت تراه دائماً قليل الرضا كثير السخط، موزع النفس بين سرور قليل متقطع وحزن كثير يوشك أن

يكـون متصلاً، حتى أنكـر الناس منـه كثيراً من أمـره، وحتى نظر إليـه زملاؤه وأصدقاؤه نظرة فيها كثير من التحفظ والاحتياط، فكانوا يتحدثون إليـه مشفقين من ثورته، أو متـوقعين لثورتـه. وكانـوا يتكلفون من الـرفق به أكثـر مما كـانوا يتكلفون حين كانوا يتحدثـون إلى غيره من الأصـدقاء. وربمـا تندر بـه زملاؤه وأصدقاؤه وداعبوه في شيء كثير من الحب والرفق فسمّوه «العدل» ونادوه بهذا الإسم، وتحدثوا عنه بذلك فأكثروا الحديث، حتى كاد العدل يصبح له اسمـاً ثانياً. ولم يكن لهذا كله مصدر غير تحرجه المتصل، وتحفّظه المقيم، وتعرضه لالتماس الصعب من الأمر، وتجنبه ما كان من الأمر يسيـراً قريبـاً. . . . » (من كتاب «أحمد أمين بقلمه وقلم أصدقائه»).

* * *

رحم الله الرجلين رحمة واسعة.

نجاح الأديب وشُهرته، هل يُفسران أدبه وشخصيته؟

تضاربت الآراء..

فمن قائل (كهيمينجواي) إن النجاح ألدّ أعداء الأديب: «فالكتاب الجيّد يأتي له بالمال. وما يأتي المال حتى يرفع الكاتب به من مستوى معيشته. وما يرفع مستوى معيشته حتى يبدأ هو وزوجه وأولاده في اعتياده، فيحرص كل الحرص على ألا ينخفض. ويؤدّي حرصه ذلك إلى السرعة والإفراط في الكتابة. والإفراط والسرعة في الكتابة يؤدّيان إلى الإسفاف وهبوط المستوى. وإذ يهبط مستوى كتاباته يخمد حماس النقّاد والقراء. ويخمود هذا الحماس تهتز ثقة الأديب بنفسه».

ومن قائل (كسمرست موم) إن النجاح لا يُفسد الأديب وإنما يُصلحه. «وهو لا يؤدّي به إلى الغرور وتعاظم الإحساس بذاته ورضائه عنها. بل هو يعزّز من السمات الطيّبة في خلقه، ويُضفي عليه تواضعاً وتسامحاً واعتدال مزاج، في حين يميل به الفشل إلى أن يضحي قاسياً شديد الإحساس بالمرارة، عظيم الحسد لغيره من الكتاب الناجحين، دائم السخط على ما حوله ومن حوله».

* * *

وتضارب الآراء هذا راجع في حقيقته إلى اختلاف طبائع الناس اختلافاً

يجعل من الأمر الواحد ضاراً بهذا ومفيداً لذاك. فمن المؤكد أن النجاح المبكر والشهرة لم يضرّا بأدب تولستوي، أو دوستويفسكي، أو جوته، أو تشارلس ديكنز، أو كبلينج، أو توماس مان، أو آرثر ميلر. كما أنه من المؤكد أنه أفسد فرانسواز ساجان، وشولوخوف، وسكوت فيتزجيرالد، وتينيسي ويليامز، وجون أوزبورن، وكولين ويلسون... كذلك فقد يؤدّي فشل أديب معين في إحراز النجاح والشهرة إلى إحساسه بالقهر، وفقدانه الثقة بنفسه، ثم إلى إحجامه كلية عن مواصلة الكتابة؛ وقد لا يؤثر هذا الفشل في إيمان أديب آخر بقدراته وقيمة ما يكتبه، فيكتب لنفسه أو لأجيال تالية هو على ثقة من أنها ستكون أقدر على تقييم أدبه تقييماً عادلاً.

فالقاعدة في هذا الشأن إذن أنه لا قاعدة، وأن الأمر يتوقّف على شخصية الأديب وطبيعة تكوينه. فإن كان قد قيل إن الفراق يقتل المودّة السطحية ويزيد المودّة الصادقة توهّجاً، فكذلك النجاح والشهرة قد يقتلان المواهب الصغيرة والزائفة، ويصقلان الموهبة الحقيقية الضخمة.

المواهب الزائفة:

فأما عن صاحب الموهبة الضعيفة أو الزائفة: فهو قد يخرج على الناس بكتاب يلقى بينهم رواجاً عظيماً ولا يكون لهذا الرواج والنجاح أدنى صلة بعبقرية أو نبوغ. فقد يكون حاوياً لأسرار سياسية لا يعلمها غيره، أو وصف رحلة إلى أقطار بعيدة لم تطأها أقدام غالبية قرائه. وقد يكون كتابه جنسياً فاحشاً، أو فكاهياً رائقاً، أو بوليسياً شائقاً، أو عاطفياً رومانسياً يستهوي قلوب المراهقات والمراهقين، أو شديد التعاطف مع تيار سياسي أو ديني له شعبية كبيرة مؤقتة.... حينئذٍ يلمع اسم الكاتب، وتزيد دور النشر من نسبة مكافآته، وتستجلبه الإذاعة للحديث فيها، والتيليفزيون لكتابة التمثيليات المسلسلة له، وتستكتبه الجرائد والمجلات، ويُدعى للاشتراك في ندوات، وإلى إلقاء المحاضرات، وتُجرى معه المقابلات الصحفية، وتُسنَد إليه كتابة عمود يومي أو مقال أسبوعي، ويؤخذ رأيه عند وقوع حَدَث، ويُمطَر بالأسئلة عن نمط حياته

وأسلوب معيشته، وعن ألوان الطعام التي يهواها، والأغاني التي يفضّلها، وعلّة غرامه بالقطط، وسبب كراهته لارتداء رباط العنق.

وهو إذ يُقبل على كل هذا في نشاط وهمة، إنما يحفر قبره بنفسه... فالساعات التي كان يقضيها في الاطلاع والقراءة تتناقص فتتضاءل فتندثر. والمال الذي بات يُغدَق عليه قد نقله من الريف أو مدن الأقاليم إلى العاصمة، أو من وسط شعبي يفيض حياة وكان مصدر إلهام كتاباته الأولى إلى صالونات الأغنياء والأدباء من أمثاله. وقد تعرّف بسبب نجاحه بعدد كبير من النقّاد والكُتّاب، وأنشأ معهم علاقات شخصية، فباتوا مضطرين اضطراراً إلى امتداح كل كتاب جديد له، أو الإحجام، على الأقل، عن بيان نقائصه وعيوبه، فيزيده مديحهم الذي يحسبه مخلصاً غروراً واطمئناناً إلى استمرار موهبته.

وعَدَّ الناسُ ضَرطَتَه غِناءً   وقالوا إن فسا: قد فاح طِيبُ!

وإذ أن المجلات والصحف ودور النشر وسائر سبل الإعلام يهمّها شهرة الكاتب قبل جودة ما يكتبه، فإنها تظل على إلحافها في طلب المقالات والتمثيليات المسلسلة والكتب إلحافاً يوهمه بأنه لا سبب وراءه غير عبقريته. وعموده اليومي في الصحيفة يُملأ، ومقاله الأسبوعي في المجلة يُكتب، وإن لم يكن قد بقي في عقله أفكار جديدة، والبئر لا بدّ من استخراج الماء منها ولو كانت فارغة. وأصحاب الصالونات من الأغنياء يتهافتون على دعوته لإضفاء البريق على سهراتهم، فيتبدّد وقته وتتشتّت طاقته الذهنية والروحية بالتردّد عليها لسماع الثناء على آخر ما كَتَب، وأحدث ما نَشَر. وثمة نساء وفتيات قاصرات العقل يراسلنه أو يستشرنه أو يتزاحمن عليه، ويرين فخراً أن ينشئن معه علاقة جنسية... كل هذا وغيره أمور من شأنها أن تقتل الموهبة الصادقة بله الموهبة الزائفة، فإذا كل كتاب هو أضعف مما سبقه، وكل مقال أتفه من سلفه. حتى إذا ما صار كقشرة الليمونة قد اعتُصر منها كل ما في جوفها، تعجّب وتأفّف، وتألّم وتذمّر، إذ يرى الجمهور وقد تحوّل عنه فجأة إلى كاتب صاعد ونجم

جديد، وإذا مكانه في صفيحة القمامة وهو الذي كان قد أوشك أن يصبح على ثقة من أنه في زمرة الخالدين.

متاع الغرور:

لا شك في أن كل هذا كان وراء قولة أنتوني ترولوب الشهيرة إن النجاح هو بمثابة السمّ الذي ليس من المصلحة تناوله إلا في أواخر العمر؛ وحتى في أواخر العمر فإنه لا ينبغي تناوله إلا في جرعات صغيرة. فالكهل والشيخ أبصر من الشباب بالأمور على حقيقتها، وأصعب انبهاراً بالمتقلب الفاني، وأقل تعرّضاً للإصابة بالزهور أو بالإفراط في تقييم متاع الغرور. فإن أخذنا في الاعتبار ذلك الميل المَرَضِيّ لدى النقّاد إلى أن يلعبوا دور يوحنا المعمدان الذي بشّر بقدوم المسيح، والتهليل الأحمق ككتاب جديد شاب باعتباره «أمل المستقبل»، و«أعجوبة الزمان»، و«خليفة طٰه حسين وعباس العقاد»، أدركنا مدى خطورة خمر الثناء المفرط على عقول الشباب الغرّ. والكثيرون منا قد عاصروا الضجة المفتعلة التي صاحبت صدور رواية «مرحباً أيها الحزن» لفرانسواز ساجان وهي في الثامنة عشرة، وتمثيل مسرحية «أنظر إلى الماضي في غضب» لجون أوزبورن وهو في السابعة والعشرين، وظهور كتاب «الغريب» لكولين ويلسون وهو في الخامسة والعشرين، ثم لمسوا ذلك التدهور الغريب الذي طرأ على ثلاثتهم، وإفلاسهم الذّهني الرهيب بعد أن صاروا من مشاهير العصر ونجوم الأدب. كذلك يمكننا تبيّن هذه الحقيقة من قراءة الروايات الستّ لجي دي موباسان، ومراقبة انحداره التدريجي من رواية رائعة (حياة)، إلى رواية جيدة (بيل آمي)، إلى ثالثة لا بأس بها (بيير وجان)، إلى رابعة متوسطة (مونت أوريول)، إلى خامسة سيئة (قويّ كالموت)، إلى سادسة مشينة قبيحة بالغة السوء (قلوبنا)، وهو انحدار كان يزداد حدّة بنموّ شهرته، وتعاظم ثروته، وازدياد تزاحم النساء عليه.

مزايا تأخّر الشهرة:

وأما عن أصحاب المواهب الحقيقية، فما من أدنى شك في أن الشهرة

ستكون من نصيبهم، وأنها ستلازمهم بالضرورة ملازمة الظل للإنسان. غير أنها كالظل، تسبق الإنسان أحياناً وأحياناً تتبعه. وقديماً قيل إن معبدها يحوي أمواتاً لم يدخلوه حتى ماتوا، وأحياءً سيُطردون منه فور وفاتهم.. فالكاتب المتميز الفحل، كالمتنبي وشوبنهاور، لا مفر من أن يستثير عند الكُتّاب من أصحاب المواهب الزائفة مشاعر الحسد والغيرة والخوف والكراهية. فهو كالشمس إذا طلعت «لم يبدُ منهن كوكبُ» على حدّ تعبير النابغة الذّبياني. وإذ تصفّر وجوههم وتنقبض صدورهم إزاء كل كتاب أو مقال ممتاز يصدر من قلمه، يرون السلامة في التحالف والتآزر من أجل هدمه، والتضافر على تحقيره وإخماد صيته. وقد يلجأون إلى سلاح الصمت للحيلولة دون نيله الشهرة التي ستودي بشهرتهم، فلا يذكرون كتبه بكلمة، ويحرصون على ألا يرد ذكر اسمه على ألسنتهم، في الوقت الذي يشيدون فيه بكل مقال أو كتاب يصدر عن أمثالهم من أصحاب القرائح العقيمة الجربة، ويمسح بعضهم جوخ بعض كما تتهارش الحمير، مطمئنين إلى أنه لا خطر على شهرتهم من شهرة التافهين الأراذل.

على أن تأخر شهرة المجيد الموهوب هو في الغالب خير له وإن كرهه وتألّم له. فهو بتأخرها قد تجنّب لسنوات طويلة ما تحدّثنا عنه من أخطار الثروة والغرور، والصالونات والنساء، وهجره لمصدر إلهامه وبيئته الطبيعية.. لا زال وقته ملك يده، وقراءاته وساعات تفكيره وتأملاته لم ينتقص منها شيء. كذلك فإنه ما من شيء ذي قيمة حقيقية إلا استغرق نموّه زمناً طويلاً. أو كما قال ابن حزم: «أسرع الأشياء نمواً أسرعها فناءً، وأبطؤها حدوثاً أبطؤها نفاداً، وما دخل عسيراً لم يخرج يسيراً».. إن تأخّرت شهرة الكاتب في حياته فالأرجح أنها ستدوم مدة أطول بعد وفاته:

يموت رديء الشّعر من قبل أهله
وجيّدهُ يبقى وإن مات قائلُهُ

(دِعْبِل)

فهو إن تأنّى فإنما ليُتقِن. «قال بعض الشعراء لبعض: أنا-أقول كل ساعة قصيدة وأنت تقرضها في كل شهر. قال: لأني لا أقبل من شيطاني مثل الذي تقبله من شيطانك»! وإن كتب فإنما يكتب للأجيال كافة والأمم كافة، لا لجيله وحده وأمته وحدها. أما من جاءت شهرته الزائفة نتيجة تناوله لموضوعات الساعة، أو لإرضاء ميول عارضة واتجاهات سياسية أو دينية مؤقتة، فإنما شهرته أشبه شيء بالأعشاب والنباتات الصحراوية التي تنمو سريعاً وتذوي سريعاً ويسهل على الطفل الرضيع اقتلاعها، أو بالورقة الخفيفة ليس بوسع أقوى ذراع لناقد أو ناشر أن يطيّرها مسافةً بعيدة.

أضف إلى ذلك أن تأخر الشهرة والنجاح سبب في ألّا يتعجل الكاتب الإنجاز، إذ ليس هناك ما يستحثه ويدفعه إلى أن يمسك بالقلم ما لم تجُل بخاطره فكرة جديدة ذات قيمة. وهو في العادة إنما يكتب لإرضاء حافز داخليّ قويّ يحفزه إلى التعبير عن ذاته، لا لإرضاء جمهور قرائه:

عليّ نَحْتُ القوافي من مقاطعها
وما عليّ لهم أن تَفْهم البقرُ

(البحتري)

وهو يدرك أن النّائحة الثّكْلَى ليست كالنائحة المستأجَرة، وأن الكلمة إذا خرجت من القلب وقعت في القلب، وإذا خرجت من اللسان لم تجاوز الآذان. لذلك فهو حريص كل الحرص على كمال الأداء، وإتقان الصنعة. ليس ثمة أمامه عمود يومي عليه أن يملأ سطوره بأي كلام، ولا وراءه رئيس تحرير مجلسة يستحثّه الإنجاز كي يلحق بالعدد الأسبوعي، أو مدير إذاعة يستعجل حلقات التمثيلية لتسجيلها قبل ظهور هلال رمضان. وقد قضى جوته في كتابة «فاوست» اثنين وستين عاماً. ولو أنه كان ينشرها في حلقات في مجلة، أو استعجله مدير الإذاعة لتسجيل المسلسل، لكان من المؤكد أن يحرم الأدب العالمي من إحدى روائعه.

حلاوة النجاح:

غير أن للشهرة والنجاح في حياة الكاتب ـ رغم كل ما قلنا ـ آثارهما الطيبة الحميدة. صحيح أن قيمة الكاتب الحقيقية ليست في إنتاجه الفعلي بقدر ما هي في قوّة القريحة ورهافة الحسّ اللتين مكّنتاه من كتابة ما كتب، وإنتاج ما أنتج.. هي في نفسه وملكاته لا في المظهر الخارجي لهذه الملكات. غير أن الشهرة ونجاح كتبه من شأنهما أن يطمئناه على أنه يمتلك موهبة حقيقية يجدر به استغلالها وإنماؤها وتعهّدها بالرعاية، في حين قد يزعزع الفشل من ثقته في وجود تلك الموهبة فيتوقّف عن ممارستها.. فالثقة بالنفس هي عماد المهارة وشرط المقدرة. والأديب عادة يفتقر إلى القدرة على أن يحكم بنفسه على مدى جودة ما يكتب ما لم يلمس ردّ الفعل الإيجابي أو السلبي لدى جمهور قرّائه ونقّاده. والعين، كما قيل، لا ترى نفسها إلا بمرآة.. وإذ أن العالم زاخر بالأناس العاديين غير المتميّزين، فإن الشهرة العظيمة لا يمكن أن تعني إلا أن صاحبها فرد متميز خارق للعادة، وأنه من بين الآلاف التي يصادفها في الطريق، أو الملايين التي يسمع بوجودها، ذو قيمة فذّة ترفعه فوقها، وتفرّقه عنها. ولا بدّ أن إدراكه لهذه الحقيقة سيجلب إلى نفسه الرضا والسعادة، خاصة إن كان العمر قد تقدّم به فأفقده القدرة على الاستمتاع بأمور كثيرة مما يستمتع به الشباب. حينئذٍ تضحى الشهرة عنده إحدى متعه المحدودة، وتعويضاً لا بأس به عما بدأ يعتور شيخوخته من آفات، ومصدر رزق حين تضعف قواه الجثمانية عن تحصيل الرزق.

هذا إلى أن الناس عادةً إنما تحكم على الأشخاص وأفعالهم على ضوء النتيجة وقدر النجاح. وعندها أن الفاشل لا بدّ سيّء، والناجح لا بدّ جيّد. فالحظ السعيد كثيراً ما يكون لازماً للإعلاء من شأن المناقب والفضائل.. وها هو كلٌّ من يوليوس قيصر وكاتيلين قد اعتزم نفس الأمر، وبيّت نفس الخطّة والمؤامرة ضدّ الدولة، وكان لدى كلّ منهما نفس القدر من الموهبة والشجاعة.

غير أن نجاح قيصر في إنجازه خططه قد صيّره بطلاً تسير بذكره الركبان، في حين أدّى فشل مؤامرة كاتيلين إلى الحديث عنه في كتب التاريخ باعتباره خائناً غبياً. . . كذلك فقد ثار البحارة على كريستوفر كولومبس إبّان رحلته البحرية. ورفعوا راية العصيان وطالبوه بالعودة إلى إسبانيا، فاستمهلهم متوسّلاً ثلاثة أيام يقفل بعدها عائداً إن لم تبد خلالها أرض فلا أفق. ثم إذا بهم في مساء اليوم الثالث وقد لاحت لأعينهم أرض العالم الجديد. ولو أن البحارة أبوا إمهاله غير يومين، وعادت السفن إلى إسبانيا وقد خابت الآمال المعقودة عليها، لذكر الناس كولومبوس باعتباره حالماً واهماً، قد خدع الملك فرديناند وغرّر به، وبدّد الأموال الطائلة وخاطر بأرواح بحارته، في حين يذكرونه الآن بفضل نجاحه على أنه المكتشف الأعظم، والبطل الفرد.

فالدنيا إذن إذا أقبلت على أحد أعارته محاسن غيره، وإن أدبرت سلبته محاسن نفسه. . فإن كانت جودة إنتاج الكاتب هي في بعض الأحيان سبب شهرته، فإن شهرته هي في كل الأحيان سبب الإعتراف بجودة إنتاجه. ولو كان الفشل نصيبه لتصيّد الناس لنفس هذه الكتب العيوب، وبرّروا بها فشله وخمول ذكره:

وأنكد الناس عيشاً من تكون له
نَفْسُ الملوك وحالاتُ المساكينِ

سعة العيش:

فإن كان النجاح قد وفّر للكاتب سعة في العيش، ونقله بذلك من حيّه الشعبي أو الريف وسكانهما إلى حيّ أنيق في العاصمة، وتحوّل عن استخدام الحافلات العامة المزدحمة إلى ركوب سيارة خاصة به، وتضاءلت صلاته بطبقات الشعب المختلفة وكادت تقتصر على الأثرياء والفنانين، فلا شك أيضاً في أن الضيق في جانب يصاحبه انفراج في جانب، وانغلاق باب هنا يواكبه

انفتاح باب هناك. . فهو الآن قد أضحى بفضل الشهرة والنجاح يخالط أناساً من طبقة الأدباء والمثقفين ذوي الأفكار والأحاديث والمساجلات التي من شأنها أن تغذّي فكره وإن لم تغذّ مشاعره إلا لماماً. . وهو يقابل في أمسية واحدة يقضيها في أحد صالونات الأغنياء مجموعة من المشاهير من نجوم السينما والمسرح والشعر والموسيقى والرسم والنحت والسياسة والدبلوماسية والاقتصاد، فتنمو بلقياهم معارفه، ويتسع بمحاورتهم نطاق اهتماماته، وينفتح أمامه بالاستماع إليهم باب من الخبرات الجديدة التي لم يكن له عهد بها. وها هم المعجبون به يكتبون إليه أو يحادثونه في لقاءاتهم به عن أخص خصائص حياتهم وأسرار قلوبهم مما لا يُفْضُون به إلى أقرب المقربين إليهم من أصدقائهم وذويهم. ثم ها هو يُدعى إلى مؤتمر للكتاب في هذه الدولة الأجنبية أو تلك، أو إلى إلقاء محاضرات في جامعة أوروبية أو أمريكية، وقد يسعى حاكم آسيوي أو إفريقي إلى الاجتماع به، أو أمير عربي إلى استشارته والائتناس برأيه. فإذا هو وهو ابن الحاج عبد المقصود عمدة إحدى قرى الصعيد، وقد نزل ضيفاً على كاسترو، وتداول ساعة مع شو إن لاي، وجال بين الآثار الإسلامية في سمرقند وطشقند، ودخل في نقاش مع أساتذة جامعة أوكسفورد وطلبتها، وتناول العشاء هو وزوجته على مائدة يفتوشنكو أو مكسيم رودينسون، وأدلى بحديث لإريك رولو في صحيفة لوموند.

فإن كان كل هذا قد استغرق الكثير من وقته، وأثّر في قدر قراءاته، فهو بالتأكيد قد أثرى حصيلة تجاربه، ووسّع من أفقه ومفاهيمه عن الحياة والعالم حوله، وقضى على خطر أن يتحوّل إلى دودة كتب، أو راهب في صومعة. كذلك فلا بدّ أن يؤدّي اطلاعه الجديد على عوالم النحت والرسم والسينما والاقتصاد والسياسة وغيرها، واختلاطه بأقطابها، إلى تغذية أدبه وتنمية جوانبه وأطرافه، فيضحى بذلك أدسم مضموناً وأعم نطاقاً. أو كما قال ابن قتيبة: «من أراد أن يكون عالماً فليطلب فناً واحداً، ومن أراد أن يكون أديباً فليتّسع في

العلوم». فإن كانت الحياة الاجتماعية والمحاضرات والمؤتمرات والأحاديث الإذاعية والتليفيزيونية قد التهمت الكثير من وقته، فالمؤكد أن ثمة ساعات أخرى كثيرة قد وفّرتها له الشهرة والنجاح، وما جاءت به الشهرة والنجاح من ثراء، وما هيّأه له الثراء من قدرة على الاستعانة بالغير في السعي وراء إنجاز شتى احتياجاته. وسيكون بوسعه عندئذٍ باتصال تيليفوني قصير أن يطلب من وزير معجب به إنهاء مهمة له، أو من رئيس مجلس إدارة بنك قابله في إحدى سهراته أن ييسر له تحقيق رغبة. وقد يحدث أن يكون مفتش الجمارك في المطار قد شاهده في التيليفزيون فيرحب به مبتسماً ولا يفتح حقائبه، أو ناظر مدرسةمبهوراً بكتاب له فيقبل على الفور إلحاق ابنه بها، أو تاجر أثاث قد تابع مسلسلته الإذاعية فيجري له خصماً عظيماً على مشترَياته!

مستوى الإنتاج:

فإن كان صحيحاً أن الشهرة والنجاح يواكبهما في العادة إكثار من الإنتاج وإسراع في الكتابة فليست السرعة بالضرورة مدعاة إلى الحطّ من قيمة الإنتاج ما دام العقل خصباً زاخراً بالأفكار. وإنما تمثّل السرعة خطورة حين تتحوّل إلى عجلة، ويكون الإكثار من الكتابة ضاراً حين يتّخذ صورة تجريف للعقل المنهك. وبوسعنا أن نذكر عشرات الأمثلة لأدباء عظام كانوا شديدي السرعة في الكتابة، (دوستويفسكي، بلزاك، ترولوب، تشارلس ديكنز)، وكانت السرعة عندهم ناجمة عن الرغبة في رفع مستواهم المعيشي، وأنتجوا مع ذلك كتباً خالدة لم يعتورها خلل أو نقص.. فإن كان النجاح كثيراً ما يؤدّي بالأديب إلى الاتجاه للكتابة للصحافة، إما لزيادة دخله، أو للإبقاء على تداول اسمه، فهناك عشرات من الأدباء المشاهير ممن أتقنوا حرفة الأدب بفضل كتابتهم للصحف، (صامويل جونسون، أديسون، هازليت، ثاكري، برنارد شو، جورج أورويل، بريستلي، جراهام جرين).. والكتابة من أجل المال ليست عيباً في حدّ ذاته كما يزعم تولستوي، اللّهم إلا إن كان الاشتغال بالقضاء أو الدبلوماسية

أو الجندية أو الزراعة أو غير ذلك لقاء أجر عيباً. وثمة عدد من الأدباء ممن قضى الفقر على مواهبهم أكبر من عدد أولئك الذين قضى عليهم الإفراط في الخمر، أو أودى بهم الغرور، أو أضرّ بهم الثراء الفاحش.

هذا وقد يكون تأخر الشهرة والنجاح مدعاة للاسترخاء، وسبباً في الركون إلى الكسل. إذ ليس لدى الكاتب المغمور حافز يدفعه إلى المواصلة والإنتاج المتدفق، ما دام لا يرى جمهوراً ينتظر إنتاجاً جديداً له، أو ناشراً يستحثه، أو رئيس تحرير يقف وراءه بالمرصاد. وما من أحد بوسعه أن ينكر أن المثابرة والعمل المتواصل يساعدان على صقل المواهب وإتقان الصنعة، وأنهما لا زمان للأديب لزوم التدريب المستمر للرياضيّ والرسّام وراقصي الباليه والمغنّين والموسيقيين.

غير أن أبرز النقاط الإيجابية في الشهرة والنجاح في رأيي هو حرص الكاتب بسببهما على ألا يهبط مستواه، وخشيته الدائمة، والمؤلمة المأساوية أحياناً، من أن يأتي إنتاجه الجديد دون إنتاجه السابق. فهو دائماً في خوف على موهبته من أن يعتريها نقصان، وفي شك من قدرته على أن يجعل كتابه الجديد في مستوى كتابه الأخير الممتاز. وهو يعلم أن النقاد والجمهور بصفة عامة لديهم ميل خبيث إلى أن يحكموا بضعف الإنتاج الحديث بالمقارنة بالإنتاج القديم الذي هلّلوا له وأشادوا به. وقد كانت جلّ معاناة جوستاف فلوبير في حياته هو من قول الناس له إن روايته الجديدة، وإن كانت طيبة، لا يمكن مقارنتها بروايته الأولى «مدام بوفاري». والكاتب يدرك أن الجمهور متقلب هوائي، وأنه وقد كان بمقدوره أن يرفعه إلى السماء، على استعداد دائماً، وفي أية لحظة، لأن يخسف به الأرض وأن ينقل إعجابه وتهليله إلى غيره... فالنجاح إذن هو خير ضمان لمحاولة الكاتب أن يُبقي أدبه على مستواه الرفيع، وأن يُشلّ يده عن الإسفاف، وعن الاستهانة بقارئه والاستخفاف. وهو أمر قد يكون مدمّراً في بعض الأحيان، بدليل قولة شتاينبك إنه ما من كاتب حصل على جائزة نوبيل في

الأدب إلا كفّ عن الكتابة بعد الفوز بها من جرّاء خشيته من أن ينتج عملاً جديداً يقال عنه: أهذا عمل يليق بحائز على جائزة نوبيل؟!! قال هذا عام ١٩٥٦ مبرّراً به عدم طمعه في أن ينال الجائزة. فلما نالها عام ١٩٦٢، ظل حتى وفاته سنة ١٩٦٨ لا يخطّ قلمه حرفاً!

خاتمة:

في عام ١٩٠١، سأل ليو تولستوي أنطون تشيخوف عمن يظنه من بين الكُتّاب الروس صاحب أعظم الكتب رواجاً لدى الجمهور في تلك الحقبة. أجاب تشيخوف بقوله: أنت؟ قال لا. قال: فتورجينيف؟ قال لا. قال: دوستويفسكي؟ بوشكين؟ جوجول؟ قال لا. ـ فمن إذن؟ فذكر له تولستوي إسماً لا نجده اليوم مذكوراً في أي كتاب عن تاريخ الأدب الروسي.

فهل بوسعنا أن نعتبر مثل هذا الشخص الشهير في حياته، النكرة بعد وفاته، أسعد حظاً من فرانتز كافكا الذي لم تسمع الجماهير باسمه أو بأدبه إلا بعد انقضاء الأعوام على موته، ثم بات منذ أن عرفه الناس إحدى القمم الشامخة في الأدب العالمي؟

إن الشهرة التي كثيراً ما ينالها أصحاب المواهب المتوسطة أو الزائفة هي كالثروة التي يغتصبها امرؤ لنفسه بناء على وصية مزوّرة. أو هي كالعملة الزائفة، يظل صاحبها في قلق مستمر من أن يُكتشف أمره ويسقط قناعه فيفتضح، وهو ما لا بدّ واقع. أما صاحب الموهبة الحقيقية، فهو حتى إن لم ينل الشهرة في حياته، سيظل أسعد حظاً من الآخر، سعيداً بقدراته ونبوغه ورهافة حسّه، سعيداً بثقته من أنه في يوم ما، في بلد ما، سيمرّ ناقد جليل الشأن، مسموع الكلمة، برصيف أمام إحدى المكتبات، قد ألقيت عليه أكوام من الكتب القديمة تباع بقروش زهيدة. وسيلتقط الناقد كتابه وينظر فيه، ثم إذا به وقد راعه جمال فقرة، أو عظمة فكرة، فيقرر شراءه لينظر فيه على مهل.. ثم إذا هو بعد

أيـام يكتب عنه في صحيفـة ويشيد بـه. وإذا بالكـاتب المجهول وقـد أضحى حديث الناس أجمعين. . .

وهو بالضبط ما حدث حين التقط نـاقد شهيـر من بين كتب قديمـة على الرصيف في أحد شوارع لندن، ترجمة إدوارد فيتزجيرالد الانجليزيـة الخالـدة لرباعيات الخيّام.

صدرت منذ أشهر عن جامعة كاليفورنيا بلوس أنجلوس، دراسة أعدّتها العالمة النفسية كاي جاميسون عن الصلة بين الأمراض العصبية والمشكلات النفسية وبين العبقرية الخلّاقة. وقد استندت العالمة في دراستها إلى تحقيق أجرته خلال عام ١٩٨٣ في كل من أوكسفورد ولندن حيث درستْ حالات سبعة وأربعين من الأدباء والفنانين البريطانيين كلهم إما من الفائزين بجوائز كبرى أو الأعضاء في أكاديمية الفنون الملكية البريطانية، فاتّضح لها أن ثمانية عشر شخصاً منهم أُدخلوا في وقت من الأوقات مصحات نفسية للعلاج من أمراض عصبية، إما بالصدمات الكهربائية أو بكربونات الليثيوم. وإذ كانت نسبة المرضى بين هؤلاء الفنانين، وهي ٣٨٪، تزيد على ستة أضعاف نسبة المرضى بين مجموع الأفراد العاديين، فقد انتهت الباحثة إلى نتيجة خالتها قاطعة: وهي أن ثمة صلة وثيقة بين المرض النفسي وبين الموهبة الفنية والقدرة على الخلق، وأن هذا المرض قد لا يكون «خللاً في الموتور» كما وصفه الشاعر روبرت لويل، بل قد يكون هو الموتور ذاته!

صورة الفنان لدى العامة:

مثل هذه النتيجة «العلمية» لن تضيف جديداً إلى المفهوم الشائع لدى العامة عن الفنان وإن أضافت «سنداً» و«إثباتاً». فعند الناس اعتقاد بأن الفنان إنسان غير طبيعي، وأن اختلاله النفسي، أو مرضه، شرط لقدرته على النفاذ إلى

حقيقة الأمور والتعبير عن هذه الحقيقة تعبيراً فنياً. وكثيراً ما نراهم يلتمسون العذر ويغتفرون للفنان شذوذه، وغرابة عاداته وملبسه، واضطراب نمط معيشته وحياته العائلية، وشرود ذهنه ومسلكه غير المألوف، واستخفافه بما تعارف عليه الناس من قيم، وبالقوانين الأخلاقية، ويردّدون فيما بينهم كلما صدمهم مسلك له أو استفظعوا منه مقولة: «معلهش؛ أصله فنان!».

ولا شك أنه مما ساعد على تكوين هذه الصورة للفنان حقائق ثابتة وشائعة، معروفة لدى الكافة، عن مشاهير من الموسيقيين والمصوّرين والأدباء والممثلين وغيرهم، بل وما يلاحظ من مسلك المجاهيل العاملين في الوسط الفني، كأفراد الكورس وموسيقي التخت، وما تنشره الصحف والمجلات يومياً عن فضائح المغنيات والراقصات والممثلين. ومَن مِنا لم يحط علماً بقصة قطع فان جوخ لأذنه وإرساله إياها في علبة إلى حبيبته، أو بقصة سيد درويش مع الكوكايين، أو بالعلاقة الشاذة بين الشاعرين فيرلين ورامبو، وبين لورد بايرون وأخته، أو بنبأ الأيام الأخيرة في حياة هيمنجواي وانتحاره، أو بما كان ينتاب دوستويفسكي من نوبات الصرع.. إلى آخره؟ أو كيف يمكن للعامة أن تتجنب هذا الاعتقاد في الفنانين وهم يرون أحدهم وقد دأب على السير في شوارع باريس يجرّ وراءه فأراً قد ربطه بخيط، ويسمعون شاعراً يفخر بأنه نظم أجمل قصائده وهو تحت تأثير ما يتعاطاه من مخدرات، ويقرؤون في الصحف عن راقصة تصفع شرطياً إذ يعترض على تركها لسيارتها في غير موقف السيارات؟

فكرة الأسلاف عن الفنان:

هذه الفكرة عن الصلة بين الفن والآفات العقلية ليست بالفكرة القديمة، ولا هي بالتي كانت شائعة قبل القرن التاسع عشر. صحيح أن العرب الجاهليين نسبوا الشعر إلى الهواتف وإلى الجن القاطنة في وادي عبقر، وأن القرآن الكريم وصف الشعراء بأنهم إنما يتبعهم الغاوون، وبأنهم في كل واد يهيمون، وأن حديثاً منسوباً إلى النبي عليه الصلاة والسلام يذكر أن مأواهم جهنم. غير أننا

جميعاً نعلم المكانة الرفيعة التي كانت للشاعر الجاهلي في قبيلته، وللشاعر الإسلامي عند الملوك والأمراء، ولأمثال ابن رواحة وكعب بن مالك وحسان بن ثابت عند الرسول ذاته.

أما في الغرب، فإن كانت العامة في العصرين القديم والوسيط كثيراً ما نعتت الشعراء وغيرهم من الفنانين بأنهم مجانين، فإنما كانت تقصد بذلك في واقع الأمر أن عقل الشاعر أو الفنان يحمل بأسلوب مخالف للأسلوب الذي يعمل به عقل الرجل العادي، أو حتى عقل المفكر الفيلسوف. وهناك وفرة من الدلائل التاريخية التي تشير إلى أن أهل العصر الوسيط كانوا يرون في نظم الشعر والموسيقى وحمل السلاح أرقى أوجه النشاط البشري مما يحقّ للمشتغلين بها أن يَتِيهُوا بها على الناس. ولا حاجة بنا إلى التدليل على مدى الحظوة لدى الأمراء، أو التوقير لدى العامة، مما كان يتمتع به الفنانون من أمثال ليوناردو ومايكل أنجلو ورافائيل في عصر النهضة. فإن كان أهل القرن الثامن عشر يزدرون الشاعر المحترف، فالواقع أنهم كانوا يزدرون الاحتراف في حد ذاته، ومحترفي أية مهنة من المهن لا الشعر فحسب. بل إن ازدراءهم لاحتراف الشعر بالذات كان من قبيل التوقير العميق للشعر الذي رأوا احترافه واتخاذه تجارة للتكسّب امتهاناً لقدسيته.

الفنان والمجتمع الصناعي:

ثم طرأ على صورة الفنان تغير جوهري في القرن التاسع عشر، وأضيفت إليها من الملامح ما لا يزال قائماً في أذهان العامة إلى اليوم. والسبب الرئيسي في تغيّر الصورة في اعتقادي مرتبط بغلبة النظام الرأسمالي، وازدهار الصناعة، ونموّ الطبقة البرجوازية، واتساع نطاق نفوذها، وتفشي أخلاقياتها وقيمها. فقد ارتأت هذه الطبقة أنه في حين كان من واجب الفنان التجاوب والتعاطف مع هذه التطورات الجسيمة، والإشادة بالعصر الصناعي، والثناء على القيم الجديدة، اتخذت غالبية الفنانين موقفاً معادياً من هذه التطورات والقيم

والأخلاقيات، وكان الإزراء بها، والتندر عليها، والتحذير من أخطارها، من الموضوعات الأثيرة لديهم.

أضف إلى ذلك أن المجتمع الصناعي هو في حاجة إلى غرس عادات ومفاهيم وأسلوب عيش معين لدى أفراده من أجل ضمان حسن سير العمل فيه. وقد كان هذا المجتمع على استعداد لاحتمال لفيف هامشي من الفنانين، والتغاضي عن غرابة مسلكهم، وتحررهم من القيود الأخلاقية، وضعف احترامهم للمواعيد وتقيدهم بالوقت، وعدم التأكد مما سيكون عليه تصرفهم وردّ فعلهم، لولا اقتناع البورجوازية بأن من الخطر كل الخطر على كل مقوّمات المجتمع الجديد أن يعمّ تأثير هؤلاء الفنانين، وأن تنتشر العدوى، فيضيع الاحترام للرؤساء، ويشيع الاستخفاف بقيود الوظيفة، ويتزعزع الإلتزام بالمواعيد المحددة، وتضعف شهوة استهلاك السلع الجديدة، ويصعب صبّ الإنسان في القالب الواحد اللازم لازدهار ذلك المجتمع.

لذلك رأت تلك الطبقة الجديدة من الرأسماليين والبرجوازيين لزاماً عليها أن تتصدّى لهذا التأثير بالمقاومة عن طريق إثارة الشك فيما إذا كان الفنان إنساناً طبيعياً سليم العقل، وغرس الاعتقاد بأنه في جوهره شخص منحل منحرف مريض، إن كان لا بدّ من أن تحتمل الجماهير وجوده بين ظهرانيها من أجل المتعة التي توفّرها أعماله، فلا ينبغي أن يؤخذ فحوى تلك الأعمال على محمل الجدّ، وإن كان لا مفرّ من الإقرار له ببعض الامتيازات وحرية التصرف، فهي امتيازات أشبه بتلك التي تعطى لعبيط القرية، أو مضحك الملوك.

قد أشهر الفنان إذن حرباً على قيم المجتمع الجديد، فأشهر أرباب هذا المجتمع حرباً عليه من أجل الحدّ من فاعلية تأثيره، وذلك عن طريق تشويه معالم صورته. ولم يكن غريباً أن ينبري عدد من الفنانين أنفسهم، من أمثال برنارد شور وآرثر كوسلر وتوماس مان للإقرار بصلة الفن بانحلال الفرد والمجتمع والحضارة، حتى كان هذا الموضوع محور عدد كبير من قصص

توماس مان وروایاته. وقد أراد الروائي إميل زولا، وهو الحريص دائماً على أن يكون في خدمة التقدم العلمي، أن يتحقق من صحة هذا الاتهام للفنانين، فعرض نفسه على خمسة عشر طبيباً نفسياً، انتهوا إلى أن عبقريته تنبثق بصفة أساسية عن عناصر مرضية في جهازه العصبي ومزاجه، فصدّقهم زولا، وأقرّ الاتهام. ثم تبعه إدموند ويلسون فشبّه الفنان بفيلوكتيتس في الأسطورة التي تتحدث عن محارب إغريقي اضطر إلى أن يعزل نفسه عن سائر الناس بسبب الرائحة الخبيثة المنبعثة عن جرح أصابه أثناء الحرب، غير أن الناس ظلوا يقصدونه مع ذلك دوماً لحاجتهم إلى الاستعانة بقوسه السحريّ الذي كان لا يخطيء هدفاً. وهي أسطورة لم تذكر أن خبث رائحة الجرح كان ثمناً للقوس الذي يمتلكه فيلوكتيتس، واعتقد ويلسون مع ذلك أن عظمة القوس تتوقف على بشاعة الجرح ورائحته.

أسباب أخرى:

وثمة أسباب أخرى لشيوع هذه الصورة الجديدة للفنان غير السبب المتصل بحضارة المجتمع الصناعي البورجوازي.

فهناك اعتقاد قديم، خاصة في الفكر المسيحي والفكر الصوفي الإسلامي، بأن العذاب والآلام طريق إلى المزيد من القوة، أو على حد تعبير إسخيلوس: إن الآلام هي سبيل الإنسان إلى معرفة الآلهة. ثم نجم عن هذا قول بأن القوى الكامنة في الفرد يتم تصريفها عن طريق أعضاء جسمه أو ملكاته، وأنه إن تعطل عمل أحد هذه الأعضاء أو الملكات، تم التصريف في عضو آخر أو ملكة أخرى فتزداد بذلك قوة هذا العضو أو الملكة. وبعبارة أخرى: أن ثمة آلية في إعادة توزيع القوى، بحيث تنمو رهافة السمع واللمس مثلاً عند الأعمى، وبحيث يضحى كل ذي عاهة جباراً. وقد كانوا في الماضي يخْصُون الكهنة حتى تنصرف الطاقة الجنسية المعطلة لديهم إلى القدرة على كشف حجاب الغيب والتنبؤ بما سيجيء. وإذ أن الفنان يُضَحِّي بالضرورة

بأشياء ثمينة وملذات وقدرات كبيرة الشأن، فلا بدّ أن تزدهر لديه في مقابل ذلك قدرات خارقة أخرى، وأن يستمتع بملذات وأشياء مغايرة لا يعرفها غيره. كذلك يمكن القول بأن أي تركيز على وجه واحد من أوجه النشاط، حتى عند الناس العاديين، لا بد من التضحية معه بأمور كثيرة، كتضحية الطبيب المشغول بعمله بعلاقاته الأسرية والاجتماعية. فلا غرابة في أن يؤدي استغراق الفنان في فنه إلى اختلال توازنه الروحي وما يسمى بالصحة النفسية.

والفنان عادةً يرى في التصرفات «العاقلة» للأفراد العاديين حوله جنوناً، ويرى «صحتهم النفسية» مرضاً، في حين يرى في اختلال جهازه العصبي صحة روحية وأخلاقية، ويشير إلى أنه قد كان بوسع كاساندرا المجنونة في الأسطورة الإغريقية أن تدرك من الأمور الهامة وأسرار الغيب ما عجز غيرها عن إدراكه بفضل رفاهة حسها الناجمة عن توتر أعصابها وآفتها العقلية. وقد أبى الكثيرون منهم، ومن بينهم هيمنجواي، الانصياع لرغبة ذويهم وأصدقائهم وقبول العلاج، خشية أن يؤدي زوال مرضهم إلى زوال موهبتهم معه.

كذلك رأى بعض الفنانين، شأن بعض الصوفية، أنه من الحماقة محاربة شهوات النفس، وأن الانغماس في هذه الشهوات قد يكون خير سبيل لإدراك كذب الشهوة واقتلاعها، وأن ارتكاب الذنوب والموبقات هو في بعض الأحايين واجب إذ من شأنه إذلال النفس وسحق الكبرياء وإثبات القدرة على الاستهانة بالرأي العام وحكم البشر. ولا شك في أن البعض، مثل لورد بايرون، استغلّ فكرة العامة عن الفنانين والنظر إليهم على أنهم ليسوا كغيرهم، وبالتالي فإنه لا ينبغي أن تطبق عليهم نفس المعايير الخلقية المطبقة على الأفراد العاديين، الخلقية المطبقة على الأفراد العاديين، فأقدم على الإتيان في حياته الخاصة بتصرفات لا يجرؤ غيره على الإقدام عليها. كما أنه لا شك في أن شيوع هذا النمط من السلوك في الأوساط الفنية ظل إلى يومنا هذا مسؤولاً عن كراهة العائلاة «المحترمة» في مجتمعنا الشرقي لاشتغال أبنائها وبناتها ببعض

الفنون، واعتباره كارثة وعاراً، إذ يرون من شبه المؤكد أن يؤدي ذلك إلى الانخراط في جو من الفساد والشذوذ.

الدفاع:

لقد وصف فرويد الفنان بأنه إنسان مريض يسعى إلى الهرب من الحقيقة والواقع بإيجاده بديلاً من الوهم يُشبع رغباته عن طريقه. غير أنه عاد فذكر في موضع آخر أنه مدين للأدباء والشعراء، خاصة دوستويفسكي، بفضل اكتشافه لعالم اللاشعور. فكيف يمكن إذن أن ينجم عن المرض والانحلال أنقى الحقائق، أو أن تؤتي التربة العفنة أجمل الثمار؟

في اعتقادي أن القول بأن الفنان هو بالضرورة إنسان مريض، وأن اختلاله النفسي شرط لموهبته، قول غير سليم. فما من أحد قط أشار إلى اضطراب نفسي لدى ليوناردو دافينشي مثلاً أو شكسبير وجوته وتولستوي وتشيخوف وموليير، ومئات غيرهم، ولا أعمالهم بالتي تفصح عن مثل هذا الاضطراب. فإن قال قائل إن صَرَعَ دوستويفسكي واختلال جهازه العصبي هما مصدر روعة إنتاجه وثقب نظراته النفسية، كان من حقنا أن نسأله: وما أدراك أن هذا الصرع وهذا الاختلال لم يُضعفا من قدراتٍ كان يمكن أن تكون أكبر وأروع، أو أنهما لم يكونا مسؤولين عن عيوب معينة في أدب دوستويفسكي، مثل عجزه عن تصوير غير الشخصيات المريضة من الناس، أو عن أن يفهم من الحب غير الرغبة الجنسية العارمة، أو الخضوع الماسوكي ، أو الحب الناجم عن الشفقة؟

قد نجد لدى المصابين بفصام الشخصية من الأفراد العاديين قدرة على التعبير عن أنفسهم تأخذ أحياناً مظهراً خلّاقاً. غير أن هذا التعبير ليس فناً. فإن كان فان جوخ مصاباً هو الآخر بفصام الشخصية، فقد كان فناناً بالإضافة إلى مرضه، ولم يكن فناناً بسبب مرضه. والخلل العقلي قد يؤدي إلى الفشل،

أو إلى الافتقار إلى النبوغ، فإن صحبهُ نبوغ أو عبقرية فإن من الخطل القول بأنه مصدر هذا النبوغ أو هذه العبقرية.

إن الضعف لا ينفي القوة ولا القوة تنفي الضعف. وجميع الناس هم بمعنى أو آخر، وبدرجات شتى، مرضى يعانون من خلل عصبي ما. والفنان إنسان مريض بهذا المفهوم وحده، ومثل غيره. غير أن الجانب السليم من روحه هو المسؤول عن كفاءة مخيلته، وقدرته على التصور والتخطيط لعمله الفني وعن إنجازه إياه. فإن كان سيد درويش فناناً يتعاطى الكوكايين، فهو فنان غير أنه يتعاطى الكوكايين، لا فنان لأنه يتعاطى الكوكايين. وشذوذ فيرلين ورامبو وبايرون، أو فظاعة تصرف الراقصة مع الشرطي، مواكبٌ لفنّهم لا مصدر له. قد تساعدنا معرفتنا لطبيعة الخلل عند الفنان على فهمنا لطبيعة المادة التي ينتقيها ويختارها موضوعاً لفنّه، بل وقد تساعدنا على فهم بواعثه على الاشتغال بالفن، غير أنها لن تعرّفنا سرّ نبوغه ومصدر قوته.

كل ما هناك هو أن النشوة التي يخبرها الرجل العادي حين يقرأ شعراً أو يستمع إلى سيمفونية أو يشاهد لوحة فنية أو رقصاً، نادراً ما يخبر مثلها في حياته اليومية إلا في حالة الأحلام، أو الحمّى، أو تحت تأثير أحد المخدرات. وهو بالتالي يميل إلى أنه ينسب نشوة الفنان نفسه إلى حالة مرضية أو شاذة كحالة الأحلام أو الحمى أو تأثير المخدرات.

كذلك فإنه لا ينبغي أن ننسى أن الفنانين أناس قد سُلّطت عليهم الأضواء، وأن ما يُكتب عن حياتهم الخاصة ومسلكهم وتصرفاتهم يفوق بكثير ما يُكتب عن غيرهم. كما أن الأدباء هم أكثر الناس إقبالاً على الحديث الصريح عن أنفسهم، وبدقة عن لا شعورهم وعما يجول في خاطرهم، سواء في خطاباتهم الخاصة أو يوميّاتهم أو سيرهم الذاتية. والمعرف أن السير الذاتية للأدباء هي أفضل السير، كما أنهم أكثر الناس اعتناءً بقول الصدق، وأقلّهم اكتراثاً بصدم مشاعر الغير. فلو أن غيرهم من المشتغلين بالمهن الأخرى، كالعلماء والأطباء

ورجـال البنـوك والأعمـال، أوتـوا من القـدرة على التعبيـر عَن ذواتهم ودفين مشاعرهم ما أوتي الأدباء، وتركوا لنا سيراً ذاتية في مثل صراحة السير الأولى، فلربما وضح لنا أنهم ليسوا أقلّ عرضـةً من الفنانين لـلإصابـة بالخلل النفسي والاضطرابات العصبية.

لقد أورد تولستوي في روايته «الحرب والسلام» ملاحظة شيقـة، هي أن المرأة فائقة الجمال إن شاب حسنَها عيبٌ ضئيل الشأن، خُيِّل إلى الناظرين أن هذا العيب بالذات هو مصدر جمالها كله!

وهو حكم يسري على الفنان سريانه على المرأة الحسناء.

عَرِيب
جارية المأمون

العصر :

كانت الحياة في العصر الأمويّ أقلّ تكلّفاً، وأكثر سذاجة، وأدلّ على الذّوق العربي البدويّ البسيط من الحياة في عصر العباسيين، وذلك بالنظر إلى هيمنة العنصر العربي في العصر الأول. وكان العرب في ظل الأمويين إذا أرادوا الترف تخيّروا من ترف الأمم الأخرى، وعدّلوا فيه حسب أذواقهم وميولهم، فيجيء ترفاً آخر عربياً لا فارسياً صرفاً، ولا رومياً صرفاً. أما العباسيون فقد انتقلوا بحذافيرهم إلى العادات الفارسية، بحيث انقطعت الصلات الاجتماعية وتضاءلت أوجه الشبه بين المسلمين في العراق والمسلمين في جزيرة العرب أو كادت. وقد كان لا بدّ لقيام الدولة العباسية من خلفاء جادّين غير لاهين، يصرفون كل وقتهم في تأسيس الدولة، واصطناع الموالين لها، وكبح جماح الثائرين. حتى إذا هدأت الدولة واستقرت، أصبح لدى الخليقة من الوقت ما يسمح بشيء من اللهو والترف، وإنفاق ما تجمّع لديه من المال الكثير فيهما.

فالمعروف عن أبي العباس السفّاح ـ وهو أوّلهم ـ أنه كان يؤثر الجدّ والعلم على ضروب اللهو. كذلك لم يُرَ في دار المنصور لهوٌ قطّ، وهو الذي كانت لا تزال به بقية من بداوة، وميل إلى البساطة والتقتير. فهو لا يحب الشراب، ولا يشرب على مائدته أحد. وهو لا يُسرف في عطاء لشاعر ولا لمادح، ولا يتغالى في ثوب ولا في مائدة. أعجبه مرّة إنشادُ منشد فأمر

بإعطائه درهماً! وسمع خادماً له يضرب بالطنبور للجواري فضرب رأس الخادم بالطنبور وأمر ببيعه!

فلما مات المنصور، شعر الناس بشيء من الإرتياح وقد أجهدوا أنفسهم في عهده بما يتطلبه تأسيس الدولة وإرساء دعائمها من مشقة، وملّوا الإفراط في الجدّ والاقتصاد، وتطلّعوا إلى حياة فيها سعة في المال، وطرف من النعيم. وقد كانت السنوات العشر التي حكمها المهديّ جسراً بين حياة الجدّ والجفاف والعمل في عصر المنصور، وحياة الترف والنعيم في عصر الرشيد ومن بعده. وكان المهدي سخياً كريماً؛ فرّق في الناس ما خلّفه المنصور من المال، وكانت قيمته أربعة عشر مليون ديناراً وستمائة مليون درهماً، سوى ما جُبِيَ في أيامه. وإذ كان محباً للفنون الجميلة، فقد جرى الناس على أثره، وأنفقوا الأموال على الفنانين، فرقي الفن، وبدأ ينتشر بين طبقات الشعب.

وأخذ المهدي يجلس للمغنّين. كان في البداية يسمع غناءهم وهم وراء ستاره لا يرون له وجهاً. ثم بدأ يظهر لهم. وقد أصبح وَلَدٌ له وبنت، هما إبراهيم وعُلَيَّة، بهجة عصرهما في الظرف والغناء.

كذلك كان المهدي يحب القيان، مترفاً في ملبسه ومأكله. أما الخمر فكان لا يشربه، لا تحرّجاً بل عن عدم اشتهاء له. غير أن أصحابه كانوا يشربون عنده. ورغم أنه كان معتدلاً في لهوه وترفه، فإنه ما كاد يُرْخي للناس العنان في هذا السبيل، حتى استطابوه ولم يقفوا عند حدّ. ثم انتقلوا نُقلة أخرى من حيث السّرف في التّرف في عهد هارون الرشيد حين زادت الثروة وعظم سلطان الفرس، وهم المعروفون من قديم بالميل إلى اللهو والسرور وحب النبيذ والغناء. ثم جاء الأمين فزاد في اللهو نغمات، وطلب الخصيان وصيّرهم لخلوته في ليله ونهاره، ورفض النساء الحرائر والإماء. أما المأمون فلم تكن شهواته وملاهيه كشهوات الأمين وملاهيه. فقد كان للمأمون ملاذٌ عقلية تشغل وقته، كالكُتب والفلسفة والجدل في المسائل الدينية والفقهية. وقد أقام بعد انتصاره

على أخيه ودخوله بغداد عشرين شهراً لا يسمع الغناء. ثم بدأ يسمعه. وكان يغنيه إسحاق الموصلي الذي كان أبوه إبراهيم يغنّي للرشيد. وكان الناس قد تجرّعوا غُصص البؤس أيام الحرب بين الأمين والمأمون، وخربت بغداد. فما عادت السكينة حتى عادوا إلى اللهو مفرطين يعوّضون ما فقدوه.

وقد قلّد الأغنياءُ في اللهو والبذخ قصور الخلفاء، بل زادوا في لهوهم لما تقتضيه طبيعة مجالس الخلفاء من حشمة ووقار لا يلتزمهما غيرهم من الأغنياء. وسرت العدوى من الأغنياء إلى الطبقة المتوسطة، فسار أفرادها على منهاجهم. ولعبوا بالنّرد والشطرنج، وتهارشوا بالديوك والكلاب، وانتشر القمار حتى في حانات الفقراء، وأولعوا بالنقش والتصوير. واشتهر من بينهم الراقصون، وأحبّوا البساتين، وأكثروا الخروج إليها، والأزهار يزيّنون بها موائدهم. وكان أهل الورع والصلاح يرون كل ذلك من حولهم في بغداد، فتزيد كراهيتهم لها، واستنكارهم للفسق فيها. وكان بشْر بن الحارث يقول:

«بغداد ضيّقة على المتّقين، لا ينبغي لمؤمن أن يقيم بها».

الجواري:

أسباب الرقّ في الإسلام ثلاثة:

الأول: وقوع غير المسلم أسيراً في يد المسلمين عند الحرب، أو حمله عنوة من بلاد الأعداء، بشرط أن يكون عند أسره أو أخذه غير مسلم. غير أنه لو أسلم بعد استرقاقه لا يزول الرقّ عنه؛

والثاني: أن يولد الولد من أَمَة مملوكة وأب من الرقيق، أو من أب غير مالك للأمة، أو من مالك الأمة ولكنه لا يعترف بأبوّته للولد؛

والثالث: شراء الرقيق.

ويعدّ الرقيق مالاً شأنه في ذلك شأن المتاع. والقاعدة هي أن يحتجز الإمام خُمسَ الرقيق من الأسرى للصالح العام، وتقسّم أربعة الأخماس على

من اشترك في الحرب، فيكون للفارس منهم سهمان، وللراجل سهم واحد.

وإذ كانت الحروب في صدر الإسلام تكاد تكون دائمة، وكان النصر للمسلمين يكاد يكون مطّرداً، صار الرقيق لا يُحصى كثرةً، متنوّعاً تنوّع الأمم التي حاربها المسلمون. وإذ كان يُعدّ مالاً فيجوز بيعه وشراؤه وإجارته ورهنه، فإن لم يقتصر على المحاربين، بل كان في متناول أيدي الناس جميعاً.

وقد أوصى القرآن الكريم بالعدل والرحمة في معاملة الرقيق، وجعل العتق كفّارة لذنوب عديدة، وقُربة من أحسن القرب: ﴿فكاتبوهم إن علمتم فيهم خيراً، وآتوهم من مال الله الذي آتاكم﴾ (سورة النور : ٣٣) . وكان من البِرّ والعادات المحمودة أن يُوصي الإنسان قبل وفاته بعتق بعض من يملكه من الرقيق. ومن الناس من كان يعتق الرقيق كرمأنه عتقاً كاملاً، ومنهم من كان يُطلقه على أن يدفع له مقداراً من المال فيما بعد. فالرقيق له أن يشتري حريته، وله أن يشتغل أثناء رقّه بالعمل الذي يريده. أما عن شراء الرقيق فليس في القرآن أو الحديث شيء بصدده.

والرجل المسلم الحرّ لا يحلّ له أن يكون على ذمّته في وقت واحد أكثر من أربع زوجات، سواء كانت الزوجات الأربع حرائر أو إماء. ولا يحلّ له أن يتزوج أمة إذا كان متزوجاً حرّة، على أساس أن في ذلك امتهاناً للحرّة. غير أن له أن يتزوج الحرة على الأمة.

والأمة حِلٌ لمالكها سواء كان متزوجاً أو غير متزوج، ولا يتقيّد في ذلك بعدد. ولا يجوز أن يشترك رجلان في أمة في وقت واحد. كما لا يصحّ للمالك أن يبيع أو أن يهب «أم الولد»، وهي الأمة التي تلد من سيدها، والتي كان لها منزلة أرفع من منزلة غيرها من الجواري. فإن مات، صارت أم الولد حرة. أما أولادها من مالكها فأحرار من يوم يولدون. وكانت عقوبة الأمة الزانية أقل من عقوبة الحرة، لأنها تُعتبر أقل ذنباً لما ينقصها من حرية.

الاهتمام بتعليم الجواري:

كانت قصور الخلفاء والأمراء والأغنياء تجمع رقيقاً من أمم متعدّدة تختلف في الطباع والعادات واللغات. وقد ذُكر أنه كان للمتوكل أربعة آلاف جارية من مختلف الأجناس. وقد ترك الخلفاء والأغنياء لمماليكهم حرية الديانة، وكان البعض منهم يلبس لبسه القومي ويظل يتكلم بلغته.

واتجه العباسيون إلى تعليم الجواري، خاصةً الغناء الذي انتشر في عصرهم انتشاراً عظيماً، وعُدّ حاجة من حاجات الإنسان الضرورية. وقد نما ذوق الناس في الغناء نمواً غريباً، وشغفوا به حتى ليغنّي مغنٍ على الجسر فيجتمع السامعون حوله ويُخاف من سقوط الجسر بهم! ولم يتحرّج الخلفاء أنفسهم ولا أولادهم من اختراع الأصوات والتغني بها.

واستتبع تعلّم الجواري الغناء تعلّمهن الأدب وحفظ الكثير من الشعر العربي حتى يُجِدْن مخارج الحروف ويَحْسُنَ غناؤهن بالشعر. بل كانت هناك من الجواري المغنيات من كنّ ينظمن الأغاني.

وكان هذا التعلم يُغْلي قيمة الجارية أضعافَ ثمنها. وقد عُرضت جارية بثلاثمائة دينار، فلما علّمها إبراهيم بن المهدي الغناء عُرِض في ثَمنها ثلاثة آلاف دينار. وكان إبراهيم الموصلي مغنّي الرشيد من أكثر الناس نشاطاً في تعليم الجواري. وقد ألّف هو ويزيد حوراء شركةً لشراء الجواري وتعليمهن الغناء والمشاركة في ربحهن. وقد يتّفق لدى المغني المشهور وجود ثمانين جارية لغيره يودعونهن عنده لتعليمهن فن الغناء.

وقد عُني الرجال بتعليم الجواري أكثر من عنايتهم بتعليم الحرائر، ودعاهم إلى ذلك طلب الربح. فالجواري هنّ ملهى الرجال. ولذا حاول القائمون بأمورهن أن يرقوا هذه الملاهي بكل ما يتطلّبه اللاهون، ورأوا أن الجارية إذا كانت مغنية أديبة موسيقية شاعرة كان ذلك أفعلَ في قلوب الرجال، وأجلب للمال.

وكانت الجواري أنشط من الحرائر في ناحية الإنشاء الأدبي، وفي ناحية الإيحاء إلى الشعراء وإلهامهم. فقد كان الناس يغارون على الحرائر أكثر مما يغارون على الجواري، ويحجبون الحرة دون الجارية. فالرجل لا يُعَيَّر بالجارية كما يعيَّر بقريبته الحرة. والجارية سافرة إلى حدّ بعيد بحكم أنها عُرضة لأن تباع وتُشترى. وهي تقضي للرجل حوائجه، وتغشى الأسواق، وتجلس معه إلى أصحابه، وتستمع إلى أحاديثهم فتُفيد منها. أما الحرائر فلا يقع عليهن إلا نظر أقاربهن. لذلك كان طبيعياً أن يغذّي الأدباء والشعراء أدبهم وشعرهم بالجواري أكثر مما يغذّونه بالحرائر.

وكان الجواري نوعين: جوار مغنيات للخاصة، يتهاداهن الأمراء والأغنياء حباً في التجديد، وفراراً من الاقتصار على صوت واحد؛ وقيان عامة يملكهن النخّاس أو غيره، فيعرضهن للغناء في محال يأوي إليها الفتيان لسماعهن والإنفاق عليهن، ويقولون في النخاس وفي قيانه الشعر. وقد ساهم هذا النوع الأخير في نشر الخلاعة والمجون، غير أنهن ساهمن أيضاً في نشر الفنون الجميلة، ورُقِيّ الذوق الفني، ونشر أنواع من الظرف قلّدهن الناس فيها، كحب الأزهار، وكتابة الأشعار الرقيقة والجُمل الظريفة تطريزاً على الأقمصة والأكمام والعصائب والمناديل والوسائد والبسط والأَسرّة والكِلَل والنّعال، وبالحِنّاء على الأقدام والراح. ونجح الجواري في إشعار الناس بالظُّرف والتزام حدوده، حتى أصبح للظرفاء عُرْف خاص في الزيّ والنظر والطعام والشراب.

النخّاسون وأسواق الرقيق:

انتشرت أسواق الرقيق في مدن الإسلام الكبرى. وكان في بغداد شارع يسمّى شارع دار الرقيق. ونجد بالسوق طرقاً متشعبة فيها الغُرف والحوانيت للرقيق. فأما الرقيق الجيّد فكان يباع في منازل خاصة أو بواسطة تاجر كبير. وأما غيره فيباع في السوق العامة، وهو ما كان بمثابة عقوبة تحطّ من قدره.

وإذ كان الرقيق تجارة من التجارات، تقع عليها المساومات، ويحتاج

المشتري إلى التأمل البيّن وخيار الرؤية المشترط في جميع السلع، حُلّل مكالمة القيان ومفاكهتهن ومغازلتهن ومصافحتهن ووضع اليد عليهن للتقليب والنظر.

وكان النخّاسون يوصون الجواري بأن يُظهرن أجمل ما فيهن، ويُخفين أقبح ما فيهن، وأن يتودّدن إلى المشايخ ونافري الطباع وقبيحي الوجوه ويستميلوهم، ويتمنّعن ويتجنّوْن على الشباب ليتمكّنوا من قلوبهم!

وكان الراغبون في الشراء يُحَذَّرون من شراء الرقيق في المواسم. ففي مثل تلك الأسواق كان النخاسون يلجأون إلى الحيل؛ كأن يصيّروا الثيِّب كالبكر، ويخفوا حَمْل الجارية، ويطوّلوا الشعور بأن يوصلوا في طرفها شعراً من جنسها. فكم من نحيفة بيعت بسمينة، وممسوح العجز بثقيل الروادف، وأبخر الفم بطيّب النّكهة. وكم صَفَّروا البياض الحادث عن البَرَص والبَهَق في الجلد، وجعلوا العين الزرقاء كحلاء، وحمّروا الخدود المصفرّة، وأزالوا عن الخدود شَعْر اللِّحى، وأكسبوا الشعور الشُّقْر حالك السّواد، وجعّدوا الشعور السّبطة، وبيّضوا الوجوه المسمّرة، ودمْلجوا السيقان الضامرة، وأذهبوا آثار الجدري والوشم. وكم من مريض بيع بالصحيح، وغلام بجارية، هذا بالإضافة إلى ما يوصون به الجواري من دلّ ومجانة. وكان بعض النخاسين يقول: «ربع درهم حِنّاء يزيد في ثمن الجارية مائة درهم فضّة!».

ومن جملة ما حُذِّر منه المشتري ألا يستعرض جارية أو يفكر في شرائها وهو شِبق، إذ ليس لمُنْعِظٍ رأيٍ كما يقال. فهو عندئذٍ يقطع بأول نظرة، وأول نظرة سحر، وللجديد والغريب روعة. فإذا صادف منه حاجة داعية قطع بما تكذّبه الحواس عند الاستغناء. ولهذا قيل: تكريرُ اللَّحْظ يُخْلِق كلَّ جِدَّة، ومعاودة التقليب تُظْهِر التصنّع.

وعليه أن يأخذ بسوء الظن، فلا يقطع بأول لفظ من غلام أو جارية؛ فربما جاءت بالاتفاق، فوافقت قبولاً ولا يكون وراءَها أمثالُها.

وعليه أن يسأل عن سبب بيع المملوك، وعما إذا كـان السبب من جهته أو من جهة مالكه.

وعليـه أن يتحرّز في استبـراء الإماء من الحمـل، فكثيراً مـا يجعلن في فروجهن خِرَقاً بدم غيرهن.

وليعلم أن في شحوب لون الجارية وشهوتها للطعـام المالـح دليلاً على توحّمها.

وإن كان له عدوّ يخشى منه غِيلةً، أو يخاف أن يطّلع له على سرّ، فليأخذ حذره حين يُقْدِم على شراء خادم أو جارية، خاصة إن كانت تعمل قبل عرضها للبيع في دار السلطان، فإن هذه حيلة قد هلك بها جماعة من الملوك والرؤساء.

وإذا اشتريتَ جاريـةً غير بـالغة فـربما بَلَغَتْ في ملكـك وأنتِ لا تعلم، وَكَتَمَتْ ذلك عنك رغبةً في الولد.

واحذرْ الجواري اللواتي يُـوهِمْنَ أنهن عُقْم أو كارهـات للحمل، فـربما خَدَعْنك بذلك. ولا تُخْرِج جارية من ملكك إلى نخّاس إلا وهي حائض، فربما تحبل فتدّعي أنه منك!

أصحاب القيان:

قلنا إن الرقيق الذي لم تكن له من المواهب والمزايا غير قدراته الجثمانية الـظاهرة لـلأعين كـان يُبـاع في الأسـواق. أمـا أصحـاب المـوهبـة الغنـائيـة أو الشعرية، أو ذوو الدّل والظرف وجمال الحديث وحسن المغازلة، مما يُحتاج لتبيّنه إلى عِشرة طويلة أو قصيرة، فكان لا بدّ من جمعهم في مجالس يعقدهـا التاجر في دار خاصة له، ويتردّد عليها ذوو الثراء أو الجاه.

وكـان الناس يقصـدون مالـك القيان بـالرغبـة كما يُقْصَـد بهـا للخلفـاء والعلماء. فيُزار ولا يُكَلَّفُ الزيارة، ويُوصَل ولا يُحْمَلُ على الصِّلة، ويُهْدَى له ولا تُقْتَضَى منـه الهديـة. وهم يرسلون إلى بيتـه بصنوف الأطعمـة والأشربـة،

ويُكْفَى مؤونـة جواريـه. ثم هو يُستقبـل إذا أَعْسَرَ ولا يُـرَدّ، وَيَسْـأَلُ الحـوائـجَ فلا يُمنع، ويُلْقى أبداً بالإعـظام، ويُكَنَّى إذا نُودي، ويُحَيَّـا بطرائف الأخبـار، ويُطلع على مكنون الأسرار.

وهو يعلم أن ثمن الجارية إنما يغلو بأحد سببين أو باجتماعهما: مواهب القينة، أو عشق أحد المتـردّدين عليه لهـا. فأمـا المواهب فهـو يُعنى بإنمـائها وإبرازها. وأما العشق، فهو يُدرك أن العاشق متى ظفر بالمعشـوق مرة واحـدة نقص تسعة أعشار عشقه، ونقص من برّه ورفده بقدر ما نقص من عشقه. ولذا فهو يُعنى بنصب الرقباء، وبألا تتاح الفرصـة للعاشق لأن يـظفر بسؤلـه، حتى يضطر إلى الشراء. وهو مع ذلك يُعْرِض عن الغَمْزَة، ويغفر القُبلة، ويتغافل عن الإشـارة، ويتعامى عن المكـاتبة . وهـو يميّز أصنـاف تجارتـه فيسعّـرهـا وفق قيمتهـا ، ويعرف مـا يصلح لكل من زبـائنـه . ومَنْ كـان ذا جـاه من العشـاق اعتمد على جاهه وسأله الحوائج. ومن كان ذا مال اقترض منـه بلا ربـا. ومن كان مقرّباً إلى السلطان دُقّت عند زيارته الطبول ونُفخ في الأبواق، نظراً إلى أنه كفيل بأن يردّ عن التاجر مالك القيان مضايقات الشرطة والمشاغبين!

مجالس القيان:

والقَيْنَة أدْرَى بما فيه صالحها وما يتطلّبه منها التاجرُ صاحبُها من سلوك. فهي إن رأت في المجلس فتى له غنى وكثرة مال، مالت إليه لتخدعه، ومنحته نظرَها، وغمزته بطرْفها، وداعبته بالتبسّم، وغـازلتْه في أشعـار الغناء، ولهجت باقتراحاته، ونشطت للشّرْب عند شربه، وسقتْه أنصاف أقداحها، أو شربتْ من فضْلَة كأسه، وناولته قُضوض تفّاحها، وتحيّة من ريحانها، وتغايرت على أهله، وحَمَتْه النظر إلى صواحباتها، وأظهرت الشوق إلى طول مكْثه، والصبابة لسرعة عودته، والحزن لفراقه. ثم ترسل إليه بالرّسل، وتُخبر عن سَهَرها، وتشكو إليه القلق والأرق، وتبعث إليه بخاتمها وخصلة من شعرهـا، وقطعـة من مِرْطهـا، وقلامة من ظفرها، أو شَظِيّة من مِضرابها، ولُبان قد جعلتـه عوضـاً عن قبلتها،

وكتاب قد نمّقته وطيّبته وشدّته بوتر من عودها، ونقّطت عليه قطرات من دمعها، تسأله المواتاة على حبّها، وأن يبعثَ يطلب زيارتها، لتقرّ بالنظر إليه عينها. وتوهمه أن الذي بها منه أكثر مما به منها، وأنها لا تريد سواه، ولا تريده لماله بل لنفسه. ثم تُظهر ستر الكتاب عن مواليها ليكون المغرورُ أوثق بها.

وهي تُهدي إليه في عيد النيروز سُكّرا، وفي المهرجان خاتماً وتفاحة، وتنقش على خاتمها اسمه، وربما أتت إلى بيته فتمكّنه من القبلة فما فوقها، وتُفرِشُه نفسَها.

وربما اجتمع عندها من عشاقها ثلاثة أو أربعة، فتبكي لواحد بعين، وتضحك للآخر بالأخرى، وتغمز هذا بذاك، وتعطي واحداً سِرّها، والآخر علانيتها، وتوهمه أنها له دون الآخر، وأن الذي تُظهر خلاف ضميرها. وتكتب إليهم جميعاً عند الانصراف كتباً على نسخ واحدة، تُظهِر لكل واحد منهم تبرّمها بالباقين، وحرصها على الخلوة به دونهم.

يقول الجاحظ: «وليس هذا بذمّ لهن، ولكنه من فرط المدح. وقد جاء في الأثر: خير نسائكم السّواحر الخلاّبات».

حتى إذا ما مال إليها الرجلُ بودّه، وحوت عقلَه وسلبت قلبه، أخذت في طلب الهدايا العظيمة، وتشهّت الثياب والعصائب المرصّعة، وخواتيم الياقوت، وتمارضَت من غير سقم لتجيئها هداياه.

فإن نفد اليسار وأُتلف المال، أظهرت الملل، وتبرّمت بكلامه، وتتبّعت عليه سقطاته، وأخذت في الجفاء والعتاب، والقِلَى والإبعاد، ومالت إلى سواه.

على أن القينة وإن كانت لا تكاد تخلص في عشقها، لما جُبِلت عليه من نَصْب الحِبالة، فإن هواها أسرع إلى النفوس وأوقعُ في القلوب. فهي أقرب أملاً، وأقلّ عِللاً، والظفر بها أسرع من الظَّفر بالحرّة. وهي تجمع للإنسان من

اللذات ما لا يجتمع في شيء على وجه الأرض؛ فللعين النظر إلى حُسنها، وللسمع منها حظّ، وللّمس فيها الشهوة والحنين إلى الباه. والحواس كلها روّاد للقلب وشهود عنده. وقد تطلب القينة الهدايا لمولاها لرغبتها في هوى عاشقها، لأن التاجر إذا تتابعت عليه ألطافُ العشيق رغب في صفائه، فأخلاها معه الأيام الكثيرة، والليالي المتتابعة.

تبرير مسلك الجواري:

يقول الجاحظ:

«وكيف تَسْلَمُ القَيْنة من الفِتْنة أو يمكنها أن تكون عفيفة، وإنما تُكْتَسَبُ الأهواء، وتُتَعَلَّمُ الألسنُ والأخلاق بالمنشأ، وهي تنشأ من لَدُن مولدها إلى أوان وفاتها بما يصدّ عن ذكر الله من لهو الحديث، وصنوف اللعب، وبين الخلعاء والمُجّان، ومن لا يُسمع منه كلمةُ جِدّ، ولا يُرجَع منه إلى ثقة ولا دين ولا صيانة مُرُوَّة. . .

«وتَرْوي الحاذِقةُ منهن أربعة آلاف صوت فصاعداً، يكون الصوت فيها بين البيتين إلى أربعة أبيات، ليس فيها ذكرُ الله إلا عن غفلة، وإنما بُنيت كلها على ذِكْر الزّنا والقيادة، والعشق والصّبوة، والشّوق والغُلْمة. . .

«ثم لا تنفكّ من الدراسة لصناعتها مُنْكَبَّة عليها، تأخذ من المُطارحين الذين طَرْحُهم كلّه مغازلة، وإنشادُهم مراودة. وهي مضطرة إلى ذلك في صناعتها، لأنها إن جَفَتْها تَفَلَّتت، وإن أهملتها نَقَصَت، وإن لم تستفدْ منها وَقَفَت، وكل واقفٍ فإلى النقصان أقرب. وإنما فَرَّق بين أصحاب الصناعات وبين من لا يحسنُها التزيّدُ فيها والمواظبة عليها. فهي لو أرادت الهُدَى لَم تعرفه، لأن فكرها وقلبها ولسانها وَبَدَنها مشاغيلُ بما هي فيه. . . .».

* * *

وننتقل بعد هذا كله إلى الحديث تفصيلاً عن حياة واحدة من هؤلاء.

عَرِيب:

عَرِيب جارية من أشهر الجواري المغنيات في التاريخ الإسلامي، ولدت ببغداد عام ١٨١ هـ (٧٩٧ م) أثناء خلافة هارون الرشيد، وتوفيت عن ثلاث وتسعين سنة عام ٢٧٧ هـ (٨٩٠ م) في أواخر عهد المعتمد، فتكون بذلك قد شهدت عهود أحد عشر خليفة من خلفاء العباسيين، هم: الرشيد (٧٨٦ ـ ٨٠٩)، والأمين (٨٠٩ ـ ٨١٣)، والمأمون (٨١٣ ـ ٨٣٣) ، والمعتصم (٨٣٣ ـ ٨٤٢) ، والواثق (٨٤٢ ـ ٨٤٧) ، والمتوكل (٨٤٧ ـ ٨٦١) ، والمنتصر (٨٦١ ـ ٨٦٢) ، والمستعين (٨٦٢ ـ ٨٦٦) ، والمعتز (٨٦٦ ـ ٨٦٩) ، والمهتدي (٨٦٩ ـ ٨٧٠) ، والمعتمد (٨٧٠ ـ ٨٩٢) . قالت عريب: «جامعني منهم ثمانية، ما اشتهيت منهم أحداً إلا المعتزّ». والمؤكد بالنظر إلى سنّها وقت تولية كل منهم الخلافة، أن عدداً منهم إنما عاشرها قبل تقلّده الحكم.

صفتها:

قال عنها إسحاق الموصلي إمام أهل صناعة الغناء العربيّ: «ما رأيتُ امرأة قطّ أضرب من عريب، ولا أحسن صنعة، ولا أحسن وجهاً، ولا أخفّ روحاً، ولا أحسن خطاباً، ولا أسرع جواباً، ولا ألعب بالشطرنج والنّرد». ووصفها أبو الفرج الأصفهاني صاحب «الأغاني» بأنها «مغنية محسنة، ، وشاعرة صالحةُ الشعر، مليحة الخطّ والمذهب في الكلام، ونهاية في الحسن والجمال والظّرف، وجودة الضّرب وإتقان الصنعة، والمعرفة بالنغم والأوتار، والرواية للشعر والأدب. لم يتعلق بها أحد من نظرائها، ولا رُؤي في النساء بعد القيان الحجازيات القديمات، مثل جميلة وعزّة الميلاء وسلّامة الزرقاء ومن جرى مجراهن ـ على قلة عددهن ـ نظيرٌ لها. وكانت فيها من الفضائل التي وصفناها ما ليس لهن مما يكون لمثلها من جواري الخلفاء، ومن نشأ في قصور الخلافة، وغُذي برقيق العيش الذي لا يدانيه عيشُ الحجاز والنشء بين العامة والعرب الجُفاة ومن غَلُظَ طبعُهُ».

وقد أفرد ابن المعتز لأخبارها وغنائها كتاباً مفقوداً. وذكرها في كتابة «طبقات الشعراء»، ووصفها بأنها «شاعرة مُغلّقة مطبوعة»، وكانت تتبع آثار الشعراء فتُخرِج منها مواضعَ خطئهم وتعرِضه على المأمون. وكانت من أظرف الناس وأسرعهم نادرة، ومن أحسن الناس وجهاً، وأفصحهم لساناً، وأبلغهم بياناً، وأصنعهم كفّاً. ثم أضاف قوله:

«ولها حديث في غرامها أيام شبابها لم نودعه كتابنا هذا لشناعته!».

ابنة جعفر البرمكي؟

كانت عريب تزعم أنها بنت جعفر بن يحيى البرمكي من امرأة شريفة. وقد أيّد زعمها هذا آخرون من بينهم خالُ المعتصم، وابنٌ لمولاها المراكبي. وكان الفضل بن مروان يقول: «كنت إذا نظرتُ إلى قدمَيْ عريب شَبَّهْتُهُما بقدمَيْ جعفر بن يحيى». وعندما ذُكِرَتْ بلاغتُها في كُتُبِها لبعض الكتّاب قال: «فما يمنعها من ذلك وهي بنت جعفر؟» وكانت إن تحدّثت عن البرامكة وصفتهم بأنهم أهلها. ويحكي المغنّي جَحْظَة أنه دخل إليها وهو غلام فأنكرتْه وسألتْ عنه، فلما أعلمها أنه ابن جعفر بن موسى بن يحيى البرمكي وأنها ابنة عم أبيه أَدْنَتْه وقرّبت مجلسه وسمعت غناءه وأمرت له بخمسين ديناراً.

وكانت أمها فاطمة صبية نظيفة تعمل لدى أخت لجعفر. فلما رآها جعفر هَوِيَها، وسأل أختَه أن تزوّجه إياها ففعلت. وبلغ الخبر أباه فأنكره، وقال لولده: «أتتزوج مَنْ لا تُعرف لها أم ولا أب؟ اشتر مكانها مائة جارية وأَخْرِجْها». فأخرجها وأسكنها، سرّاً من أبيه، دار امرأة كانت مربية للبرامكة، في ناحية بباب الأنبار ببغداد، ووكّل بها من يحفظها، وكان يتردّد عليها، فولدت عريب سنة إحدى وثمانين ومائة.

طفولتها:

ماتت أم عريب وعريب طفلة صغيرة. فدفع جعفر ابنته إلى امرأة نصرانية وجعلها مربية لها. ثم أوقع الرشيد بالبرامكة وقتل جعفر يوم أول صفر سنة

١٨٧ هـ (٢٩ يناير عام ٨٠٣ م) ، وجعفر في السادسة والثلاثين من عمره. وفي أثناء انتهاب البرامكة، سُرِقَت عريب وهي طفلة في السادسة، وبيعت لنخّاس في سوق الرقيق يُدعى سِنبس، وقيل إن مربيتها النصرانية هي التي باعتها له، فاشتراها من عبد الله بن إسماعيل المراكبي صاحب مراكب الرشيد.

عند المراكبي:

انتقلت الفتاة مع مولاها إلى البصرة. وتولّى المراكبي تأديبها وتخريجها، فعلّمها الكتابة والنحو والشعر والغناء، فبرعت في ذلك كله، وتزايدت حتى قالت الشعر. وقد حكت عريب أن المراكبي اصطحبها معه في صباها إلى الحج، فكانت في طريقها تطلب الأعراب وتستنشدهم الأشعار، وتكتب عنهم النوادر وسائر ما تسمعه منهم، فإن استحسنت أبياتاً تسمعها منهم وضعت لها الألحان وغنّتها. وكان المراكبي يفرح بذلك فرحاً شديداً، ويُجزل لها المكافأة، ويزداد بها شغفاً.

عند الخليفة الأمين:

فلما وَلِيَ محمد الأمين الخلافة بعد أبيه الرشيد عام ٨٠٩ م، جاء المراكبي، والأمين راكب، ليقبّل يده، فأمر الأمين بمنعه ودفعه. فلما تولّى خادمُه ذلك ضَرَبه المراكبي وقال له: أتمنعني من يد سيدي أن أقبّلها؟. وجاء الخادم إلى الخليفة يشكوه، فأمر الأمين بحبس المراكبي، وطالبه بخمسمائة ألف دِرهم اتّهمه بأنه مدين بها لبيت المال. وبعث فأخذ عريب من منزله مع خدمٍ كانوا له. ويقال إن الأمين كان قد سمع بها أثناء حياة أبيه، فطلبها منه فلم يجبه الرشيد إلى ما سأل، فاضطغن عليه الأمين لذلك.

وبعث الأمين في إحضار عريب فأُحضرت، وكانت وقتها في نحو الرابعة عشرة من عمرها. وغنّته بحضرة عمّه إبراهيم بن المهدي، الذي كان من أساطين الغناء في عصره، أغنية مطلعها:

لـكـلّ أُنـاسٍ جـوهـرٌ مـتـنـافسٌ
وأنـتِ طـرازُ الآنـسـاتِ الـمـلائِـحِ

فطرب الأمين واستعاد الصوت مراراً، وقال لإبراهيم:
ــ يا عمّ، كيف سمعت؟

قال: سمعتُ حسناً. وإن تطاولتْ بها الأيامُ وَسَكَنَ رَوْعُها، ازداد غناؤُها حُسناً.

وافتضّها الأمين. حكا نحرير الخادم: دخلتُ يوماً قصر الحرم فلمحتُ عريب جالسة على كرسي ناشرةً شعرها تغتسل، فسألتُ عنها فقيل: هذه عريب، دعا بها سيّدها اليوم فافتضّها.

وقالت عريب: كنت لمحمد الأمين وصيفة في عداد الوصائف، ألبس قباء ومنطقة وأقوم على رأسه وربما سقيته. وكان أحسن خلق الله، لم نر ذكراً ولا أنثى مثله جمالاً وحُسناً مع حُسن خلق.

ثم انتقض أمرُ الأمين، وشُغل عنها بحربه مع أخيه المأمون، وشُغِلت عنه. فلما قُتل، توجّه المراكبي إلى دار أمه زبيدة وأخذ عريب منها عنوَةً.

هربها من المراكبي:

عادت عريب إلى مولاها المراكبي. وكان للمراكبي هذا صديقٌ يُدعى حاتم بن عديّ من قوّاد خراسان. وكان مولاها يدعوه كثيراً ويخالطه. ثم ركب حاتماً الدَّيْن فلجأ إلى دار المراكبي يستتر عنده. وهناك مدّ عينَه إلى عريب، وكاتَبها فأجابتْه، وكانت المواصلة بينهما وعشقته. فلما انتقل إلى منزله، اتفق مع عريب على أن تهرب من المراكبي، وأعدّ هو لها موضعاً. فلم تزل تحتال حتى اتّخذت سُلَّماً من العصب الذي تُعمل منه الأوتار، وخبّأته، ولفّت ثيابها وجعلتها في فراشها بالليل حتى تُوهِمَ المراكبيَّ أنها هي، ثم تسوَّرت من الحائط ومضت إلى حاتم، فمكثت عنده زماناً دون أن يعلم مولاها بمكانها.

ويقال إن حاتماً لما صارت عنده، بعث ليلة إلى المراكبي يستعير منه عُوداً حتى تغنّيه عريب به، فأعاره المراكبي عودَها وهو لا يعلم أنها عنده ولا يتّهمه بشيء من أمرها.

هربها من حاتم:

ثم إنها ملّت حاتماً بعد ذلك فهربت منه إلى قوم من معارفها، فكانت تغني عندهم وهي مستترة متخفية. فلما كان يوم من الأيام اجتاز ابنُ أخٍ للمراكبي ببستان كانت فيه مع القوم تغني، فسمع الغناء وعرف صاحبتَه. فبعث إلى عمّه من وقته يستدعيه، وأقام هو بمكانه فلم يبرح حتى جاء عمّه. وأمسك المراكبي بتلابيبها وأخذها فضربها مائة مقرعة وهي تصيح:

ـ «يا هذا! لم تقتلني؟ أنا لست أصبرُ عليك. أنا امرأة حرّة.. إن كنتُ مملوكةً فبِعْني. لستُ أصبر على الضِّيقة».

فلما كان من غدٍ ندم على فعله، وصار إليها فقبّل رأسها ورجلها، ووهب لها عشرة آلاف درهم.

قصة علّويه:

ويحكي المغنّي المشهور علّويه الذي وصف عريب بأنها أظرفُ الناس وأحسنهم وجهاً، وبأنها أحسن غناءً منه ومن مخارق، أن المأمون أمره وسائر المغنين في ليلة من الليالي أن يصيروا إليه بُكرةً ليصطبح. فلما غدا، لقيه المراكبي مولى عريب وهي يومئذٍ عنده، فقال له المراكبي:

ــ يا أيها الرجل الظالم المعتدي، أما ترِقّ ولا ترحم ولا تستحي؟ عريب هائمة تحلم بك في النوم ثلاثَ مرات في كل ليلة.

قال علّويه: أم المأمون زانية! (يريد بهذه العبارة الاستخفاف بموعد الخليفة كائنة ما تكون النتيجة). ومضى مع المراكبي. فلما دخل إذا عريب على كرسي عظيم تطبخ وبين يديها ثلاث قدور من دجاج. فلما رأت علّويه

قامت تعانقه وتقبّله، وأدخلت لسانها في فمه، ثم قالت:

ــ أيّما أَحَبُّ إليك؛ أن تأكل من هذه القدور، أو تشتهي شيئاً آخر يُطبخ لك؟

قال علّويه: بل قِدر من هذه تكفينا.

فغرفت قِدْراً منها، وجعلتها بينها وبينه، فأكلوا. ثم دعت بالنبيذ فصبّت رطلاً شربت نصفه وسقت علّويه نصفه، فما زالوا يشربون حتى سكروا. ثم قالت لعلّويه: يا أبا الحسن، أخرجتُ البارحةَ شعرَ أبي العتاهيةَ فاخترتُ منه شعراً غنّيت فيه. قال: وما هو؟ فأنشدت:

عذيري من الإنسان لا إن جفوتُهُ صفا لي ولا إن كنتُ طوعَ يديْهِ
وإني لمشتاقٌ إلى قُرب صاحِبٍ يروق ويصفو إن كَدَرْتُ عليهِ

وقالت: قد بقي فيه شيء أريد إصلاحه. قال: ما فيه شيء. قالت: بلى! فظلاّ يردّدانه حتى استوى اللحن. ثم جاء حجّاب الخليفة وأخذوا علّويه، فأقبل على المأمون يمشي برقص وتصفيق من أقصى الديوان وهو يغني الصوت. فسمع المأمون وندماؤه ما لم يعرفوه، واستظرفوه. وسأله المأمون عن خبره فشرحه له. فقال له: ادْنُ فردّده. فردّده عليه سبعَ مرات.

عن محمد بن حامد:

ثم إن عريب عشقت قائداً خراسانياً آخر يقال له محمد بن حامد الخاقاني، وكان أشقر أصهب أزرق العينين. وكانت إذا خرجت إلى الحمّام أو إلى من تزوره من أهل المراكبي ومعارفه، يُرسل المراكبي معها جارية تُدعى مظلومة لتكون رقيبةً عليها. فكانت عريب تُعرِّج مع مظلومة إلى بيت ابن حامد لزيارته.

ثم كان أن هربت عريب من مولاها إلى ابن حامد. فتقدم المراكبي إلى الخليفة المأمون يتظلّم، فأمر بإحضار ابن حامد فأحضر. وسأله عنها فأنكر.

فقال له المأمون: كذبت. قد وصلني خبرُها. وأمر صاحبَ الشرطة أن يجرّده في مجلس الشرطة ويضربه بالسوط حتى يردّها، فأخذه.

وبلغ عريب الخبر، فركبت حماراً وجاءت وقد جُرِّد ليُضرب، وصاحت وهي مكشوفة الوجه:

ـ أنا عريب! إن كنتُ مملوكة فليبعني، وإن كنتُ حرّة فلا سبيل له عليّ.

فرُفع خبرُها إلى المأمون، فأمر قُتيبة بن زياد القاضي أن يقضي في أمرها. وتقدّم المراكبي إلى قتيبة مطالباً بها، فسأله البيّنة على مِلكه إيّاها. فعاد متظلّماً إلى المأمون وقال: «لقد طولبتُ بما لم يطالبْ به أحدٌ في رقيق، ولا يوجد مثلُهُ في يد من ابتاع عبداً أو أمة». وتظلّمت زبيدة إلى المأمون من أن المراكبي هجم على دارها عقب مقتل ابنها الأمين وأخذ عريب منها. فقال المراكبي:

ـ إنما أخذتُ مِلْكي لأنه (أي الأمين) لم يَنْقُدْني ثمنها.

فأمر المأمون بدفع عريب إلى الواقدي (مؤلف كتاب «المغازي» الشهير)، وكان قد ولّاه القضاء بالجانب الشرقي. فأخذها الواقدي من قتيبة بن زياد، وأمر ببيعها ساذجة.

شراء المأمون إيّاها:

وفي هذه الأثناء، كان إسحاق الموصلي قد وصف عريب للمأمون وأوصاه بشرائها. فاشتراها المأمون بمائة ألف درهم. ودعا بالمراكبي فدفع المال إليه، وقال:

ـ «لولا أني حلفتُ ألا أشتري مملوكاً بأكثر من هذا لَزِدْتُك. ولكني سأوليك عملاً تكسب فيه أضعافاً لهذا الثمن مضاعفة.

ورمى إليه بخاتمين من ياقوت أحمر قيمتهما ألف دينار، وخلع عليه خلعاً

سنيّة. فقال المراكبي: يا سيدي، إنما ينتفع الأحياء بمثل هذا. وأما أنا فإني ميّت لا محالة، لأن هذه الجارية كانت حياتي.

وخرج عن حضرته، فاختلط وتغيّر عقلُهُ، ومات بعد أربعين يوماً.

ويحكي إبراهيم بن رباح متولّي نفقات المأمون أنه لما أمره الخليفة بدفع المائة ألف ثمناً لعريب، ومائة ألف درهم أخرى إلى إسحاق الموصلي، لم يَدْرِ كيف يُثْبِتُها في الديوان، فكتب أن المائة الألف خرجت في ثمن جوهرة، والمائة الألف الأخرى خرجت لصائغها وَدَلّالها. وجاء الفضل بن مروان يراجع النفقات فأنكر ما رأى، وسأل المأمون عن أمر الجوهرة فأنكر الخليفة شراءها، ودعا إبراهيم يسأله. فدنا إبراهيم من المأمون وقال هامساً: أيها أصوبُ يا أمير المؤمنين، ما فعلتُ، أو أثبت في الديوان أنها خرجتْ في صلة مغنٍّ وثمن مغنية؟ فضحك المأمون وقال: الذي فعلتَ أصوبُ. ثم أمر الفضل بألا يعترض على كاتبه في شيء.

عند المأمون:

وتمكّنت عريب من المأمون وأخذت بمجامع قلبه، وذهب به حبُّها كلَّ مذهب. ويقول عليّ بن يحيى المنجم إن المأمون قبّل في بعض الأيام رِجْلَها، وأنها قالت أثر ذلك: والله يا أمير المؤمنين، لولا ما شَرَّفها اللّهُ به من وَضع فمك الكريم عليها لقطعتُها! ولكن لله عليّ ألاّ أغسلها إلا بماء الورد ما عِشْتُ.

كانت عريب وقت ابتياع المأمون إيّاها دون العشرين. وقد قيل في صفتها في ذلك الوقت إنه كان يُقَدَّم إليها الفَرَسُ فتطفِر عليه بلا ركاب. ولم تكن تقوم أبداً لصلاة. وكانت تُروي الجواري الأشعار ليتغنّين بها. فإن غَنّت هي جلست على كرسي كالسرير يُفْرَدُ لها، وعليها قميص موشّح بالذهب مكتوب في وشاحه:

وإني لأهواه مسيئاً ومحسناً ‌‌ ‌ وأقضي على قلبي له بالذي يقضي

فحتى متى رُوحُ الرِّضا لا ينالني   وحتى متى أيامُ سَخطك لا تمضي

وعتب المأمون على عريب في أمر فهجرها أياماً، ثم اعتلّت فزارها، وقال لها: كيف وجدتِ طعم الهجر؟ فقالت: يا أمير المؤمنين، لولا مرارة الهجر ما عُرفت حلاوة الوصْل، ومن ذَمَّ بدء الغضب أحمد عاقبةَ الرضا. فخرج المأمون إلى جلسائه فحدّثهم بالقصة ثم قال:

ــ أتُرى هذا لو كان من كلام النّظام (الفيلسوف) ألم يكن كبيراً؟!

وجرى بينها يوماً وبينه كلام، فكلّمها المأمون بشيء غضبتْ منه، فهجرته أياماً. ثم دخل القاضي أحمد بن أبي دُؤاد على المأمون، فقال له: يا أحمد، إقْضِ بيننا. فقالت عريب:

ــ لا حاجة لي في قضائه ودخوله فيما بيننا. وأنشأت تقول:

ونَخْلِطُ الهجرَ بالوصال ولا   يدخلُ في الصلح بيننا أحدُ

وعندما تزوّج المأمون بوران عام ٨٢٥ م، أرسلت إليه عريب برقعة تهنّيه كتبتْ فيها:

إنْعم تخطّتك صروفُ الرَّدَى   بقُرْبِ بورانَ مدى الدّهر
دُرّةُ خِدْرٍ لم يزل نجمُها   بنجم مأمون العلا يجري
حتى استقرّ المُلْكُ في حِجْرِها   بُورك في ذلك من حِجْرِ

وكان المأمون يصطحبها معه في خروجه لغزو بلاد الروم. يروي ابن اليزيدي أنه رأى عريب هناك في هودج. «فلما رأتني قالت لي: يا يزيديّ، أنشِدْني شعراً قلتَه حتى أصنع فيه لحناً، فأنشدتُها:

ماذا بقلبي من دوام الخَفْقِ   إذا رأيتُ لمعانَ البرقِ
من قِبَلِ الأردن أو دمشق   لأم من أهوى بذاك الأُفْقِ
ذاك الذي يملك منّي رقّي   ولستُ أبغي ما حييتُ عِتْقي

فتنفّست عريب تنفّساً ظننتُ أن ضلوعَها قد تقصّفه منه. فقلت: ويحكِ! عَلَى مَنْ هذا التنفّس؟ فضحكتْ ثم قالت: على الوطن! قلت: هيهات! ليس هـذا كله على الوطن. هـذا والله تنفّسُ عاشق. فقـالت: ويلك! أظننتَ أنـك تستفزّني؟ والله لقد نظرتُ نظرةً مريبةً في مجلس، فادّعاهـا من أهل المجلس أكثـرُ من ثلاثين رئيسـاً ظريفـاً، والله مـا عَلِمَ أحـدٌ منهم لمن كـانت إلى هـذا الوقت!».

تجدّد صلتها بمحمد بن حامد:

ويُحكى أن المأمون اصطبح يـوماً ومعـه ندمـاؤه وفيهم محمد بن حـامد عشيقُها القديم، وجمـاعة من المغنين بينهم عـريب. فأومـأ إليها محمـد بقُبلة والمأمون مشغول عن ندمائه. فاندفعت عريب تغنّي:

رَمَى ضَرْعَ نابٍ فاستمرّ بطعنةٍ　　كحاشية البرد اليمانيّ المسهّم

تريد بغنائها جواب محمد. فقال لها المأمون: أَمْسِكي! فـأمسكت. ثم أقبل على الندماء فقال:

ــ من فيكم أومأ إلى عريب بقُبلة؟ والله لئن لم يصدقني لأضربن عنقه.

فقام محمد وقال:

ــ أنا يا أمير المؤمنين أومأتُ إليها، والعفو أقربُ للتقوى.

فعفا المأمون عنه.

واحتـالت عريب بعـد ذلك في الخـروج إلى محمد بن حـامد. ويقـول المؤرخ ابن عساكر إنها كانت تُدْخِله إلى دار الخلافة سرّاً. وكانت إن وجدتْ من المأمون غفْلةً وضعتْ على فراشها مثالَ رخام يحسب من رآه من بعيد أنها نائمة، ثم تصعد إلى سطح القصر وتنزل في سلّة من خوص النخل وتمضي إلى حيث يقيم ابنُ حامد بجوار قصر المـأمون، حتى إذا قضى نهمتـه منها عـادت

فقعدت في السلّة وتجذبها إحدى الجواري ثم تعود إلى مكانها.

وكانت تَلْقَى ابنَ حامد في الوقت بعد الوقت في دور أصحابه ممن كان يطلبُ إليهم إخلاءها، ثم يأتي فتوافيه عريب فيها. ويحكي أبو عبد الله بن حمدون أن عريب زارت ابن حامد مرّة في حضرته، فجعل ابن حامد يعاتبها ويقول: فعلتِ كذا وفعلتِ كذا. فقالت له:

ـ أهذا في رأيك وقت عتاب؟! يا عاجز! خُذْ بنا فيما جئنا من أجله وضمّني إليك، فإذا كان غَدٌ فاكتبْ إليّ بعتابك في ورقة حتى أكتب إليك عذري في ثلاثة!

ثم أنشدت:

دَعِي عَدَّ الذّنوب إذا التقينا تعالَيْ لا أعُدُّ ولا تعدّي!

ويروي أحمد بن حمدون عن أبيه قوله:

كنتُ حاضراً مجلس المأمون ببلاد الروم بعد صلاةَ العشاء الآخرة في ليلة ظلماء ذات رعود وبروق. فقال لي المأمون: اركب الساعة فرس النَّوْبة وسِرْ إلى عسكر أبي إسحاق (يعني المعتصم) فأدِّ إليه رسالتي في كيت وكيت. فركبتُ. وسمعت وقع حَفْر دابّة في الظلام تقترب. ثم برقت بارقة فأضاءت وجه الراكب، فإذا عريب. قلت: عريب؟ قالت: نعم، حمدون؟ قلت: نعم. من أين أقبلتِ في هذا الوقت؟ قالت: من عند محمد بن حامد. قلت: وما صنعتِ عنده؟ قالت: يا أحمد! عريب تجيء من عند محمد بن حامد، في هذا الوقت من الليل، خارجة من مَضْرِب الخليفة وراجعة إليه، تقول لها: أي شيء عملتِ عنده؟!! صلّيتُ معه التراويح! قرأتُ عليه أجزاءً من القرآن ودارستُهُ في الفقه!! يا أحمق! تعاتبنا وتحادثنا واصطلحنا ولعبنا وشربنا وغنينا وانصرفنا. . . . فأخجلتْني وغاظتني وافترقنا. ومضيتُ فأدّيت الرسالة، ثم عدت إلى المأمون وأخذنا في الحديث وتناشد الأشعار، وهممتُ والله أن أحدّثه

حديث عريب، غير أني هِبْتُه، ففكرتُ أن أقدّم قبل ذلك تعريضاً بشيء من الشعر، فأنشدتُه قصيدة:

أَلَا حَيِّ أطلالا لواسعةِ الحَبْلِ أَلُوفٍ تسوِّي صالحَ القومِ بالرَّذْلِ

(واسعة الحبل: كناية عن أنها لا تردّ يدَ لامس. والأبيات في وصف امرأة متهتّكة غاية التهتّك).

فقال لي المأمون: اخفِض صوتَك لا تسمعك عريب فتغضب وتظن أننا في حديثها!

فأمسكتُ عما أردتُ أن أخبره.

وكتبت عريب مرة إلى محمد بن حامد تستزيره. فكتب إليها: إني خائف على نفسي. فكتبت إليه:

إذا كنتَ تحذرُ ما تحذرُ وتزعم أنك لا تجسُرُ
فما لي أقيمُ على صَبْوَتي ويومُ لقائك لا يُقْدَرُ

فصار إليها من وقته.

زواجها من ابن حامد:

وظلّت عريب على علاقتها بابن حامد حتى حَبِلت منه وولدت بنتاً. فلما وقف المأمون على خبرها أمر بإلباسها جُبّة صوف، وحبسها في مكان مظلم شهراً لا ترى الضوء، يُدْخَلُ إليها خبزٌ وملح وماء من تحت الباب في كل يوم. ثم ذَكَرَها فَرَقَّ لها، وأمر بإخراجها. فلما فُتِحَ الباب عنها وأُخرِجت لم تتكلم بكلمة حتى اندفعت تغنّي:

حجبوه عن بصري فمُثِّل شخصُه في القلب فهو مُحَجَّبٌ لا يُحْجَبُ

فبلغ ذلك المأمون، فعجب منها وقال:

ــ لن تصلحَ هذه أبداً!

واستدعاها وابن حامد، وقال لجلسائه:

ــ إشهدوا أني زوّجت الزانية منه. . خُذْ بيدها.

فأخذ بيدها وقامت من المجلس إلى مِضربه. غير أن المأمون اشترط عليه أن يُحضرها إلى مجلسه كلما اشتهى سماع غنائها.

تزوّج محمد بن حامد عريب. والظاهر مع ذلك أنه كان يتّهمها بخيانته. فقد عُثر بعد وفاته في صندوق مختوم له على رِقاعِ عريب إليه، منها رقعة كتبت إليه فيها:

وَيْلي عليك ومنكا أوقعْتَ في الحق شكّا
زعمتَ أني خئون جورا عليّ وإفكا
إن كان ما قلتَ حقا أو كُنْتُ أزمعتُ تَرْكا
فأبْدَلَ الله ما بي من ذِلّة الحبّ نُسْكا

ويروي أحمد بن حمدون أنه وقع بينها وبين زوجها شرّ، وكان يحبها الحب كله، فكادا يخرجان من شرّهما إلى القطيعة. . قالت له ذات يوم: كيف قلبُك يا محمد؟ قال: أشقى ما كان وأقرحُهُ. قالت: إستبدِلْ تسْلُ! فقال: لو كانت البلوى باختيارٍ لفعلتُ. فقالت: لقد طال إذاً تعبُك. فقال: أصْبِرُ مُكْرَهاً. أما سمعتِ قول العباس بن الأحنف:

تعبٌ يطول مع الرجاء بذي الهوى خيرٌ له من راحةٍ في الياسِ
لولا كرامتكم لما عاتَبْتُكم ولكنتُمُ عندي كبعض الناسِ

فذرفتْ عيناها واعتذرتْ إليه وأَعْتَبَتْه. واصطلحا وعادا إلى أفضل ما كانا عليه.

أبو عيسى بن الرشيد:

والواضح أن غرامها بابن حامد لم يكن باعثاً لها على الوفاء. يقول ابن المعتز إن عريب كانت وقتها تعشق أبا عيسى بن هارون الرشيد، وأنها كانت لا تضرب المثل إلا بحسن وجهه وحُسن غنائه. وكانت تزعم أنها ما عشقت أحداً من بني هاشم وأَصْفَتْهُ المحبّة من الخلفاء وأولادهم سواه. وكانت عريب تفسّر اشتهاءها فيما بعد للخليفة المعتز بأنه كان يشبه أبا عيسى.

واسم أبي عيسى هذا أحمد. وكان يقال إن الناس لم يروا أجملَ منه وأخيه الأمين قط. وكان المأمون شديد الحب له، وكان يعدّه للخلافة بعده، ويقول: إنه ليسهّل عليّ أمر الموت وفَقْد المُلْك أن يلي أبو عيسى الأمر بعدي. وكان أديباً ظريفاً مستخفّاً بالدين. وتقول عريب إنها ما سمعت قط أحسن غناءً منه. وكان يحب صيد الخنازير، فوقع يوماً من حصانه وأصيب في رأسه، فكان يُصرع بعد ذلك مرّات في كل يوم إلى أن مات عام ٨٢٤ م، وصلّى عليه المأمون ونزل في قبره، وامتنع من الطعام أياماً حتى خاف أن يضرَّ ذلك به.

عند الخليفة المعتصم:

توفي المأمون وقد بلغت عريب السادسة والثلاثين من العمر. فبيعت في ميراثه، ولم يُبع للمأمون عبد ولا أمة غيرها. واشتراها خلفُه المعتصم بمائة ألف درهم وأعتقها. غير أنه أقدم على فعلة لا نجد لها تفسيراً في المصادر بين أيدينا، وهي أنه كتب وهو غائب عن العاصمة إلى إسحاق الموصلي بأن يأمر محمد بن حامد أن يطلّق عريب. فلما أمره إسحاق رفض. فكتب المعتصم إلى إسحاق أن اضربه. فضربه بالمقارع حتى طلّقها.

وظلت عريب مدةً مُبَجَّلَة عند المعتصم مُحَبَّبة إليه. غير أنها لَقِيَت من إحدى جواري المعتصم، وتدعى شارية، منافسة شديدة في الغناء. فكانت شارية تغنّي غناء إبراهيم بن المهدي، وهو من الغناء الخفيف، وعريب تحكي

في غنائها صنعة الأوائل على مذهب إسحاق. وكان أهل سامرّاء حزبين: قوم مع شارية وقوم مع عريب، لا يدخل أصحاب هذه في هؤلاء، ولا أصحاب هذه في هؤلاء. ويحكي أن أحد أصحاب شارية دعا يوماً عريب وجواريها لتغني بعض أصحابه العَرِيبيِّين. فلما اتصل الخبر بشارية غضبت، وبعثت إليه بعد يوم أو يومين بجواريها، وأمرت إحداهن أن تغني له:

لا تعودَنَّ بعدها فترى كيف أصنعُ!

فلما سمع الغناء ضحك، وقال: لستُ أعود.

ثم أقدمت عريب على فعلة عظيمة أثارت غضب المعتصم وجعلتْه ينحرف عنها. ذلك أنها أثناء غيابه في بلاد الروم، أرسلت كتاباً إلى العباس بن المأمون ـ وكان في صحبة المعتصم ـ تشير عليه بقتل الخليفة، على أن تتولّى هي قتل الواثق ببغداد (وكان المعتصم قد استخلف الواثق فيها)، ووصفت الواثق في كتابها بالأعور الليلي، إشارةً منها إلى سهره بالليل. وعثر المعتصم على كتابها فأخرجها من قصره، وأهملها وتركها وشأنها. ويعلّق النويري في «نهاية الأرب» على هذا الحديث بقوله:

«ولعمري إن هذا من الأمور العظيمة التي لا تُحتمل من الأولاد والإخوة، فكيف من أَمة مغنية! ولو لم تكن عندهم بالمكانة العظمى والمحل الكبير لما أبقَوْها بعد الاطلاع من باطن حالها على هذه الطويّة».

وانتقلت عريب وجواريها إلى دار لها ببغداد يتردّد عليها فيها عشاقها والمعجبون بغنائها. ويروي المغني أبو العُبيس بن حمدون أنه زارها يوماً في دارها مع أصدقاء له، فدعتهم إلى البقاء حتى تطعمهم صنفاً من الطعام أعدّته جارية لها من لَوْز رطب، ثم تغنيهم هي وجاريتها. قال أبو العبيس: على شريطة. قالت: وما هي؟ قال: شيء أريد أن أسألك عنه منذ سنين وأنا أهابُك. قالت: ذلك لك، وأنا أُقدّم الجواب قبل أن تسأل فقد علمتُ ما هو. فعجب لها

وقال: فقولي. قالت: تريد أن تسألني عن شَرْطي أيّ شرط هو. قال: إي والله ذاك الذي أردتُ. قالت: شرطي قوّة في الجماع، ونَكهة طيبة، فإن انضاف إلى ذلك حُسْنٌ يوصف، وجَمال يُحمد، فقد زاد قدرُهُ عندي، وإلا فهذان ما لا بدّ لي منهما!

عند الخليفة الواثق:

تناسى الواثق، وقد ولي الخلافة بعد المعتصم، وصْف عريب له بالأعور الليلي واعتزامها قتله. ورغم أنه لم يُعرف عنه أنه اشتراها وضمّها إلى جواريه، فالمعروف أنها اتّصلت به، وكانت تقوم بمجالس الغناء لديه حين يطلبها. غير أن شارية الآن صار لها المقام الأول بين المغنين، وكان الواثق يسميها «سِتّي»، ووكل إليها دون عريب تعليم جاريته المفضّلة فريدة.

قالت عريب:

كنت مع الواثق وهو يطوف على حُجَر جواريه عند خروجه إلى الأنبار متنزّهاً. فدخل إلى فريدة، وهي جارية كان يحبها جداً، وكان يهوى أيضاً وصيفة لها لم يكن يعلم بذلك غيري. فلما رأته الوصيفة عند مولاتها دخلَتْ خزانتها وخرجتْ وقامت على رأس فريدة وعلى رأسها عِصابة مكتوب عليها بالذهب:

عينيَ تبكي حَذَر البَيْن ... ما أسخنَ الفُرقةَ للعينِ
لم أر في الحب ولوعاته ... أوجع من فُرقة إلفين

فقال لي الواثق: فهمتِ يا عريب؟ قلت: نعم يا سيدي. فكتب على الأرض بقضيب كان في يده:

ظهر الهوى وتهتّكت أستارُه ... والحب خير سبيله إظهارُه
فاعص العواذلَ في هواك مجاهراً ... فألذّ عين المستهام جهارُه

وتضاحكنا فَفَطَنَت فريدة، فقلت: يا سيدي، علمتُ ما أنتما فيه، فامنُنْ

على أمتك بقبولها. فقال الواثق: قد فعلت؛ خذيها إليك يا عريب. فأخذتُ بيدها. فما ملك نفسه أن انصرف من خلفي مسرعاً وخلا بها. وأمر لي بـألف دينار.

والواضح من هذه القصة أن دورها الآن في قصر الخلافة بـات ثانـوياً. فهي الآن قـد جاوزت الخـامسة والأربعين وإن ظلّت على حُسنهـا وظَـرفهـا. والواثق متيم بغيرها. وكان كثيراً ما يحنق عليها إذ كانت تكايده فيما يصوغه من الألحان، وتصوغ في الشعر عينه ألحاناً تكون أجود من ألحانه فيغتاظ.

صالح المنذري:

ثم نرى عريب وقد بلغت الخمسين وقت تولية المتوكل الخلافة، تعشق صالحاً المنذري الخادم وتقول فيه الشعر، وقيل إنها تزوّجتـه سراً. وقـد غنّت يوماً بين يدي المتوكل بشعر قالته في صالح، فـاستعاده، بينمـا جعل جـواريه يتغامزْن ويضحكن. فقالت لهن سراً من المتوكل: يا سحّاقات، هذا خيـر من عملكنّ.

وذكرت بعض جواري المتوكل أنها دخلت يوماً على عريب، فقالت لها: تعالَيْ ويحكِ إليّ. فجاءت. فقالت: قبّلي هذا الموضع مني فإنك تجدين فيه ريح الجنّة. وأومأت إلى مقدّم عنقهـا. ففعلتْ. ثم قالت لهـا: ما السبب في هذا؟ قالت: قبّلني صالح المنذري في ذلك الموضع.

غرامها بإبراهيم بن المدبّر:

قال الفضل بن العباس بن المأمون:

زارتني عريب يوماً ومعها عدة من جواريهـا، فوافتنـا ونحن على شرابنـا فتحادثنا ساعة. وسألتُها أن تـقـيم عندي فـأبتْ وقالت: «دعـاني جماعـة من إخـواني من أهل الأدب والـظرف، وهم مجتمعون في جـزيرة المؤيـد، فيهم إبراهيم بن المدبر وسعيد بن حُميد، وقد عزمتُ على المسير إليهم». فحلفتُ

عليها فأقامت عندنا، ودعتْ بدواة وقرطاس فكتبتْ في سطر واحد ثلاثة أحرف متفرقة لم تـزد عليها، وهي: أردتُ، ولـولا، وَلَعَلِّي، (تعني: أردتُ الحضور إليكم، ولولا أنهم منعوني ما تخلّفتُ، ولعلّي أستطيع الإفلات). ووجّهت به إليهم. فلما وصلت الرقعة أخذهـا إبراهيم بن المـدبر، وكتبت تحت «أردتُ» «ليت»، وتحت «لولا» «ماذا»، وتحت «لعلّي» «أرجو»، (يعني: ليت ما أردتـه نفذ، وماذا عساهم يفعلون لو تركتهم، وأرجو تنفيذ ما رجوته). ووجّهوا بالرقعة إليها. فصفّقت عريب وصاحت وشربت رطلاً من النبيذ وقالت لنا: أأترك هؤلاء وأقعد عندكم؟! إذاً تركني اللّهُ من يديه! ولكني أخلِّف عندكم من جواريّ من يكفيكم، وأقوم إليهم. ففعلتْ ذلك، وخلّفت عندنا بعض جواريها، وأخـذتْ معها بعضَهن وانصرفت.

كان ابن المدبـر شاعـراً كبيراً وكـاتباً متقـدماً من وجـوه الكُتّاب. وكـان المتوكل يقدّمه ويؤثره ويعهد إليه بالكتابة في أمور الملك. وقد عشقتـه عريب في خريف حياتها وعشقها. قال فيها:

زعـمـوا أني أحبّ عـريـبـاً ... صـدقـوا والله، حبـاً عجيبـاً
حـلّ من قلبي هـواهـا محـلاً ... لم تـدع فيـه لخلق نصيبـاً
هي شمسٌ والـنسـاء نـجـوم ... فـإذا لاحـت أفَـلن غـيـوبـا

وله فيها:

ألا يـا سـلوتـي أنـتـم ... نـأت دار بـنـا عـنـكـم
فـإن كـنـتـم تـبـدّلـتـم ... فـمـا قلبـي ارتـوى مـنـكـم
وإن كـنـتـم عـلى الـعـهـد ... فـأحـسـنـتـم وأجـمـلتـم
ويـا لـيت الـمـنى حقّـت ... فَـنُـبْـديـهـا ولا نـكـتـم
فكـنـتـم حـيـنـمـا كنـا ... وكـنّـا حـيـثـمـا كـنـتـم

وحدّث أبو عبد الله بن حمدون قال:

اجتمعتُ أنا وإبراهيم بن المدبر وابن ميّادة وابن زُرْزُور في بستان في يوم

غيم ورذاذ، ونحن في أطيب عيش وأحسن يوم. فلم نشعر إلا بعريب قد أقبلت من بعيد. فوثب إبراهيم من بيننا فخرج حافياً حتى تلقّاها وأمسك بركابها حتى نزلتْ وقبّل الأرض بين يديها. وكانت قد هجرتْه مدة لشيء أنكرتْه عليه. فجاءت وجلست وأقبلت عليه متبسّمة، ثم قالت: إنما جئت إلى مَنْ ها هنا لا إليك. فاعتذر، وشفعنا له فرضيت. وأقامت عندنا يومئذٍ وباتت. فقال إبراهيم:

بأبي من حقَّق الظن به | وأتانا زائراً مبتديا
كان كالغيث تراخى مدّة | وأتى بعد قنوط مُرْويا
طاب يومان لنا في قُربه | بعد شهرين لهجر مضيا
فأقرّ الله عيني وشفى | سقماً كان لجسمي مُبْليا

ومن شعره في عريب:

ألا يا عريب وُقيتِ الردَى | وجنّبكِ الله صَرْفَ الزمن
فإنك أصبحت زين النساء | وواحدة الناس في كل فن
فقربُك يُدني لذيذ الحياة | وبُعْدُك ينفي لذيذ الوسن
فنعمَ الأنيس ونعم الجليس | ونعم السمير ونعم السكن

وأرسلتْ إليه مرّة رقعةً مع جاريتين لها، هما بِدْعة وتُحفة، كتبت فيها:

«بنفسي أنت وسمعي وبصري، وقلّ ذلك لك. أصبح يومُنا هذا طيباً، ـ طيّب الله عيشك ـ قد رقّ هواؤه، وتكامل صفاؤه، وكأنه أنت في رقة شمائلك، وطيب محضرك ومخبرك. لا فقدتُ ذلك أبداً منك. ولم يصادف حسنُه وطيبه منّا نشاطاً ولا طرباً لأمور صدّتني عن ذلك، أكره تنغيص ما أشتَهيه لك من السرور بشرحها. وقد بعثتُ إليك ببدعة وتحفة ليؤنساك وتُسَرّ بهما، سرّك الله وسرّني بك». فكتب إليها:

كيف السُّرور وأنتِ نازحة | عني؟ وكيف يسوغُ لي الطربُ

إن غبتِ غـاب العيش وانقـطعت أسـبـابُـه وألـحّـت الـكُـرَب

وأنفذ الجواب إليها. فلم تلبث أن جاءت على حمار، فبادر إليها وتلقّاها حافياً حتى جاء بها إلى صدر المجلس، يطأ الحمارُ بساطه وما عليه، حتى أخذ بركابها فأجلسها في مجلسه وجلس بين يديها.

ومع حبّه لها فإنه كثيراً ما كان يغشّها ويتّصل بغيرها ويخلف وعده إيّاها. وكان يُشرك في حبها جاريةً أخرى تسمى «نبت» كانت مغنية جميلة وقـال فيها كثيراً من الشعر. وقد كتبت إليه عريب مرة في شيء بلغها عنه:

«ما زلت أمس في ذكرك، فمرّةً بمدحك، ومرةً بأكلك وبذكرك بما فيك لوناً لوناً. اجحد ذنبك الآن، وهات حجج الكتّاب ونفاقهم. فأما خبـرُنا أمس فإنّا شربنا من فضل نبيذك على تَذْكارك رِطلاً. وقد رفعنا حسابنـا إليكَ فـارفع حسابك إلينا، وخبِّرنا من زارك أمس وألهاك، ولا تُخطرف فتُحوِجنا إلى كشفك والبحث عليك وعن حالـك. وقل الحق فمن صـدق نجا. ومـا أحوجـك إلى تأديب، فإنك لا تُحسِن أن تودّ. . . وكفاك بهذا من قـولي عقوبـة. وإن عُدتَ سمعتَ أكثر منه. والسلام».

ثم حـدث أن حامت حـول ابن المدبـر الشبهـات في بعض تصـرفـاتـه الديوانية، فقبض عليه عبد الله بن يحيى بن خاقان وحبسه. وكتب ابن المـدبر إلى عريب من السجن يشكو حاله:

إلى الله أشكــو وَحْشَتي وَتَفَجُّعي وبُعْـدَ المـدى بيني وبيـن عـريب
مضى دونهـا شهر ان لم أَحْلُ فيهما بـعيش، ولا مـن قـربهـا بـنصيب
وإن حـبيـبـاً لم يـر الـنـاسُ مثله حقيـقٌ بـأن يُفـدَى بـكـل حبيب

ورغم أن عريب وقت القبض عليه كانت غاضبـة منه مقـاطعة لـه بسبب الجارية «نبت»، فقد سعت لدى المتوكل حتى يفـرج عنه. وكتبت إليـه كتابـاً تتشوّقه وتخبره استيحاشَها له واهتمامها بأمره، وأن الخليفـة وعدهـا ما تحب.

فأجابها عن كتابها، وكتب في آخر الخطاب:

لعمـرُك مـا صـوتٌ بـديـعٌ لِمَعْبـدٍ — بـأحسن عنـدي من كتـاب عـريبِ
تـأمّلت في أثنـائـه خطّ كـاتـبٍ — ورقّـة مـشتـاق ولـفظ خـطيب
وراجعني من وصلهـا مـا استفـزّني — وزهّـدني في وصـل كـل حبيب
فصـرتُ لهـا عبـداً مُقِـرّاً بِملكهـا — ومستمسكـاً من وُدّهـا بنصيب

واستأنف ابن المدبر صِلته بعريب بعد عفو المتوكل عنه، غير أنه استأنف كذلك صلته بِنَبْت وعاد إلى التغزّل فيها. وقد أصبح في عهد المعتمد وزيراً، ومات بعد وفاة عريب بفترة قصيرة.

السنوات الأخيرة:

قُتل المتوكل عام ٨٤٧م وعريب في الرابعة والستين من العمر. وقد عاشت بعده نحواً من ثلاثين عاماً شهدت خلالها عهود خمس آخرين من الخلفاء لا نعرف صلتها بأيّ منهم خلاف المعتز الذي كانت تغني له وقد جاوزت السبعين، والذي ذكرت أنها كانت تعشقه في شبابها. وهي مع تقدمها في السن لم تنقطع عن غشيان مجالس الأمراء والشعراء والعشاق، تغنّيهم وتشاركهم لهوهم.

يروي أحمد بن الفرات أنه كان يوماً عند جعفر بن المأمون وأصحابه يشربون وعريب حاضرة، إذ غنّى بعض من كان هناك:

يـا بـدر إنـك قـد كُسيت مُشـابهـا — من وجـه ذاك المستنيـر اللائـح
وأراك تـذهبُ بـالمحـاق، وحُسنهـا — بـاقٍ عـلى الأيـام ليس ببـارح

فضحكت عريب وصفّقت وقالت:

ــ ما على وجه الأرض أحدٌ يعرف خبر هذا الصوت غيري.

فسألها ابن الفرات عنه، فقالت:

ـ أنا أخبركم بقصته، ولولا أن صاحب القصة قد مات لَمَا أخبرتكم. إن أبا مُحَلِّم قدم بغداد فنزل في خان هناك. فاطّلعت أم محمد ابنة صالح يوماً فرأته فأعجبها، وأحبّت مواصلته، فجعلت لذلك عِلّة بأن وجّهت إليه تقترض منه مالاً. فبعث إليها عشرة آلاف درهم، وحلف أنه لو ملك غيرها لبعث به، فاستحسنت ذلك وواصلته، فكانت تُدخله إليها ليلاً، وكنتُ أنا أغنّي لهما. فشربنا ليلة في القمر، وجعل أبو محلّم ينظر إليها، ثم دعا بداوة ورقعة وكتب فيها:

يا بدر إنك قد كُسيت مشابهاً   من وجه أم محمد ابنة صالح

والبيت الآخر. وقال لي: غني فيه. ففعلتُ. واستحسناه وشربنا عليه. فقالت لي أم محمد في آخر المجلس:

ـ يا أختي، قد أحسنتِ في هذا الشعر، إلا أنه سيبقى عليّ فضيحة آخر الدهر.

فقال أبو محلّم: أغيّره.

فجعل مكان أم محمد إبنة صالح «ذاك المستنير اللائح». وغنّيته كما غيّره، وأخذه الناس عني. ولو كانت أم محمد حيّة لما أخبرتكم بالخبر.

ويروي عليّ بن محمد بن الفرات:

كنت يوماً عند أخي أبي العباس وعنده عريب جالسة على دست مفردٍ لها، وجواريها يغنين بين يدينا وخلف ستارتنا. فهمستُ لبعض الحاضرين: تُرى كيف شهوتُها الساعة؟ فضحك. ولمحتْه عريب، فقالت:

ـ أيّ شيء قلتم؟

فسكتّ. فقالت لجواريها:

ـ أَمْسِكْن! ففعلن. فقالت:

ـ هنَّ حرائر لئن لم تخبراني بما قلتما لَينصرفن جميعاً، وهن حرائر إن غضبتُ من شيء قلتماه مهما كان.

فأعدتُ عليها ما قلتُ. فقالت:

ـ وأيّ شيء في هذا؟ أما الشهوة فبحالها، ولكن الآلة قد بطلت.

ثم قالت:

ـ عودوا إلى ما كنتم فيه.

وغضبت عريب يوماً على بعض جواريها، فجاء إليها أبو العُبَيْس يسألها أن تعفو عنها. فقالت وهي تعدّ عليها ذنوبها:

ـ يا أبا العبيس، إن كنتَ تشتهي أن ترى زِنايَ وصفاقة وجهي وجراءتي على كل عظيمة أيام شبابي، فانظر إلى هذه الجارية واعرف أخبارَها!

وتوفّيت عريب في سامراء سنة ٨٩٠ م عن ثلاث وتسعين سنة.

مكانتها في الغناء:

أمر المعتمد يحيى بن علي بجمع غناء عريب الذي صنعته، فجُمعت دفاترها وصحفها التي كانت قد دوّنت فيها غناءها فإذا هو ألف صوت. وقال بعضهم: بل كان ألفاً ومائة وخمسة وعشرين صوتاً.

وقد عاب عليها أبو عبد الله الهشامي أن الألف صوت كان في معنى واحد، ومن ثَمَّ فإنه بمنزلة صوت واحد. غير أن الهشامي كان متحاملاً عليها لسبب دعاه إلى ظُلمه إياها وغمطها ما تستحقه من التفضيل. فقد دخل مرة على المعتز وهو يشرب وعريب تغني. فلما أمره المعتز بالغناء أجاب بأنه قد تاب من الغناء مُذْ قُتل سيدُه المتوكل. فقالت له عريب:

ـ قد والله أحسنتَ حيث تُبْتَ، فإن غناءك كان قليل المعنى، لا مُتْقَنٌ ولا صحيح ولا مُطرِب!

فأضحكتْ أهل المجلس جميعاً منه وخجل. فكان بعد ذلك يُبسط لسانه فيها ويعيب صنعتها.

ويجيب أبو الفرج الإصفهاني في «كتاب الأغاني» على زعم الهشامي فيقول إنه تحاملٌ لا يجمل، «ولعمري إن في صنعتها لأشياء مرذولة ليِّنة، وليس ذلك مما يضعها، ولا عَرِي كبيرٌ أحدٍ من المغنين القدماء والمتأخرين من أن يكون في صنعته النادر والمتوسط، سوى قوم معدودين مثل ابن مِحرز ومَعْبد من القدماء، ومثل إسحاق وحده في المتأخرين.. وهذا إسحاق يقول في أبيه، على عظيم محلّه في هذه الصناعة وما كان إسحاق يُشيد به من ذكره وتفضيله على ابن جامع وغيره ـ «ولأبي ستمائة صوت، منها مائتان تشبَّه فيها بالقديم وأتى بها في نهاية من الجودة، ومائتان غناء وسط مثل أغاني سائر الناس، ومائتان تافهة وددتُ أنه لم يُظْهِرْها وينسبها لنفسه فأستُرُها عليه! فإذا كان هذا قول إسحاق في أبيه فمن يعتذرُ بعده من أن يكون له جيِّد ورديء... وحسب المحتج لعريب شهادة إسحاق بتفضيلها، وقلّما شهد لأحد أو سلم خَلْقٌ وإن تقدّم وأجمع على فضله من شَيْنه إيّاه وطعنه عليه، لتمكّنه من هذه الصناعة واستصغاره أهلها».

ورُوِي أن أبا العباس بن حمدون جلس يوماً بعد وفاة عريب مع جحظة المغني يتحدّثان عنها. فقال ابن حمدون:

ــ ما خَلَّفَتْ عريبُ بعدها امرأةً مثلَها في الغناء والرواية والصنعة.

فأجابه جحظة بقوله:

ــ لا، ولا كثيراً من الرجال أيضاً.

التطرف الديني في الجزائر

تقدمة :

بدأت تظهر في الجزائر، منذ وفاة الرئيس بومدين، جماعات سياسية معارضة للنظام الحاكم، أخطرها وأكبرها الجماعات الإسلامية المتطرفة، فأتباع الرئيس الأسبق أحمد بن بيلا؛ فالمنظمة الاشتراكية للعمال (OST)، فالتنظيم النسائي المناصر لحرية المرأة (الذي ساءه أن تعضد الحكومة قانون الأحوال الشخصية الرجعي؛ وأن يرى تزايد تأثير رجال الدين في الحياة العائلية والحياة الاجتماعية في الجزائر)، ثم قبائل البربر الساخطة على خطة التعريب التي تنتهجها السلطات، وعلى سعي الحكومة الدائب إلى إحكام وتنمية روابط الجزائر بالعالم العربي، والثقافة العربية.

غير أنه بالرغم من تزايد نشاط هذه الجماعات المعارضة في الداخل، واتّسام بعض أوجه هذا النشاط بالحدة والعنف المفرطين، فإنها لم تتبلور حتى الآن في صورة قوة سياسية محكمة التنظيم. ولعل أبرز أسباب ذلك هو الافتقار إلى زعامات لها وزنها واحترامها في صفوف الجماهير. فإن كان بن بيلا هو أشهر زعيم معارض، فالواضح أن آراءه لا تتمتع بحظوة ملموسة لدى الشعب الجزائري. وقد حاول بن بيلا بعد أن أفرج عنه الشاذلي بن جديد عام 1980، ومنذ هجرته إلى أوروبا، تنظيم معارضة للنظام القائم، دشّنها في 20 مايو 1984، وأسماها بالحركة الداعية إلى الديموقراطية في الجزائر (MDA)،

داعياً كافة جماعات المعارضة إلى التوحّد في إطار «جبهة ديموقراطية» تعمل من أجل إحلال نظام ديموقراطي متعدد الأحزاب محل النظام «الفاشي» الراهن. بيد أنه ما من أحد كان بوسعه أن يفهم ما يرمي إليه بن بيلا بالضبط، وهو الذي نراه تارة ينادي بديموقراطية ليبرالية، وتارة بحكم ثيوقراطي فاشيّ وإسلامية رجعية، وتارة بما هو بين هذه وتلك. وبالرغم من أن السلطات الجزائرية ترقب نشاطه ونشاط أتباعه بقلق بالغ، فالواضح لنا أنهم لا يشكّلون تهديداً حقيقياً للنظام، وأنهم أجدر بالاستخفاف والسخرية منهم بالاهتمام.

فأما عن السّمات المشتركة التي تجمع بين هذه الجماعات المعارضة عدا الجماعات الإسلامية ـ فهي:

* أنها تمثّل الماضي أكثر مما تمثل الحاضر والمستقبل.

* أنها لا تحظى بتأييد سياسي كبير من جانب المثقفين والصفوة.

* أنها تعكس آراء أفراد ذوي أحقاد شخصية لا اتجاهات شعبية عريضة.

* أنها لا تملك من الموارد والامكانات ما يؤهّلها لمواجهة فعالة مع النظام القائم.

أما عن الفريق الذي يشكل بالفعل خطراً حقيقياً على النظام، فيشمل أفراد تلك الطبقة الضخمة من الشباب من أنصاف المتعلمين، وذوي الكفاءات المهنية المحدودة، ممن لا يعرف من اللغات غير العربية، وتكبّل خطاهم الروابط التقليدية والدينية، ويجدون مشقة بالغة في الالتحاق بعمل في المدن التي باتت تغصّ بهم. هذه الجماعات من الشباب هي أكثر الجماعات الجزائرية استعداداً للإذعان نفسياً للدعايات الإسلامية المتطرفة. فحيث أنه لا المُثُل الرأسمالية ولا النظرية الشيوعية لها رونق وجاذبية في أعين هؤلاء، فقد كان من السهل أن يشيع بينهم الاعتقاد بأن الثورة الإسلامية وحدها هي الكفيلة بأن تخفف عنهم عبء العزلة الاجتماعية التي يعيشون فيها.

الإسلام في الجزائر:

خلال سني الاستعمار الفرنسي للجزائر (1830-1962)، وخاصة في سني الكفاح المسلح ضد هذا الاستعمار في السنوات الثماني الأخيرة منه، كان الجزائريون يجدون في العقيدة الإسلامية ملاذاً ومصدراً يزوّدهم بالقوة والهوية، ويعينهم على الوحدة والتلاحم.. كان الإسلام هو لغة الرفض للاستبداد الفرنسي، ورمزاً لإرادة تأكيد الذات في مواجهة قوة استعمارية تهدف صراحة إلى زعزعة المعتقدات والأنظمة والتقاليد المحلية بحجة «نشر المدنية والتحضر»، وتعمل على إحلال المسيحية واللغة الفرنسية محل الإسلام واللغة العربية. وإذ كان ردّ الفعل العنيف لسياسة استعمارية عنيفة هو التركيز على الروابط القوية التي تربط الجزائر بالثقافة الإسلامية وبالعالم العربي، فليس من المستغرب أن نجد الإسلام وقد أضحى جزءاً لا يتجزّأ من مفهوم القومية الجزائرية.

وقد كان من رأي السلطات الجزائرية عقب الاستقلال عن فرنسا عام 1962، أن الإسلام ينبغي أن يلعب دوره الهام في تحديد هوية الشعب، غير أنه لا ينبغي أن يسمح لرجال الدين أو السلطات الدينية أن يكونوا مركز قوّة مستقل بمعزل عن أهداف الحزب والحكومة والجيش. بل إنه حتى في سني الثورة، وخلال لقاء بين جمال عبد الناصر وبن بيلا عام 1957، استجاب الأول لطلب الثاني أن يحتجز في القاهرة عدداً من أعضاء وفد من رجال الدين الجزائريين (ومن بينهم الشيخ بشير الإبراهيمي والد وزير الخارجية الحالي)، جاؤوا إلى مصر يطلبون المساعدة للثورة الجزائرية، وأن يحول بينهم وبين العودة إلى بلادهم حيث ينشرون دعوتهم الإسلامية.. وقد كان بومدين نفسه رجلاً صادق الإيمان، حريصاً على دعم ثقافة قومية تقليدية عمادها الدين. بيد أنه في نفس الوقت، ألحق وزارة الشؤون الدينية إلحاقاً مباشراً برئاسة الجمهورية، ليضمن تعاون «الإسلام الرسمي» مع ثورته الثقافية، وأيديولوجيته

الإشتراكية، ومساندة دعوته إلى التمدن السريع، والتركيز على التصنيع. وقد بدا أن هذه الخطة قد نجحت لمدة تقرب من عشرين عاماً. غير أنه مع نهاية السبعينات وبوفاة بومدين واتجاه الشاذلي بن جديد إلى إحكام رقابة السلطة على النشاط الديني في البلاد، وإلى احتوائه والتحكم فيه، بدأت في الظهور معالم توتر واصطدام حادين بين «الإسلام الرسمي» وإسلام شعبي ينادي بإقامة حكم ديني خالص، وتطبيق شامل لأحكام الشريعة.

الإسلام الرسمي

منذ بداية القرن العشرين، شارك عدد كبير من علماء الإسلام الموقّرين (من أمثال عبد الحميد بن باديس وبشير الإبراهيمي)، في الدعوة إلى مقاومة الآثار الحضارية للاستعمار الفرنسي، وفي تعبئة الرأي العام من أجل حماية الدين والتراث واللغة العربية والتقاليد الإسلامية. غير أن هؤلاء، وقد كانوا أكثر اهتماماً بالثقافة والتعليم منهم بنيل الاستقلال السياسي، وأكثر ميلاً إلى التطور التدريجي منهم إلى الطفرة الثورية بدأوا مع أواخر الثلاثينات وأوائل الأربعينات يفقدون زعامتهم لحركة التحرير الوطني الناهضة لصالح قادة سياسيين علمانيين، حتى مع اعتراف هؤلاء الأخيرين بأهمية دور الإسلام سواء في مجال الكفاح ضد الاستعمار، أو في تكييف المجتمع والثقافة الجزائريين. وقد أضحى «الإسلام العلماني»، شعار السلطة منذ الاستقلال، ووصفت حكومة بومدين نفسها بأنها «الوريث الشرعي الوحيد لعبد الحميد بن باديس»، وأخضعت تلك الحكومة الدين كما أخضعت كل مظاهر الحياة الأخرى، لرقابة مباشرة وكاملة من جانب سلطات الدولة المركزية، ولم تسمح بممارسة أي نشاط قيادي ديني غير نشاط المسؤولين من علماء الدين. أو على حدّ تعبير الشاذلي بن جديد «إننا لن نسمح للجماعات الدينية غير المشروعة بأن تعلّمنا ديننا، أو تعطينا دروساً في الإسلام».

ومفهوم السلطات عن الدين هو أن الإسلام أداة فعالة في تشكيل الهوية

الجزائرية، غير أنه ليس تشريعاً قانونياً ينظم أمور الدولة والمجتمع. فإن كانت المادة الثانية من الدستور تنصّ على أن الإسلام هو دين الدولة، فإن مادته الأولى تنص على أن الجزائر دولة اشتراكية (أي علمانية وثورية). وحصيلة هذه وتلك هي أن الدولة دولة علمانية ذات مقومات إسلامية حضارية. أما الشريعة التي أُغفل تطبيقها تماماً في زمن الاستعمار الفرنسي، فلم ير الحكام الجزائريون بعد الاستقلال حاجة أو داعياً إلى إحيائها من أجل تنظيم المجتمع الجديد.

وفي رأي السلطة، كما في رأي فقهاء السلطة، أنه من الممكن الجمع بين التمدن والإسلام، وأن الحكومة هي وحدها القادرة على خدمة الإثنين معاً. وقد أنشئت وزارة للشؤون الدينية (تابعة، كما قلنا، لرئاسة الجمهورية)، وزيرها هو المتحدّث الرسمي عن الدولة فيما يختص بالممارسات الإسلامية والعقيدة، ولها سلطة تعيين وفصل رجال الدين، وإدارة المدارس الدينية وغيرها من مراكز الدراسات الإسلامية، والرقابة على الأوقاف والمساجد، وعلى ما يُنشر من الكتب الدينية، وما يُلقَى من خطب في كافة مساجد الدولة أيام الجمعة. واختصاراً، فإن مهمتها هي ضمان ألا تخرج أمور الدين إلى أيدي القوى المعادية للنظام القائم وسياساته العلمانية.

الجماعات الإسلامية المتطرفة:

مثل هذه السياسة التي ينتهجها «الإسلام الرسمي» ارتأى بعض الجماعات من الساخطين وأصحاب المظالم الاقتصادية والاجتماعية أنها لا تسمن ولا تغني من جوع، ولا تسدّ احتياجاتهم الروحية، ولا تسعى إلا إلى خدمة النظام لا خدمة الإسلام، وتعزيز الهوية القومية للجزائريين لا تعزيز الإيمان. وقد أحلّت هذه الجماعات فكرة «الإسلام المناضل»، محل «الإسلام المؤمَّم»، الذي يحاول دون جدوى إقناع الجماهير بإخلاصه حين يذهب إلى اتفاق التمدّن مع الدين، والإيمان بالاشتراكية مع الإيمان بالله.

وقد كان لثورة إيران عام 1979 تأثيرها العميق في نفوس الجزائريين كما في نفوس غيرهم من شعوب الدول الإسلامية.. غير أن ثمة اعتبارات محلية معينة لا شك في أنها ساهمت في نمو التطرف الدّيني بالجزائر: ذلك أنه لا المبدأ الاشتراكي، ولا «الإسلام الرسمي» هيّأ الراحة والعزاء النفسيين لشعب يعاني معاناة قاسية من آثار التغيير الاجتماعي السريع، بما فيها من توترات وتفكّك في العلاقات وتفسّخ في القيم والتقاليد، ويشعر شعوراً قوياً بالإحباط والسخط إزاء التضحيات التي يطالَب ببذلها في سبيل التمدّن والتنمية. وقد حرص المتطرفون منذ البداية على تأكيد رفضهم القاطع للمفاهيم والقيم الغربية، ولأي تنازل للعقلانية الأوروبية، أو شعارات الاشتراكية. وعندهم أن كافة المشكلات الاقتصادية والاجتماعية هي في جوهرها مشكلات أخلاقية، وأن الشرط الأساسي لإرساء دعائم مجتمع إسلامي سليم وقوي، وإقامة المدينة الفاضلة والدولة المثالية، هو الإيمان بالله من قِبَل شعب قويم الخلق والنزعات، صادق العزم على العيش وفق مبادىء الإسلام التي أوردها القرآن والسنة، وعلى أن تدبِّر الشريعة كل مظاهر حياته بصورة مباشرة وشاملة.

وقد اكتسحت دعوة هذه الجماعات المدن الجزائرية منذ نهاية السبعينات، وتولى تدبيرها نوع من التنظيم وبعض الزعامات، تركّز نشاطهما على الدعوة إلى أمور مثل: عودة النساء إلى الحجاب، والإقبال على الصلاة في المساجد، ومنع بيع الخمور وتقديمها في الأماكن العامة، والتوسّع في التعليم الديني في المدارس، والإسراع في تنفيذ برامج التعريب، وزيادة عدد الساعات التي تخصصها الإذاعة والتليفزيون للبرامج الدينية.

وكان أن لقيت الدعوة نجاحاً كبيراً في الجامعات على الأخص، حيث تميز نشاط الطلاب الإسلاميين بالحدّة والعنف، وبصدامات متكررة مع الطلبة اليساريين راحت ضحيتها أرواح الكثيرين. وعلى سبيل المثال هاجم الإسلاميون في عامي 1979 و 1980 جماعات الماركسيين وجمعيات البربر في الجامعات، واعتدوا بالضرب على الطالبات المرتديات للزي الأوروبي، كما

شجّعهم نجاح سياسة التخويف والإرهاب والإرغام التي ينتهجونها داخل الحرم الجامعي على البدء في تنظيم مظاهرات خارج الجامعة، أحرقوا ودمّروا خلالها عدداً كبيراً من الفنادق والمقاهي والمطاعم التي تقدم المشروبات الكحولية.

كذلك فقد أزعج الحكومة بصفة خاصة تزايد عدد المساجد غير المرخص بإنشائها وغير الخاضعة لرقابة وزارة الشؤون الدينية، وهي مساجد يتناول فيها أئمتها السلطة وسياستها الاشتراكية بالانتقاد والطعن الصريحين، والسخرية من دعوى رجالها بأن «الإسلام أيديولوجيتنا». وقد بلغ بالمتطرفين الأمر حدّ طرد أئمة المساجد المعيّنين من قبل الحكومة وأحلّوا مكانهم أئمة من بين رجالهم. كما أدت محاولة قامت بها الشرطة في أكتوبر 1981 في مدينة الأغواط شماليّ غرب الجزائر لإغلاق مسجد غير مرخّص بإنشائه وتحظى خطبُ إمامه بشعبية كبيرة، إلى صدام دموي، واعتداء وحشيّ على الشرطة.

وفي نوفمبر 1982 قام الطلبة الإسلاميون في جامعة الجزائر (داخل مبانيها وخارجها) بتوزيع منشورات وكتيبات تدعو إلى وضع حدّ صارم للتأثيرات الغربية في المجتمع الجزائري، وتطالب بإقامة حكومة إسلامية، وإلغاء الميثاق الوطني الصادر عام 1976 (وهو المعبر عن أيديولوجية الدولة)، وبأن يحلّ القرآن محل هذا الميثاق العلماني أساساً لبيان معالم الحياة الاقتصادية والفكرية للأمة، وبإلغاء التعليم المختلط، وحظر مواصلة الفتيات لتعليمهن بالمدارس بعد سن الثانية عشرة.

وتنتهج الجماعات الإسلامية في سبيل نشر فكرها وفرضه سبيل الوعظ والإرشاد، وسبيل العنف المنظم في آنٍ واحد. ولا يقتصر العنف على اعتداءات فردية وغير منسّقة ضد أشخاص معينين أو طالبات في زيّ أوروبي. فقد بدأت تظهر الآن في المساحة اعتداءات جماعية محكمة التنظيم والتنسيق في سبيل تحقيق غايات ومقاصد تخدم فكر هذه الجماعات. وقد حدث في نوفمبر 1982 أن فاز الإسلاميون في انتخابات اتحاد الطلبة بجامعة الجزائر.

فلما شكّك الطلبة الشيوعيون في سلامة هذه الانتخابات، حدثت اصـدامات عنيفة بين الفريقين أسفرت عن مقتل طالب يساري وجرح الكثيرين، فاعتقلت الشرطة أكثر من أربعمائة من الإسلاميين، ما أن سري خبر اعتقالهم حتى تجمّع في العاصمة نحو مائـة ألف متظاهـر بعد صـلاة الجمعة يعضّـدون الإسلاميين ويطالبون بالإفراج عن المعتقلين. وكان ردّ فعل السلطات هو الإلتجاء إلى سبل القمع العنيفة لهذه المظاهرة، تلتها بعد أيام قلائل تصريحات وقرارات تستهدف استرضاء الإسلاميين وتهدئة خواطرهم.

وقد كان من بين أخطر القيادات في الحركة الإسلامية المتطرفة، ضابط سابق في الجيش الجزائري يدعى مصطفى أبو علي، فصـل في عهد بـومدين بسبب اتجاهاته الدينية، وقام بعد ذلك بعـدة عمليات إرهـابية مثيـرة، كتدبيـر هجوم على ثكنات الجيش في مدينة بوداواو بولاية بومرداس عام 1982 استولى خلاله على كميات كبيرة من الأسلحة والذخيـرة، ثم الهجوم عـام 1985 على شركة للبناء تابعة للقوات المسلحة، وفي عام 1986 على كلية الشرطة في مدينة صومعة بـولاية البليـدة، ثم على إحدى المستشفيـات التي استولى منهـا على كميات هائلة من الأدوية. وقد لقي مصـطفى أبو علي هـذا حتفه هـو وستة من أتباعه بـالقرب من العـاصمة في معـركة مـع قوات الأمن في أوائـل عام 1987 استخدمت خلالها الأسلحة الأوتوماتيكية والقنابل اليدوية.

فـإن صرفنـا النظر عن الممـارسات اليـومية العـادية لأفـراد الجماعـات المتـطرفة، (كتبـرع بعض زوجاتهم بمجـوهراتهن مسـاهمة منهن في تمـويـل الجماعات)، أو التهديدات المتكررة بقتل المخالفين في العقيدة، كمـا حدث مؤخراً مع مخرج وممثل فيلم «حورية» الذي يصوّر معاناة المرأة الجزائرية في مجتمع رجعي متخلف، يصر على حـرمانهـا من أبسط الحقوق، وكـذا ممثلة الفيلم التي اتهمت بـالكفر والخـروج عن أصول الـدين لمجرد قبـولها تمثيـل الدور)، وجدنا المظهر الأخطر لنشاط هذه الجماعات يتمثّل في تلك الأحداث

من الشغب المصحوبة بأعمال التخريب، كتلك التي وقعت في ديسمبر 1986 في مدينة قسنطينية، وقام فيها بدور بارز طلبة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية التي كان من أبرز أهداف إنشائها عام 1984 بثّ مفهوم عن الإسلام معتدل مستنير تقاوم به الدولة المفاهيم المتطرفة، والتي تستعين بخبرات بعض علماء الدين العرب المعروفين باعتدالهم، كالشيخ محمد الغزالي الذي عين أستاذاً بها، والذي أفسح للتليفيزيون والإذاعة وقتاً لحديث دينيّ يلقيه فيهما مرة كل أسبوع.

وقد كان هذا الاشتراك من جانب طلبة الجامعة الإسلامية في اضطرابات قسنطينية الدامية، هو ما حدا بالبعض إلى التشكك في حكمة تشجيع تيار إسلامي مستنير معتدل، بدعوى أن مثل هذا التشجيع يخلق قاعدة عريضة من الإسلاميين سرعان ما ينتقل منها المعتدلون إلى التطرف متى ما لحقت بهم مظالم إجتماعية أو اقتصادية.

موقف الحكومة الجزائرية:

واجهت حكومة الشاذلي بن جديد إذن من مثل هذه الظواهر ما لم تواجهه حكومة بومدين قط. وقد كانت سياسة الشاذلي في البداية هي السماح للرأي العام بقدر أكبر مما كان يسمح به سلفه من سبل التعبير بصدد مختلف الموضوعات والمشكلات. غير أنه سرعان ما أدرك إزاء ازدياد العنف وتعاظم خطر الجماعات الإسلامية، ودعوة بعض أئمة المساجد إلى الإطاحة بالقوة بحكمه «الوثنيّ»، أنه لا مفرّ من اللجوء إلى سياسة حازمة حاسمة من المواجهة السريعة للعنف بالعنف، وإلى حملات واسعة النطاق من الاعتقالات لأفراد هذه الجماعات التي وصفها «بعصابات المجرمين والمهيّجين اللذين تساعدهم دول أجنبية معادية للجزائر في محاولاتهم لتقويض النظام العام». وقد ذكر أن حملات الشرطة قد كشفت خلال النصف الأول من عام 1987 عن حيازة تنظيمات غير مشروعة لكميات ضخمة من المفرقعات والأسلحة، كانت تنوي

استخدامها في محاولتها قلب نظام الحكم، مما برّر بعد ذلك اعتقال المئات من المتطرفين، ومحاكمتهم أمام محكمة أمن الدولة التي أصدرت في 10 يوليو 1987 أحكامها بالسجن على مائة وأربعة وثمانين شخصاً وإعدام ثلاثة.

وبالرغم من استمرار هذه الحملات والاعتقالات والمحاكمات الهادفة إلى استئصال كافة بؤر الإسلاميين في المدن الجزائرية، فقد بدا واضحاً للسلطة أن العنف وحده لا يكفي، خاصة وقد تزايدت احتجاجات المنظمات الدولية ضد «انتهاك حقوق الإنسان» في الجزائر، واستمرار حبس المتهمين دون تقديمهم إلى المحاكمة، وتبيّن أن نفوذ الجماعات الإسلامية قد تعدّى الجامعات إلى المدارس والمصانع والمعاهد الدينية والإدارات الحكومية ذاتها وسائر المهن والحرف في المدن. وقد وصلت الحكومة إلى اقتناع بأنه إلى جانب الردع والاعتقال، لا بدّ من اللجوء أيضاً إلى سياسة موازية من المصالحة والمهادنة والتهدئة. وكثيراً ما تبدأ السلطة بقمع الإضطرابات وتفرقة المظاهرات بأقصى درجات القوة والعنف، ثم يعقب ذلك تلبية معظم المطالب والتنازلات عند عودة الهدوء. فبعد انتهاء مظاهرات الطلبة، يتجه النظام عادة إلى منح الطلبة حقوقاً أوسع في توجيه السياسات الجامعية، ووعدهم بتوفير فرص العمل لهم في القطاع العام بعد تخرجهم. وبعد اعتقال المضربين من العمال وسجن قادتهم، يأتي رفع أجورهم والاستجابة لعدد منتقى من الانتقادات والمطالب.

كذلك تحاول الحكومة انتزاع المبادرة الإسلامية من أيدي المتطرفين والخطباء الشعبيين من المشايخ. وبالتالي فقد كثر استخدام رجال السلطة للتعابير الدينية، واقتباساتهم في خطبهم وتصريحاتهم من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، وتركيزهم على أن «القرآن منبع حضارتنا وأسلوب عيشنا»... غير أن الأهم من ذلك إقدام الحكومة على التوسع في إنشاء شبكة قومية من المعاهد الإسلامية ومراكز إعداد وتدريب أئمة المساجد ورجال الدين، بعد أن ظهرت بجلاء عواقب التقتير السابق في الإنفاق على هذا التدريب، ومنها أن أكثر من ثلاثة آلاف إمام من أئمة المساجد البالغ عددهم

نحـو خمسة آلاف. كـانوا حتى وقت قـريب من الأميين الجهلة بأمـور الـدنيـا والدين. وقد زاد الآن عدد مراكز تعليم القرآن، وزاد الإنفاق عليها، وشجّعت الحكومة الشباب على الإلتحاق بوظائف الأئمة مكان الشيوخ الأميين. ثم جاء متوجاً لكل هذا تأسيس جامعـة الأمير عبـد القادر التي ذكـرناهـا والتي وُصفت مهمتها بأنها «ربط التعليم الديني بصورة أوثق بواقع المجتمع واحتياجاته، سواء في المجالات الدنيوية أو الروحية أو الفكرية».

والواضح الآن أن الحكومة تستهدف بصفة أساسية ضمـان الحيلولة بين الأئمـة غير المعيّنين من قبلهـا وبين إلقاء خـطب معادية لها في مسـاجد غيـر مرخص بإقـامتها. وقـد بات الآن من مستلزمـات تعيين الإمام الحصـول على شهـادة من معهد ديني. كمـا تدأب الحكـومة على استضـافة وتنـظيم نـدوات ومؤتمرات قومية سنويـة حول مـوضوعـات إسلاميـة، وعلى إصدار المجـلات الدينية، والتوسّع في البرامج الدينية في كل من الإذاعة والتيليفزيون.

ومع كل تلك الإجراءات والسياسات الجديدة لحكومة الشاذلي بن جديد في المجال الديني، فإن هذه الحكومة تدرك جيداً في قرارة نفسها أن المفاهيم الإسلامية لم يعد بالإمكان إبقاؤها حكراً على أجهزة الدولـة، خاصـة ما بقيت المشكلات الإجتماعية والاقتصادية قائمة دون حل، وما دام التوتر الحضاري، وتصارع الثقافات، يهزّان المجتمع الجزائري من جذوره. كذلك فهي تدرك أن هذه المفاهيم الإسلامية والتعابير الدينية الخطابية هي سـلاح ذو حدّين، وأداة يمكن للساخطين استعمالها لإذكاء التمرد والعصيـان، وللحكومـة استخدامهـا لحثّ الرعية على طاعة السلطان.

عناصر التوتر في المجتمع الجزائري التي تساعد على نمو الاتجاهات الدينية المتطرفة

ربما كان المجتمع الجزائري من أكثر المجتمعات في العالم تعرضاً في حيـاته اليـومية لمختلف أسبـاب التوتـر والمتناقضـات، والصـراعـات الخفيـة

والصريحة، وهو ما نجم عن ثلاثة أسباب رئيسية:

الأول : حكم استعماري دام 132 عاماً حاول المستعمر أثناءها جاهداً، وبدرجة كبيرة من النجاح، أن يجتثّ اجتثاثاً الجذور الحضارية للأمة، من لغَة ودين وتراث وهوية وتقاليد وانتماءات.

والثاني : ثماني سنوات من الجهاد الثوري وحرب التحرير ضد الفرنسيين، استشهد فيها نحو مليون ونصف مليون نسمة، وكان الإسلام خلالها إحدى الوسائل الرئيسية لتعبئة الطاقات، واستثارة الهمم، وتوحيد الصفوف، ثم إذا هي وقد تلاها إقامة نظام علماني لا يلعب في الإسلام دوراً أكثر من المساعدة على تعزيز الهوية الجزائرية.

والثالث: سنوات طويلة من سياسة التصنيع الثقيل والسريع في عهد بومدين ساعدت على انحسار التقاليد والقيم الموروثة، وتفكك الأسر والقبائل، واندثار تضامنها ومشاعر ولاء الأفراد لها، وإهمال الزراعة، وتزايد الهجرة من الريف إلى المدن التي غصّت بالعاطلين، مما هدّد الجزائريين بانتزاع جذورهم، والمجتمع الجزائري ذاته بالتحلل، حتى بدت العقيدة الدينية وحدها القادرة على الحيلولة دون ذلك، خاصة وقد فشلت الأيديولوجيا الاشتراكية التي تتبنّاها الدولة في إثارة الحماس لها، والإيمان بها.

غير أنه مع هذا الاعتقاد المتزايد لدى حشود الساخطين العاطلين والفقراء المشردين، والنازحين من الريف إلى المدن، بأن الإسلام هو الحل، وفيه يكمن الخلاص والأمل في انصلاح الأمور، نلمس عدداً من المفارقات:

فغالبية أنصار الجماعات المتطرفة ـ كما ذكرناهم ممن لا يتمتعون بكفاءة

أو مهارة مهنية تيسر لهم الخروج من مأزق البطالة. وهم على جهل تام بأية لغة أجنبية، ومع ذلك فإن جهلهم بالعربية ذاتها ليس بأهون خطراً. وضعفهم هذا في العربية لا يعينهم على فهم القرآن، أو القراءة في كتب الدين للتعرف على تعاليمه. وبالتالي أضحى من السهل على المغرضين من رؤساء الجماعات استخدامهم أداة طيعة في أيديهم، وتلقين أية فكرة يريدون تلقينها لهؤلاء السُذَّج.

ثم إن الشعب الجزائري بطبيعته من أقل الشعوب الإسلامية حرصاً على إلزام نفسه بأداء الفروض الدينية. فالقليلون مثلاً هم الذين يؤدون الصلوات الخمس، سواء في الريف أو المدن، ويستعيضون عن هذه الفروض بواجبات أقل شأناً، كالامتناع عن أكل لحم الخنزير وشرب الخمر، ولبس المرأة للحجاب، وأحياناً بطقوس وشعائر ذات جذور وثنية، كالتردّد على مزارات الأولياء، وتقديس أحجار أو أشجار معينة يتبرّكون بها. . . . ومع ذلك الجّهل بالدين، والاستخفاف ببعض فروضه الرئيسية، والعجز عن قراءة الكتب الأساسية فيه، أو فهم القرآن ذاته، والجهل بعلم العربية الذي هو الإسلام بعينه على حدّ تعبير أبي عمرو بن العلاء، فبوسع هؤلاء إقناع أنفسهم بأنهم متى أطلقوا اللحى ولبسوا الجلباب، قد أضحوا حماة الدين والقيمين عليه، وبات من حقهم وصْم النظام بالكفر، ونسبة الضلال إلى غيرهم.

كذلك فقد تسبّب الاستعمار الفرنسي، واستحواذ المواطنين الفرنسيين على أفضل الأراضي الزراعية في الجزائر وطردهم أصحابها منها، ثم ما تبع ذلك من حرب الاستقلال والغارات الفرنسية الانتقامية التي أدت إلى تهجير الفلاحين قسراً، وتدمير آلاف القرى، وإحراق الغابات، وقتل المواشي؛ في تدفق جماعي رهيب الأبعاد من جانب الفلاحين ورجال القبائل على المدن، دون أن تكون لديهم أدنى خبرات صناعية أو حرفية، مخلّفين وراءهم عائلاتهم أو قبائلهم التي كانت في الماضي تزوّدهم بإحساس من الأمن والدفء والتضامن.

وقد ساهم النظام الجزائري بعد الاستقلال في استفحال وطأة هذه الضغوط، ولم يبذل أدنى محاولة لتوفير البدائل المناسبة أو الحلول الكفيلة بإضفاء المعنى والغرض على الحياة الاجتماعية المعاصرة. وقد كان الهمّ الأول لهذا النظام هو التصنيع الثقيل والسريع، وفتح الأبواب في أقصر وقت أمام التكنولوجيا والمدنية الحديثتين، دون اعتبار لأنماط الحياة التقليدية، وهو ما أوجد الفرد العادي الجزائري في وضع المعلّق بين عالمين متباينين لا يدري إلى أيهما ينتمي، ولا لمن هو مدين بالولاء. بل إنه حتى في المناطق الريفية أو الرعوية والنائية من البلاد، حيث كان محور حياة الفرد هو أسرته أو قبيلته، قد حلّ مكتب الحزب، أو مقر الشرطة، أو مركز العلاج الصحي أو المدرسة، محل القبيلة، وقضت هجرة الرجال إلى المدن على الترابط الأسريّ. وبالتالي فقد انحسرت، ثم انقرضت، المعايير التقليدية للسلوك والقيم والمعتقدات التي لم تعد قادرة على ضمان الولاء الكامل لها، دون أن تكون للتمدّن والحداثة القدرة على إشباع الاحتياجات الروحية والنفسية للشعب، وللشباب من أفراده بالأخص.

قد أصبح سكان المدن الآن يشكّلون نحو 55٪ من مجموع الجزائريين، تأتي في قمّتهم قشرة نحيلة من المثقفين والتكنيين، تليها طبقة عريضة نسبياً من البورجوازية من أصحاب الحوانيت والمقاهي والموظفين والكتبة، ثم العمال الصناعيين وعمال البناء والأشغال العامة، ثم طبقة كبيرة من المتعطلين وأشباه المتعطلين من العمّال اليوميين، ممن يفضّلون الحياة البائسة في المدن (حيث يوجد قدر من الأمل في الحصول يوماً ما على عمل) على الحياة البائسة في الريف (حيث لا أمل على الإطلاق في تحسن الأحوال). وإذ يتضاءل الأمل في حياة كريمة يوماً بعد يوم بسبب تأزم الاقتصاد الجزائري ومشكلاته المستفحلة وانخفاض سعر النفط، وبسبب التزايد الخطير في عدد السكان ونسبة المواليد (أكثر من 3٪ سنوياً، علماً بأن نحو 65٪ من مجموع السكان هم من الشباب الذين تقل أعمارهم عن 18 سنة)، فإن الخوف من المستقبل ومن البطالة، قد

اتسع نطاقه حتى بات يشمل طلبة الجامعات والمدارس أنفسهم (خاصة ممن يتلقون تعليماً عربياً صرفاً ويجهلون اللغات الأجنبية، وهم 25٪ من مجموع الطلبة)، ممن فقدوا الثقة في قدرة الدولة على توفير الأعمال لهم عند تخرجهم.

وكان من الطبيعي أن يُلقِي كلُّ هؤلاء السمع لأي انتهازي سياسي، أو مأجور من ليبيا أو إيران، يبثّ في روعهم أن الإطاحة بنظام الحكم، وإقامة دولة تطبق شريعة الله، من شأنهما حل كافة مشكلاتهم، وتوفير الحياة الرغدة لهم، معزّزين دعواهم بالإشارة إلى مظاهر الفساد في الدولة. وشيوع الرشوة بين موظفيها، والثراء الفاحش لدى كبار رجال الجيش والحكومة والحزب، وتبديد الأموال على قضايا لا تعنيهم في شيء كقضية البوليساريو. وانتشار الدعارة على كافة المستويات، وحظر النقد والمناقشة الفعالة لسياسات الحكومة خارج دائرة ضيقة من أفراد معدودين من رجال السلطة، وشدة وطأة المخابرات والشرطة، وتعاظم نفوذ الجيش وهيمنته على جميع مظاهر الحياة الجزائرية، وقصر الترقي إلى المناصب العليا على المعروفين بولائهم الخالص للنظام.

وقد سهّل على هؤلاء مهمتهم استفحال المشاكل التي لا حصر لها في الحياة اليومية للشعب: كالنقص الحاد في السلع الاستهلاكية، وبشاعة الخدمات الاجتماعية وحال المواصلات العامة، وغلاء الأسعار وعدم كفاية المؤن الغذائية، والأزمة الشديدة في المساكن، وتدهور الأحوال المعيشية في المدن وفي نوعية الحياة بوجه عام. وقد أدّى ازدياد تعداد السكان خاصة في المدن ـ إلى أن أصبح البيت الواحد من حجرتين يشغله عشرة أشخاص أو أكثر. وهو ما أسفر عن ظاهرة مخيفة تكاد أن تنفرد بها الجزائر، وهي منظر الآلاف من الشباب والصبية مجتمعين ليلاً ونهاراً في حلقات على أرصفة الشوارع تحت عواميد الإنارة، يلعبون الورق أو الدومينو، أو يتحادثون أو يتصافعون على الأقفاء مازحين، أو يحاولون تضييع الوقت بسرقة فوانيس السيارات، أو السطو على الشقق، إما عن كراهة للعودة إلى مساكن غاصة

بقاطنيها، أو في انتظار دورهم ليحلّوا محلّ الإخوة أو الآباء في السرير لبضع ساعات.

فالنوادي الاجتماعية والرياضية هنا غير معروفة بالمرة، والمدارس لا يمكنها استيعاب كل هذه الأعداد الغفيرة والمتزايدة من الشباب، وهي التي أدى ازدحام الفصول فيها بالفعل إلى تدهور سريع في مستوى التعليم، بدليل أن نحو 18 ألف طالب فقط هم الذين يجتازون امتحان البكالوريا من بين حوالي مائة ألف طالب. أما عن نسبة الأمية فهي أكثر من ستين في المائة، وهي أعلى من ذلك بكثير بالنسبة للنساء اللواتي يسوء وضعهن وتتقلص حقوقهن يوماً بعد يوم، عكس الحال في المغرب وتونس. فالمجتمع الجزائري هو في المقام الأول مجتمع رجال، ولا تكاد النساء يرين خارج ديارهن بعد غروب الشمس، بل وإن مجرد سيرهن في الشوارع نهاراً لا يخلو من خطر التعرض لهن بالتعابير البذيئة أو امتهان أجسادهن بالعبث الغليظ من جانب الرجال، خاصة إن كن يرتدين الملابس الأوروبية، وهي ملابس توحي للرجال بأن صاحباتها على استعداد لتقبل أي شيء. . وقد ثبت في عقول معظم هؤلاء الرجال أن تحرر المرأة يعني الانحلال الخلقي. وهذا هو السبب الرئيسي في لجوء الكثيرات هنا إلى ارتداء النقاب، على أمل حماية أنفسهن من تعرض الرجال، وكرمز لعدم رغبتهن في المغازلة.

وقد حاولت الحكومة منذ عام 1963 إصدار قانون أحوال شخصية يوفر قدراً أكبر من الحقوق للمرأة، ويحررها من القيود الثقيلة التي تكبلها. غير أن هذه المحاولة باءت بالفشل نتيجة معارضة قوية من الإسلاميين والمحافظين، فإذا بمشروع قانون جديد للأحوال الشخصية تقدمه الحكومة في سبتمبر 1981 ويتّسم بأقصى درجة من الرجعية، مما أثار ثائرة النساء التقدميات فنظّمن المظاهرات أمام مبنى المجلس الشعبي الوطني في العاصمة. فلما حاولت الحكومة تعديله لإرضائهن هاج غضب الإسلاميين الذين لم يهدأوا حتى أقرت الجمعية في 9 يونيو 1984 قانوناً يرضيهم، قائماً على أساس الشريعة الإسلامية

في كل ما يتعلق بالزواج والطلاق وتعدد الزوجات والمواريث والولاية.

خاتمة:

فإن كانت حرب التحرير قد خلقت نوعاً من التضامن والتقارب ووحدة الهدف بين طبقات الشعب، فقد جاء مع الاستقلال بمضي السنين تمزق وفرقة، وانقسم الجزائريون بصفة أساسية إلى فريقين: مثقفين وتكنيين براجماتيقيين، لا يأبهون كثيراً للسياسة، قد حلّوا في المناصب العليا في الدولة محل الوطنيين المتحمسين، وينهضون وحدهم بإدارة القطاع الصناعي والتجاري من الاقتصاد المؤمم، وجماهير ينمو نفودها تدريجياً من الطابع العلماني للدولة والثقافة الجزائرية، ويتزايد إقبالها على نصرة الجماعات الإسلامية والانخراط في صفوفها، وكذا كراهيتها لأولئك التكنوقراطيين «الذين أرادوا للجزائر أن تصبح بمثابة ألمانيا في القارة الإفريقية، وفشلوا فشلاً ذريعاً في تحسين الأحوال المعيشية لشعبها».

هذا إلى أن تدهور مستوى التعليم مع التوسع فيه، قد أسفر عن تخرّج حشود من الشباب الذي لم يلقّن غير الأوّليات والقشور، وهي قشور قد أفلحت في تعاظم مطامحه وتزايد احتياجاته المادية، وإن لم تفلح في جعله مؤهلاً لتحقيق هذه المطامح، وسدّ تلك الإحتياجات. وقد أضحت هذه الحشود من الشباب نصف الأميّ كالجنيّ الذي أطلق من القمقم وبات من المحال إرجاعه إليه؛ ليس لدى النظام أوهى فكرة عن كيفية تعامله معه، والجهة الوحيدة التي لديها مثل هذه الفكرة، وأفكار أخرى عن كيفية استغلال هذا الجنيّ لخدمة مصالحها الخاصة، هي قادة الجماعات الإسلامية المتطرفة..

كتب فولتير في معجمه الفلسفي تحت مادة «يهود»:

«. . . والخلاصة أن اليهود شعب جاهل غير متحضّر، يجمع بين أبشع ألوان الشَّرّه، وأفظع ضروب الخرافة، وأقوى صنوف الكراهية لكافة الأمم التي تتسامح معهم، وتتيح لهم فرصة الإثراء على حسابها. . . ومع ذلك، فليس ثمة مبرّر لإحراقهم»!

كان هذا هو موقف فلاسفة عصر الاستنارة السابق للثورة الفرنسية من المشكلة اليهودية: مهاجمة كافة الأديان بما فيها اليهودية، والدعوة إلى فلسفة إنسانية يستظلّ بها البشر أجمعين، وتحلّ محلّ الديانات المتصارعة التي تبذر بذور العداوة والفُرقة بينهم. وقد أخذ قادة ثورة ١٧٨٩ بهذا الرأي، ودعوا إلى دين جديد هو دين العقل، وإلى التسامح والمساواة، وشاركوا مشاركة إيجابية في مناقشات الجمعية الوطنية الفرنسية للمشكلة اليهودية، وهي مناقشات دامت قرابة عامين، وأسفرت عن توفير المساواة الكاملة بين اليهود وغيرهم من المواطنين. وقد اعترضت على هذا القرار قلّة قليلة تزعّمها الكاردينال موري، محتجّة بأن اليهود «لن يصبحوا أبداً جزءاً من الشعب الفرنسي، وسيظلون دوماً دولة داخل دولة، وسيستغلّون حرياتهم الجديدة من أجل تعزيز قوّتهم وموقفهم الانفصالي، وأنهم مهما أُعطوا من حقوق، أو استُقبِلوا بالمودّة والترحاب، فلن يكونوا غير أقلية غير قابلة للاندماج». غير أن النصر كان حليف الاتجاه التقدّمي

المؤيّد للمساواة، والذي كان من رأيه أن العيوب الملموسة في اليهود إنما نجمت عن اضطهادهم وسوء معاملتهم على مدى قرون طويلة، وأنها زائلة لا محالة مع منحهم المساواة الكاملة.

الاندماج ثمناً للمساواة:

ومع أن قادة الثورة هاجموا المعارضين الكاثوليك لمبدأ مساواة اليهود بغيرهم في الحقوق والواجبات، ووصفوهم بأنهم أعداء الثورة ومبادئها، فقد أوضح روبسبيير على نحو قاطع أن الشعب الفرنسي ينتظر من اليهود أن يتخلّوا عن عزلتهم، وأن يصبحوا في المستقبل القريب جزءاً لا يتجزّأ من الأمة.

وقد قبل معظم اليهود الفرنسيين هذا الشرط، وسارعوا في همّة لإنهاء عزلتهم والاندماج في المجتمع الذي يعيشون فيه، بل وناصر بعض الشباب منهم في حماس دين العقل الجديد، وهلّلوا لمبادىء الثورة.

ومع ذلك فقد كان من رأي نابليون عند تولّيه الحكم أن عملية الإندماج لا تتم بالسرعة المطلوبة. فدعا مجموعة كبيرة مختارة من اليهود البارزين للاجتماع به، وموافاته بإجابات شافية عن اثني عشر سؤالاً حول كيفية التعجيل بتحقيق الإندماج. وقد أبدى الحاضرون استعداداً للتجاوب مع كافة اقتراحات نابليون ومطالبه سوى مطلب واحد، هو تشجيع التزاوج بين اليهود والمسيحيين، وهو ما كان نابليون يعتبره أجدى وسائل الإندماج المنشود.

على أي حال، فقد حققت عملية الإندماج في فرنسا قدراً عظيماً من النجاح. وانبرى بعض علماء الدين اليهود فيها يقولون إن مبدأ المساواة ومبدأ الأخوّة بين البشر نبعا في الواقع ولأول مرة في تاريخ الإنسانية من كتب اليهود المقدسة ومن تعاليم أنبيائهم، وهي مبادىء نقلتها الثورة الفرنسية من حيّز الدين والمُثُل إلى حيّز السياسة والواقع... وباحتلال الجيوش الفرنسية لقطر تلو قطر في أوروبا، وإعلانها تحرير اليهود في تلك الأقطار، انتشر تأثير مبادىء الثورة انتشار النار في الهشيم، حتى لقد خشي قيصر روسيا، الإسكندر الأول من أن يلعب

مبدأ المساواة بعقول اليهود في دولته فيؤازروا الفرنسيين في حربهم ضده فأسرع بإصدار قرارات تخفف من وطأة القيود المفروضة عليهم، وتمنحهم بعض الحقوق.

مشكلات التحرر:

بنشوب الثورة الفرنسية إذن فوجىء اليهود بقدر ضخم من التحرر لم يخبروا مثله إلا خلال القرون الأولى من الدولة الإسلامية، وربما في ظل الجمهورية الرومانية. فقد أضحوا ـ رسمياً ـ مواطنين في الدول التي يسكنونها، لهم ما لغيرهم من غير اليهود من الحقوق، وعليهم ما على الآخرين من واجبات، وباتوا مطالبين في نفس الوقت، أو بات من المنتظر منهم، أن يندمجوا إندماجاً كاملاً في المجتمع الذي يعيشون فيه، بأنظمته السياسية والاجتماعية والاقتصادية والحضارية، حتى مع احتفاظهم بديانتهم وهويتهم.

غير أن هذا التحرر أثار لليهود مشكلات عويصة جديدة، ربما كانت أعوص وأشدّ خطراً من مشكلات الاضطهاد والتمييز والتشريد.. فهم كانوا قد اعتادوا في شتاتهم الذي دام ما يقرب من ألفي عام أوضاعاً معينة خاصة بهم، ونمطاً من العيش جاء التحرر والمساواة والاندماج تزلزل كيانه. والمؤكد أنه ليس صحيحاً ذلك الاعتقاد الشائع بأن كافة اليهود رحّبوا بمساواتهم بغيرهم من المواطنين. فالكثيرون من زعمائهم ورجال دينهم الذين ارتبطت مصالحهم الخاصة بالوضع التقليدي لليهود كأقلية مضطهدة مكروهة، وجدوا نفوذهم بين اليهود يتزعزع نتيجة لما منحوه من حقوق ووُفّر لهم من مساواة وتسامح ديني. وكانت هناك خشية لدى هؤلاء وغيرهم من العواقب «الوخيمة» على الديانة والتقاليد اليهودية للمساواة السياسية الكاملة، بما تتضمنه من حق الانتخاب والخدمة العسكرية، وما تعنيه أيضاً من مطالبتهم بإنهاء عزلتهم وعيشهم المستقل عن غيرهم وإلغاء حق زعمائهم في تدبير شؤونهم.

قد تبيّن للمفكرين والمتدينين اليهود بمرور الوقت أنه وإن كان التحرر والمساواة قد خدما الفرد اليهودي العادي، وحسّنا من ظروفه المعيشية

والاجتماعية والاقتصادية، وأراحاه من التمييز والبغضاء والاحتقار وسوء المعاملة، فقد ثبت أنهما يهدّدان الأمة ككل، وينخران في العقيدة اليهودية، خاصة مع ذلك الإصرار المستمر من جانب المسيحيين على أن الشرط الأكبر لتحقيق التحرر التام لليهود هو أن يتخلوا عن كل المظاهر الانفصالية والانعزالية لنمط عيشهم، وأن يهجروا تقاليدهم التلمودية، وأن يتزاوجوا معهم، وهو موقف يعني انتشاره نهاية اليهودية، وذوبان كيان الأمة على النحو الذي كاد أن يحدث في أقطار الدولة الإسلامية في ظل التسامح الديني.

العواقب:

في ظل التحرر إذن بدأت وحدة الشعب اليهودي في التفكك. . . لقد ظلوا حتى القرن السابع عشر في شتاتهم يعرف يهود مدينة كراكاو مثلاً عن يهود مدينة صَفَد، ويهود صفد عن يهود كراكاو، أكثر مما كان يعرفه أولئك أو هؤلاء عن جيرانهم المسيحيين أو المسلمين على بعد بضع خطوات منهم. . . أما اليوم فها هم يهود بريطانيا وقد بات جلّهم يرون أنفسهم بريطانيين أولاً ثم يهود ثانياً، ولم تعد ثمة غير أوهى الروابط الروحية بين اليهود الفرنسيين والأرجنتينيين والأمريكيين والعرب. . إلى آخره.

ثم خطر آخر يتمثل في انتشار المادية في العصر الحديث، وروح الاستخفاف بالدين، والسعي وراء الملذات خارج الحياة الروحية، وطلب صنوف المتع واللهو. وهناك تيار العقلانية الذي زعزع من القوى الروحية لليهود، وطابع عدم الاكتراث الذي سهّل على الكثيرين التحول إلى المسيحية لضمان قبول أكبر لدى الشعب المسيحي الذي يعيشون بين ظهرانيه. وقد كتب إسرائيل هيلديشايمر عام ١٨٦٧ يقول إن تسعة أعشار الشباب اليهودي قد باتوا إما ملحدين أو غير آبهين للدين. وهاجم كل من أَيْجَر وموشي شرايبر وصامويل دافيد لوتزاتو تحرير اليهود ومساواتهم بغيرهم، واستنكروا تبنّي اليهود لأنماط العيش الغربية كثمن للتحرر، وأبرزوا أوجه الخلاف والاختلاف بين اليهودية

والحضارة المسيحية، ووصفوا التحرر بأنه لا يعدو أن يكون «عبودية في إطار الحرية»! وارتفعت الأصوات اعتباراً من النصف الثاني من القرن التاسع عشر تنادي بالقومية اليهودية، وتطالب بدلاً من المساواة، بنظام من الحقوق للأقليات، والحكم الطائفي الذاتي، وحرية اللغة والتعليم المدرسيّ المستقل وتقرير المصير، بدلاً من الإندماج القومي في الغالبية من السكان.

أصاب المتدينين من اليهود الذُعر إذ يرون الكثيرين من بني جلدتهم ـ خاصة من أفراد الطبقات العليا ـ يتزاوجون مع غير اليهود. ورأوا الآلاف من شبابهم تعتنق الماركسية وغيرها من المذاهب الاشتراكية، والتعاطف مع قولة فورييه «إن معظم اليهود الأتقياء متطفّلون على المجتمع»، ومع قولة كارل ماركس الشهيرة: «إنه من المحتّم أن تختفي اليهودية من الوجود، وأن تحرّر اليهود الاجتماعي لن يتأتّى إلا بتحرر المجتمع من اليهودية»، وقولة لينين: «إن كل من يتحدث عن ثقافة قومية اليهود هو ـ مهما حسنت نيته ـ عدو للبروليتاريا».

وها هم علماء ومثقفون من اليهود قد شرعوا يفسرون الديانة اليهودية وبداياتها وفق المفاهيم العلمية الحديثة، وينقدون «العهد القديم» على ضوء أفكار سبينوزا ومندلسون، ويحللون جذور العقيدة ويبرزون ما اقتبسته من الأمم المجاورة لدولتهم القديمة. ومنهم من ذهب إلى أنه ليس في التوراة في حقيقة الأمر جديد، وأنه يكاد يكون برمّته مأخوذاً عن عقائد مصر الفرعونية وبابيلون وفينيقيا. وقد أضحى اليهود التقدميون من غلاة دعاة الوطنية والإندماج الكامل، وشاع بينهم هجر التقاليد وأنماط العيش القديمة، خاصة بين الأغنياء والمثقفين ذوي التأثير الأكبر في غيرهم، رغم أن اليهودية إنما تُعنى بنمط العيش أكثر مما تُعنى بالعقائد. فهم لم يعودوا يحترمون إجازة السبت ومتطلباتها، ولا يحتلفون بالأعياد، ويرونها ضارة بالاقتصاد ومضيعة للوقت ومجحفة بالتجارة. وقد ضاقوا بالتحريم الديني لبعض المأكولات ورأوه يحدّ من صلاتهم الاجتماعية بغير

اليهود. ونساؤهم اللواتي قرأن لفلاسفة عصر التنوير وغيرهم قد ثُرن على الأخلاقيات اليهودية المتزمتة، وشجعن أولادهن على إغفال دراسة التراث اليهودي. وقد انكمش نفوذ رجال الدين وزعماء الطائفة، وخبا الاحترام لهم، وانتقل هذا الاحترام للمثقفين وكبار رجال المال والصناعة والتجارة والفنانين، وهم الذين لم يتلقوا تعليماً دينياً يهودياً عميقاً ولا يكترثون بتراثهم. أما الشباب اليهودي الذي تلقى تعليمه في الجامعات الأوروبية والأمريكية فقد بدأ ينظر إلى ديانته نظرة رفاقه المسيحيين إليها، وتأثروا تأثراً عظيماً بسخرية فولتير من كافة التقاليد الدينية والخرافات، ووصل جميعهم إلى اعتقاد بأن الدين اليهودي يطالب بإذعان ثقيل الوطأة للتقاليد البالية، وأنه من الواجب تخفيف قيوده وتضييق نطاق سلطان رجال الدين. وهم في كل هذا إنما يحاولون إرضاء أصدقائهم ومعارفهم من المسيحيين، وتيسير اندماجهم في المجتمع حولهم، رائين أن الإلحاد أو الاستخفاف بالدين من شأنه أن يسهّل قيام علاقات اجتماعية وثقافية أوثق، ويخدم التحرر السياسي والاقتصادي.

تفسير جديد لظهور الحركة الصهيونية:

الاعتقاد الشائع بين الناس هو ان الحركة الصهيونية ودعوة القومية اليهودية هما ردّ فعل لمظاهر العداء للسامية، ولمظاهر الاضطهاد والظلم التي عانى منها اليهود في شتاتهم. وقد يكفي لبيان فساد هذا الاعتقاد أن نشير إلى أن الدعوة الصهيونية لم تظهر إلا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وفي أوروبا الغربية، حين كان التحرر اليهودي ومساواتهم بغيرهم قد قطعا شوطاً بعيداً، ولم تظهر لا في أقطار كروسيا وشرق أوروبا حيث كانت مظاهر العداء للسامية قوية ملموسة، ولا قبل الثورة الفرنسية في عصور الاضطهاد الحقيقي لليهود.

وواقع الأمر في رأيي أن الحركة الصهيونية إنما جاءت كردّ فعل لتحرير اليهود ومساواتهم واندماجهم، لا للعداء للسامية.

ذلك أن زعماء هذه الحركة إنما كانوا من بين أناس آمنوا إيماناً قوياً بأن

اليهودية لا يمكن أن تظل قائمة بانتهاء عزلة اليهود وتآكل نمط حياتهم باندماجهم في الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية في الدول المختلفة التي يعيشون فيها.

لقد كانت القومية في الماضي مرتبطة ارتباطاً عضوياً بالدين. أما في العصر الحديث فقد غدت القومية ذاتها ديناً، وأخذت كافة الدول بالعلمانية مذهباً، مرتئيةً أن الدين ليس إلا شأن من الشؤون الخاصة للفرد ولا دخل له بالحكم وغيره من شؤون الدولة، فأضحى على اليهود إن أصروا على تمسكهم بعقيدتهم أن يعبدوا إلههم في دورهم ومعابدهم، فإن خرجوا منها فهم أعضاء في المجتمع الذي هم فيه، لهم ما لغيرهم من حقوق وعليهم ما على غيرهم من واجبات.

نظر دعاة الصهيونية إلى اليهود في أوروبا والولايات المتحدة، فإذا هم يرون العلمانيين منهم وهم يعلنون أنهم لم يعودوا في حاجة إلى مسيخ يخلّصهم من الإضطهاد إذ لم يعد ثمة اضطهاد، ويرون المثقفين يجاهرون باعتقادهم أن الوصايا العشر وغيرها من الأوامر والنواهي الدينية إنما كانت مرتبطة بأسباب وظروف تاريخية معينة قد زالت وانقضت، وأن استمرار مراعاتها واحترامها هو من قبيل السفاهة وخطل الرأي والرجعية. فهي ليست قانوناً ميتاً فحسب ـ على حدّ تعبير بولس الرسول ـ وإنما هي أيضاً عقبة في سبيل الإندماج وتأسيس روابط الودّ والإخاء مع أفراد المجتمع حولهم. بل إن بعض الفلاحين والعمال من اليهود ذوي الحظّ المحدود من التعليم كفّوا عن الإلتزام بالأوامر والنواهي، وهجروا فرض الختان الذي هو الطقس التقليدي للدخول في عهد إبراهيم، وبلغت بهم القحة والصفاقة حدّ وصف كل ذلك بالتقاليد البالية التي لا تناسب أحوال العصر الحديث واحتياجاته.

فالصهيونيون إذن هم في الأصل جماعة تؤمن بأن لليهود رسالة خاصة، وهوية خاصة، قد أضحتا في خطر نتيجة انتشار العلمانية والمادية والإلحاد، ومن اللازم حماية الشعب اليهودي من هذا الخطر بتجميعه في وطن خاص به،

يواصل فيه أهدافه الحضارية دون تدخل أو تأثير من الغالبية غير اليهودية. وعندهم أن اليهود كانوا دائماً أمة واحدة ووحدة حضارية مستقلة.. «والوطنية الحقة ليست في حبّ أرض معينة، بل هي في حبّ الماضي الحضاري وفي احترام الأجيال التي سبقتنا». وقد أعلنوا صراحةً تفضيلهم لوضع اليهود في أقطار القارة الأوروبية قبل الثورة الفرنسية حين كانوا يتمتعون بحكم ذاتي واسع النطاق دون المساواة. فالحكم الذاتي دون مساواة هو في رأيهم أفضل لليهود من المساواة دون حكم ذاتي.. أما عن خرافة «التسامح الديني» فهي ليست ناجمة عن اتساع أفق وتهذيب طباع كما يدّعي البعض، وإنما هي ثمرة الإلحاد الذي ساد أهل هذا الزمان، وما أسهل التسامح على غير المؤمن!

انقسام اليهود:

وقد كان من بين ما حذّر الصهاينةُ اليهودَ منه خطر انقسام اليهودية ـ شأن المسيحية ـ إلى طوائف ذات معتقدات متباينة. وهو بالضبط ما حدث خلال المائة عام الأخيرة، وبعد قيام دولة إسرائيل بالذات:

فالطائفة الأولى، ويُعرف أفرادها **بالإصلاحيين**، (ونجد معظمهم في ألمانيا والولايات المتحدة والدول الاسكندنافية وإنجلترا وفرنسا)، ترفض فكرة الوطن القومي اليهودي، أو الهجرة إلى إسرائيل، وتذهب إلى أن خلاص اليهود إنما يكمن في تحقيق المُثُل التي نادى بها أنبياء اليهود من الإلتزام بالمبادىء الأخلاقية والإيمان بوحدانية الله. وهو أمر بمقدور أيّ يهودي أن يحققه في أية بقعة من الأرض، وبين أي شعب من الشعوب. ومثل هذا الالتزام هو نفسه «المسيح المخلّص»، لا الكائن الذي يزعمون أنه سيعود بهم إلى أرض الميعاد في زمن لا يعلمه غير الله. وعند هذه الطائفة أن الإدنماج مطلوب ومرغوب فيه وفي مصلحة اليهود سواء من الناحية الحضارية أو الاقتصاديّة أو السياسية أو الاجتماعية. أما شعارها فهو «كن يهودياً في بيتك، وإنساناً في الطريق».

أما الطائفة الثانية، وهم **الصهيونيون القوميون**، فيرون أن إقامة دولة

لليهود في فلسطين ستجعل للحياة اليهودية بؤرة موحّدة، وأن فلسطين وحدها هي الأرض الصالحة لانتعاش الهويّة والتقاليد والحضارة اليهودية . . قد ينظر بعض المحافظين في حنين إلى الماضي وقت الشتات والاضطهاد والعزلة، حين كانوا يتمتعون بأكبر قدر من التضامن والتشبث بالتقاليد ونقاء العقيدة وإطاعة الله . غير أنه ما من أحد بوسعه أن ينكر تغيّر الظروف في العصر الحديث، وأن تحرّر اليهود قد بات أمراً واقعاً خاصة بعد هزيمة النازية عام ١٩٤٥ ، في العالم الغربي على الأقل، وبعد أن نصّت كافة دساتير دول العالم تقريباً على الحق في حرية العقيدة، ولم يعد ثمة من لديه الجرأة على معاداة السامية . وقد قامت الصهيونية على أساس تحرر اليهود، وتحرّر اليهود جعل من الصهيونية ضرورة لا غنى عنها للإبقاء على اليهودية وحمايتها من أخطار التحرير والاندماج . ذلك أن الوطن اليهودي القومي من شأنه أن يضع المعايير التي يمكن بها لليهود خارج إسرائيل أن يقيسوا بها مدى يهوديتهم . . أما موقف المحافظين فلا يمكن أن يكون قوة فعّالة للحفاظ على اليهودية في العصر الحديث ما دام على عدائه للتحرر والمساواة . وما كان بمقدور دولة إسرائيل ذاتها أن تقوم إلا على أكتاف اليهود المتحررين، وما حصّلوه في جامعات الغرب من المعارف العلمية والتكنولوجية الحديثة، ولولا المساعدات المالية الضخمة التي تلقّتها من أثرياء اليهود في أوروبا والولايات المتحدة، والتي ما كان ليمكنهم تقديمها لولا تحررهم واشتراكهم الكامل في الاقتصاد الغربي، ولولا مؤازرة وتعضيد ونفوذ كبار اليهود في المناصب الرفيعة في الغرب، ولولا التدريب العسكري المكثّف الذي حصّله الجنود اليهود ممن خدموا في جيوش الحلفاء خلال الحربين العالميتين .

أما الطائفة الثالثة فطائفة **المحافظين الأتقياء** الذين يستنكرون تأسيس دولة إسرائيل، ويعتبرون قيامها مخالفاً للدين وضدّ إرادة الله . ذلك أن خلاص اليهود وعودتهم إلى أرض الميعاد لا ينبغي لهما أن يتحققا إلا بقدوم المسيح وبتدخل مباشر من الرب في الوقت الذي يشاؤه ويحدّده . أما أية جهود بشرية تأتي باليهود

إلى فلسطين، فهي ليست عبثا فحسب، بـل وكفرا صـارخاً إذ تحـاول تحقيق النتيجة وقطف الثمرة قبل الموعد المقرر عند الله.

الوضع الراهن في إسرائيل:

وفي إسرائيل اليوم، تُعرف هذه الطائفة الأخيرة من المتدينين المتطرفين باسم «حـار يديم»، أي الأتقياء الذين يخافون الله. وهم يمثلون نحو خمسة في المائة من مجموع السكان، وللكثيرين منهم جذور عائلية في فلسطين ترجع إلى ما قبل وصول الصهاينة الأُوَل إليها، حين كان لا يسكن فلسطين من اليهود غير الأتقيـاء شديـدي التديّن. وقـد ظلوا حتى مؤخرا يعيشـون بمعـزل عن سـائـر المجتمـع الإسرائيلي، ويـرون أن العلمانيـة والحداثـة اللتين هما طـابع هـذا المجتمـع تهدّدان دينهم ونمط عيشهم، ولا يبـذلون أدنى محـاولة لـلانـدمـاج أو حتى لنشر فكرهم. غير أنهم في الأعوام الأخيـرة باتـوا يرون الكثيـرين من الإسرائيليين المتدينين تتجه إلى التعاطف معهم تعاطفاً زاد من ثقتهم بأنفسهم، إلى درجة حدت بهم إلى الخروج إلى النور يعلنون فكرهم، ويعرضونه كبديل للمجتمع الإسرائيلي الفاسد.

وهم لا يزالون على عدائهم للصهيونية التي تريد تحويل اليهود إلى أمـة كسائر الأمم، وهو مامن شأنه ـ في زعمهم ـ أن يهـدم الهويّـة الدينيـة الفريـدة للشعب اليهـودي. وبالتـالي فهم لا يشاركـون بقية الشعب في الاحتفـال بعيد استقلال إسرائيل، وعندهم أن عيد الاستقلال الحق هو ذكرى خروج اليهود من مصـر منذ نحـو ثلاثـة آلاف عـام. وعنـدهم أن الإخـلاص للتـوراة والإلتـزام بتعاليمها، لا الوطنية، هما اللذان أعطيا للحياة اليهودية مـذاقاً ومعنىً، وحفظا الدين على مدى عشرات القرون.

وقد كانت الغالبية العلمانية من اليهـود وقت تأسيس دولـة إسرائيـل عام ١٩٤٨، على استعداد لتقبّل واحتمال هذه الجماعة الغريبة التي يصرّ أفرادهـا على ارتداء المعاطف السوداء الطويلة، وقلانس من الفرو الأسود، (تماماً كهيئة

يهود أوروبا الشرقية في القرن السابع عشر)، وينادون بإغلاق دور السينما والملاهي، وإزالة الملصقات التي تعرض صوراً للنساء في ملابس البحر، ومنع مباريات كرة القدم أيام السبت. . إلى آخره. فقد كان العلمانيون يرون فيهم صورة تذكّرهم بأجدادهم وبالماضي اليهودي، وكانوا واثقين من أنه بمرور الوقت، وبعد جيل على أكثر تقدير، ستندثر هذه الظاهرة الشاذة من الوجود.

غير أن هذا لم يحدث. . والدلائل اليوم تشير كافتها إلى أن التطرف الديني في إسرائيل في ازدياد، وإلى أن ميزان القوى يتجه أكثر فأكثر إلى أن يكون في صالح الكتلة الدينية التي تسيطر عليها الآن جماعة حاريديم، بحيث بات الصهيونيون مضطرين إلى اتخاذ موقف الدفاع. كما توضح الإحصاءات أن متوسط عدد الأطفال في أسر الكتلة الدينية هو ٨، وفي عائلات الصهيونيين ٣,٥، وفي باقي العائلات ٢,٢، وأن الغالبية العظمى من المهاجرين الجدد إلى إسرائيل هم من بين اليهود المحافظين المتدينين من كل من أمريكا الشمالية وغرب أوروبا.

فإن استمر هذا الاتجاه في التصاعد فلا شك أنه سيحدث تأثيراً هاماً في المجتمع الإسرائيلي، وفي علاقات دولة إسرائيل سواء بالدول العربية أو باليهود في سائر أنحاء العالم. وبإمكان المتابع لمجريات الأمور في إسرائيل أن يلمس بوادر هذا التأثير من الآن:

فمن ناحية، نجد الحزب الوطني الصهيوني الذي فاز في انتخابات عام ١٩٧٧ بإثني عشر مقعداً في البرلمان، لم تعد له اليوم غير أربعة مقاعد، ومن المتوقع أن ينخفض هذا العدد في الانتخابات المقبلة، في حين أن الحزب الديني المتطرف «شاس» الذي لم يكن له وجود عام ١٩٧٧، له اليوم أربعة مقاعد، ولجماعة أجودات إسرائيل المماثلة مقعدان.

ومن ناحيةٍ أخرى، نجد الأحزاب العلمانية الكبيرة، وعلى رأسها حزب العمال وجبهة ليكود، تراقب الموقف واتجاهات الرأي العام عن كثب، لتقرّر

على ضوئها مع أيّ الجماعات الدينية يمكنها أن تبرم الصفقات والمحالفات السياسية، مما سيضمن لها الأصوات والتأييد لسياستها مقابل بعض التنازلات في الشؤون الدينية. وبالتالي نرى السياسيين العلمانيين من الأحزاب المختلفة يتنافسون على مراضاة حاريديم واستقطابها هي وسائر جماعات الكتلة الدينية التي باتت قوة لها وزنها في أي اقتراع يجري في الكنيسيت. وقد تمكن إسحاق شامير زعيم جبهة. ليكود ورئيس الوزراء في مايو ١٩٨٧ من عقد صفقة مع «شاس»، يقرّ بمقتضاها موقف «شاس» من موضوع الهويّة الإسرائيلية، مقابل امتناع «شاس» عن مساندة شيمون بيريز زعيم العمال ووزير الخارجية في دعوته إلى عقد مؤتمر سلام دولي حول قضية الشرق الأوسط. ولو أن بيريز كان قد تقدم إلى «شاس» بنفس العرض بشأن الهوية الإسرائيلية، لكان من المؤكد أن يحظى بتأييد ذلك الحزب لفكرة المؤتمر الدولي.

بقي أن نذكر أن غالبية أفراد حاريديم ترى تحقيق أهدافها بالطرق السلمية دون العنف، وبنشر الدعوة والترويج لمبادئها لا بأعمال الإرهاب. وقد تمكنوا في الفترة الأخيرة من استقطاب اثني عشر رجلاً من نخبة ضباط الطيران الإسرائيليين الذين يعتبرون في إسرائيل صفوة العسكرية والمجتمع، وإقناعهم بالاستقالة وتكريس حياتهم لدراسة التوراة. وقد سارعت حاريديم عقب ذلك بطبع الملصقات التي تحمل صور هؤلاء الضباط وتوزيعها على شوارع العاصمة والمدن الإسرائيلية الأخرى، للتدليل على مدى نجاح الدعوة، ولمحاولة إقناع الإرهابيين من أعضائها بفضل وسائلهم السلمية على وسائل العنف التي يلجأ إليها هؤلاء، من تفجير القنابل، وتحطيم الحوانيت وأكشاك بيع الجرائد، وإرهاب المخالفين لهم في الرأي، وهي ظاهرة أشارت الصحافة العالمية في الفترة الأخيرة إلى تفاقمها، خاصة في «بنى براك» إحدى ضواحي تل أبيب التي أصبحت معقلاً من المعاقل الأساسية لهؤلاء الإرهابيين.

. . . قد مضى قولُنا في اجتماع الخميس الماضي في بيان أوجه الضعف في النظام الراهن في مصر. وهو ماأوجزه الآن في ثلاث نقاط، كلها مما يمكن لشركائنا وللجماعات الإسلامية التي نموّلها أن تستغلّه لصالحها، وأن تُفيد منه:

أولاً: إدراك فريق قويّ داخل السلطة أن قوة الحركة الإسلامية المتطرفة في مصر راجعة في المقام الأول إلى مظالم اجتماعية واقتصادية لا يتسنى حلّها وتداركها إلاّ على مدى سنوات طوال، وأنه من الظلم بالتالي أن تلجأ السلطة إلى العنف في مواجهة المتطرفين الإرهابيين، إلا في حالات الضرورة القصوى، بل ولا بأس من بعض التنازلات لهم، حتى لا يجتمع على هؤلاء «البؤساء» هَمُّ الضائقة الاقتصادية والاجتماعية، وهَمُّ اضطهاد الحكومة لهم.. وقد هيّأ لنا ذلك فرصة أن نستغلّ استمرار الضائقة، ويد المصالحة التي تمدّها السلطة للإسلاميين، وإذعانها المتكرر لمطالبهم، في المطالبة بالمزيد من التنازلات، والتوسّع في تجنيد الشباب في صفوف الجماعات التابعة لنا، وخلق الاعتقاد لدى الصحافيين والكُتّاب والقضاة وكبار رجال الدولة والمسؤولين بأن وصول الإسلاميين إلى السلطة عن قريب أمر مفروغ منه، وبالتالي فإن من مصلحتهم أن يركبوا الموجة من الآن، وأن يحجزوا لأنفسهم المقاعد في ظل النظام الجديد، وهو ما سيزيد قطعاً من خلخلة دعائم النظام القائم؛

ثانياً: ذلك العجز المضحك من جانب الحزب الوطني عن أن يطرح في

الساحة الأيديولوجية فكراً متكاملاً قادراً على منافسة أيديولوجيا الأقلام التي جنّدناها، وعن إلهاب مخيّلة الجماهير واجتذاب قطاعات واسعة منها. فالواضح للجميع أن برنامج ذلك الحزب خالٍ من أيّ فكر متبلور، أو طابع مميّز، أو حلول عملية للمشكلات المتفاقمة بمجتمعنا، وهو ماعزوته في حديثي إلى طبيعة الظروف التي نشأ فيها الحزب أثناء حكم السادات. وقد ذكرت أن نقطة البداية في نشأة أي حزب سياسي هي أن يتّجه أفرادٌ يجمعهم فكر واحد إلى إقامة تنظيم له برنامج يعكس هذا الفكر. وهو بالضبط ما لم يحدث في حالة تأسيس الحزب الوطني الذي جاء بناءً على تعليمات من أنور السادات، واختير أعضاؤه بصورة عفوية وتحكمية (بل انتُقي بعضُهم من أحزاب المعارضة ذاتها!)، ثم أقبل على الانضمام إليه عدد هائل من الانتهازيين الذين ما كانوا لينضموا إليه أصلاً لولا أنه في السلطة. (وقد أعددتُ في هذا الموضوع ورقة مفصّلة ستوزّع على حضراتكم في نهاية هذا الاجتماع)؛

ثالثاً: عزوف مستمر من جانب الأحزاب القائمة عن توحيد صفوفها من أجل التصدّي لمدّ الإسلاميين المتطرفين، واعتقاد اليسار واليمين معاً أن استمرار الإرهاب من شأنه أن يهدم هيبة النظام وسلطانه، وأنهم المستفيدون من ضياع هذه الهيبة وزوال هذا السلطان. وبالتالي فقد شُغلت الأحزاب جميعاً، حاكمة ومعارضة، بالتناحر فيما بينها عن الخطر الذي سيبتلعهم جميعاً في المستقبل القريب جداً بإذن الله... فإن تركنا جانباً حزب العمل الذي وقع طواعية في الشَّرَك الذي نصبناه له عام ١٩٨٧ بفضل جهود عادل حسين، وجدنا حزب الوفد يعمل من منطلق جدّ غريب، لا هو بالكافي ولا بالمقنع ولا بالفعّال، ألا وهو الحنين إلى سنوات ما قبل الثورة، سنوات عزّه ومجده، ويتردّد زمناً بين التمسك بعلمانيته التقليدية التي جلبت له في الماضي تأييد غالبية الناخبين الأقباط، وبين التزلّف للتيار الديني ومراضاته، ثم يستقرّ رأيه على أن مثل هذا التزلّف من شأنه أن يفيده في المعارك الانتخابية أكثر مما يفيده التمسك بالعلمانية.. أما حزب التجمع فإن هويّته الأصلية تضيع شيئاً فشيئاً

بمرور الأيام، منذ أن أدار ظهره لوصية لينين الشهيرة للحزب الشيوعي السوفييتي بالحرص فوق كل اعتبار آخر على النقاء الأيديولوجي للحزب، والتضحية في سبيله بكثرة أعضائه، رائياً أن مائة صابرة صادقة أكثر فعالية من ألف من ذوي الاتجاهات المائعة والمواقف الانتهازية.. وقد أدرك الشعب في يُسر ما طرأ على موقف التجمع من ضعف اضطرّه إلى التسوّل والاستجداء، حين سعى إلى التقرب من بعض جماعاتنا الإسلامية التي رآها أقل تطرفاً ورجعية من أجل زعزعة الحكم، في حين أدرك الشيوعيون القدامى أن النقاء الفكري للحزب قد ضاع، وأن موقفه الأيديولوجي قد ماع، فتركوا صفوفه عن احتقار لصورته الجديدة، ولم تُفد هذه التنازلات حتى في اجتذاب العمال والفلاحين....

كان هذا هو محور حديثنا في الأسبوع الفائت. ونحن قائلون اليوم إن شاء الله في مهام الدُّعاة الإسلاميين ووسائلهم في نشر الدعوة إلى نظامنا وفي تجنيد الشباب.

مشاعر الإحباط هي عماد دعوتنا:

وأبدأ فأقول، إن كافة الحركات الجماهيرية الثورية، دينية كانت أو اجتماعية أو قومية، تشترك في عدة خصائص جوهرية، كالاستعداد للتضحية بالنفس، والميل إلى العمل الجماعي، والحماس والتعصّب الأعمى، والكراهية وضيق الصدر بالآراء المخالفة، والأمل العظيم فيما سيأتي به الغد. وجميعها من المشاعر التي بوسعها أن تطلق من عقاله فيضاً هائلاً من النشاط، وتتطلّب من أصحابها إيماناً أعمى وولاءً مطلقاً.

وجميع هذه الحركات الجماهيرية تستهوي نفس الصنف من الناس، ومن العقليات. إذ مهما اختلفت الأهداف والمبادىء التي يُبدي أفرادُها استعداداً للموت في سبيلها، فإنها - في الأساس والجوهر - تحمل نفس

الطابع، وتربط بينها وجوه شبه عظيمة، لا تكاد العين المجرّدة معها أن تفرّق بين حركة وأخرى.

أهمُّ وجوه الشّبه هذه هو أن المقبلين على الانضمام إلى أيّ من هذه الحركات هم في الغالب من الشبان المُحبطين المقهورين الفاشلين، الذين يرون حياتهم قد فسدت وتبدّد معناها، والذين يُقبلون عادةً على الانضمام إلى حركات كحركتنا من تلقاء أنفسهم دون ما حاجة إلى جهد كبير من جانبنا لتجنيدهم، ودون حاجة مسبقة إلى اقتناع عقلي كامل بالمبدأ الذي تمثّله الحركة. فالإحساس بالقهر والإحباط كفيل وحده بأن ينبثق عنه معظم الخصائص التي حدّثتكم لتوّي عنها. لذلك فإن أنجح وسائل الإقناع التي يمكنكم انتهاجُها في تجنيد الأتباع والأنصار هي استغلال إحساس الأفراد بالإحباط، والتركيز عليه، وترسيخه وإلهابه والحيلولة دون تبدّده أو تضاؤله إلى حين استيلائنا على السلطة بإذن الله، باعتباره خير ما يخدم مصالحنا، ويحقّق مطامحنا، ويضمن نجاح دعوتنا وحركتنا.

والفرد عادة ـ كما لا شك قد لاحظتم أثناء اضطلاعكم بمهام الدعوة لحركتنا ـ يميل إلى إلقاء المسؤولية عن فشله على الظروف المحيطة به، والأنظمة السياسية والاقتصادية والاجتماعية القائمة، حتى لا يفقد احترامه لذاته. ولذا فإن غالباً ما نرى أولئك الذين نجحوا في حياتهم، وحقّقوا معظم ما كانوا يصبون إليه من آمال، راضين عن العالم حولهم، حريصين على أن تبقى الظروف المحيطة بهم والأنظمة التي يعيشون في ظلّها على ما هي عليه، في حين نرى المخفقين المحبطين شديدي التطلّع إلى حدوث تغييرات جذرية في تلك الظروف والأنظمة. فالفاشلون إذن يصرّون دائماً على البحث خارج أنفسهم عن أسباب فشلهم وخيبتهم، حتى إن حاول البعض أنّ يشير لهم إلى أهمية بعض الاعتبارات الشخصية كالمواهب والمقدرات الذاتية والشخصية والصحة والمظهر الخارجي إلى آخره. أو كما يقول حكيم من حكماء الغرب: «ما يصيب الإنسان من آفة تعوقُه عن أداء مهامه، حتى إن كانت هذه الآفة مجرد

ألم في أمعائه، حتى يثور وينبري لإصلاح الكون!».

وهـذا الميل لـدى الفاشلين إلى إلقـاء تبعة الفشـل على النـظام القـائم والـظروف المحيطة، هـو ما ينبغي عليكم في المقـام الأول أن تغـذّوه وتقـوّوه وتدعموه بكافة الوسائل.

مفاتيح الغد المشرِق:

بيد أن السخط في حدّ ذاته لا يثير دائماً الرغبة في التغيير. إذ لا بدّ من أن تتوفر معه عوامل أخرى قبل أن يتحوّل إلى تمرّد أو ثورة:

فأولئك الـذين طحنتهم الظروف المحيـطة طحناً، والفقـراء المعدمـون الذين أذلّ الفقرُ أعناقَهم، لا يتطلّعـون إلى تغيير مهمـا بلغ بهم سوء الحـال، ولا يرحبّون بثورة أو بتحوّل جذري، لدرجة أننا قد نجد بينهم من المحـافظين مثلما نجد بين الأثرياء المحظوظين. والنظام الاجتماعي يدين باستقراره لأولئك قـدر دينه لهؤلاء. وإذ أن شـرط إقدام الفـرد على محاولـة تغيير الأوضـاع هـو ألا يرتبط السخط الشديد عنده بالإملاق الشديد، فـإني أنصحكم بألا تضيعـوا الوقت والجهد في الدعوة إلى حركتنا في أوساط الفقراء المعدمين.

إن الفـارق بين المحـافظ والثـوري ينبـع أسـاسـاً من مـوقفهمـا حيـال المستقبل. فخوفنا من المستقبل يجعلنا نتشبّث بمعالم الحاضر، في حين تدفعنا الثقة في المستقبل إلى الـرغبة في التغييـر. . . والراضـون عن الحاضـر ممن حققوا إنجازات كبيرة، أو يعيشون حياة خصبة سعيدة، يميلون إلى التجهّم في وجه كل تغيير جذري، ويرون في كل تغيير تدهوراً، ولا يريدون إلا أن تستمر الأحوال على ما هي عليه. . هؤلاء إذن يخرجون عن نطاق محاولاتنا من أجل التجنيد والاستقطاب. أمـا من ينبغي أن نسعى إلى تجنيدهم فـالشباب الـذي يحدوه الأمل في تغير هائل وجذري ومفاجىء في أحوال معيشته، المؤمن بأنه بالوسع أن تتغير الأمور بلمسة واحدة من عصا سحرية، أو بتمتمة عبارة «إفتـح يا سمسم». مثل هذا الأمل هو الكفيل بإثارة الحماس اللازم لإحداث الثورة.

وإنما فشل بطرس الأكبر في روسيا رغم ثورية مطامحه وبرامجه، إما لأنه لم ير ضرورة لإثارة حماس الجماهير لخططه أو لأنه عجز عن أن يجعل من هذه الخطط قضية مقدسة، في حين أنه من المهم للغاية في أية حركة ـ حتى إن كانت حركة إلحادية ـ أن تُضفي على نفسها طابعاً دينياً، وأن تدفع الجماهير إلى النظر إلى أغراضها العملية باعتبارها قضايا مقدسة. . هذا هو ما صنعه الفاشيون والشيوعيون بالأمس، وهذا هو ما نصنعه نحن اليوم.

إنه لمن المحتّم علينا، نحن قادة الحركة، من أجل ضمان النجاح في الوصول إلى السلطة، أن نخلق الاعتقاد لدى هؤلاء الشباب بأن في حوزتنا مفاتيح الغد المشرق، وأن نبعث في قلوبهم الآمال العريضة، والثقة في قدرتنا على تحقيقها، وفيما يخبّئه هذا الغد لهم من كنوز؛ سواء تمثّلت هذه الكنوز في جنّات الآخرة وملكوت السماوات، أو في بناء المدينة الفاضلة، أرض اللّبن والعسل، أو في الهيمنة الدولية وفتوحٍ للبلدان على نهج فتوحات عهدَيْ أبي بكر وعمر.

ولا يسعني هنا إلا أن أهنئكم على نجاحكم في خلق هذا الاعتقاد لدى قطاعات عريضة من الجماهير. وهو نجاح لا يُدانيه في الأهمية غير نجاحنا فيما فشل فيه بطرس الأكبر من قبل، وأعني إضفاء الطابع الديني على حركتنا، وخلع سمة القدسية على أغراضنا، بحيث بات أنصارنا يرون في خدمة أهدافنا خدمة لله وشريعته، وموتهم في سبيلها استشهاداً، وإطاعتنا من إطاعة الله والرسول، والعمل على تنفيذ مخططاتنا عبادة، والتخلّص من أعدائنا بالاغتيال والإرهاب قُربة إلى الله وزُلفى.

وقد وصلتُ وأصحابي إلى اقتناع بضرورة هذا الأمر حين لمسنا من خلال قراءاتنا في التاريخ الإسلامي أن من أبرز سمات هذا التاريخ أن الحركات الثورية التي أثارتها في دار الإسلام اعتباراتٌ اجتماعية أو مظالم إقتصادية وسياسية، إنما ارتبط كل منها منذ بدايته ارتباطاً وثيقاً بفكر ديني، وما كان

ليدور بخلد أتباعها أن احتجاجهم على السلطة نابع عن غير العقيدة الدينية، ولا أن لهم من الأهداف غير تخليص الأمة من حكم لا يرضاه الله، والعودة بها إلى الشريعة وطريق الدين القويم.

فتعبير المسلمين إذن، وطوال تاريخهم، عن مناهضتهم أو مناصرتهم لهذا النظام القائم أو ذاك، كان دائماً تعبيراً دينياً بصورة أساسية. ولنا في طائفة الخوارج دَوْماً أُسْوة حسنة. فهم قوم ولوعون بالحرية البدوية المطلقة، ولوعون بشن الغارات على القوافل والقبائل من أجل الغنيمة شديد، والبغض لحياة المدن وتنظيمها الدقيق الذي لم يألفوه. غير أنهم وجدوا حاجة إلى إيجاد أساس ديني لرغباتهم، وإلى أن يوهموا أنفسهم أنهم في سعيهم إلى إشباعها إنما يحرصون على الإلتزام بأحكام الدين. فكان أن خرجوا على السلطة شديدة الوطأة واتّهموها بالكفر، وكان أن هجروا المدن البغيضة إلى قلوبهم وأسموها دار حرب، وكان أن استأنفوا الغارات الجاهلية بغرض السلب والغنيمة وخالوا أنها جهاد، وكان أن ربطت أوثق الوشائج بين أفراد جماعتهم الصغيرة وقالوا إنهم أهل الجنة!

لستُ مبالغاً إذن حين أقول إن اتخاذنا الدين قناعاً لمطامحنا، وغلافاً لمصالحنا، هو من جميع الوجوه أعظم إنجاز لشركاتنا. ذلك أن ربط أهدافنا بالإسلام جعل من العسير للغاية على الحكومة أن تفرض طاعتها وطاعة قوانينها على أعضاء الجماعات التابعة لنا. فمن خال أنه إنما يطيع الله بأعماله من المؤكد أنه لن يطيع غيره. ومن ظن أنه يتلقّى الوحي مباشرة من السماء ليس في حاجة إلى أن يُنصت لحديث مَن في الأرض. فأيّ نجاح إذن يمكن أن يعدل نجاحنا في إيهام الشباب بأن غايات شركاتنا غايات إلٰهية، وصالح جيوبنا ممّا تقضي به الشريعة الإسلامية، وتطلّعنا إلى الحكم هو إرادة الله من فوق سبع سماوات. وإنما فشل العلمانيون وغيرهم في استثارة حماس الجماهير، لإحجامهم عن الحديث باسم الله. وكثيراً ما كنت في شبابي أقول لمعارفي من الماركسيين إنهم لو كانوا ملمّين بطبيعة تكوين شعبنا، وبتاريخه واحتياجاته

النفسية، لأقبلوا عن طيب خاطر على تغليف مبادئهم الماكرسية بالدين، وربط شعاراتهم بالإسلام، ونسبة أحاديثٍ إلى النبيّ مثل: «من تملّك وسائل الإنتاج عامداً متعمداً جيء به يوم القيامة وفي عنقه حبل من مسد»، أو «من قال بأن قيمة السلعة يحدّدها اعتبار غير جهد العامل في إنتاجها، فليتبوّأ مقعده في النار» ـ أو كما قال.

إنه لشرطٌ أساسيّ لإقدام أناس على محاولة تغيير الأوضاع، وقلب نظام الحكم، أن يتوفر لديهم اليقين بأن في جعبتهم عقيدة لا يتطرّق إليها الشك، وعلى رأسهم زعامة لا تخطىء، وفي صفوف جماعتهم قوة لا تُرَدّ، وفي انتظارهم مستقبل مشرق جمّ الوعود. كذلك فإنه شرط أساسي لإقدامهم وحماسهم أن يتمتّعوا بجهل مطبق بالعقبات العملية التي تعترض تنفيذ مخططاتهم، وتحقيق آمالهم، وتنفيذ الإصلاحات المنشودة. فالخبرة الواسعة والتجارب العريضة عادة ما تعرقل مسيرة الحركة الثورية، وتثبّط من العزم، وتضعف من الأمل. وهذا هو بالضبط سرّ عزوف الشعب الإنجليزي، بخبراته السياسية عريقة القدم، عن مباركة الحركات الجماهيرية وتأييد الثورات، وسرّ كراهيتهم للتعصب. فهم يعلمون أن عقلية المتعصّب كحدقة العين، تزداد تقلّصاً بازدياد قوة الضوء. ويعلمون أنه إن كان المحافظ سياسيٌّ مغرم بالشرور القائمة، فإن الثوريّ إنسانٌ يسعى إلى أن يحلّ محلّ هذه الشرور شروراً من صنف آخر! غير أننا نقول لهم إنه ما دام العاقل هو من كيّف نفسه وفق أحوال الدنيا، والأحمق هو من يسعى إلى تغيير أحوال الدنيا وفق أحلامه، فإن كلّ تقدّم أو تغيير يحدث في أحوال الدنيا هو من صنع الحمقى!

التخلّص من الذّات بميلاد جديد:

ثم يهمّني أن أغرس في أذهان حضراتكم فكرة بالغة الأهمية؛ وهي أنه لا يُقبل على الانضمام إلى حركة كحركتنا إنسانٌ يحبّ ذاته ويحترمها ويسعى إلى إنمائها ورعاية مصالحها. وإنما يُقدِم على الانضمام إليها كلّ من ينشد

التخلّص من ذاته التي يكرهها ولا يريدها. . . فحركةٌ كحركتنا لا تجتذب الأتباع بسبب قدرتها على إشباع حاجتهم إلى تحقيق الذات ودفعها إلى الأمام، وإنما بسبب قُدرتها على إشباع رغبتهم العارمة في اطّراح الذات والتخلّص منها. . فهنا شوق إلى ذات أخرى، وحياة مخالفة، وميلاد جديد. . . إلى اعتزاز بالنفس يقتلع كراهتها، وثقة تعوّض عن الاضطراب والحيرة، وأمل يحلّ مكان اليأس، وإحساس بالهدف يبدّد الإحساس بالضياع، وإيمان الفرد بأهميته وقيمته وجدواه متى اقترن بغيره في تبنّي قضية مقدسة. . وحركتنا تتيح لهم فرصة تحقيق كل ذلك؛ هي بديل عن الذات البغيضة، تُوحي إلى من انضم إليها أنه قد وُلد من جديد ليبدأ حياة جديدة، مع مجموعة كبيرة من أمثاله ممن تعزّز كثرتُهم من ثقة الفرد منهم بنفسه وباختياره.

فلتحرصوا إذن أثناء دعوتكم وتصيّدكم للأنصار على مراعاة هذا الاعتبار. وقد سبق للمفكر الفرنسي باسكال أن عرض لهذه الفكرة حي قال:

«يودّ الإنسان لو أنه عظيم، بيد أنه ينظر فإذا هو ضئيل. ويودّ لو أنه سعيد، بيد أنه ينظر فإذا هو شقيّ. ويودّ لو أنه كامل، بيد أنه ينظر فإذا هو مُفعمٌ بالنقائص. ويودّ لو أنه موضع حبّ الناس وتقديرهم، بيد أنه ينظر فإذا عيوبه ليست أهلاً إلا لبغضهم واحتقارهم. فإذا الحيرة والارتباك وقد تملّكاه يثيران فيه أشدّ المشاعر إجراماً وأبعدها عن العدل والحق. ذلك أنه قد أضحى وقد غلبت عليه الكراهية القاتلة تجاه الحقيقة التي تُدينه وتُريه عيوبه ونقائصه في جلاء».

عن الانتهازيين والأتقياء المخلصين:

صحيح أن كل حركة جماهيرية تجتذب بالضرورة عدداً لا يُستهان به من الانتهازيين ـ خاصة من بين الكُتّاب والصحافيين ومحترفي السياسة ـ ممن ينضم إليها على أمل أن تصل يوماً إلى الحكم فيفيد منها على قدر مناصرته إيّاها وهي في المعارضة. . هذا أمرٌ حتميّ، بل ومرغوب فيه إلى حدّ ما. بل أقولها صراحة إنه من المفيد للحركة أن تلوّح من بعيد لضعيفي النفوس والخلق بالنفع

الشخصي الذي سيعود عليهم، والثمار التي سيجنونها متى نجحت الحركة. غير أني أسارع فأقول أيضاً إن قوة الحركة إنما تعتمد أساساً وفي المقام الأول على المخلصين الأتقياء لا على الإنتهازيين، وعلى مَن هم على استعداد للتضحية بالنفس في سبيل القضية لا على مَن مِن المؤكد أنه سيهجر القضية فور أن يتبيّن عقباتٍ ضخاماً تعترض سبيلَ نجاحها، أو يلمس أن مصالحه الشخصية قد باتت مهدّدة.

فالإيمان إذن هو المطلب الأول.. وإيمان الفرد بقضية مقدسة ـ كما ذكرتُ لتوِّي ـ هوَ إلى حدّ بعيد بديلٌ عن إيمانه المفقود بذاته.. ومن المؤكد أنكم لاحظتم أنه كلما تضاءلت مبررات ثقة المرء بنفسه ومناقبه، عظُم استعداده لأن يُضفي المناقب والفضل على أمته، وعلى دينه، وعلى جنسه، وعلى قضيته.

كذلك لا بدّ قد لاحظتم أنه كلّما فقد الإنسان إيمانه بجدوى شؤونه الخاصة، تحوّل إلى الاهتمام بشؤون الآخرين، وإلى الاعتقاد بأن من واجبه المقدس أن يتدخّل في أمورهم الشخصية، في لهوهم وجدّهم، في مآكلهم ومشربهم، في طول لحاهم أو طول جلابيبهم. وهو في أقدامه على إفساد حفل بإحدى الجامعات، تكسير آلات موسيقية، أو الحيلولة دون عرض مسرحي، أو الاعتداء على متاجر يمتلكها أقباط، يخال أنه إنما يخدم الصالح العام، وهو لا يخدم إلاّ ذاته. ويخال أنه إنما يمدّ يد المساعدة إلى غريق، وما الغريق إلا هو. ويخال أنه بعلمه إنما يثبت تواضعه وإنكاره لذاته واستعداده للتضحية بها، والحقيقة أن زهوه بذاته الجديدة لا يدانيه زهوُ الطاووس، وأنه لو نفد البحر لما نفد كبرياؤه وخيلاؤه. قد حسبوا أن الله لا يرحمهم حتى يعذّبوا أنفسهم ويأخذوها بالقسوة. وأظهروا التواضع في سلوكهم وحديثهم وأكنّوا الكبر في قلوبهم، وإنّ أحدَهم لأشدّ عُجْباً بكسائه المرقّع من صاحب الحُلّة الثمينة بحُلّته!

طبيعة التطرّف:

ثم أمضي فأحدّثكم في طبيعة التطرف.. قد قلتُ إن فشل المرء في تحقيق آماله ومطامحه، ووصوله بسبب الإحباط إلى اقتناع بأن حياته قد غدت خالية من المعنى، يخلقان لديه حاجة ماسة إلى الانتقال إلى خدمة قضية خارج ذاته. وما كلّ أشكال الحماس الزائد والتطرف وإنكار الذات والولاء المطلق إلا من قبيل تعلّق المحبط بشيءٍ يضفي المعنى على حياته، ويجدّد لديه الثقة والأمل. وإذ أن هذه الحاجة هي الأولى من بين احتياجات الإنسان، وأن إثبات الذات قد يفوق في ضرورته ضرورة الطعام والماء، فإن التعلّق بهذا البديل لا بدّ أن يتخذ سمة التفاني والتعصّب والتطرّف، وأن يصبح الأمر مسألة حياة أو موت. وهذا الاستعداد لدى الفرد للموت في سبيل القضية التي جدّدت لحياته معناها، هو نفسه أقوى دليل في نظره على أن هذه القضية هي أعظم القضايا قدسية وأنصعها حجّة.

قد يتساءل أحدكم: ولكن، أية قضية؟ وإجابتي هي: أية قضية.. المطرقة والسندان، الصليب، الهلال، الصليب المعقوف، راية مصر الخضراء بهلالها ونجومها الثلاثة... كلها قضايا لها سمة الدين، وطقوس الدين، ولها عقيدتها وقدّيسوها وشهداؤها ومحرابها ونبيّها الملهم أو الموحَى إليه. وكلّها مما يمكنه أن يشبع حاجة الشباب القلق الضائع إلى شيء يؤمن به. وحيث أن كل هذه القضايا وغيرها تجتذب إليها نفس النوع من الشباب، فجميعها متنافسة فيما بينها في مجال تصيّد الأنصار، في مكاسب هذه خسارةٌ لتلك، كما يصبح من المنطقي ومن الممكن بالتالي أن ينتقل هذا الشاب، وبكل يسر، من الولاء لقضية إلى الولاء لأخرى، وأن يتحمس للثانية تحمسه للأولى، ويضحّى على استعدادٍ للموت هنا كما كان على استعداد للموت هناك. وقد رأينا في التاريخ كيف تحوّل شاول بطبيعته الناريّة من اضطهاد المسيحيين ليصبح القديس بولس أحد أعمدة المسيحية، وكيف تحوّل عمر بن الخطاب بطبيعته الناريّة من اضطهاد المسلمين ليصبح أحد أعمدة الإسلام. قال هتلر في «كفاحي»: «إنه

لمن المستحيل أن يصبح البورجوازي الصغير نازيًا، غير أنه من أسهل الأمور أن يتحوّل الشيوعي المتحمس إلى النازية». كذلك فقد كان كارل راديك الزعيم البلشفي يرى في الشباب النازيّ جنود المستقبل في صفوف الشيوعية!

ونحن نحمد الله على أن الحزب الوطني في مصر ليس ذا قضية يمكن للشباب المصري أن يتبنّاها ليموت في سبيلها! كما نحمد الله على أن قضايا الأحزاب الأخرى قد ضلّت وماعت، ولم يعد في الساحة غير حركتنا الإسلامية مما بوسعه أن يجتذب المُحْبَطِين، وأن يبعث الأمل في غدٍ مشرقٍ في قلوب الفاشلين واليائسين.

في ألمانيا، رأى كبار الرأسماليين من رجال الصناعة في رعاية نموّ النازية أنجع وسيلة لضرب الدّيموقراطيين الإشتراكيين. وفي إيطاليا رأى ساستها في دعم التعصّب الكاثوليكي أفضل سبيل لصدّ الزحف الشيوعي.. غير أننا في مصر، ولله الحمد، لا نرى ساسة ولا مفكرين ولا غيرهم يخطّطون لطرح فكر بديل عن فكرنا في الساحة الأيديولوجية، يمكنه أن يلهب مخيلة الشباب، ويصدّ الأنصار عن الانخراط في صفوفنا.

الهجرة والجريمة:

وأودّ الآن أن أذكر ملاحظة طريفة: إن الهجرة إلى خارج الوطن تهيّىء للفاشلين المحبطين نفس الآمال التي يُهيّئها انضمامهم إلى جماعاتنا الدينية؛ الأمل في التغيير، والأمل في بدء حياة جديدة في أرض الميعاد. ولذا فإن كلًا من المهاجرين وأفراد جماعاتنا هم، في الجوهر، نفس الصنف من الناس. وليس من الغريب أن يتّخذ التطرف الديني هو أيضاً شكل الهجرة حتى مع بقاء أصحابه داخل حدود الوطن.. هي هجرة «داخلية» إذن.. والمهاجر عن مصر يُتبع تحقيرَه لمجتمعه بالرحيل عنه، في حين يُتبع المتطرف تكفيره لمجتمعه بالهجرة الداخلية. فهنا «تحقير وهجرة»، وهناك «تكفير وهجرة». وليس من

المصادفة على الإطلاق أن يشهد مجتمعنا في توقيت واحد اتساع نطاق الهجرة واتساع نطاق الانضمام إلى الحركات الدينية.

والأطرف من ذلك ما يتصل بالجريمة. ففي نفس الفترة التي زادت فيها جرائم القتل والسرقة والنصب وانتهاك العرض وغيرها في مصر زيادة كبيرة مفاجئة، زاد لجوء أفراد الجماعات الدينية إلى أعمال العنف والإرهاب والاغتيال وإحراق الكنائس. هذه باسم الشيطان، وتلك باسم الرحمٰن. وهنا أيضاً نجد الاقتران الزمني ليس من قبيل المصادفة. فالأوضاع الاجتماعية السائدة قد أسهمت في زيادة عدد العناصر الإجرامية. والكثيرون من هؤلاء المجرمين، بانضمامهم إلى الجماعات الدينية، قد أخفوا عن أنفسهم تلك النزعات الإجرامية الكامنة فيهم بإلباسها ثوب الدين والتقوى ومخافة الله وطاعته، فأمكن لهم بذلك الاحتفاظ بالنزعة الإجرامية وبسكينة الروح في آنٍ واحد. وهو دافع بوسعنا أن نستغلّه أعظم استغلال في التخلص من بعض أعدائنا، وإرهاب البعض الآخر، وذلك باستدراجنا للمجرم الذي هو على استعداد لقتل امرأة عجوز من أجل حُليّها، لتنفيذ اغتيال الشيخ الذهبي أو محاولة اغتيال حسن أبو باشا ومكرم محمد أحمد، و«للفتوّة» ذي النزوع العارم إلى إثارة الشجارات أو الدخول فيها، وتحطيم المتاجر وتكسير الفوانيس بالشوارع، لتنفيذ تفريق الفرق التمثيلية، وتحطيم الآلات الموسيقية، وإشعال النار في نوادي الفيديو.

أعواننا:

المجرمون إذن، والفاشلون المحبطون، والعاطلون والمراهقون، وكل من ألْفَى صعوبةً في التكيّف أو النجاح في مجتمعه، هم أعواننا الحاليون والقادمون. قد جمعت بينهم الكراهيةُ لهذا المجتمع، فصاروا على أتم الاستعداد لهدمه وإشاعة الفوضى فيه، والتكاتف فيما بينهم لتخريبه، ظانين أن يد الله فوق أيديهم، وما فوق أيديهم إلا أيدينا. وبذا يضحى الحجر المرفوض

ركن الزاوية، لمجرد إيحائنا إليهم أن كافة آمالهم المحبطة ستتحقّق فور وصولنا إلى الحكم.

لا تضيّعوا إذن وقتكم في محاولة استمالة العامل المثابر، أو الفلاّح القانع، أو الموظف الجاد، أو أيّ امرىءٍ أعفاه جدّه ومثابرته ـ مهما بلغ به الفقر ـ من الإحساس بالضياع. ولتركّزوا بالأخص على أفراد الطبقة البورجوازية التي باتت اليوم في رُعْبٍ من أن تتحوّل إلى بروليتاريا بسبب الأحوال الاقتصادية الراهنة.

وثمة صنف آخر من الناس ـ من جميع الطبقات ـ لا بدّ من أن تولوهم اهتمامكم، وأعني أولئك الذين يخشون نعمة حرية الاختيار، بل ويمقتونها. وهم بحمد الله أكثر مما تَظنّون. فالحرية عبء على من لا موهبة لديه في أن يصنع من نفسه شيئاً، ومن شأنها أن تُلقي بتبعة الفشل على عاتق الفاشل لا على الظروف المحيطة به. وقد وصلتُ إلى إيمان بأن غالبية الناس إنما تنضم إلى جماعاتنا الدينية ليتحرروا من حرّيتهم، وفراراً من المسؤولية الشخصية.. هم يخشون الحرية أكثر مما يخشون اضطهاد السلطة وسُجونها، وأخوف ما يخافونه هو تلك المنافسة الحرة المعروفة في كل مجتمع حرّ، والتي من شأنها أن تفضح عجزهم وافتقارهم إلى القدرات. وبالتالي يصبح جماعُ همّهم أن يتحوّلوا إلى تروس بلا هويّة في جماعة تسودها المساواة، أو إلى خيوط بين خيوط جمّة في ثوب أو قماش، لا يمكن التمييز بين هذا الخيط فيه وغيره.

كذلك ينبغي التركيز على أولئك الطلبة والعمال الوافدين من الريف إلى المدن الكبيرة للدراسة أو العمل، مخلّفين وراءهم دفء الحياة العائلية الآمنة التي هي ألدّ أعداء حركة كحركتنا. وقد علّمنا التاريخ أن جلّ الحركات الثورية كان يقف من العائلة موقف الخصومة والعداء، وأن رجالها كانوا دائماً يعملون جاهدين من أجل الوقيعة بين المرء وأخيه، وأمه وأبيه، وزوجه وبنيه، حتى

يضحي في النهاية بمفرده، وحيداً في محيط لا يأمن له أو فيه، فيسهل بذلك على الدعاة اصطياده. وما من شك في أنه من أقوى الاعتبارات التي ساهمت في نجاحنا ما شاهده المجتمع في عهد ثورة يوليو من انهيار الولاءات القديمة، وحظر قيام الأحزاب، وتحلّل الروابط الأسرية والاجتماعية التقليدية، وكثرة النازحين من الريف إلى المدن ممن اضطربت نفوسهم، وضاع إحساسهم بالأمن نتيجة لهذا النزوح. وهو نفس الحال مع الجنود المسرَّحين من الجيش.

أهمية تحقير الحاضر وتمجيد الماضي والمستقبل:

أشدّ ما تخشاه السلطة من حركتنا ويُقلق بالها، ذلك الاستعداد الرائع لدى أفراد الحركة للتضحية بالنفس، بل وللموت في سبيل القضية، وذلك التنظيم الوثيق الذي يربط بينهم، والذي لولاه لما نما الاستعداد للتضحية بالنفس. فتدريب الأفراد على العمل الجماعي تدريبٌ على إنكار الذات، والتنكّر لحياته الخاصة، ولحقه في التفكير الحر واستقلال الرأي، وتدريب على احتقار الموت. واحتقار الموت له شرطان: احتقار الحاضر، وتوهّم المرء بأنه جزء من حركة تاريخية بالغة الأهمية، أو من تمثيلية رائعة الفخامة، وحلقة صلة بين ماضٍ مجيد، ومستقبل مجيد، في حاضرٍ تافه بغيض. وكل هذا يتطلّب عدة أمور: محو شخصية العضو وإحساسه بالتفرّد والتميّز، وضمان ألا يستشعر الفرح والأسى، أو الفخر والثقة، إلا من خلال جماعته وقدراتها ومقدَّراتها، وأن يشعر دوماً بأن أعين رؤسائه ورفاقه تراقبه.

تحقير الحاضر ووصمه بالبؤس، وتسفيه المجتمع ورميه بالكفر، لا زمان لاستثارة شجاعة أنصارنا وتوهّمهم أنهم لا يخسرون كثيراً بفقد حياتهم. غير أننا لن نكتفي بالقول وتكراره في هذا المجال. وإنما ينبغي على القادة أيضاً أن يضمنوا أن تكون حياة أتباعهم خشنةً غليظةً، قاتمةً مملّة، لا لهوَ فيها ولا متعة ولا راحة. علينا أن نصوّر لهم التسلية على أنها تافهة لا تليق بجلال قدرهم، والسعي وراء السعادة الشخصية على أنه من وساوس الشيطان، وأن نخترع

الأحاديث في تحريم الموسيقى والغناء والرقص والعروض المسرحية وكلّ ما من شأنه أن يروّح عن النفس، ويخفّف من عبء الحياة. ولتسهيل كل هذا فلنوجّه أنظارهم دوماً للتطلّع إلى روعة المستقبل الذي ينتظرهم، وأمجاد الماضي التي سيُحيونها. وبوسعي أن أؤكد لكم أنه من السهل جداً إقناع هؤلاء بأن في مقدورهم أن يقوموا بما قام به أبو بكر وعمر بن الخطاب، ويحققوا ما حققه صلاح الدين أو خالد بن الوليد. ذلك أنه ما من صعوبة في أن نخدع مَن أقدم سلفاً على خداع نفسه، بل ويطالبنا يومياً بأن نخدعه ونستمر في خداعه، حتى يطمئن ويستريح، وحتى يُلقي مسؤولية الفشل حين يفشل على قوة الجاهلين وبطش أعوان الشياطين، ويُرجعه إلى هول أبعاد المهمة الجسيمة الملقاة على عاتقه، في حين يؤدّي فشله في مهام الحياة العادية؛ في الدراسة أو الوظيفة أو التجارة، إلى افتضاح قصوره الذاتي وضحالة قدراته.

قد كان إقناعه سهلاً لأنه كان مقتنعاً سلفاً من قبل أن نحاول أن نقنعه. وسيكون خداعه سهلاً لأنه متهيّء لذلك سلفاً من قبل أن نحاول خداعه.

. . وأهمية إذكاء الكراهية:

قد لا ترى بعض الحركات الثورية الجماهيرية ـ كالشيوعية والفاشية والنازية ـ حاجةً إلى الله. غير أنه ما من حركة ثورية في التاريخ كله كانت في غنىً عن الشيطان. وإنما تُقاس قوةُ الحركة بقوّة كراهية أعضائها لعدوّ جُسِّد لهم تجسيداً، يرون فيه مصدرَ بلائهم وأصلَ دائهم.. دليل ذلك أننا حين نحبّ لا نتلفّت حولنا بحثاً عن حلفاء، بل وننظر إلى من يشاركنا في هوى المحبوب باعتباره غريماً ومنافساً. أما حين نكره، فنحن دوماً في حاجة إلى من يشترك معنا في مشاعر الكراهية، وإلى أكبر عدد ممكن من هؤلاء حتى تقوى ثقتُنا في أننا في كراهيتنا قد أصبنا عين الحق.

وأفراد جماعاتنا بما دُرِّبوا عليه من إنكار الذات، والتضحية بالمتع والملذّات، وبشظف حياتهم وخشونة معيشتهم، يسهل عليهم أن يكونوا

شديدي القسوة والمرارة في حقدهم وكراهيتهم للآخرين، خاصة إن خالوا أنهم أسعد منهم، وأرضى نفساً، وأوفر حظاً من النجاح في الحياة وفي تحقيق ذواتهم. وقد قيل عن الثّوّار إبّان الثورة الفرنسية أنهم كانوا كلما أمعنوا في كراهيتهم لأعدائهم، وفي قطع الرقاب وسفك الدماء، زاد إيمانهم بصحة مبادئهم. وهو ما يثبت ضرورة الكراهية والعنف ليس فقط في إرهاب الأعداء وقمع الخصوم، وإنما أيضاً في تعزيز إيمان الإرهابي بعدالة قضيته، كما تعزّزه كثرة الأعضاء في جماعته. أو كما قال مونتِنْيْ في إحدى مقالاته: «بوسع الحماس الزائد أن يصنع المعجزات، ولكنْ شريطةَ أن يستند إلى ما جُبِلْنا عليه من القسوة ومشاعر الكراهية».

السلطة والتطرّف:

أيها السادة،

تساءل بعضكم في اجتماع الأسبوع الماضي عما إذا كان من المحتمل أن تلجأ السلطات الحاكمة في يوم من الأيام إلى موجة عارمة من إجراءات العنف والقمع تجاه حركتنا الجماهيرية، وعن احتمالات نجاح هذه الإجراءات.. وأجيب الآن صراحةً أن أية حركة جماهيرية من الممكن قمعها واستئصالها بالعنف مهما بلغت قوتُها وشعبيتها، ولكنْ بشرطٍ أساسي، هو أن يتوفر لهذا الحزم الثباتُ والدّوامُ والقوّة، بالإضافة إلى إيمان قوي لدى رجال السلطة (يعادل في قوته إيمان أفراد جماعاتنا) بأن الحق في جانبهم، وأنهم إنما يقاومون خطراً رهيباً يهدّد مستقبل البلاد.

ونحن نحمد الله أن هذا الشرط لم يتحقق إلى وقتنا هذا، وأن عنفَ السلطة وحزمَها تجاه التطرّف لا يزالان على تذبذبهما وتردّدهما وتقطّعهما وضعف الإيمان وراءهما، وهو ما يضمن لنا أنهما لن يحققا طائلاً، ولن يدوما طويلاً. وقد علّمتني الحياة أنه متى تذبذبت السلطة بين العنف والتساهل، والمكافحة والمصالحة، والتشدّد والتنازل، فسيكون من المقدّر للحركة أن تفيق

دوماً بعد كل كبوة، وأن تستردّ قوتها بعد كل هزيمة، بل وستزيد هذه القوة بعد كل مواجهة عنيفة معها، بالنظر إلى اكتسابها خبرات جديدة، واكتساب ضحاياها هالة الشهداء الأبرار نتيجة كل صدام.

* * *

أيها السادة،

أشكر لحضراتكم صبركم وحسن استماعكم. وسيُفتح باب المناقشة بعد استراحة قصيرة تُقدَّم خلالها المرطّبات.

وفّقكم الله...

عند القنصل المصري في بون. . . دخل علينا أثناء حديثنا شاب ألماني غاضب، يسجّل شكواه من أمر وقع له أثناء جولته السياحية بمصر.

قال إنه في يوم ٣ مارس توجّه إلى مكتب للتلغراف بالقاهرة، كي يرسل إلى أبيه في ميونيخ برقيةً يهنّئه فيها بعيد ميلاده السبعين. وقد تسلّم منه البرقية موظف يدعى صالح، كان بالغ الظّرف والأدب معه، وطمأنه إلى أن البرقية ستصل والده يوم عيد ميلاده الموافق ٤ مارس، ثم تقاضى منه مبلغ ثمانية جنيهات وعشرة قروش أجراً لها، مقابل إيصال مختوم أرانا الشاب إيّاه.

عاد الشاب إلى ألمانيا فإذا والده يوبّخه توبيخاً عنيفاً إذ قد نسي أن يبعث إليه بالتهنئة في عيد ميلاده. فالبرقية إذاً لم ترسل. والغالب أن يكون الموظف، رغم ظرفه وأدبه، قد احتفظ بالمبلغ لنفسه. وهو يطالب الآن القنصلية المصرية بردّ قيمة ما دفعه بالمارك الألماني، وإلاّ فَقَد احترامه للشعب المصري، وعاهد نفسه ألاّ تطأ قدماه مصر مرة أخرى.

لم أملك نفسي من الابتسام بعد الاستماع إلى القصة. إذ أين يمكن أن نجد مثالاً أصدق من هذا لعجز أبناء البيئات الحضارية المختلفة عن فهم بعضهم البعض؟ فهنا موظف مصري بائس مطحون، ليس واسع الذمة بالضرورة. ولو أن البرقية كانت خاصة بحادث وقع، أو أزمة مالية يطلب الشاب من والده إنقاذه منها، لكان من المؤكد أن يرسلها الموظف. غير أنها مجرّد تهنئة

بعيد ميلاد رجل عجوز. وهو أمر لا يمكن للموظف أن يتخيّل إنفاق ثمانية جنيهات من أجله. ثمانية جنيهات يمكنه أن يشتري بها لنفسه وزوجه وأولاده من اللحم ما لا يأكله إلا مرة كل أسبوع أو أسبوعين. والغالب أن الشاب الألماني سيرحل عن مصر عن قريب، ولن يعلم أن البرقية لم تُرسل إلا بعد عودته إلى ألمانيا. كما أن المؤكد أنه لن يثير ضجة بسبب ثمانية جنيهات، وهو مبلغ لا شك تافه في نظر مواطن من دولة غنية كألمانيا. . أما عن الألماني فهو يراه أمراً هاماً أن يبعث إلى أبيه بتهنئة في عيد ميلاده، وأمراً مستفظعاً أن يدفع مبلغاً مقابل خدمة لن تؤدّى. وهو يعتبر الموظف مجرماً في حق دولته، ينبغي أن يفصل أو يسجن. والغالب أنه يحسب أن موظف البريد والبرق في مصر يتقاضى ما يتقاضاه زميله الألماني من أجر، أو أن موضوع المرتب لم يخطر بذهنه. وهو واثق من أن القنصلية المصرية ستتعاطف مع شكواه، وستنزعج إزاء تأثير مثل هذه التصرفات في حجم السياحة إلى مصر.

تسلّم منه القنصل الإيصال، ووعده بالكتابة فوراً إلى السلطات في مصر لاتخاذ اللازم، والتكرم بالإفادة.

* * *

دلَفت وزوجتي ـ بعد انتهاء الحفل الموسيقي بصالة بيتهوفن ـ إلى مطعمها المطل على نهر الراين لتناول العشاء. . كانت أصوات كورال سيمفونية بيتهوفن التاسعة لا تزال ترنّ في أذني، ونشوة أقرب إلى النشوة الدينية تملأ كياني كله. . . وساءلت نفسي عما إذا كانت هناك طُرُقٌ إلى الله أقصر من مثل هذا الطريق. ثم قفزت إلى ذهني صورة أفراد الجماعات «الدينية» المتطرفة في أسيوط وهم يحطمون الآلات الموسيقية بالجامعة، معلنين تحريم الموسيقى والغناء: أحمد عدوية وموتزارت على سواء.

جاءت الجرسونة الألمانية إلى مائدتنا تسألنا مبتسمة عن طلبنا. ثم قطعت تدوين الطلبات في دفترها لتسأل زوجتي: «أعندك برد يا سيدتي؟» فما أجابتها

زوجتي بالإيجاب حتى اختفت لتعود بعد بضع لحظات بصينية فضية صغيرة عليها كأس من النبيذ الأحمر الدافىء، وطبق صغير به قرصان من الأسبرين، وفازة نحيلة قصيرة بيضاء بها أزهار الزنبق.

في أيّ بلد آخر، يمكن أن تأتي هذه اللفتة الظريفة من جارسونة في مطعم؟ وابتسمتُ إذ تذكرت سائق السفارة المصرية (وهو حديث العهد بالوصول إلى ألمانيا من مصر)، وحديثه إليّ ظهر اليوم وهو يوصلني بالسيارة إلى فندقي بوسط المدينة.. قال وهو يتلفّت حوله إلى الزهور والأشجار والأرصفة بالشارع الواسع:

ــ حسين بك!

ــ نعم.

ــ هُمّ موش كانوا بيقولو لنا زمان إن مصر أُمّ الدنيا؟

ــ صحيح.

ــ أمّال ألمانيا تبقى أم مين؟

* * *

غير أن تفكيري ـ تحت تأثير بيتهوفن ـ سرعان ما عاد إلى حكاية أسيوط، وبالأخص إلى مقالات استنكار الفعلة في الصحافة المصرية..... وجدتُ غضبي على المتخلّفين الذين حطموا الآلات الموسيقية أخفّ حدّة من غضبي على «المستنيرين» الذين أدانوا هذا التحطيم مستندين إلى سندين لا ثالث لهما: أن الأحاديث التي تحرّم الموسيقى والغناء أحاديث ضعيفة أو موضوعة، وأن ثمة أحاديث «صحيحة» تحلّل الموسقى والغناء، وقصصاً في السيرة النبوية تثبت أن محمداً، أو إحدى زوجاته، أو أحد العشرة المبشرة بالجنة، كان يستمع إلى الموسيقى والغناء ويستمتع بهما.

إلى هذا الحدّ من التخلّف إذن قد بلغنا! إثبات قضية من القضايا قد بات عندنا محصوراً في إثبات ورود حديث بصددها أو نفي ورود حديث. قد أفهم عَدَاءَ قومٍ متخلّفين للغناء والموسيقى بسبب ما يخالونه حديثاً صحيحاً.. غير أني لا أفهم أن يأتي دفاع «المستنيرين» عن الموسيقى والغناء مستنداً إلى حديث أو سيرة لا إلى اعتبارات العقل والمنطق.

هل بوسعنا أن نتخيّل شاباً ألمانياً يتحدّث عن الموسيقى على النحو التالي:

«إنني شديد الولع بالموسيقى لأني قرأت أن مارتن لوثر ـ قدّس الله روحه ـ مرّ يوماً هو وزوجته بقوم في قرية قرب فيتنبرج يعزفون ويغنون، فشرعت زوجته تغني مع القوم، بينما وقف لوثر أمامها وهو يهزّ رأسه استحساناً. وفي قول آخر، ظل يدقّ الأرض بمقدمة قدمه مسايراً للنغم.. أما عن ثقتي من أن الموسيقى هي من أهم الفنون طرّاً وأجداها على البشرية فنابعة عن القصة التي أوردها إدموند لودلو، عن هنري لوتريل، عن أوين فليتهام، من أن بعض رفاق لوثر سألوه يوماً «ما قولك يا مارتن في بابا روما الذي يكره الموسيقى؟» فأجاب لوثر: «دعوكم منه، فهو لا يفقه شيئاً». (وهو حديث متفق عليه)».

هل يمكن أن نصادف ألمانياً يتحدث على هذا النحو؟ المعرفة عند الفرنجة هي استخدام المعروف في إماطة اللثام عن المجهول. والمعرفة عندنا معشر المسلمين قائمة جاهزة كاملة بين أغلفة الكتب، وكلما كانت الكتب أقدم كانت المعارف أصحّ.. هذا هو موقف متخلّفينا ومستنيرينا على سواء.. قد لا أعبأ كثيراً بالقرار المتّخذ بشأن تحريم الموسيقى أو تحليلها، غير أن الكارثة الحقيقية في رأيي هي في المنهاج، صحته أو فساده.. وقد بدأت الحضارة الغربية الحديثة حين شرع فرانسيس بيكون في مستهل القرن السابع عشر يتشكك في النتائج التي وصل إليها أرسطو (وكانت من المسلّمات في القرون المظلمة)، فأصرّ على رفض المسلّمات، وإخضاع كل شيء للتجربة ولإعمال

العقل والتفكير. . فإن كان موقف مستنيرينا في القرن العشرين على ما هو عليه، فمن ذا الذي سيعدّ أمتنا يا ترى لاستقبال القرن الحادي والعشرين؟

يـا معشر العلمـاء، يـا مِلْحَ البلد   مـا يُصلح المِلْحَ إذا الملحُ فَسَدْ؟

* * *

على الشاي مع المستشرقة الألمانية أنّا ماري شيميل. سألتني عن خلاصة رأيي في الجماعات الإسلامية المتطرفة، فأجبت:

ـ حين يفقد المرءُ احترامَ الغير، يوحي لنفسه بأنه يتمتع برضا الآلهة!

ـ فسِّر؟

ـ إنْ كان من شأن تطوير الدين أن يخفّف من حدّة الصراع بين أهله وبين الظروف والأحوال المعيشية والقيم المستجدة، فإن هناك من العوائق ما لا يسمح باستمرار هذا التطوير إلى ما لا نهاية. . من هذه العوائق:

● أن ثمة حدود للتطوير والتأويل تكاد الكافة أن تجمع على أن تجاوزها يمثّل خروجاً على الدين.

● لجوء الفقهاء لظروف معينة إلى قفل باب الاجتهاد.

● ظروف تسمح بغلبة علماء الدين المتزمّتين ضيّقي الأفق، وبسيطرتهم على الحياة الفكرية في مجتمع معين.

* جمود وانغلاق وعزلة طويلة الأمد تسمح باستمرار العقيدة دون تطوير، ودون احتمالات صراع. وقد تنتهي هذه العزلة فجأة (نتيجة غزو عسكري وحضاري قوي مثلاً، كذلك الذي تعرّض له العالم الإسلامي في أواخر القرن الثامن عشر وخلال التاسع عشر) فتتدفّق على ذلك المجتمع قيم ومفاهيم شديدة الاختلاف، ودون تدرج أو رفق، بحيث لا يسهل هضمها واستيعابها وتبنّيها. أما السبب في شدة التباين في القيم فهو انعدام أو ضعف

الاتصال والتأثير المتبادل التدريجي بين المجتمعين لقرون طويلة.

وقد تكون الصدمة الحضارية هنا من القوة والقسوة، والفجوة بين المفاهيم من الاتساع، بحيث يعجز الكثيرون عن مواجهة هذه وعبور تلك دون التعرض لخطر فصام الشخصية، فيفضّلون التمسّك بما ألفوه على محاولة التكيف والتأقلم وملاءمة الفكر للأحوال الجديدة. وبالتالي، وبسبب هذا الموقف الذهني، تبدو عقيدة هؤلاء عاجزة عن مسايرة العصر، وتبدو لغيرهم عقبة في سبيل التطور والتقدم والمعاصرة والتكيف وفق تطورات حتمية. وهنا ينشأ عادة صراع مرير بين الرجعيين والمستنيرين، بين رافضي التطوير وقابليه، تكون ثمرته مرارة شديدة لدى جماعتيهما، وشك عميق من جانب كلّ طرف في نوايا الآخر، وردّ فعل عنيف من جانب البعض يتمثّل في هجر الدين بأسره باعتباره من الأوهام البالية، ودعوة إلى تشييد صرح فكري جديد على أنقاض العقيدة الدينية. وغالباً ما يُكتب النجاح لهؤلاء الأخيرين، بحيث يتحوّل أنصار التشبّث بالقديم إلى جماعة من المتخلّفين عن ركب الحضارة. غير أن جماعتهم لا تستسلم بسهولة للمصير الذي تدرك لا شعورياً بأنها آيلة إليه. وهي في نفس الوقت لا تملك الإمكانات العقلية والروحية التي تؤهّلها لتجنّب هذا المصير بانتهاج سبيل غير السبيل الذي اختارته مضطرة بسبب ضعف هذه الإمكانات. وهنا يحدث لها ما يمكن تشبيهه بصحوة الموت، ويتحول أفرادها من الاعتدال والجدال المهذّب الواثق من نفسه، ومحاولة التوصل الهادىء إلى حقيقة الأمور، إلى العنف وأعمال الإرهاب والاغتيال والبطش بالمخالفين، وتكفير المجتمع، والتجمّع في إطار جماعات دينية متطرفة، كمحاولة أخيرة يائسة لإثبات الحق في البقاء.

* * *

تمشية طويلة على ضفة نهر الراين.. ليس ثمة أجمل من المناظر إلى

يمينك غير المناظر إلى يسارك.. الأزهار والورود في أحواضها لا يعبث بها عابث، ولا تمتدّ إليها يدٌ إلا بالرعاية.. فالأزهار تُترك حتى تذبل على أغصانها ويستقبل الثري أوراقها.. فيا ألف حسرة على الأزهار في الشرق.. وعلى الإنسان في الشرق... أب وأم قد خرجا بطفلهما الرضيع لاستقبال أشعة الشمس وكلبهم على مقربة منهم يعدو ويلهث جيئة وذهاباً في ابتهاج... لفيف من السيدات في السبعين أو الثمانين في ثياب ربيعية الألوان، وقبعات أنيقة، يسترحن على المقاعد من سيرهن، وإذ أقترب منهن أسمعهن يتحادثن في أشعار هايني.. شاب وفتاة على دراجتيهما يتحادثان مبتسمين وقد أمسك كل منهما بعجلة القيادة بيد، ويد رفيقه باليد الأخرى.. قد عشتُ فيما مضى سنوات بين ظهرانيّ هذا الشعب، فما رأيت من بين شعوب الأرض من هو أطهر وأعفّ منه عشقاً، ولا رأيت رجلاً أحرص من الرجل الألماني على النظر إلى المرأة باعتبارها بشراً، ورفيق حياة، وأختاً في الحياة الإنسانية، لا موضع شهوة، ولا رمزاً جنسياً، ومحلّ تحكم واستعباد... ومع ذلك فإن بعض السائحين العرب ممن يقدمون إلى هنا بحثاً عن المتع الجنسية، وعيونهم تكاد تقفز من محاجرها كلما لمحوا فستاناً في الطريق، لديهم من القحة ما يجعلهم عند عودتهم يتحدّثون عن انحلال الأخلاق الجنسية هنا بالمقارنة بأخلاقيات مجتمعنا الطاهر.

وأعود من الجولة إلى فندقي فأدير التليفيزيون للاستماع إلى نشرة الأخبار.. القوم مشغولون بإجراءات الاستعداد للوحدة الأوروبية عام 1992، واجتماعات وزراء مالية واقتصاد وزراعة وصناعة وتجارة دول المجموعة. غير أن الأولوية في أنباء الساعة هي كالعادة للشرق الأوسط والعالم العربي! مناظر مرعبة لضحايا الأسلحة الكيميائية في شمال العراق.. أفراد عائلة كردية أموات حول مائدة طعامهم.. أمّ ميتة تحتضن طفلتها الرضيعة الميتة على أسفلت الطريق.. شيخ جاحظ العينين قد أسند ظهره إلى حائط البدروم الذي آوى إليه متوهّماً أنه سيعصمه من الموت. ثم أنباء قصف المدن في حرب الخليج:

المباني الأثرية في عروس الدنيا شيراز التي ألهمت أشعار حافظ وسعدي في خراب، وكذا آثار أصفهان. . . . والأحياء السكنية في بغداد وطهران والبصرة وغيرها، وحول المباني المتهدمة فيها يقف ساكنوها السابقون حيارى يلطمون. . ثم أنباء الطائرة الكويتية المختطفة والخاطفون يلقون منها في مطار لارناكا بجثة إنسان في كيس قمامة إلى أرض المطار. . ثم أنباء الصدامات بين حزب الله ومنظمة أمل في لبنان. . وأنباء عن تدفّق الصبية السودانيين اللاجئين من حرب الجنوب في السودان إلى أثيوبيا والصومال. . ثم مناظر عن استعدادات الصحراويين في تندوف لشنّ هجمات جديدة على المغاربة. . .

وتقفز إلى ذهني قولة رسول الله للأوس والخزرج يوم تنادوا بالمدينة لقتال بعضهم البعض: «يا معشر المسلمين أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم بعد أن أكرمكم الله بالإسلام وألّف بينكم، فترجعون إلى ما كنتم عليه كفاراً؟!! ألله ألله!!». . ولكن هيهات! فزغاريد النصر التي سمعناها بالأمس في طهران إنما تسجّل إبادة جيش من المسلمين لجيش من المسلمين. وزغاريد النصر التي نسمعها اليوم في بغداد إنما تعبّر عن فرحٍ إذ يقوم مسلمون بتدمير ثروات المسلمين. وكلٌ من هؤلاء وأولئك إنما يستعينون على هذه الإبادة وهذا التدمير بأسلحة يزوّدهم بها فرنجة لا يريدون لأولئك أو هؤلاء الخير، ولا يهمّهم في شيء أيّ الفريقين على حقّ في غضبه وفي حربه، وإنما يهمهم إنهاك قوى الفريقين، وتبديد ثرواتهما، وإنهاك قوى الإسلام، وتبديد قدراته وإمكاناته.

وأهرع إلى كتاب المنقري «وقعة صفّين» لأعيد قراءة هذه الكلمات لأحد المسلمين الذين حضروا الحرب بين عليّ ومعاوية منذ أكثر من ثلاثة عشر قرناً، ولأنظر فيما إذا كان فيها حرف واحد لا ينطبق على حال الأمة الإسلامية اليوم. قال:

«كانت حياتنا ورقاً لا شوك فيه فأضحت شوكاً لا ورق فيه. . خيار الناس يقتلون خيار الناس، دعوتهم واحدة، ورسولهم واحد، وصلاتهم واحدة،

وحجّهم واحد. وكل فريق يرى أنه على الحق فيما يطلب، وأنه إنما يغضب لله ويقاتل في سبيل الله! ألا والله لقد هلكت العرب! سبعون ألف مسلم في القتلى!! فمن لقتال المشركين إن فني الناس؟ من لحماية الشام بعد أهل الشام، وحماية العراق بعد أهل العراق؟ لَوَدِدْتُ أنهم قُتلوا في سبيل الله في حرب الروم، وما أرى غير أنه سيجيء الفرقاء يوم القيامة تنضح أوداجهم دماً، كلهم يستعدي الله فيما أريق دمه.. يقول عليّ إن العراق لن يستقيم أمره إلا بهلاك الشام. ويقول معاوية إن الشام لن يستقيم أمره إلا بهلاك العراق..
وما خيرنا بعد ضياع الشام والعراق؟ الله الله في الإسلام يا رجال! الله الله في الثغور! أكلتنا الحرب وقُتلت الرجال، وسبحتم في الدماء وماأضجركم القتال؟ ألا أَيْتَمَ الله منكم أولادكم كما أيتمتم أولاد المسلمين! سيوف المسلمين قد أرصدت لقتال العدو لا لقتال الصديق.. ولكن لا رأي لمن لا يُطاع! لا رأي لمن لا يطاع! لا رأي لمن لا يطاع!».

* * *

في جريدة الصباح (دي فيلت) تصريح للحكومة الألمانية تعترف فيه بأنها هي التي زوّدت العراق وإيران بالمواد التي صُنعت منها الأسلحة الكيميائية وإن كانت قد زوّدتهما بها لصناعة المبيدات الحشرية لا الأسلحة!.. لا بأس! ما عليكم! هي لا تزال مبيدات حشرية.. كما أن أكياس القمامة الملقاة من الطائرة المختطفة لا تزال أكياس قمامة..

* * *

برنامج ديني في إذاعة كولن العربية. سؤال من مستمع يمنيّ يجيب عنه أحد شيوخ المركز الإسلامي بمدينة كولن:

السؤال: استخدام التيليفون، حلال هو أم حرام؟

الإجابة: استخدام التيليفون حلال إذا ما استُخدم فيما أحلّه الله، كتهنئة

قريب، أو تعزية صديق، وحرام إذا استخدم فيما حرّمه الله، كاتفاق على منكر، أو تهديد بمكروه. . . . قال تعالى . . .

لا بأس! ما عليكم! وما ضرّ الالمان أن يذيعوا في إذاعتهم العربية الإجابات السخيفة على أسئلة سخيفة ما دامت هذه الأسئلة هي كل ما يشغل أذهان شعوبنا المتخلّفة . .

* * *

في مقهى «بونار كافي هاوس» مع صديق مصريّ يعمل بالسفارة . . شكا لي من آلام رهيبة في المعدة تنتابه كلّ بضعة أشهر منذ حلوله بألمانيا ولا يعلم لها سبباً . . أجبته على الفور:

ـ أشاهدتَ فيلم «المهاجر» للمخرج الألماني فاسبيندر؟

ـ لا . . لماذا؟

ـ حاول أن تشاهده، فهو معروض الآن بإحدى دور السينما في باد جودزبرج . . إنه عن عامل جزائري مهاجر إلى ألمانيا . وإذ يصاب بآلام رهيبة في المعدة بعد قدومه بأشهر، يهرع إلى طبيب ألماني، فإذا بالطبيب يخبره أن تسعة أعشار المهاجرين إلى ألمانيا من الدول المتخلّفة يصابون بمثل هذه الآلام كل ستة أشهر، وأنه قد تبين أنه لا سبب لهما غير الصدمة الحضارية التي تنتابهم نتيجة العيش في دول متقدمة .

قال صديقي في ضيق : ماذا تعني؟ لقد عشت سنوات طوالاً في كندا وإنجلترا والإتحاد السوفييتي والأرجنتين . . وما أنا ممّن يمكن أن يُنعتوا بالتخلّف، أو يصعب عليهم التأقلم والتكيّف، أو يجدون الحياة في ألمانيا غريبة عليهم .

أجبته بقولي : ولو . . . ثم غيّرت الموضوع .

* * *

في مبنى إدارة جامعة بون مع ابنتي نسرين لتقييد اسمها طالبة بالجامعة. . قلبي وقلب أمها يكادان ينفطران لفكرة افتراقنا عنها مدة أربع سنوات كاملة. . غير أني إذ أمسكت بالقلم لإمضاء التعهّد بالإنفاق عليها طوال سني الدراسة، أحسست وكأنما أُركبها سفينة نوح، أعود بعدها مع أمها إلى اليمّ. .

* * *

في قديم الزمان، كان البحارة متى أحدقت بسفينتهم المتاعب، وأُسقط في يد الربّان إذ يرى اضطراب البحر وصخب الأمواج والريح، هتفوا صائحين. لا بدّ أن ثمة جثة قد أخفيت في أحد صناديق البضائع المشحونة على ظهر السفينة»! ثم إذا بهم يشرعون في البحث عنها للتخلص منها، مؤمنين بأنها سبب محنتهم، وبأن التخلص منها بإلقائها في البحر كفيل بأن يرفع عنهم ما حلّ بهم من بلاء ولعنة.

هل أحذو حذو هؤلاء ـ وقد عصفت بأقطار العالم الإسلامي الرياح واضطربت الأمور واختلّت الأوضاع ـ فأبحث عن الجثة المسؤولة في حمولة السفينة؟ لا شك في أن البحث سيكشف عن عدة جثث لا جثة واحدة. . . . غير أني واثق من أني سأجد إحداها وقد بلغت من الضخامة والعفن درجة لن تدع مجالاً للشك في أنها المسؤولة الأولى عما أصاب سفينة العالم الإسلامي من نقمة: ألا وهي استعداد أبناء الأمة لتمكين يد الماضي الميتة من أن تقبض على أعناقهم، وتمسك بخناقهم، وأن تتحكم قيم هذا الماضي ومعتقداته في حاضرهم ومستقبلهم.

* * *

الفجوة بيننا وبينهم في اتساع، ما في ذلك ريبة، وبسرعة مخيفة، وبرغم كل ما تبذله حكوماتنا من جهود من أجل ما أسماه أخي جلال «تحديث الفقر» في كتابه بهذا العنوان. وبوسعنا أن نلتمس للأمر آلاف الأسباب، غير أن منظراً

واحداً هذا الصباح في شارع بسمارك الذي قصدناه لنقل أمتعة ابنتي نسرين إلى شقة فيه، وضع يدي على سبب جوهري قد يفسّر الفجوة:

سيارة مكشوفة يركبها أربعة من الشباب الألماني وقد أداروا المذياع فيها فجاء صوت الموسيقى منه أعلى مما ينبغي.. وإذ تقف السيارة عند إشارة مرور حمراء، يتقدم من الشباب شيخ ألماني غاضب، يعنّفهم على صخب مذياعهم الذي قد يزعج المارة والسكان، فلا يعبأون بتوبيخه، ولا يخفضون الصوت، بل ويشيح أحدهم بذراعه في وجه الشيخ هازئاً.. فما يكون من الشيخ إلا أن يخرج ورقة من جيبه، وقلما من جيب آخر، يسجّل رقم السيارة من أجل إبلاغ الشرطة. فإذا بالأربعة يقفزون من سيارتهم على الفور بعد إغلاق المذياع، ليحيطوا بالشيخ على الرصيف، متوسلين إليه أن يغتفر زلّتهم.

أثمة ما هو أصدق دلالة من هذا الحادث على الفارق بيننا وبينهم؟ هذا الإحساس المدنيّ، هذا الشعور لدى الفرد بالمسؤولية عن المجتمع بأسره، هذا الإلتزام الصارم بالقاعدة الإسلامية التي هجرناها نحن وتبنّوها هم والتي تقضي بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، هذه المبالاة، هذا الإكتراث، هذه الجدّية في تقييم الحياة، أيّ شيء من كل هذا قد بقي لنا ونحن نردّد في كل مناسبة مماثلة.. «يا عم صلّ على النبي! هوّه إحنا حانصلّح الكون؟!» أو «خلّيم.. دي غرقانة غرقانة!»..

* * *

﴿أَوَ لما أصابتكم مصيبة قد أصبتُم مِثْلَيْها قلتم أنَّى هذا؟ قل هو من عند أنفسكم، إن الله على كل شيء قدير. وما أصابكم يوم التقى الجمعان فبإذن الله، وليعلم المؤمنون﴾.

لقد التقى الجمعان في زمننا هذا، فأصابت العالم الإسلامي مصيبة هي من عند نفسه، وأصبح اليوم أشبه شيء بخلية النّحل التي فقدت ملكتها.. قد نرى النحل مستمراً في مجيئه وذهابه، وقد تحسب هذه الحركة حياة. غير أننا

متى اقتربنا من الخلية لتأملها بعناية، هالتنا مظاهر الفوضى التي ضربت أطنابها فيها بعد رحيل الملكة، والتي جعلت من الأجدى التخلّص من الخلية بإلقائها طعمة للنيران.

* * *

أخبار فيضان نهر الراين تشغل صفحات كاملة من الصحف هنا. تليها أخبار قصيرة عن الجفاف والقحط في أفريقيا السوداء وولايات عديدة من البرازيل.. وفي المساء، حديث طبّي في التيليفزيون عن كيف أن أحد الأسباب الرئيسية للموت لدى الألمان عامي 45 و1946 كان فقر التغذية، فأضحت البِطْنة اليوم والإفراط في تناول الأطعمة الدسمة أبرز أسباب الوفاة.

فيا سبحان الله! فيضان مدمّر هنا وجفاف مدمّر هناك. وبِطْنَة مدمّرة هنا ومجاعة مدمّرة هناك.. أفما هناك وَسَطٌ عَدْل؟

* * *

زيارة للمنزل الذي ولد فيه كارل ماركس بمدينة تريو.. لقد تنبّأ الرجل في القرن الماضي بأنه من شأن النظام الرأسمالي أن يُزيد الفجوة بين مستوى معيشة الأغنياء ومستوى معيشة الفقراء، وأن من شأن تزايد اتساع الفجوة بين الطب أن يعجّل بثورة الكادحين.. غير أن الواضح كالشمس أن الكثير من النظم الرأسمالية (ومنها النظام الرأسمالي في ألمانيا الغربية) قد أمكنه في القرن العشرين أن يُحبط نبوءة ماركس عن طريق العمل على تضييق هذه الفجوة بشتى الوسائل ورفع مستوى معيشة أفراد الطبقة العاملة فيها، وتحقيق قدر معقول من العدالة الاجتماعية ينفي شبح الثورة ويبعد أسباب التوتر والسخط.

ومع ذلك، فإن نبوءة ماركس بدأ يظهر صدقُها واحتمال تحقّقها في مجال آخر ما كان هو نفسه ليتوقّعه أو يحلم به، ألا وهو اتساع الفجوة بين مستوى المعيشة في الدول الغنية والدول الفقيرة، مما ينذر الآن بأوخم العواقب في

ميدان العلاقات الدولية . . لقد تمكن عدد من الدول من تحقيق رفاهية في عيش شعوبها تصل أحياناً إلى حدّ البذخ، في الوقت الذي تتفاقم فيه المشكلات الاجتماعية والضائقة الاقتصادية في دول أخرى. وقد كان الفقراء في الماضي أقل إحساساً بفقرهم، وأقل تبرّماً به، وثورة عليه من فقراء يومنا هذا الذين باتوا يدركون جيداً ـ بفضل الإذاعة والصحافة والسينما ـ كيف يعيش غيرهم في الدول الغنية المتقدمة، وما يتقلّبون فيه من نعيم وترف. فالفجوة قد صارت واضحة لكل عين ترى وأذن تسمع. ومع وضوحها زاد إحساس الفقراء بفقرهم، وضيقهم بوضعهم، وثورتهم على واقعهم، إذ يُحرمون مما يرون غيرهم يستمتعون به. وقد نما عندهم من التطلّعات والمطامح ما لم يعرفه أجدادهم، وما ليس بوسع اقتصاد دولهم الفقيرة أن يحقّقه لهم أو يُشبعه.

وبالتالي فقد غلب عليهم الشعور بالقهر والإحباط والسخط والمذلة، وهي مشاعر كثيراً ما باتت تجد متنفّساً لها في حروب أهلية، أوحروب بين الدول المتخلّفة ذاتها، أو في أعمال عنف وتخريب، أو في عمليات إرهابية تنفّذ ضدّ مصالح الدول الغنية في الخارج، أو في أراضيها ذاتها وضد رعاياها.

وقد بدأت الدول الغنية تستشعر القلق إزاء هذه التطورات، وتدرك أن أمنها ورغد عيشها لا يمكن الاطمئنان إلى استمرارهما ما دامت هناك شعوب ودول خارج حدودها تغلب عليها مشاعر الحسد والإحباط والإحساس بالظلم والقهر. وقد يحسب رؤساؤها والسلطات فيها أن الخطر منحسر إن هي اتخذت الإجراءات القوية لمحاربة الإرهاب، أو لمنع اختطاف الطائرات، أو عزّزت من حراسة مصالحها في الخارج، أو حدّت من دخول رعايا الدول الفقيرة إليها أو أبعدتهم عنها، أو وحّدت جهودها مع جهود غيرها من الدول الغنية لوضع حدّ لهذا الخطر المستفحل. غير أن الخطر ـ في اعتقادي ـ سيظل ماثلاً وقائماً ما دامت المظالم ماثلة، والفجوة بين الشعوب قائمة، وما دام السعي إلى تحقيق العدالة الاجتماعية في نطاق الأفراد والطبقات في الدولة الواحدة لم يتبعه السعي إلى تحقيقها بين الدول كافة.

كان المسيح يقول: «لكي تكون كاملاً، بع ما تملك واعط للفقراء». لم يقل إن هذا التصدّق واجب لصالح الفقراء، وإنما ذكر أنه لصالحك أنت، ولكي تكون كاملاً . . وهو بالضبط ما ينطبق اليوم حيال الدول الغنية لكي يكتمل نعيمها . .

* * *

في القطار من بون إلى فرانكفورت أقرأ في مقال بالصفحة الأولى من «الهيرالد تريبيون» عن مشكلة العمال الأجانب في ألمانيا، من أتراك ويوغوسلاف وعرب . . يذهب المقال إلى أن حماس الألمان المشهور للعمل قد خبا بعض الشيء، وأنهم قد باتوا يفضّلون ممارسة هواياتهم الخاصة، وينصرفون عن الأعمال الوضيعة كجمع القمامة، وكنس الشوارع، والأعمال اليدوية وبيع الصحف والفاكهة والخضروات، وهي أعمال صار الأتراك والعرب واليوغوسلاف يقومون بها، إلى النشاطات القيادية في المصانع والمؤسسات . . ثلاثة أرباع العمال في صناعة السيارات الألمانية مثلاً هم الآن من المهاجرين الأجانب، والربع الألماني متفرغ فيها للإدارة والرقابة والاختراع.

أليس من المحتمل أن يكون هذا الوضع نذيراً بما سيكون عليه الحال في المستقبل غير البعيد بصدد الدول المتقدمة جمعاء والدول المتخلفة جمعاء؟ أن يتخصص رعايا المتخلفة بعد انقضاء أجل الصراعات الدموية فيما بينها، وحين تكفّ في النهاية عن اختطاف الطائرات وإلقاء المتفجرات في مطاري روما وفيينا، في الأعمال الوضيعة التي يعزف رعايا الدول الغنية عن القيام بها، ويتفرّغ الآخرون للفنون والرياضة والاختراع والتكنولوجيا الرفيعة، وإحكام الرقابة على المتخلّفين؟

كل الدلائل الراهنة تشير إلى هذا الاتجاه.

* * *

في مطار فرانكفورت لاستقلال الطائرة الجزائرية عائـداً إلى الجزائـر. . الغالبية العظمى من الركاب في انتظارهـا من العرب، كـلٌّ يحمل أحمـالاً من البضائع الألمانية. . وإذ تعلن المضيفة في الميكروفون عن بدء استقبال الطائرة لركابها، إذا بهم فجأة يهبّون من مقاعدهم ويهرعون إلى الباب رقم 32، يدفع بعضهم بعضاً دفعاً غليظاً، ولو كانوا أطفالاً أو نسوة، حتى يكون لهم السبق في الصعود إلى الطائرة. . وتحاول المضيفة الألمانية في البداية إقناعهم بـالتريّث والثبات، شارحة لهم أن المقاعد محجوزة لكل منهم، وعلى بطاقات الصعود أرقامها، فلا داعي إذن للتزاحم والتدافع. . غير أنها إذ تفشل في إقناعهم تلجأ إلى النهر والتقريع. وإذ تفشل في هذا أيضاً، تلوّح بذراعها يائسة وعلى وجهها تعبير من الازدراء الجمّ. . وأحاول أنا وزوجتي أن نلفت نظرها إلى أننا لسنا من المزاحمين المدافعين، وإلى خطواتنا الهادئة البطيئة، عساها أن تظنّنا من جنسية أخرى. . غير أننا رأيناها مع الأسف تشيح بوجهها عن الجميع، وتدير لنا ظهرها. . وهو ظهر احتكّ بمؤخرته أحد المسافرين العرب، وكأنما عن غير قصد. . .

من روايات جرجي زيدان

شهدت الفترة ما بين عام ١٨٨٢ ونشوب الحرب العالمية الأولى، ازدهاراً اقتصادياً في مصر، وقدراً عظيماً من حرية التعبير، كان لهما الفضل في إرساء الدعائم اللازمة لقيام نهضة فكرية. وقد اجتذبت هذه النهضة نخبة من العلماء والأدباء والصحفيين في الشام حيث كانت وطأة الحكم العثماني تزداد ثقلاً يوماً بعد يوم، وحيث كان المسيحيون بالأخص يلقون من الاضطهاد ما دفعهم إلى الهجرة زرافات ووحداناً إما إلى العالم الجديد، وإما إلى مصر التي باتت لها في العالم العربي مكانة فريدة لا ينافسها فيها قطر آخر.

وقد تولّد عن هذا التلاقي والتلاقح بين أفذاذ المصريين والوافدين حركة فكرية نشطة، وظهور عدد كبير من الصحف والمجلات والمطابع والجمعيات، وبزوغ نجم حشد من ألمع الشخصيات في أدبنا الحديث. وقد ساهم في إنضاج هؤلاء، وفي توسيع أفقهم ونظرتهم إلى العالم الخارجي وإلى أنفسهم، سعة اطلاعهم النسبية على الآداب الأوروبية، وتأثرهم الإيجابي بثمار الفكر الغربي، مما أدى بمضي الوقت إلى هجرهم الأساليب البلاغية العتيقة، واتجاههم إلى تبسيط اللغة، وتغليب المعنى على اللفظ، واستحداث الكلمات الكفيلة بالتعبير عن الأفكار الجديدة، وباحتذاء النماذج الأدبية الغربية. وكلها سمات من سمات الأدب العربي الحديث، بحيث يمكن اعتبار ذلك الجيل مؤسسه ورافع رايته.

كذلك فقد كان من أثر احتكاك هؤلاء بالفكر الغربي، أن دفعهم دفعاً إلى النظر من جديد ـ وعلى نحو أكثر عمقاً ـ في تاريخهم وتراثهم الحضاري. وكان منهم من ركز جهوده على دراسة تاريخ قطره دون غيره من الأقطار العربية أو الإسلامية، لينبري بعد ذلك للدفاع عن تطلعات هذه القومية أو تلك، عن طريق إبراز جذور مصر الفرعونية، أو جذور إيران الهندية الأوروبية، أو الجذور التركية المنبثقة عن آسيا الوسطى، بدلاً من التأكيد على التراث الإسلامي الذي يوحّد بين كافة هذه الأقطار. وإنه لمن الغريب حقاً، ومن الشائق، أن يكون من أبرز الداعين إلى التأكيد على هذا التراث الإسلامي، مسيحي من لبنان، هو جرجي زيدان.

قد كان ثمة من بين مواطنيه المسيحيين، مثل يعقوب صروف وفارس نمر مؤسس مجلة «المقتطف»، من استمر معه تأثير التعليم الديني الذي تلقاه في حداثته بمدارس كالمدرسة البروتستانتية في بيروت. وكان منهم من ساورته الخشية نتيجةً لما عاناه المسيحيون من اضطهاد على يد العثمانيين، من أن يؤدي التركيز على التراث الإسلامي إلى تأكيد ذاتي إسلامي يضيع المسيحيون العرب من جرائه. وبقي جرجي زيدان، في ثلة قليلة، يرى أن التاريخ العربي والتراث الإسلامي ينبغي أن يكونا من المكوّنات الفكرية الأساسية للمسلمين والمسيحيين العرب جميعاً، ويحلم بأمة عربية تضمهم جميعاً على أساس من المساواة التامة في الحقوق والواجبات، شأن أتباع الديانات المختلفة في أقطار أوروبا الليبرالية.

وقد سعى الكثيرون غيره، كبطرس البستاني وناصيف اليازجي وابنه إبراهيم، ثم ذلك الكاتب الفذ جميل نخلة المدوّر صاحب كتاب «حضارة الإسلام في دار السلام» (١٨٨٨)، إلى إثارة اهتمام العرب بأمجاد تاريخهم وعظمة ماضيهم. غير أن زيدان كان أنجحهم في خلق الإحساس العميق لديهم بذلك الماضي، سواء بكتابيه الكبيرين «تاريخ التمدن الإسلامي» بأجزائه الخمسة، و«تاريخ آداب اللغة العربية» بأجزائه الأربعة، أو برواياته التاريخية

الإسلامية الثماني عشرة التي عالجت تاريخ العرب منذ أواخر العصر الجاهلي (فتاة غسان)، إلى عصر السلطان عبد الحميد في القرن التاسع عشر (الانقلاب العثماني). وقد كان في هاذين وتلك باحثاً مخلصاً يغمره الإعجاب بالحضارة والآداب العربية، مع علم غزير، ونظرة شاملة، وأسلوب شائق رائق، ولغة سهلة طيّعة.

وقد اتهم عدد من المؤرخين المتخصصين بعض مؤلفاته بالسطحية، ورأى رواياته تفتقر إلى التحليل النفسي العميق لشخصياتها، وأنها جميعاً قد كتبت في عجلة لا يغتفرها الباحث للباحث. غير أن هؤلاء ـ وإن أصابوا ـ ينسون أن زيدان كان رائداً في ميادين شتى، وأول من عالج من العرب بعض فنون الأدب، وأن بعض كتبه كان أول ما ألف من كتب عربية في موضوعها، ككتابه في تاريخ بريطانيا، وأنه أخذ على عاتقه رسالة تعليمية في العالم العربي، قد تبدو لنا دون كيشوتية غير قابلة لأن يحققها رجل بمفرده، حتى نرى آثاره المعجزة فيها. وليس من قبيل المبالغة القول بأن ما من كاتب في أي أدب من الآداب الحديثة، شرقيها وغربيها، يدانيه من حيث وفرة الكتب التي ألفها، وتنوع الموضوعات التي عالجها.

فهو إلى جانب ما تركه من مؤلفات في التاريخ الإسلامي، وفي اللغة العربية وآدابها، ورواياته التاريخية، عمل أكثر مما عمل أي كاتب عربي آخر على نشر الثقافة الغربية، والتعريف بتاريخ الدول الأوروبية، وبث المفاهيم والأفكار الجديدة عن الحضارة والعلم والأخلاق والمجتمع. فإن نظرنا إلى قائمة بأسماء كتبه وجدنا من بينها: تاريخ اليونان والرومان، والفلسفة اللغوية، وطبقات الأمم أو السلائل البشرية، وعلم الفراسة الحديث، ومختصر جغرافية مصر، وعجائب الخلق، وتاريخ الماسونية، والتاريخ العام منذ الخليفة إلى الآن، وتراجم مشاهير الشرق، وتاريخ إنجلترة، وتاريخ مصر الجديد. . إلخ. وإن نظرنا إلى عدد واحد من مجلة الهلال التي أسسها عام ١٨٩٢ وظل رئيساً لتحريرها حتى وفاته فجأة عام ١٩١٤ عن ثلاثة وخمسين عاماً، (وهو عدد فبراير

سنة ١٩١٣)، وجدناه يحوي مقالات بقلمه عن تاريخ لبنان، وحصار الصليبيين لدمياط، ومقارنة بين ماكيافيلي وابن خلدون، وصلة التعليم بالنظام الاجتماعي، والشيخوخة وأعراضها، والسمنة وعلاجها، بالإضافة إلى وصف لرحلته إلى فرنسا وإنجلترا وسويسرا، وفصل من روايته «صلاح الدين ومكايد الحشاشين»!

من حق كاتب كهذا ألا تسلم بعض كتاباته من السطحية، وهو الذي وصفه المستشرق سير هاميلتون جيب بأنه، وإن لم يكن كاتباً عظيماً بالمعنى الشائع، فهو «مدرّس مصر خارج المدرسة»، قائلاً إن جهوده كانت «أعظم أثراً من جهود الشيخ محمد عبده في توجيه الأدب العربي في مصر». غير أن أثر زيدان تعدّى موطنه المختار إلى سائر الأقطار العربية والإسلامية. فقد استطاع هو من ناحية، والشيخ محمد عبده من ناحيةٍ أخرى، أن يصلا طرفي الهوّة الواسعة التي تفصل بين الثقافة العربية القديمة والثقافة العقلية الجديدة الآتية من الغرب، فأتاحا بذلك لأبناء الشرق أن تنطلق طاقاتهم من عقالها، ولأدبائه أن يقدّموا أدباً غزيراً تقدمياً داخل إطار إسلامي أو عربي. فإن كان زيدان، بوصفه لبنانياً بين مصريين، ومسيحياً بين أغلبية مسلمة، قد اضطر إلى تجنب الخوض في موضوعي السياسة والدين حتى لا يثير غضباً أو شبهة، فقد كانت كتاباته تسطع بحماس المبشرين في دفاعه عن قيم الحضارة، وضرورة الاهتمام بالعلوم، والنهل من منابع المعرفة، باعتبارها جميعاً المصدر الرئيسي لقوة أي مجتمع، بما في ذلك المجتمع الإسلامي. فإن كانت الفكرة قد باتت في جيلنا من البديهيات، وفي غير حاجة إلى تكرار أو إثبات، فإنما يرجع جانب كبير من الفضل في ذلك إلى جهود زيدان، وهو الذي جابه حرباً مريرة من جانب الدوائر المحافظة في مصر والشام والعراق بسبب تعبيره عنها، في وقت كان التعبير عن مثل هذه الأفكار بدعة.

* * *

كان ثمة الكثير الكثير مما يريد الرجل التنبيه والدعوة إليه، والحديث إلى قومه فيه. فكان لا بدّ من إنتاج سريع غزير. وقد كان يهمّه رجل الشارع والقاعدة العريضة أكثر مما يهمه ذوو الثقافة الرفيعة، فكان لا بدّ من التبسيط سواء في اللغة أو في عرض الفكرة. والكاتب الذي يهمه الإنتاج الغزير السريع أكثر مما يهمّه الفن والفكر العميق والأصالة، كثيراً ما يفضل الاتجاه إلى الرواية التاريخية استسهالاً للأمر. فالحوادث قائمة في الكتب ليست في حاجة إلى اختراع. والشخصيات التاريخيات واضحة المعالم في ذهن القارىء المتعلم من قبل أن يفتح الرواية فليست في حاجة إلى الرسم والتحليل النفسي الدقيقين. وما يسهو عنه المؤلف من الأحداث أو معالم الشخصية، يمكن الاعتماد على القارىء اللبيب في إكماله بمعرفته. ثم إن عامة القراء تقبل عادةً على الرواية التاريخية، لاعتقادهم أن الماضي ألذّ وأغنى وأحفل بالأحداث المثيرة من الحاضر المقفر الممل.

وكاتب الرواية التاريخية هو المؤرخ الشعبي بلا منازع. وبدونه لن يصل التاريخ إلى عامة القراء اللهم إلا عن طريق الكتب المدرسية في التاريخ، وهي التي لا يحبها أحد، ولا يستفيد استفادة حقيقية منها أحد. فالجمهور لا طاقة له بالسرد الموضوعي والتحليل البارد والوثائق المملة التي تميز كتب التاريخ الجاد. وهو لا يطلب الحقيقة بقدر ما يطلب التسلية والترويح، ويفضل العرض الشائق السهل، والتفاصيل الطلية الحافلة بالألوان، حتى إن خالطها الكذب، على الحقائق الصارمة الجافة. ومؤلف الرواية ليس مقيداً بمراعاة الدقة التاريخية، ولا يشعر بمسؤولية عما أورده تجاه الأجيال التالية. أما المؤرخ فمقيد بما بين يديه من وثائق، لا يخطّ إلا ما ثبت عنده أنه حقيقة، أو اطمأن إلى رجحانه، ويستشعر المسؤولية لاتجاه أبناء جيله فحسب، وإنما تجاه الأجيال التالية أيضاً إذ يهمه ألا تصمه بالكذب المتعمد.

ولا أقصد من وراء ما ذكرته لتوّي أن أحطّ من قدر الرواية التاريخية. فهي

بادىء ذي بدء قد تكون المدخل الرئيسي ـ أو الوحيد ـ للتاريخ لدى عامة القراء، خاصة إن تحولت بعد ذلك إلى فيلم تاريخي أو تمثيلية تاريخية. ثم إننا ننظر فنرى عدداً من الروايات التاريخية هي من قمم الأدب العالمي، وأذكر على سبيل المثال: «الطلسم» لوالتر سكوت، و «دير بارما» لستندال، و «أنا، كلوديوس» لروبرت جريفز، و «المصير الدموي» لروي أولدنبورج، و «المصارعون» لآرثر كوسلر، و «الملك يجب أن يموت» لماري رينو. ثم أذكر أن أعظم رواية في تاريخ الأدب في رأي غالبية النقاد، وهي «الحرب والسلام» لليوتولستوي، رواية تاريخية.

فالرواية التاريخية، حتى إن اتخذت من يوليوس قيصر أو صلاح الدين موضوعاً لها، قد تجيء هزيلة سخيفة في هزال وسخف أية رواية غرامية تكتب لإرضاء المراهقات متى عجز مؤلفها عن تمثّل الماضي وروحه وأنماط شخصيات المجتمع الذي يصفه. حينئذٍ تصبح حتماً من الأدب الرخيص، وأشبه شيء بالحفلة التنكرية التي تختفي فيها الوجوه وراء أقنعة من الجبس أو الورق المقوّى. والأمثلة على هذه الروايات أكثر من أن تخضع لحصر، أكتفي منها بذكر روايات رفائيل ساباتيني، و «عنبر إلى الأبد» لكاثلين وينسور، و «ذهب مع الريح» لمرجريت ميتشيل. وقد تكون أرفع شأناً ـ في مجال التاريخ ـ من أروع كتب التاريخ البحتة، متى تحولت الوقائع والوثائق، بفضل خيال الكاتب، إلى تجربة عاطفية فريدة، وصورة جلية تنبض بالحياة عن مجتمع لم نره، وأحداث لم نشهدها. ويكفي هنا أن أعيد إلى الأذهان حكم النقاد على تاريخ كارلايل للثورة الفرنسية، ورواية «قصة مدينتين» لتشارلس ديكنز. قالوا: إن كارلايل ـ من أجل تأليف كتابه ـ قرأ كل الكتب والوثائق المتعلقة بالثورة الفرنسية فلم يفهم شيئاً عن روحها، ولم يقرأ ديكنز ـ وهو يعدّ نفسه لكتابة الرواية ـ غير كتاب كارلايل، فأصاب كبد الحقيقة!

وروايات زيدان التاريخية ليست من هذا الباب ولا من ذاك. فهي بالقطع ليست من الأدب الرخيص. وبوسع القارىء العربي المثقف ـ حتى في أيامنا

هذه ـ أن يجد المتعة في قراءتها، وأن يفيد منها، كما أن من النادر أن يكون بوسع المؤرخ المتخصص أن يشير إلى أخطاء تاريخية رهيبة كتلك التي تحفل بها روايات ألكسندر ديماس الأب، أو حتى سير والتر سكوت. وإنه لمن الطريف حقاً أن نجد زيدان ـ دون غيره من كتاب الرواية التاريخية ـ يحرص على أن يورد في هوامش صفحات رواياته ذكراً للمصادر التي اعتمد عليها في ذكر هذا الحادث أو ذاك، أو حتى في وصف هيئة هذه الشخصية أو تلك! غير أنها، في نفس الوقت، ليست من روائع الأدب، لا العالمي ولا حتى الأدب العربي الحديث. كل ما يمكن قوله بصددها هو أنها روايات جيدة، ولا تزال إلى يومنا هذا مقروءة مستساغة، ثم فوق كل شيء، أنها في زمانها كانت فتحاً مذهلاً، بل وحدثاً هاماً في تاريخ الأدب العربي، وأنها خلقت في نفوس قرّائها العرب احتراماً لأنفسهم ولتراثهم، وعرّفت أناساً منهم بتاريخهم لولاها ما كانوا ليعرفونه، وأنها خلّفت تأثيراً عميقاً في أدب طائفة كبيرة من شباب الكتاب في كل الأقطار الإسلامية، بما فيها الهند، نذكر من بينهم محمد فريد أبو حديد، وعلي أحمد با كثير، ومحمد سعيد العريان، ونجيب محفوظ في مرحلته الأدبية الأولى، ثم بالأخص، أديباً من أعظم أدباء سوريا، هو أحمد أرناؤوط (١٨٩٢ ـ ١٩٤٨)، الذي فاق أستاذه، وأضحى في نظر الكثيرين من النقاد أبا الملاحم النثرية العربية.

فمنذ أن كتب جرجي زيدان رواياته هذه، أصبحت الرواية التاريخية النوع المفضل في الأدب المبدع لدى كتّابنا، الذين مزجوا ـ شأن زيدان ـ التقاليد الموروثة من الملاحم الشعبية (أبو زيد الهلالي وعنترة والأميرة ذات الهمة) بالأساليب الفنية المستخدمة في روايات سكوت وديماس وجورج ألفريد هينتي. وقد كان لوالتر سكوت بالذات تأثير ذو حدّين في أدب زيدان. فهو من الناحية الإيجابية قد زوّد زيدان بالأسلوب الفني لمعالجة الأحداث التاريخية. غير أنه من الناحية السلبية كان المسؤول الأول عن اتجاه زيدان إلى خلق صورة رومانسية للماضي الإسلامي وأبطاله. وكان زيدان بدوره المسؤول الأول عن

استمرار هذه الصورة الرومانسية في أذهان عامة المسلمين إلى يومنا هذا.

إن كافة عيوب أدب زيدان تبدو كالكلف على الشمس متى أخذنا بعين الاعتبار خدماته الجليلة للعالم الإسلامي، وللأدب العربي، إلا هذا العيب. غير أن الأمر هنا في حاجة إلى إيضاح.

لم يكن المؤرخون المسلمون في العصر الوسيط بالغافلين عن منهج البحث التاريخي وسبله. وقد طبقوا بالفعل على ما تحصّل لديهم من مادة تاريخية نفس المبادىء العلمية التي ابتدعها ونمّاها علماء الحديث في دراستهم للأحاديث المنسوبة إلى النبي. وما من شك. في أن المؤرخين المسلمين قد حققوا إنجازات رائعة خلال القرنين الثالث والرابع الهجريين، والتزموا بالمعايير العلمية الدقيقة التزاماً لا يزال المؤرخون الغربيون يغبطونهم عليه إلى يومنا هذا. غير أنه بمضي السنين، وبازدياد تحررهم من تأثير الفقهاء ورقابتهم، أثاروا عداوة هؤلاء الأخيرين وريبتهم، وهما عداوة وريبة تحولتا إلى حرب مريرة على المؤرخين في عصور الانحطاط الفكري في الدولة الإسلامية. وقد أسفرت هذه الحرب عن انتصار الفقهاء، وعن اضطرار المؤرخين إلى تبني موقف من أحداث الماضي شبيه بموقف الفقهاء منها، وأضحى الهدف من الكتابات التاريخية هو الهدف الذي حدّده الفقهاء للمؤرخين، ألا وهو أن يكون علم التاريخ وسيلة من وسائل غرس القيم الدينية، والمبادىء الأخلاقية الرفيعة، والمثل العليا، لا تسجيل الحقائق بعد تمحيص ما تجمّع منها.

ومن هنا بدأت تتكون نظرة المسلمين الرومانسية إلى تاريخهم وأبطال ماضيهم، وأضحت للحقيقة التاريخية مكانة تقل في الأهمية كثيراً عن هدف تعزيز الإيمان، والوعظ، وبيان نماذج السلوك التي ينبغي على المتقين أن يحذوا حذوها أو يتجنبوها. تكوّنت لديهم مثلاً صورة ثابتة شوهاء من الصعب تغييرها عن يزيد بن معاوية، لمجرد أن جيشه قتل الحسين بن عليّ وصحبه، غير آخذين في الحسبان كفاءة يزيد الإدارية المتميزة، ولا الآثار الوخيمة التي

كان لا بدّ وأن تعود على الدولة الإسلامية من جرّاء ثـورة الحسين. وهم دائماً منحازون في عواطفهم إلى المأمون في حربه ضد الأمين بتأثيـر القصص التي رواهــا المؤرخـون عن تهتــك الأمين في مسلكـه الشخصي، ووقــار مسلك المأمون، دون أن يلقوا بالاً إلى حقيقة نوايا أنصار المأمون، وهم الفرس الذين ساءهم تغليب الأمين، الخليفة العربي القح، للعنصر العربي عليهم، وأمّلوا أن تكـون لهم الهيمنـة على مقـاليـد الحكم بتـوليـة المـأمـون نصف الفارسي، وهو ما حدث فعلاً.

على أي الأحـوال فإن مثـل هذه النـظرة إلى التاريـخ وشخصيـاتـه التي لا تعـرف فاصــلاً بين التقـوى والسلوك الشخصي، وبين اعتبـارات السيـاسـة والمصلحة العليا للدولة ومقتضيات الإدارة الجازمة الرشيدة، لا يمكن أن تخدم الفهم السليم لمجريات الأمور والأحداث التاريخية، ولا يمكن أن تتمخض إلا عن تمجيد سطحي لهذا، وحط من قدر ذاك، وحنين إلى الماضي من الصعب تبريره أو الدفاع عنه.

ثم جاء الغزو العثماني للأقـطار العربيـة بما صحبـه من موات فكـري، فـانصـرفت غــالبيـة المسلمين عن القــراءة إلا في كتب الأدعيـة والحــديث والحكايات الشعبية، وأدارت للمؤلفات التـاريخية ظهـرها حتى نست مـاضيها أو كادت، وتلاشى التأثير السيء الذي كان لهذه المؤلفات فيما يتصل بـالنظرة الرومانسية إلى الأحداث والشخصيات. وإذ بزغت مع القرن التاسع عشر بوادر نهضـة فكريـة جديـدة، كان جـرجي زيـدان من أبـرز حـاملي شعلتهـا، كـان المفروض أن يتولى هو وأقرانه مهمة تصويب هذا الخطأ. وقد كان من السهل عليهم جميعاً ـ نظرياً على الأقل ـ أن يغرسوا بكتاباتهم في التاريخ الإسـلامي نظرة جديدة إلى ذلك التـاريخ وأبـطاله في أذهـان قرائهم التي بـاتت غالبيتهم جـاهلة كـل الجهـل بـه وبهم، بحيث اعتمـدوا اعتمـاداً كليــاً على المؤلفين المحدثين في تحصيل معـارفهم. غير أن هؤلاء القـادة لم يفعلوا، وتبنّوا نفس

النظرة ونفس القيم والمفاهيم التي كانت للأسلاف، وكانوا أعجز من أن يطبقوا معايير جديدة مستنيرة في الحكم.

وقد كان جرجي زيدان، في رأيي، أقدر أهل ذلك الجيل على توفير هذه المعايير المستحدثة، بدليل ما حفل به كتاباه «تاريخ التمدن الإسلامي» و «تاريخ آداب اللغة العربية» من نظرات صائبة. غير أنه يبدو أن وقته كان أضيق من أن ينمّيها ويوفّرها في رواياته التاريخية، وأن تأثير روايات والترسكوت بتصويرها الرومانسي الخالص لأحداث التاريخ الأوروبي، كانت عنده فوق كل تأثير. وقد لقيت هذه الروايات لزيدان نجاحاً ورواجاً منقطع النظير لدى جمهور القراء، واستمرت إعادة طبعها لا تنقطع إلى يومنا هذا. وقد اطلع هذا الجمهور على أحداث تاريخه في رواياته ربما لأول مرة، وتكيفت نظرته وتكوّن حكمه على هذه الأحداث وأبطالها وفق النظرة والحكم الواردين في هذه الروايات، فكان أن كتبت الحياة من جديد لمعايير القدماء، وهيمنت مقاييس الموتى على الأحياء.

لقاء مع المحقّق الكبير الأستاذ محمود شاكر

١٢ ديسمبر ١٩٨٣

كنت اليوم في «دار الشروق» حين أخبرني صاحبها الأستاذ محمد المعلم أنه ينوي القيام في الثامنة مساءً بزيارة لمحمود شاكر في منزله لتهنئته بفوزه بجائزة الملك فيصل في الأدب، وسألني عما إذا كنت على استعداد لمرافقته. وإذ كنت شديد التطلع إلى مقابلة محمود شاكر منذ قراءتي لكتابه الغريب «أباطيل وأسمار» والمقدمة الشيّقة لكتابه عن المتنبي، ولما أحمله من تقدير لجهوده الفذّة في تحقيق كتب التراث، وما أسمعه عن شخصيته القوية، وآرائه الفريدة، وضخامة تأثيره في دائرة المعجبين به، رغم حدّة طبعه، وسلاطة لسانه، فقد رحّبت بمرافقة المعلّم إليه، وإن خالط سروري شيء من الوجل والرهبة، والخشية من الاصطدام به إن كان قد قرأ بعضاً من مقالاتي في مجلة «المصور» أو كتابي «دليل المسلم الحزين».

وتذكرت ونحن في الطريق إليه حديثاً كان قد دار منذ نحو عام بيني وبين صاحب مكتبة «وهبة» بعابدين.. قصدت المكتبة لشراء الطبعة الجديدة المنقّحة من كتاب ابن سلام «طبقات فحول الشعراء» الذي حقّقه شاكر. وإذ دخلت مع وهبة في حديث عبّرت خلاله عن إعجابي بشاكر كمحقّق، سألني عما إذا كنت أعرف الرجل شخصياً، فأجبت بالنفي. فإذا به يتمتم وهو يبتسم:

ـ أن تسمع بالمعيدي خير من أن تراه.

وسألته مندهشاً: كيف؟ أتعرفه شخصياً؟

ــ قضينــا فتـرة في السجن في زنــزانـة واحــدة خـلال حكم جمــال عبد الناصر. وكنت شديد الإعجاب به قبلها، فلما عاشرته إذا هو أثقل النـاس وطـأة، وأقلّهم أدباً ومـراعاةً لمشـاعـر الآخـرين.. كنت على استعـداد بسبب تقديري العظيم له لأن أكون خادمه في الزنزنانة. غير أنه تقبّل خدمتي له كأمر طبيعي، وعاملني معاملة الخادم الأجير.

ــ أيّ نوع من الشخصيات هو؟

ــ فظّ، فظّ، فظّ! وفي ظنّي أن مفتـاح شخصيتـه يكمن في إحســاسـه العميق بالفشل رغم ثقافته الأصيلة، ومـواهبه الجمـة، وشعوره بـأن حياتـه قد ضاعت سُدى في حين كان مؤهلاً لأن يكون أكبر كاتب في العالم العربي. هذا الإنسـان الضخم الذي حصّـل من الثقافـة الإسلاميـة ما لم يحصّله غيـره ولن يحصّله غيره، ماذا أنتج؟ كتاب عادي عن المتنبي كتبه في صباه، وديوان شعر هزيل ضحل، وكتاب ضخم في هجاء لويس عـوض، ثم تحقيق لبعض كتب التراث. أهذا إنتاج خليق برجل مثله؟ أهو إنتاج يؤهّله لأن يشغل مكانة رفيعـة في حيـاتنا الأدبيـة؟ لقد كـان مؤهّلاً لأن يعـطي الكثيـر. غيـر أنـه لم يفعـل. وإحساسه بقدراته مـع عجزه عن ممـارستها جعلا منه إنسـانـاً حقـوداً مُرّاً فـظّاً لا يطيق أن يرى غيره ينتج ويحرز الشهرة كطه حسين مثلاً الذي لم يحصّل جزءاً من المائة من ثقافة محمود شاكر. وكانت النتيجة أنه راح يدور كالثـور الهائـج يهاجم ويطعن، ويسبّ ويلعن، وينسب المسؤوليـة عن فشله وقلة إنتاجـه إلى آخرين، وعلى رأسهم طه حسين.. إنه، بكل تأكيد، المثل الكلاسيكي لمرارة الفشل.

ــ أهي حالة شبيهة بحالة زكي مبارك؟

ــ لا يا سيدي. مـرارة الفشل تجمـع بين الرجلين، كمـا تجمع بينهمـا كراهية طه حسين والميل إلى إلقاء المسؤولية عليـه. غير أن الفشـل في حالـة

زكي مبارك كان فشلاً في نيل الجاه والثروة والمنصب الرفيع، وهو في حالة محمود شاكر فشل في الإنتاج. وهو الآن وقد جاوز السبعين وبدأت قواه تضعف ونظره يذهب، كلما لمس من الناس إعجاباً وتقديراً زاده ذلك التقدير ثورة ومرارة وهياجاً إذ يزيد من إحساسه بأنه أضاع حياته هدراً ولم ينتج ما كان بوسعه إنتاجه من مؤلفات تهزّ الحياة الفكرية عندنا هزّاً... إنني لا أحب لويس عوض، وأشارك محمود شاكر رأيه فيه. ولكن قارن بالله عليك بين حجم إنتاج لويس وحجم إنتاج شاكر، بين نشاط لويس وتوهّجه وكسل شاكر وقعود همّته، بين تأثير هذا في حياتنا الثقافية وتأثير ذاك...

* * *

وصلنا إلى الشقة ففتح لنا بابها شاب دميم شديد الأُدَمة، يرتدي جلباباً، حسبته الخادم حتى حيّاه محمد المعلم تحية حارّة وناداه باسمه «فهر»، فأدركت أنه ابن ربّ الدار. ودلفنا مباشرة إلى الصالة، فإذا بمحمود شاكر وأم فهر وابنته وزوج ابنته وقد اجتمعوا حول جهاز التليفزيون يتابعون إحدى حلقات تمثيلية مسلسلة. وقد كانت صدمة لي أن أرى هذا العملاق المخيف جالساً أمام التليفزيون يضيع وقته بمراقبة تمثيلية غَثَّة. غير أنه ترك مقعده أمام الجهاز عنْ طيب خاطر، واصطحبنا إلى صالون صغير ملحق بالصالة. وإذا اعتذرنا له عن قدومنا في وقت غير مناسب ودعوناه إلى إكمال مشاهدة التمثيلية، تظاهر ضاحكاً بعدم المبالاة بتفاهات التليفزيون.

هنّأه المعلم بجائزة الملك فيصل، وكان واضح السرور بها. وعندما عرّفته بنفسي لم ألحظ في وجهه أيّ رد فعل، فأيقنت أنه لم يقرأ شيئاً من كتاباتي، كما رجّحت ـ بسبب فتور ترحيبه بي ـ أنه لم يكن على علاقة طيبة بأبي... ثم بدأنا نتحدث عن الجائزة، فقال شاكر في مرارة إنه رغم أهميتها العظمى، ورغم أنه شرف عظيم لمصر أن تُعطَى الجائزة لأحد أبنائها، لم تتحدّث أيّ من الصحف أو المجلات المصرية ولو في سطر واحد عن فوزه

بها، وهو ما ارتآه دليلاً قاطعاً على أن ثمة مؤامرة حكومية ضدّه. غير أن محمد المعلم نفى أن يكون الإغفال مقصوداً، ونسبه إلى قصور من صحافتنا في تغطية الأخبار. ثم قال:

ـ سأتّصل الليلة بأحمد بهجت في الأهرام وأطلب منه أن يكتب مقالاً في الموضوع في الصفحة الأدبية.

قالها بلهجة الواثق من أن أحمد بهجت لا بدّ ممتثل للأمر، وكأنه موظف عنده في «دار الشروق». غير أن هذا لم يكن مفاجأة لي. فأنا أعلم أنه هو الذي طلب من بهجت أن يكتب مقالين في الأهرام في الإشادة بكتابي «دليل المسلم الحزين» وقت صدوره عن الدار، وأن إبراهيم المعلم هو الذي طلب من بهجت أن يكتب مقالات يهاجم فيها سياسة الحكومة حيال تصدير الكتاب المصري، وسياسة مدير الجمارك بصدد استيراد مستلزمات الطباعة، مما يسبّب ضيقاً شديداً لدار الشروق.

ـ هيهات يا سيدي، هيهات! أليس كافة موظفي الأهرام من تلاميذ حسنين هيكل، ذلك الذّنب الأكبر للاستعمار الغربي؟.. وعلى أيّ حال فإن رسالة الأهرام هي هي لم تتغير منذ كان يرأس تحريرها تقلا الذي بصق في وجه أحمد عرابي.. هي عملية الاستعمار منذ عهد تقلا إلى عهد إبراهيم نافع.

ثم شرع يتحدث عن كيف أن لويس عوض، بعد صدور «أباطيل وأسمار»، شعر بأن من واجبه إزاء فداحة الاتهامات التي وجّهها شاكر إليه، وعجزه عن الردّ عليها، أن يتقدّم باستقالته من الأهرام إلى حسنين هيكل، غير أن هيكل رفض قبولها، وأصرّ على أن يواصل لويس عمله وكتاباته في الصحيفة.

ثم قال موجّهاً الحديث إلى المعلم:

ـ أتحسب أن أحداً من زملائي الأفاضل أعضاء المجمع اللغوي خطر

في ذهنه أن يهنئني على فوزي بالجائزة؟ لا يا سيدي. بل إن منهم من بلغت به القحة حدّ الاستهزاء أمامي بقيمتها الأدبية. غير أني لم أعبأ بالردّ أو المعاتبة، إذ ماذا عساي أن أتوقع من أناس كهؤلاء؟

ولاحظ المعلم أن شاكراً لم يوجّه إليّ كلمة منذ أن استقرّ بنا المجلس، ولا يكاد يلتفت إليّ بوجهه أثناء حديثه، فحسب أنه لم يسمع إسمي واضحاً حين عرّفته بنفسي. فانبرى يقول:

ــ الأستاذ حسين أمين هو ابن أستاذنا المرحوم أحمد أمين.

قال شاكر: أعرف ذلك.

ــ وقد نشرنا له مؤخراً كتاباً بعنوان «دليل المسلم الحزين» أحرز نجاحاً عظيماً.. سأرسل إلى سيادتك في الصباح نسخة منه.

فإذا بمحمود شاكر يشير بذراعه إلى الباب المفتوح لغرفة مكتبه (إشارة إلى أن الكتاب موجود بها)، ويتمتم قائلاً:

ــ قرأتُه!

قلت في دهشة:

ــ قرأتَ سيادتك «دليل المسلم الحزين»؟

ــ أيوه يا سيدي!

ــ وما رأيك فيه؟

ــ فَوِّت! (أي لا داعي للحديث عنه).

ــ إسمح لي بأن أصرّ على سماع رأيك مهما كان.

اعتدل في مجلسه ليواجهني، ثم قال:

ــ أتحسبني غافلاً يا سيد حسين عما تفعله؟ أتحسبني غافلاً عن نواياك وخططك من وراء مقالاتك في «المصور» أو كتابك هذا؟ لا يا سيد حسين! لا أنا بالغافل ولا أنا بالأبله حتى أسمّيك كما أسماك عبد العظيم أنيس منذ

أسبوع في «الأهالي» بالكاتب الإسلامي المستنير. ما معنى «الإسلام المستنير» بالله عليك؟ أهناك إسلام مستنير وإسلام غير مستنير، أم أن الإسلام كله نور ومن لم يستنر به لا يجوز وصفه بأنه مسلم؟.. الكاتب الإسلامي المستنير حسين أمين! محمد عمارة! فهمي هويدي! حسن حنفي!! دعني أقول لك إن كل ما تكتبونه هو عبث أطفال. نعم، مجرد لعب عيال! كلكم أطفال.. يقرأ أحدكم كتابين أو ثلاثة فيحسب نفسه مجتهداً ومؤهلاً للكتابة عن الإسلام والإصلاح والاستنارة!.. محمد عمارة هذا تبلغ به الصفاقة والادعاء والجهل مبلغاً يجعله يصف كتاب محمد عبده «رسالة التوحيد» بأنه من أهم ما كتب في التراث الإسلامي في علم الكلام! لا يا شيخ؟!! هل قرأت يا سيد عمارة كل ما كُتب في التراث الإسلامي في علم الكلام ثم وصلت إلى اقتناع بأن هذا الكتاب الهزيل الحقير الغثّ لمؤلفه ضحل الثقافة، من أهمّ الكتب في الموضوع؟! ما هذا العبث وهذا الاستغلال لجهل الناس؟! لا.. الأمر أخطر من ذلك.. إنها مؤامرة!

ــ مؤامرة؟

ــ مؤامرة تستهدف تمجيد رجلين من أخطر عملاء الاستعمار في تاريخ أمة الإسلام: جمال الدين الأفغاني الماسوني، ومحمد عبده الصديق الصّدوق لكرومر.

ودخلت زوجته السمينة، بعد انتهاء التمثيلية، تدور علينا بأكواب الشاي. فرشف شاكر من كوبه رشفة بصوت هائل، ثم عاد يتمتم:

ــ نعم. تبدو مندهشاً. غير أني قائل لك إن المسؤولية عن معظم ما يعاني منه الإسلام اليوم تقع على عاتق هاذين الخبيثين، خاصة الأفغاني الذي هو أُسّ الفساد كله.. وقد تعجبان إن قلت لكما إنني متفق مع لويس عوض في الرأي بأن الأفغاني كان مجرد متآمر وأنه لم يكن صحيح الإسلام.

وعلى أي حال فإن رأي لويس ليس جديداً، وكل هذه الأمور كانت معروفة عن الأفغاني حتى أثناء حياته.

وبدا محمد المعلم نفسه مذهولاً، رغم صلته الوثيقة القديمة بشاكر. فكان أن خيّم علينا الوجوم، وساد المجلس سكون لم يقطعه غير صوت احتساء رب الدار لشايه وقد بدا غير عابىء بما أصابنا.

ـ ألف حسرة على العالم الإسلامي وأمة الإسلام!. جهل مطبق بالفكْر الإسلامي وبالتاريخ الإسلامي.. تدهور رهيب في اللغة العربية.. نظم التعليم في مدارسنا غربية محضة.. حتى الجماعات المسماة بالإسلامية قد ألقت بتراث أربعة عشر قرناً في صندوق القمامة.. نعم. ولكنهم ينبرون للتهليل لإسلام جارودي وكأنه حدث هام في تاريخ الإسلام، وذلك لمجرد أن هذا الأفّاق الإنتهازي نطق أمامهم بالشهادتين وأثنى على الإسلام في كتب له كلها أخطاء وكُفر ومغالطات.. وبعضهم يهلّل للخميني والثورة الإيرانية والإثنا عشرية، وما منهم من يدري أن الإثنا عشرية هم غُلاة الشيعة لا معتدلوها كما يزعمون، وأن الخميني كافر زنديق.

ـ كافرْ زنديق؟

ـ بالتأكيد.. ألم يقل بتحريف القرآن وتزنية عائشة؟

قلت: إزاء فرحة اتهامك للأفغاني ومحمد عبده، سأكون شاكراً لو فصّلت لنا الأمر.

ـ وسأكون أنا شاكراً لو غيّرت الموضوع.

ـ وهو كذلك.. هل لي أن أسألك سؤالاً يحيّرني منذ مدّة؟

ـ قل.

ـ ما السبب يا تُرى في قلة إنتاجك مع غزارة علمك؟

امتقع وجهه امتقاعاً شديداً لسؤالي، وخُيِّل إليّ لأول وهلة أنه في سبيل أن يسبّني سبّاً غليظاً. غير أنه سرعان ما تمالك نفسه وقال في هدوء:

ـ لماذا توقفتُ عن الكتابة بعد صدور كتابي عن المتنبي؟ أقول لك بكل بساطة يا سيد حسين إنني خشيت على نفسي من أن يصيبني الغرور. لقد كتبت «المتنبي» في أيام الحداثة، ووصلني بعد صدوره أكثر من ثمانين رسالة تثني عليه وترفعه إلى السماء. وظللت مدة لا تكاد الدنيا تسعني من النشوة والزهو، إلى أن أفقت لنفسي. أفقت لنفسي وقررت التوقف عن الكتابة. بالضبط كما فعل الشاعر على محمود طه ولنفس السبب... الكتابة لا تهمني وإنما تهمني نفسي وتقويم ذاتي.. وكان أن انصرفت إلى تحقيق الكتب القديمة وبذلت كل جهدي وطاقتي في أن يكون التحقيق غاية في الدقة والإتقان.

ـ غير أنك توقفت عن إكمال تحقيقك لتفسير الطبري..

قال في ضيق وهو يتململ في مقعده:

ـ نعم. لأن الناشرين معظمهم لصوص.. لا تؤاخذني يا محمد بك! ولأن الناس لم تعد تقرأ.. فإن قرأوا فليست الكتب الجادة هي التي يقرأونها، وإنما يقرأون لأنيس منصور، ومحمود السعدني، ومحمد عمارة..

ـ وحسين أمين.

ـ وحسين أمين!

ـ هل لي أن أسألك عن علاقتك بوالدي كيف كانت؟

ابتسم ابتسامة خبيثة ثم قال:

ـ فوِّت!

ـ لا يا أستاذ شاكر لن أفوِّت!

ــ لم أكن أحبّه.

لحظة صمت.

ــ ولم؟

ــ ما كلّ هـذه الأسئلة المحرجة؟ تريد أن تعرف لماذا لم أكن أحبه؟ حسناً. لم أكن أحبه لأنه كان رجلاً خبيثاً داهية.

ــ لم يكن ثمة رجل أطيب قلباً ولا أبسط من أبي.

وانفجر شاكر ضاحكاً. ولدهشتي البالغة إذا بمحمد المعلم هو أيضاً يشاركه الضحك لقولي إن أبي كان طيب القلب.

قال المعلم:

ــ لا تؤاخذني يا حسين بك، ولكن المرحوم أحمد أمين لم يكن طيب القلب على الإطلاق، ولا كان رجلاً بسيطاً.

ــ كيف؟ كيف؟

قال شاكر:

ــ لن نخوض في هذا الأمر.. عبد الوهاب عزام، على عيوبه، كان رجلاً طيباً بسيطاً، أما أحمد أمين فلا. ولكنه على أي الأحوال لم يكن في خبث طه حسين ودهائه ومكره.. غير أن ما أعيبه حقيقة على أحمد أمين هو أنه وهو الرجل العالم المثقف الذي كان بوسعه أن يقدّم فكراً جديداً مبتكراً في ميدان الدراسات الإسلامية، والذي يَجُبُّ علمُه علمَ كافة المستشرقين، استسلم وأذعن لتأثير طه حسين وآرائه، ووقف موقفاً ذليلاً من أحكام المستشرقين الخبثاء الحاقدين على الإسلام، وتبنّى في كتبه فجر الإسلام وضحاه وظهره هذه الأحكام، دون أن يجرؤ على تفنيدها والتّصدّي لها... ما هذا الذُّلّ، وهذه الاستكانة، وهذا الضعف، سواء منك أو من أبيك، تجاه المستشرقين الغربيين؟ أهم أدرى بتراثنا وأقدر على إصدار الأحكام بصدده من

علمائنا نحن الذين نهلوا من هذا التراث مع لبن أمهاتهم ونشأوا عليه منذ نعومة أظفارهم؟ كيف يكون من حق «خواجة» بدأ في تعلم العربية في سن العشرين أو الثلاثين، ويظل «يتهته» بها إلى أن يموت، أن يُدلي برأيٍ في المعلقات السبع، وأن يصدر حكماً على المتنبي أو أبي العلاء؟ كيف تسوّغ لمسيحي صليبي نفسه أن يتحدّث عن الأشاعرة أو المعتزلة حديث الواثق المطمئن لمجرد أنه قرأ كتابين أو ثلاثة في الموضوع؟ أيجوز لي، وأنا العربيّ، مهما بلغ إتقاني للغة الإنجليزية والأدب الإنجليزي أن أؤلف كتاباً عن تشوسر شبيهاً بذلك الذي كتبه بلاشير الفرنسي عن المتنبي؟ هل أسمح لنفسي، وأنا المسلم، أن تبلغ بها الصفاقة والغرور حدّ الكتابة عن دقائق الاختلاف بين المذاهب المسيحية؟ كيف يمكن لعالم إسلامي فذّ كأحمد أمين أن يقع في فخّ هؤلاء الصليبيين؟ الأمر في حالة طٰه حسين أيْسر فهماً؛ فهو لم يقع في الفخ، وإنما قرّر باختياره الحرّ أن يشارك الصليبيين في نصف الأفخاخ لبني قومه ودينه. أما أحمد أمين، بالرغم من ذكائه وعلمه وصدق إسلامه، فقد وقع «زيّ الشاطر» في حبائل الشيطان.

ثم استطرد يقول:

ــ كلّمني هذا الصباح المدعو مارسدن جونز الأستاذ بالجامعة الأمريكية بالقاهرة، يريد أن يجتمع بي.. رفضت، وقلت له إنني لا أريد أن أجتمع به. أتسمع عن مارسدن جونز هذا؟

ــ محقّق كتاب «المغازي» للواقدي.

ــ آه! حتى أنت قد صدّقت هذه الأكذوبة كسائر الناس.. مارسدن جونز لم يحقّق مغازي الواقدي ولا بذل فيه إلا أضعف الجهد. وهذا هو السبب في أني رفضت مقابلته. فقد حدث يوماً أن جاءني رجل مصري «غلبان» إسمه عبد الفتاح الحلو، وأخبرني أنه هو الذي حقق كتاب المغازي من أوّله إلى آخره بناء على تكليف من مارسدن جونز ومقابل بضعة جنيهات كان في حاجة ماسة

إليها، ولمَ يظهر إسمه على الغلاف لا باعتباره محققاً ولا حتى باعتباره مشتركاً في التحقيق، واكتفى جونز بالإشارة إليه في المقدمة باعتباره أحد الذين قدموا له العون أثناء تحقيقه للكتاب!! هذا مجرد مثل لأخلاقيات هؤلاء المستشرقين الذين تغنّى والدُك بفضلهم!

ــ وما الذي مال بك إلى تصديق زعم عبد الفتاح الحلو دون تصديق زعم مارسدن جونز أنه محقق الكتاب؟

قال شاكر في ضيق وهو يتململ في كرسيّه مؤذناً بانتهاء الجلسة:

ــ الذي مال بي إلى تصديق زعم الحلو يا سيد حسين هو معرفتي بأخلاقيات المستشرقين.. بالمر، جيب، ماسينيون، مرجوليوث، شاخت، كلهم خنازير استعماريون. وإني لأردّ على كل عربي يتحدّث عن فضل هؤلاء سواء في تعليمنا المنهج العلمي في تحقيق التراث أو في كتابة التاريخ. أو غير ذلك، بأن المسلمين هم الذين خرجوا على الدنيا في عصرهم الذهبي بالمنهج العلمي في التأليف، وهم الذين ابتدعوا وضع الفهارس للكتب لا الغربيون كما يدعون..: لقد وضعت بنفسي فهارس كتاب المقريزي «إمتاع الأسماع» الذي حققتُه، فوصلتني رسالة من مستشرق فرنسي شهير يُبدي فيها انبهاره بروعة هذه الفهارس، ويقول إنه ليس بوسع أي غربيّ أن يأتي بمثلها.. فالمسألة إذن ليست مسألة فضل، وإنما هي تتعلّق بخيبة المسلمين المحدثين حيال تراثهم.. كل الأمور معنا تسير من سيء إلى أسوأ؛ في الثقافة، والسياسة، والاقتصاد، والأخلاق، أو ما شئت.. والله سبحانه وتعالى إنما يعاقبنا على ما نرتكب وما نهمل، وهو على كل شيء قدير.

وتحرّك في مقعده حركة من يهمّ بالوقوف، فنهضنا على الفور للإنصراف.

ــ بدري يا جماعة!

وكرّر محمد المعلم عند باب الشقة وعده بأن يتصل بأحمد بهجت حتى يكتب عن الجائزة. قال شاكر:

ـ لا تتعب نفسك... لن ينشروا شيئاً. إنها مؤامـرة يا صـديقي، وعزم قاطع من جانب السلطة على ألا يُذكر إسم العبد الفقير في الصحف والمجلات لا بخير ولا بشرّ حتى ينسى الناس وجودي.. لا بأس.. لا بأس.. شرّفتم... خطوة عزيزة.

وعاد المعلم يهنّئه بالجائزة. غير أني حين حـاولت أن أحذو حـذوه لم يطاوعني لساني.

«خلق الله جمال الطبيعة في سائر أنحاء الدنيا
من أجل البشر، وخلق جمال البرازيل لنفسه!».

مثل شعبي برازيلي

ها أنذا أسجل انطباعاتي عن دولة البرازيل ولمّا تمض على إقامتي بها بضعة أشهر. وقد شجعني على الإقدام على هذه الخطوة المتسرّعة بعض الشيء قولة بريستلي الشهيرة: «من حق المرء أن يتحدّث عن دولة أجنبية بعد إقامته بها إما لمدّة اثني عشر يوماً أو اثني عشر عاماً، أما فيما بين هاتين المدّتين فلا يجوز له الحديث عنها»! فهي إذن ـ كما ذكرت ـ مجرد انطباعات أولى. وقد أعود إلى القارىء بعد اثني عشر عاماً للحديث عن البرازيل حديثاً أعمق وأشمل!

دولة نامية أم متقدمة؟

أول سؤال يفرض نفسه على زائر هذا البلد هو ما إذا كانت البرازيل تنتمي إلى مجموعة الدول النامية أم المتقدمة. فالنظرة الأولى، خاصة إلى مدن الساحل الشرقي وإلى العاصمة «برازيليا»، توحي برخاء جم، وتقدم في التكنولوجيا والصناعة ليسا بدون الرخاء والتقدم في دول أوروبا الغربية، مع إمكانيات وثروات لا حدود لها وحديث دائم عن أوجه النشاط الإنتاجي وغيرها بصيغة أفعل التفضيل؛ وهي الصيغة المفضلة في حديث البرازيليين عن بلادهم وعن أنفسهم.

فهنا دولة تبلغ مساحتها أكثر من مساحة أوروبا الغربية والشرقية معاً (إذا استبعدنا الاتحاد السوفييتي)، ولا يفوقها في الاتساع غير الاتحاد السوفييتي والولايات المتحدة والصين وكندا. وقد اكتشفوا منذ أشهر قلائل أن نهر الأمازون أطول من نهر النيل ببضعة أميال، فبات نهرها أطول أنهار العالم. والعاصمة «برازيليا» هي أحدث مدن العالم تخطيطاً ومعماراً، كما أن العاصمة السابقة «ريو دو جانيرو»، بشهادة الكثيرين ممن يعتدّ برأيهم، وعلى رأسهم الكاتب النمساوي الشهير شتيفان تسفايج، هي أجمل مدن الدنيا قاطبة. والشعب البرازيلي هو أكبر أمة كاثوليكية في العالم، ولا يفوق تعداده (١٣٥ مليون نسمة) غير تعداد الصين والهند والاتحاد السوفييتي والولايات المتحدة وإندونيسيا. ولا يفوق البرازيليين في فن الطهي غير الفرنسيين والصينيين. أما في مجال الاقتصاد فإن الناتج القومي الإجمالي الذي يقدر بنحو ٢٣٠ بليون دولار يحتل المرتبة الثامنة بالنسبة لاقتصاد دول العالم. وهي الدولة الأولى في إنتاج البن والسكر والبرتقال وفي احتياطي الذهب، والثانية (بعد ساحل العاج) في إنتاج الكاكاو، وبعد الولايات المتحدة. في إنتاج فول الصويا، والحديد الخام، ومن حيث قيمة الصادرات الزراعية والسلع المشتقة من الإنتاج الزراعي، والثالثة في إنتاج الذرة (بعد الاتحاد السوفييتي والصين)، واللحوم (بعد الولايات المتحدة وروسيا)، والرابعة في إنتاج المنجنيز، والخامسة في إنتاج القطن والدبابات، والسابعة في إنتاج الألومنيوم والنحاس، والتاسعة في إنتاج الصلب، والعاشرة في إنتاج السيارات والأسمنت وتوليد الكهرباء.

فإن كان هذا هو الوضع، فما بال البرازيل صاحبة أكبر دين خارجي من بين دول العالم (١٠٤,٤ بليون دولار)، ورابع أكبر معدل للتضخم (٢٢٥٪ سنوياً) بعد إسرائيل وبوليفيا والأرجنتين؟ وما سر هذه المشكلات الاقتصادية الرهيبة التي تركت بصماتها على الكيان الاجتماعي والسياسي للدولة، وهذا الفقر الذي تعيش في ظله غالبية السكان، وحياة الفطرة التي

يحياها سكان البلاد الأصليون من الهنود الحمر، وارتفاع نسبة البطالة إلى أكثر من ٧٪، ثم مـا ترتب على الفقـر والبطالـة من انتشار جـرائم السـطو المسلح والسرقة والاعتداء على المتاجر، مما رفع البرازيل إلى المرتبة الثانيـة من بين دول العالم (بعد كولومبيا) في عدد السرقات بالإكراه، ومما كان له تأثيره الضار في قطاع السياحة الذي كان يحتل حتى عام ١٩٨٣ المرتبة الثالثـة في الأهمية بالنسبة للاقتصاد البرازيلي؟

ابن اللورد!

في رأيي أنه مما يساعدنا على فهم طبيعة هذه المشكلات، تشبيه سلوك البرازيل بسلوك ولد لأحد أثرياء اللوردات، لا يزال أبوه على قيد الحياة، والولد مـع قلة ما في يـده من مال يصـرّ على أن يعيش حياة رغـدة تليق بما يبشـر به المستقبل ـ بعد أن يـرث ثروة أبيـه ـ من ترف عـظيم، ولا يرى وسيلة لتحقيق مراده غير الاستدانة من هنا وهناك، ومن كل من هب ودب، والدائنون يقدمون له القروض عن طيب خاطر، لاطمئنانهم إلى قدرتـه على سدادهـا حين ينتقل والده المسنّ إلى رحمة الله!

يقول المثل المصري: «على قدر لحافك، مدّ رجليك!». وهذا بالضبط هو ما تأبى البرازيل أن تفعله. فهنا اطمئنان كامل إلى المستقبل، إلى ما سيأتي به الغد من رخاء عميم بالنظر إلى الإمكانيـات الهائلة ومصـادر الثروة التي لم تستغل بعد، وهي ما يؤكد الجميع ـ في الداخـل والخارج ـ أنهـا ستجعل من البرازيل في المستقبـل القريب إحـدى الدول العـظمى في العالم، بـل ومارد القرن الحادي والعشـرين. وعلى أساس هـذا الاطمئنان إلى المستقبـل (رغم ضخامة المشكلات الراهنة وفداحة الدين الخارجي) يتصرف البـرازيليون. . . أراد حكامها منذ عام ١٩٥٦ أن يدفعوا عجلة التقدم في البلاد بحيث ينجـزون خلال خمس سنوات مـا لا ينجزه غيـرها خـلال خمسين! وهو مـا تمّ لهم فعلاً بفضـل ترسيـخ دعائم الانتـاج الصناعي، خـاصة صنـاعـة الحـديـد والصلب

والصناعات الثقيلة. وقد كان سبيلهم إلى ذلك هو اللجوء إلى طلب القروض من الخارج، وتشجيع الاستثمارات الأجنبية من أجل استغلال المناطق الداخلية وتعميرها، بعد أن كانت العناية منصبّة في الماضي على المناطق الساحلية في الشرق. وقد شجّعتهم صورة المستقبل المضيء على تجاهل القيود التي يفرضها حجم الموارد الراهنة. فهم لا يريدون أن ينشئوا مدناً أو يؤسسوا صناعات أو يضعوا برامج لا تليق بمستقبلهم كدولة عظمى... فحين شرعوا عام ١٩٥٧ في بناء عاصمة جديدة في الداخل تكون أقرب إلى المناطق المراد تعميرها من ريو دو جانيرو الساحلية، أنفقوا على بنائها البلايين من الدولارات، وكانوا ينقلون إلى موقعها أكياس الأسمنت وقضبان الصلب ومعدات البناء الثقيلة بالطائرات عبر مئات الأميال! غير أن النتيجة والثمرة كانتا «برازيليا»، مدينة المستقبل، مدينة القرن الحادي والعشرين، لا يفوقها في جمال معمارها أي من عواصم العالم. وهم حين قرروا إنشاء مترو الأنفاق في ثلاث من المدن الكبرى، جعلوا منه أكثر نظم مترو الأنفاق تقدماً في العالم. وقد أطلقت البرازيل أقمارها الصناعية، وأدخلت الكومبيوتر في كافة مجالات نشاطها الاقتصادي، وطوّرت صناعاتها الإلكترونية بحيث لم يعد لها في ميدانها غير القليل من المنافسين، وحفرت مئات ومئات من الأنفاق في بطون الجبال، وشقّت أكثر من مليون ونصف مليون كيلو متر من الطرق المرصوفة حتى عبر الجبال الصخرية الشاهقة، وأقامت ناطحات السحاب من المباني في المدن الرئيسية. غير أن الأهم من ذلك كله هو العناية الفائقة بالصناعة. فقد تمكنت البرازيل خلال ربع القرن الماضي فقط من تصنيع كل ما تحتاج إليه وكل ما يغنيها عن الاستيراد من العالم الخارجي، من الكمبيوتر إلى السفن والطائرات والسيارات والملابس وأجهزة التيليفزيون والفيديو والآلات الحاسبة والأسلحة والذخيرة والأدوية والورق والصناعات البتروكيميائية والميكانيكية والمعدنية. وكانت رغبتها الملحة في تصدير فائض إنتاجها إلى العالم حافزاً لها على استخدام أحدث وسائل التكنولوجيا من أجل إنتاج سلع تعنى بمتطلبات

السوق الدولية وتنافس منتجات الدول المتقدمة.

كل هذا كان له الفضل في تقريب البرازيل من مستوى الدول الصناعية الغنية. لقد ظلت أمداً طويلاً، وحتى الماضي القريب، دولة زراعية، وكان العالم الخارجي لا يكاد يعرف عنها غير إنتاجها للبن، (ولراقصة السامبا الشهيرة كارمن براندا!)، تماماً كما كان لا يعرف عن اليابان غير إنتاج الراديو ترانسيستور ولعب الأطفال! أما اليوم، فقد بلغت قيمة صادراتها نحو ٢٦ بليون دولار سنوياً، أربعة أخماسها من السلع الصناعية.

أيلول الأسود:

ولأجل تحقيق هذه الطفرة الهائلة، كان على البرازيل أن تدفع الثمن. وهو ثمن باهظ نجده اليوم يرهق كاهلها ويؤرّق حكومتها، دون أن يفقد شعبها ثقته في المستقبل. قلنا إنه كان عليها من أجل الإنفاق على كل هذه المشروعات الطموحة أن تلجأ إلى الاقتراض، الاقتراض من الحكومات والبنوك الأجنبية ومن صندوق النقد الدولي. وكانت معظم هذه القروض قصيرة الأجل وذات فوائد بلغت حوالي ١١,٥٪. وكان سبيل البرازيل إلى دَفع قيمة الفوائد المستحقة، إلى جانب زيادة صادراتها، هو طلب المزيد من القروض، هي أيضاً قصيرة الأجل وذات فوائد باهظة. وقد عرفت البرازيل هي الأخرى «أيلول الأسود». وكان أيلولها الأسود (سبتمبر ١٩٨٢) حين وجدت لزاماً عليها سداد عشرين بليون دولار من الأقساط والفوائد واجبة الأداء، منها ١١ بليون دولار فوائد على أصل الدين، فلم تتمكن من أن تسدد غير ثلث هذا المبلغ. وكان أن أسفر الوضع عن ظهور أزمة ثقة لدى البنوك العالمية والحكومات الأجنبية في قدرة البرازيل على سداد ديونها، بل وعلى مجرد سداد فوائد هذه الديون. عندئذٍ تراجع الدائنون عن منح تسهيلات ائتمانية جديدة لها ما لم يثبت اقتصادها جدارته بالثقة، وانبرى صندوق النقد الدولي يحاول أن يفرض على البرازيل شرط اتخاذ إجراءات تقشف و«إصلاح» تمكّنها من تسديد الديون،

كخفض الإنفاق الحكومي، وتجميد الأجور والمرتبات، وتخفيض قيمة العملة، ورفع الضرائب، والتركيز على الاستثمار في مجالي الزراعة والطاقة دون الصناعة، وإلا امتنع عن تقديم قروض جديدة. غير أن البرازيل ردّت غاضبة بأنها ترفض مثل هذه الوصاية وهذا التدخل الأجنبي في سيادتها الوطنية، والحدّ من حريتها في انتهاج السياسة التي تريد، وبأن من حقها أن تطلب إعادة جدولة تواريخ استحقاق الديون، خاصة أن جزءاً كبيراً منها كان في صورة أجور للخبراء الأجانب.

ومع ذلك فلا شك في أن البرازيل تحرص أشد الحرص على تهدئة مخاوف الممولين الدوليين، وإقناعهم بتقديم قروض جديدة، إلى حين «وفاة الأب العجوز»! لذا فقد اتجهت بكل طاقاتها إلى زيادة صادراتها إلى أقصى حد ممكن، وتقليل وارداتها إلى أدنى مستوى، حتى توفر فائضاً في الميزان التجاري يمكنها من سداد فوائد ديونها على الأقل. ولا تعدو الحقيقة إن قلنا إن هذا الهدف الأسمى هو أهم عامل - إن لم يكن العامل الأوحد - الذي يصوغ سياسات البرازيل الداخلية والخارجية. فالدولة ذات الحاجة الملحة إلى زيادة صادراتها تحاول دوماً أن تكون على علاقة طيبة وثيقة بالجميع، وأن تبادر إلى تسوية أية خلافات تدبّ بينها وبين غيرها من الدول. فإن اضطرتها ظروف دولة خارجة عن إرادتها إلى التظاهر بالانحياز إلى جانب دون آخر في نزاع لا شأن لها به، حدّدت لها حساباتها وعلاقاتها الاقتصادية ومصالحها التجارية أي الأطراف تؤيده في المحافل الدولية. وهو تأييد نادراً ما يأخذ عدالة القضية بعين الاعتبار.

فن الاستمتاع بالحياة:

غير أن الذي يبدو واضحاً جلياً للأجنبي الزائر لهذا البلد، هو أن الشعب البرازيلي قد ترك لحكومته وسياسييه مهمة القلق إزاء كيفية التخلص من هذه

الورطة الاقتصادية، وانصرف هو بكليته إلى ممارسة فن الاستمتاع بالحياة. ولا أعني بقولي هذا عزوفاً عن الإنتاج والعمل، وإلا لما حقق الشعب خلال سنوات قلائل هذه النهضة الاقتصادية الرائعة التي لا يكاد يكون لها نظير سوى تلك التي شهدتها ألمانيا الاتحادية بعد الحرب العالمية الثانية. وإنما أعني تلك القدرة المذهلة على الجمع بين الإنتاج واللهو، مع عشق للحياة وإقبال نهم على الاغتراف من مباهجها، ومرح زائد، ونفور طبيعي من كل ما من شأنه تنغيص المتعة، وتكدير المزاج.

تحدّث عن جمال الطبيعة في البرازيل ما شئت، أو عن سحر ريو دو جانيرو. غير أن أجمل ما في البرازيل في اعتقادي هو طبيعة شعبها. وقد كان أول ما ذكره لي القنصل البريطاني في ريو خلال الأسبوع الأول من إقامتي أنني لن أقدر حق التقدير مدى سماحة هذا الشعب وطيبته واستعداده المطلق لمعاونة الغير وخدمته دون انتظار مقابل، إلا حين أترك البرازيل إلى أي بلد آخر. صحيح أن الأزمة الاقتصادية الراهنة، والتضخم الرهيب، وسوء أحوال الأمن، قد حدّت بعض الشيء مما عرفوا به من كرم الضيافة والترحيب بالغرباء. غير أنهم لا يزالون مع هذا أكرم شعوب الأرض وألطفها عِشرة. وقد مرت بي الآن هنا بضعة أشهر زرت خلالها عشر مدن، لم يطرق سمعي خلالها صوت غاضب، ولا رأت عيني شجاراً في طريق، أو مظاهر انفعال، إلا أثناء مباريات كرة القدم! لا أدخل مع عائلتي مطعماً إلا وجدنا مائدة على الأقل قد أتى الجالسون إليها بآلات موسيقية يعزفون عليها ويغنون على أنغامها قبل الأكل وأثناءه وبعده. ونذهب إلى شاطىء البحر المزدحم دائماً طيلة أيام الأسبوع، فإذا العزف والغناء والرقص على قدم وساق، ولعب الكرة والضحك والغزل. والملابس هنا على الشاطىء، سواء الرجال أو النساء، لا يكاد قماشها يكفي لصنع بدلة بحر محتشمة لعصفور صغير! فالعري في البرازيل - ربما بتأثير الأفارقة والهنود الحمر وحرارة الجو - غير مستنكر أو مستهجن، ولا يلفت غير أنظار الأجانب. وليس أمراً نادراً أن تبادرك عائلة برازيلية تجلس على مقربة

منك وعائلتك بالحديث، ثم تبادر بعد الحديث إلى دعوتكم لزيارتها في دارها وتناول وجبة طعام معها.

وبوسعنا أن نقول في ثقة إن الرقص والبحر وكرة القدم وكارنفال شهر فبراير هي أهم ما يشغل بال البرازيليين. أما الاهتمام بالسياسة فلا يكاد يخطر بذهن أحد غير من اختار لسوء حظه ونكد طالعه أن يشتغل بها. وقد قابلت هنا من الشباب البرازيلي من لا يعرف اسم رئيس جمهوريته، ناهيك عن اسم رئيس جمهوريتي! واهتمامهم بشؤون العالم الخارجي ضئيل للغاية، أو قل هو غير قائم أصلاً، كما أن الصحف ووسائل الإعلام الأخرى لا تخصص لهذه الشؤون من المساحة أو الوقت إلا قدراً يفرضه الواجب وتحتّمه اللياقة. فإن ذكروا الولايات المتحدة فإنما يجيء ذكرها بمناسبة قرار مجلس الشيوخ الأمريكي فرض قيود على استيراد الأحذية أو عصير البرتقال من البرازيل. وهو الأمر الوحيد الكفيل بإغضابهم! ولا أدري ما إذا كان عدد كبير منهم قد سمع بالحرب العراقية الإيرانية، فإن كانوا قد سمعوا بها فلا بد أن يكون السبب هو إبرام العراق صفقة كبيرة لشراء الدبابات البرازيلية «كاسكافيل» لاستخدامها في تلك الحرب!

وهم ـ عكس الكثير من شعوب أمريكا اللاتينية الأخرى ـ شديدو الكراهية للثورات والحروب وكل مظاهر الإرهاب والعنف.. شعب وديع يفضل الغناء على الشكوى، والرقص على الشجار، خاصة أهل ريو دو جانيرو المعروفين باسم «كاريوكا» الذين لا يرون شيئاً أهم وأخطر من أن يكون مثاراً للمرح ومداراً للضحك. ولم تعرف البرازيل في تاريخها ثورة دموية واحدة، أو اغتيالاً لزعيم سياسي، أو إرهاباً أو حرب عصابات، رغم حدوث بعض المواجهات في مناسبات معينة بين وحدات من الجيش وجماعات من المتظاهرين كانت دائماً تنتهي بتبادل القبلات والنكات، قبل أن ينصرف كل من الفريقين إلى شأنه، ودون إطلاق رصاصة واحدة.

فأما عن الكارنفال الأكبر في شهر فبراير فهو حدث تفوق أهميته عندهم أهمية عيد الميلاد المجيد وعيدي الفصح ورأس السنة. والبرازيليون يعيشون سائر عامهم على ذكرى الكرنفال المنصرم، واستعداداً للكارنفال التالي. وهو لا يقتصر على حيّ من أحياء المدينة أو على طبقة اجتماعية من الطبقات وإنما هو بمثابة احتفال صاخب يشارك فيه الكافة في مختلف أنحاء البلاد. وإنك لواجد أفقر الفقراء هنا وما مِنْ همّ عنده غير أن يكسب خلال العام ويدّخر ما يمكّنه من شراء زيّ تنكري باهر لهذه المناسبة المجنونة التي يظلل الناس فيها على مدى أربعة أيام وخمس ليال متتالية لا يعرفون النوم، ولا يتوقفون عن رقص السامبا والغناء وعزف الموسيقى وقرع الطبول والطواف بالشوارع لعرض أزيائهم العجيبة بهيجة الألوان. غير أن الحديث عن كرنفال البرازيل في حاجة إلى مقال طويل يُفرد له.

وأما شاطىء البحر فيلعب هو الآخر دوراً رئيسياً في حياة البرازيليين، من سكن منهم على الساحل أو في مدينة بالداخل. وقد لجأت الحكومة الفيدرالية إلى عشرات الوسائل من أجل تشجيع البرازيليين على استيطان المناطق الداخلية والسكنى في العاصمة الجديدة، كمضاعفة الأجور والمهايا فيها، والإعفاء من الضرائب، وتخفيض إيجارات المساكن. غير أن البحر ظل دائماً عامل جذب يحول دون الابتعاد عنه لمسافة طويلة، أو لمدة طويلة. والحياة على شاطئه تبدأ في ساعة جدّ مبكرة من اليوم. فمنذ الخامسة صباحاً تجد الشباب يلعبون الڤولي أو كرة القدم، والكبار يؤدون تمرينات الصباح الرياضية قبل توجههم إلى مكاتبهم ورجال الأعمال يبرمون الصفقات التجارية ويوقعون العقود وهم مسترخون على الرمال في ملابس البحر، والباعة المتجولون يمرون وعلى رؤوسهم صينيات نحاسية كبيرة تحمل جوز الهند والأناناس والبرتقال وعصير الفاكهة، ورجال الشرطة يراقبون ملابس السابحين في البحر خشية أن

يخطفها اللصوص، والنساء وقد ارتدين «البيكيني» (والبيكيني من اختراع البرازيليين) يأتين بأطفالهن الرضع في سلال من القش للاستمتاع بالشمس ونسيم البحر، والمربيات يراقبن الصبية والصبايا يمرحون بين الأمواج العالية، أو يذاكرون في كتبهم المدرسية، والفتيات يقابلن أصدقاءهن، أو يرين صديقاتهن خاتم الخطوبة. حتى إذا ما اكتملت الدورة، إذا بصبية الأمس وقد جاءت بوليدها إلى الشاطىء في سلة من القش، للاستمتاع بالشمس ونسيم البحر!

غير أن أغرب المناظر طراً وأحفلها بمظاهر الوثنية ورواسبها ذلك الذي تراه على الشاطىء ليلة رأس السنة من كل عام.. آلاف مؤلفة من وثنيي البرازيل ومسيحييها على سواء، تتوجه في حوالي العاشرة من مساء ٣١ ديسمبر إلى شاطىء المحيط في ملابس بيضاء، يحملون الشموع البيضاء الموقدة في يد، والقرابين في الأخرى. أناس من مختلف الأعمار والأجناس والألوان والطبقات، قد تبنى المسيحيون منهم هذا الجانب من عقيدة الوثنيين المدعُوّين بالماكومبا، المتأثرة بدورها بديانات الأفارقة والهنود الحمر. حتى إذا ما وصلوا إلى الشاطىء، شرعوا يرسمون علامات غريبة على الرمال، ويفرشون المفارش البيضاء ليضعوا عليها القرابين التي سيقدمونها لإلٰهة البحر «بيمانيا»، من زهور وعطور ونبيذ ودجاج وأمشاط ومرايا، وحولها سياج من الشموع المضاءة. ثم يشرعون في الترنم بترانيم خاصة، ثم في الرقص وقرع الطبول. حتى إذا ما أعلنت دقات الساعة منتصف الليل، إذا بالصواريخ الملونة تُطلق، والأجراس تدق، والصرخات تعلو، وإذا هؤلاء القوم جميعاً وقد نزلوا إلى البحر بهداياهم وأزهارهم، فلا يخرجون حتى تأخذها الأمواج بعيدة عن أنظارهم. حينئذٍ يطمئنون إلى أن إلٰهة البحر قد تلقت قرابينهم قبولاً حسناً، وأنها ستحقق لهم أمانيهم وأحلامهم خلال العام الجديد!

البوتقة الكبرى:

هنا إذن، وعلى نحو شبيه إلى حدٍ ما بما حدث في الولايات المتحدة

الأمريكية، قد امتزجت الأجناس والأديان والعادات والتقاليد في بوتقة واحدة، بعد موجات متعاقبة من الهجرات من مختلف بقاع العالم. فهنا سلالات السكان الأصليين من الهنود الحمر، والبرتغاليين المستعمرين الأوّل للبلاد، والأفارقة الذين أتى بهم البرتغاليون قسراً لفلاحة الأرض، والمهاجرين الإيطاليين والألمان والبولنديين واليابانيين والإنجليز والإسبان واليهود، بالإضافة إلى ستة ملايين من اللبنانيين والسوريين من نسل أولئك الذين تركوا وطنهم في أواخر القرن الماضي وبداية هذا القرن فراراً من سطوة الحكم العثماني، أو طلباً للرزق في الدنيا الجديدة. وتقدر نسبة البيض هنا بحوالي ٥٤,٢٤٪ يتركزون في المنطقة الجنوبية المماثلة في مناخها لمناخ أوروبا. أما الزنوج فتقدر نسبتهم بحوالي ٥,٩٢٪ يتركزون في منطقة الجنوب الشرقي ويعملون في مصانعها. أما الهنود الحمر فلا يتجاوز عددهم ٢٣٠ ألف نسمة يعيشون حياة بدائية في الولايات الشمالية عند حوض نهر الأمازون. وأما باقي السكان (أي نحو ٣٨,٨٥٪) فيعرفون باسم «المولاتو» Mulatto، وهي كلمة مشتقة من الكلمة العربية «مولّدون»، إذ هم ثمرة التزاوج بين البيض والزنوج والهنود الحمر، لون بشرتهم أقرب ما يكون إلى لون بشرة العرب، ويسكن معظمهم في المنطقتين الشمالية الشرقية والجنوبية الشرقية.

فإن كنا قد قارنا وضع الأجناس هنا بوضعها في الولايات المتحدة، فإن هناك فارقاً ضخماً يتعلق بالتعايش بينها. إذ ليس ثمة في البرازيل ما يوحي بوجود تفرقة عنصرية بين أجناسها. فهنا العشرة الطيبة بين الأبيض والأسود والأسمر، والاحترام المتبادل، والتزاوج غير المقيد أو المنهي عنه، وغير المغضوب عليه. وهنا سمفونية رائعة من الألوان، من الأسود الفاحم كلون بشرة موجابي أو نكومو، إلى الأبيض الناصع كلون بشرة مسز تاتشر، مروراً بألوان بشرة الحبيب بورقيبة والسادات وأنديرا غاندي، مما يجعل من المحال التفرقة بين البرازيلي والأجنبي إلا حين يشرع الأجنبي في الحديث بلغة برتغالية ركيكة. وقد كان للزنوج تأثير عظيم في الحياة البرازيلية، خاصة في العقيدة

والعادات والموسيقى والرقص وفن التصوير والرياضة والاعتقاد في السحر. كما استفاد اقتصاد البلاد استفادة عظمى من النشاط التقليدي المشهود لليابانيين والألمان الذين توافدت أعداد كبيرة منهم على البرازيل في السنوات السابقة على الحرب العالمية الثانية والتالية لها. وقد أبدى هؤلاء جميعاً ـ عدا الألمان ـ استعداداً كاملاً للانخراط في البوتقة البرازيلية الكبرى، وهجر لغاتهم الأصلية إلى اللغة البرتغالية. فمن النادر مثلاً هنا أن تصادف برازيليا من أصل لبناني أو سوري يعرف العربية، أو شديد الاهتمام بالأوضاع الراهنة في لبنان وغيره من الأقطار العربية. كذلك فإن المسلمين البالغ عددهم حوالي مائتي ألف نسمة لم يعودوا يعرفون الكثير عن دينهم، والبعض من شبابهم يلبس حول عنقه سلسلة ذهبية تحمل علامة الصليب دون أدنى إدراك منه لوجود تناقض. ثم من يدري، لعل بعضهم يقدّم أيضاً القرابين في ليلة رأس السنة لإلهة البحر «ييمانيا»!

نعم قد لا نجد إلا القليلين من السود البرازيليين في مناصب القضاة أو الدبلوماسيين، أو الوزراء وكبار رجال الدولة، أو حتى من الأطباء والأساتذة والمحامين وقادة الجيش. غير أن هذا يرجع إلى المستوى الاقتصادي الناجم عن تباين الحظوظ من التعليم والثقافة (وهو تباين من ثمار الماضي)، والناجم أيضاً عن تفضيل الزنوج عادةً للاستمتاع بالحياة على العمل الشاق، وقلة حاجاتهم وتطلّعاتهم. غير أن الظاهرة الهامة في الأمر كله هي ما ذكره لي أحد كبار رجال الحكومة هنا من أنه في حين كان الرجل البرازيلي الأبيض في الماضي القريب يحاول جاهداً إنكار سريان دم زنجي أو هندي في عروقه، لم يعد هناك اليوم إلا من يصرح علناً وعن طيب خاطر بأنه رغم بياض بشرته من المولّدين، بل ويفخر بأنه منهم، وهي دلالة طيبة على أن ما بقي من آثار ضئيلة للتفرقة العنصرية هو في طريقه إلى الإندثار.

* * *

وأقول في النهاية: إنني قد أكون صادفت هنا ما هو أهل للاستنكار، غير

أني أحببت كل شيء. قد تطلعني الأيام في المستقبل على بعض الخبايا مما قد يغير من نظرتي ورأيي. غير أني في يومي هذا ووقت تسطيري لهذا المقال أكاد أجزم بأن الرحيل عن البرازيل هو بمثابة خروج آدم من الجنة. وكثيراً ما أجدني إذ أرقب الشعب هنا في الشوارع والمطاعم والمتاجر وعلى شاطىء البحر، يضحكون ويرقصون ويغنون، أتذكر ما نحن فيه في عالمنا العربي من بلاء وفرقة، وتعصب وتطرف، وتطاحن وتناحر وإرهاب، وعنف وعداوة، فأقول في نفسي: لقد قيل قديماً «سعيد هو الشعب الذي لا تاريخ له»، غير أني أقول: سعيد هو الشعب الذي لا يأبه لأمور السياسة، ولا يقرأ من الصحف غير نتائج مباريات الكرة، ولا يرى ما هو أفضل من الضحك والغناء، ولا أسمى من مدّ يد العون للغير، ولا تسمح طبيعته بأن يرى من الأمور غير جانبها المضيء البهيج، ولا يكاد يعرف ماهية التطرف الديني أو التعصب العرقي.. وكلها أمور قد اجتمعت لهذا الشعب الكريم الذي أحيى الآن بين ظهرانيه... شعب البرازيل.

كان للمسلمين في العصور المسماة عند الإفرنج بالعصور الوسطى قصب السبق في ميدان الرحلات والدراسات الجغرافية. وقد ساهمت في ذلك عدة اعتبارات:

* سيادتهم في البر والبحر، وانبساط دولتهم من حدود الهند شرقاً إلى المحيط الأطلسي غرباً، ومن آسيا الوسطى وجبال القوقاز شمالاً إلى صحاري أفريقيا جنوباً.

* ما جمع بين الدول الإسلامية ـ حتى بعد زوال وحدتها السياسية ـ من روابط الدّين واللغة والثقافة، مع ضعف القوميات الإقليمية في ذلك العصر.

* حاجة الحكام إلى من يقوم برحلات في أنحاء الدولة لدراستها ووصفها ومعرفة طرقها وحاصلاتها وخراجها وما إلى ذلك، تمهيداً لتطبيق أحكام الشريعة.

* الرغبة القوية لدى الكثيرين في طلب العلم في مراكز الثقافة المتعددة في ديار الإسلام، والدّرس على مشاهير الفقهاء والمحدّثين واللغويين والأطباء والفلاسفة والرياضيين.

* قيام ألوف المسلمين بأداء فريضة الحج كل عام، ورحلتها إلى الحجاز في شتى بقاع العالم الإسلامي، مارّة بمختلف البلدان.

* إتساع نطاق التجارة حتى شمل بلاداً خارج حدود الديار الإسلامية.

* إيفاد أمراء المسلمين الرّسل والسفراء إلى غيرهم من أمراء المسلمين وملوك غير المسلمين.

* تنقّل الفنانين ومهرة الصناع من إقليم إلى آخر سعياً في طلب الرزق، أو بناءً على تكليف من الأمراء.

* ما أسهم في تسهيل الرحلات من اعتبارات مثل عادة إكرام الضّيف عند الشرقيين، وبساطة العيش في القرون الوسطى، وانتشار الرّباطات والخانات التي يمكن للمسافرين الإقامة بها، وحبس الأوقاف للإنفاق منها في سبيل راحتهم، وحثّ الإسلام على السّفر، وإباحة تعدّد الزوجات بحيث يمكن للمسافر الذي يتغيّب مدّة طويلة عن بلده التزوّج في البلاد التي ينزل فيها.

وقد خلّف الرحالة والجغرافيون وغيرهم من المؤلفين المسلمين بين القرنين الثالث والتاسع الهجريين (التاسع والخامس عشر الميلاديين) مؤلفات كثيرة حوت وصفاً لرحلاتهم، أو تلخيصاً لرحلات غيرهم، كما ضمّن المؤرخون المسلمون كتبهم ذكر العلاقات والحروب بين دولة الإسلام ودول غير المسلمين، وملاحظاتهم عن سلوك الأجانب في الحرب والسلام.

وقد رأينا أن نجمع هنا بعض ما دوّنه عدد من هؤلاء الرحالة والجغرافيين والمؤرخين في وصف روسيا وعادات أهلها وأخلاقهم، نلحق به وصفاً أورده المؤرخ مسكويه (توفي عام ٤٢١ هـ/١٠٣٠م) في كتابه «تجارب الأمم» لحادث غزو الروس واحتلالهم لأرض من أراضي المسلمين عام ٣٣٢ هـ/٩٤٣م، ولمقاومة المسلمين لهذا الغزو حتى اضطر الروس إلى الانسحاب، ووصفاً أورده المسعودي في «مروج الذهب» لغزو روسي آخر.

* * *

البلد والشعب:

أرض الروس أرض واسعة، إلا أن بلادها قليلة، وعماراتها منقطة، وبين البلد والبلد مسافات متباعدة(١). وهي بلاد وخمة(٢). وأهل هذه الأرض من ولد يافث، ويُنسبون ـ على ما زعم صاحب كتاب «نزهة المشتاق» (الإدريسي) إلى مدينة من مدنهم تسمى روسيا(٣). ويُقال إنهم ينتسبون إلى روس بن ترك بن طوج(٤). والروم تسمّيهم أروسيا، ومعنى ذلك «الحمر»(٥). ويقال لهم «رس» بغير واو(٦). وهم أمة عظيمة، لا تنقاد إلى ملك ولا إلى شريعة(٧). وجملتهم على التقدير مائة ألف إنسان. وليس لهم زرع ولا ضرع(٨)، وإنما يأكلون مما يحتملونه من أرض الصقالبة(٩). وليس لهم عقار ولا قُرًى، وإنما حرفتهم التجارة في السمّور والسنجاب وغير ذلك(١٠). وللروس في أرضهم معدن فضة كبير، ويختلفون بالتجارة إلى بلاد الأندلس وروميه والقسطنطينية والخزر(١١).

وأهل هذه الأرض شقر الأبدان، صفر الشعور، طوال القامات. وهم أشرّ

---

(١) جامع الفنون لابن شبيب الحرّاني.

(٢) عجائب الأقطار لابن إياس.

(٣) مناهج الفكر للوطواط.

(٤) نخبة الدهر للدمشقي.

(٥) التنبيه والإشراف للمسعودي.

(٦) معجم البلدان لياقوت.

(٧) مروج الذهب للمسعودي.

(٨) أحسن التقاسيم للمقدسي.

(٩) أطلق المسلمون لفظ «الصقالبة». لا على السلافيين فحسب وإنما على الجرمان وسائر سكان أوروبا أيضاً.

(١٠) الأعلاق النفيسة لابن رسته.

(١١) مروج الذهب للمسعودي.

خلق الله تعالى، ولهم لغة غريبة [1] . وقد رأيت الروسية فلم أر أتم أبداناً منهم، كأنهم النّخل، شقر حمر، يلبس الرجل منهم كساء يشتمل به على أحد شقّيه ويخرج إحدى يديه منه. ومع كل واحد منهم سيف وسكين وفأس لا يفارقها أبداً [2] . وهم يحلقون لحاهم، وبعضهم يفتلها مثل أعراف الدّواب ويضفرها [3] . ولهم جثث ومنظر وإقدام وبسالة، فإذا نزلوا بساحة قوم لم ينصرفوا عنهم دون أن يهلكوهم ويستبيحوا حرمهم ويسترقّوهم. وإن استنفرت طائفة خرجوا جميعهم ولم يتفرقوا، وكانوا يداً واحدة على عدوّهم حتى يظفروا بهم[4]. ولهم بأس شديد، لا يعرفون الهزيمة، ولا يولّي الرجل منهم حتى يَقتل أو يُقتل[5]. وإذا ولد لرجل منهم مولود قدّم إلى المولود سيفاً مسلولاً فألقاه بين يديه وقال له: «لا أورثك مالاً، وليس لك إلا ما تكسبه لنفسك بسيفك هذا»[6]. وإذا حكم ملكهم بين خصمين بشيء ولم يرضيا به، قال لهما: «تحاكما بسيفيكما، فأيّ السيفين كان أحدّ كانت الغلبة له!»[7].

وهم مستهترون بالخمر، يشربونها ليلاً ونهاراً، وربما مات الواحد منهم والقدح في يده[8]، ولا يدخل إليهم غريب إلا قتلوه[9]. ولهم مدينة تسمى «أرثا» لا يدخلها أحد من الغرباء لأنهم يقتلون كلّ غريب يصل إليهم البتّة، ولا يتجرّأ أحد أن يدخل أرضهم[10]؛

---

(1) ابن إياس.

(2) رسالة ابن فضلان.

(3) نزهة المشتاق للإدريسي.

(4) ابن رسته.

(5) تجارب الأمم لمسكويه.

(6) ابن رسته.

(7) المقدسي.

(8) ابن فضلان.

(9) ابن شبيب الحراني.

(10) الإدريسي.

وهم أقذر خلق الله، لا يستنجون من غائط ولا يغتسلون من جنابة، كأنّهم الحمير الضالّة[1] ولا يبرز أحدهم لقضاء حاجته وحده، إنما يصحبه ثلاثة نفر من رفقائه يتحارسونه بينهم، ومع كل واحد منهم سيفه، لقلّة أمانتهم والغدر الذي فيهم. فإن الرجل إذا كان له قليل مال طمع فيه أخوه وصاحبه الذي معه فيقتله ويسلبه[2].

وإذا مرض منهم الواحد ضربوا له خيمة ناحية عنهم، وطرحوه فيها، وجعلوا معه شيئاً من الخبز والماء، ولا يقربونه ولا يكلمونه بل ولا يتعاهدونه، لا سيّما إن كان ضعيفاً أو مملوكاً. فإن برىء وقام رجع إليهم، وإن مات أحرقوه، وإن كان مملوكاً تركوه على حاله تأكله الكلاب وجوارح الطير. وإذا أصابوا لصّاً جاؤوا به إلى شجرة طويلة غليظة، وشدّوا في عنقه حبلاً وثيقاً، وعلّقوه فيها، ويبقى معلّقاً حتى يتقطّع من المكث في الرياح والأمطار[3].

نساؤهم وحياتهم العائلية:

وهم يحرقون أنفسهم إذا ماتوا، وتُحرق مع مياسيرهم الجواري بطيبة من أنفسهن[4]. وإن ماتت المرأة لم يُحرق الرجل. وإن مات عزب زُوِّجَ بعد وفاته. والنساء يرغبن في تحريق أنفسهن لدخولهن في ظنهن الجنّة. وهذا فعل من أفعال الهند[5].

وكلّ امرأة منهم على ثديها حقّه مشدودة، إما من حديد وإما من نحاس وإما من فضة وإما من ذهب، على قدر مال زوجها ومقداره، في كل حقة حلقة فيها سكين مشدود على الثدي أيضاً. وفي أعناقهن أطواق ذهب وفضة. لأن

---

(١) ابن فضلان.

(٢) ابن رسته.

(٣) ابن رسته.

(٤) ابن فضلان.

(٥) المسالك والممالك للإصطخري.

الرجل إذا ملك عشرة آلاف درهم صاغ لامرأته طوقاً، وإن ملك عشرين ألفاً صاغ لها طوقين، وكلما زاد عشرة آلاف درهم يزيد لها طوقاً آخر. فربما كان في عنق الواحدة منهن أطواق كثيرة. وأجلّ الحلي عندهم الخرز الأخضر من الخزف، يُبالغون فيه، ويشترون الخرزة منه بدرهم، وينظمونه عقوداً لنسائهم (١).

وبيوتهم كبار من الخشب. ويسكن في البيت الواحد العشرة والعشرون والأقل والأكثر. ولكل واحد منهم سرير يجلس عليه ومعه جواريه، فينكح الواحد جاريته ورفيقه ينظر إليه. وربما اجتمعت الجماعة منهم على هذه الحالة بعضهم بحذاء بعض. وربما يدخل التاجر عليهم ليشتري من بعضهم جارية، فيصادفه ينكحها، فلا يزول عنها حتى يقضي أربه(٢).

ولا بدّ لهم في كلّ يوم بالغداة أن تأتي الجارية ومعها قصعة كبيرة فيها ماء، فتقدّمها إلى مولاها فيغسل فيها وجهه ويديه وشعر رأسه، فيغسله ويسرّحه بالمشط في القصعة، ثم يتسخّط ويبصق فيها، ولا يدع شيئاً من القذر إلا فعله في ذلك الماء. فإذا فرغ مما يحتاج إليه، حملت الجارية القصعة إلى الذي يليه، فيفعل مثل ما فعل صاحبه. ولا تزال ترفعها من واحد إلى واحد حتى تديرها على جميع من في البيت، وكل واحد منهم يتسخّط ويبصق فيها ويغسل وجهه وشعره فيها(٣).

الملك والديانة:

ومن رسم ملك الروس أن يكون معه في قصره أربعمائة رجل من صناديد أصحابه وأهل الثقة عنده، فهم يموتون بموته ويُقتلون دونه. ومع كل واحد منهم جارية تخدمه وتغسل رأسه وتصنع له ما يأكل ويشرب، وجارية أخرى يطأها.

---

(١) مروج الذهب للمسعودي.

(٢) ابن فضلان.

(٣) المرجع السابق.

وهؤلاء الأربعمائة يجلسون تحت سرير الملك. وسريره عظيم مرصّع بنفيس الجواهر. ويجلس معه على السرير أربعون جارية لفراشه[1]. بأيديهن مجامر من ذهب وفضة وهي مطلقة بالبخور[2]، وربما وطىء الملك الواحدة منهنّ بحضرة أصحابه. ولا ينزل عن سريره، فإذا أراد قضاء حاجة قضاها في طشت، وإذا أراد الركوب قدّموا دابته إلى السرير فركبها منه، وإذا أراد النزول قُدّم السرير أمام دابته حتى يكون نزوله عليه[3].

ولهم لغة ودين وشريعة لا يشاركهم فيها أحد[4]. وساعة موافاة سفنهم بالمرسى يخرج كل واحد منهم ومعه خبز ولحم ولبن وبصل ونبيذ، حتى يوافي خشبة طويلة منصوبة لها وجه يشبه وجه الإنسان، وحولها صور صغار، وخلف تلك الصور خشب طوال قد نُصبت في الأرض. فيوافي إلى الصورة الكبيرة ويسجد لها ثم يقول: «يا رب، قد جئت من بعيد ومعي من الجواري كذا وكذا رأساً، ومن السّمّور كذا وكذا جلداً» ـ حتى يذكر جميع ما قدم معه من تجارته، ثم يقول: «وقد جئتك بهذه الهدية». ثم يترك ما معه بين يدي الخشبة، ويقول: «أريد أن ترزقني تاجراً معه دنانير ودراهم، فيشتري مني كل ما أريد، ولا يخالفني في جميع ما أقول» ثم ينصرف. فإن تعسّر عليه بيعه وطالت أيامه، عاد بهدية أخرى ثانية وثالثة. فإن تعذّر عليه ما يريد، حمل إلى صورة من تلك الصور الصغار هدية وسألها الشفاعة وقال: «هؤلاء نساء ربّنا وبناته». فلا يزال إلى صورة فصورة يسألها ويستشفع بها ويتضرّع بين يديها، فربما تسهّل له البيع فباع، فيقول: «قد قضى ربي حاجتي، وأحتاج أن أكافئه». فيعمد إلى عدّة من البقر والغنم ويقتلها، ويتصدّق ببعض اللحم، ويحمل الباقي فيطرحه بين يدي تلك الخشبة الكبيرة والصغار التي حولها، ويعلّق رؤوس البقر والغنم على ذلك

---

(١) المرجع السابق.

(٢) ابن إياس.

(٣) ابن فضلان.

(٤) ياقوت.

الخشب المنصوب في الأرض. فإذا كـان الليل وافت الكـلاب فأكلت ذلـك، فيقول: «قد رضي عني ربي وأكل هديتي!»[1].

وأما الآن، فالمشهور من دينهم دين النصرانية[2].

الموت وطقوس الدّفن:

وكان يقال إنهم يفعلون برؤسائهم عند الموت أموراً أقلها الحرق، فكنتُ أحبّ أن أقف على ذلك، حتى بلغني موت رجل منهم جليل. فجعلوه في قبر وسقّفوا عليه عشرة أيام حتى فرغوا من قطع ثيابه وخياطتهـا. وذلك أن الـرجل الفقيـر منهم يعملون له سفينـة صغيرة ويجعلونـه فيها ويحـرقونهـا. أمـا الغني فيجمعون ماله ويجعلونه ثلاثة أثلاث، ثلث لأهله، وثلث يقطعون به له ثيابـاً، وثلث يشترون به نبيذاً يشربونه يوم تقتل جاريته نفسها وتُحرق مع مولاها.

وإذا مات الرئيس منهم قـال أهله لجواريـه وغلمانـه: «من منكم يموت معه؟» فيقول بعضهم: «أنا!» فإذا قال ذلك فقد وجب عليه، لا يستـوي له أن يرجع أبداً ولو أراد ذلك. فلما مات ذلك الرجل الذي ذكرتُهُ، قالوا لجواريـه: «من يموت معه؟» فقالت إحداهن: «أنا!» فوكلوا بها جاريتين تحفظانها، والجارية في كل يوم تشرب وتغني فرحة مستبشرة. فلما كان اليوم الذي يُحرق فيه هو والجارية، حضرتُ إلى النهر الـذي فيه سفينتـه، فإذا هي قـد أُخرجت وجُعل لها أربعة أركان من الخشب، ثم مُدَّت حتى جُعلت على ذلك الخشب. وأقبلوا يـذهبون ويجيئـون ويتكلمون بكـلام لا أفهمه، وهـو بعـد في قبـره لـم يخرجوه. ثم جاؤوا بسرير فجعلوه على السفينة. فلما وافوا قبـره نحّو التـراب والخشب، واستخرجوه في الإزار الذي مات فيه. فرأيتُهُ قد اسـودّ لبرد البلد، وكانوا جعلوا معه في قبره نبيذاً وفاكهةً وطنبوراً، فأخرجوا جميع ذلك، وإذا هو

---

(١) ابن فضلان.

(٢) ياقوت.

لم يتغيّر منه شيء غير لونه. فألبسوه سراويلاً وخُفّاً وجعلوا على رأسه قلنسوة، وحطوه حتى أدخلوه القبة التي على السفينة، وأجلسوه وأسندوه بالمساند، وجاؤوا بالنبيذ والفواكه والريحان فجعلوه معه، وجاؤوا بخبز ولحم وبصل فطرحوه بين يديه. وجاؤوا بكلب فقطعوه نصفين وألقوه في السفينة. ثم جاؤوا بجميع سلاحه فجعلوه إلى جانبه. ثم أخذوا دابتين وقطعوهما بالسيوف وألقوا لحمهما في السفينة. ثم أحضروا بقرتين وديكاً ودجاجةً فقتلوها وطرحوها فيها.

كل هذا والجارية التي تُقتل ذاهبة وجائية تدخل قبة قبة من قبابهم فيجامعها صاحبها ويقول لها: «قولي لمولاك إنما فعلت هذا من محبّتك». فلما كان وقت العصر جاؤوا بالجارية فوضعت رجليها على أكف الرجال وتكلّمت بكلام لها، فأنزلوها، ثم أصعدوها ثانيةً ففعلت كفعلها في المرة الأولى. ثم أنزلوها وأصعدوها ثالثة ففعلت فعلها في المرتين. فسألتُ الترجمان عن فعلها فقال: «قالت في المرة الأولى: هوذا أرى أبي وأمي. وقالت في المرة الثانية: هو ذا أرى جميع قرابتي الموتى قعوداً. وقالت في المرة الثالثة: هوذا أرى مولاي قاعداً في الجنة، والجنة حسنة خضراء، وهو يدعوني، فاذهبوا بي إليه».

ثم مرّوا بها نحو السفينة، فنزعت سوارين كانا معها ودفعتهما إلى امرأة عجوز يقولون لها ملك الموت، وهي التي تقتلها. ونزعت خلخالين ودفعتهما إلى الجاريتين اللتين كانتا تخدمانها، وهما ابنتا المعروفة بملك الموت. ثم اصعدوها السفينة، ودفعوا إليها قدحاً من نبيد فغنّت عليه وشربته. وأخذت العجوز برأسها وأدخلتها القبّة ودخلت معها، وأخذ الرجال يضربون بالخشب على التراس لئلا يُسمع صوت صياحها فيجزع غيرها من الجواري فلا يطلبن الموت مع مواليهن. ثم دخل القبة ستة رجال فجامعوا بأسرهم الجارية، ثم أضجعوها إلى جانب مولاها الميت، وأمسك اثنان رجليها، واثنان يديها، وجعلت العجوز في عنقها حبلاً، ودفعته إلى اثنين ليجذباه، وأقبلت ومعها

خنجر عظيم عريض النّصل، وأقبلت تُدخله بين أضلاعها وتُخرجه، والرجلان يخنقانها بالحبل حتى ماتت.

ووافى أقرب الناس إلى ذلك الميت فأخذ خشبة فأشعلها بالنار، ثم مشى القهقرى نحو قفاه إلى السفينة، والخشبة في يده الواحدة ويده الأخرى على إسته وهو عريان، حتى أحرق الخشب المعبّى تحت السفينة. ثم وافى الناس ومع كل واحد خشبة وقد ألهب رأسها، فيُلقيها في ذلك الخشب، فتأخذ النار في السفينة ثم في القبة والرجل والجارية.

وكان إلى جانبي رجل من الروسيّة فسمعتُه يكلّم الترجمان الذي معي، فسألتُهُ عما قال له، فقال: «إنه يقول: أنتم معشر العرب حمقى، لأنكم تعمدون إلى أحب الناس إليكم فتطرحونه في التراب، فتأكله الهوام والدّود، ونحن نحرقه بالنار في لحظة، فيدخل الجنة من وقته وساعته». ثم ضحك ضحكاً مفرطاً. وما مضت على الحقيقة ساعة حتى صارت السفينة والحطب والرجل الميّت والجارية رماداً، نصبوا في وسطه خشبة كبيرة وكتبوا عليها اسم الرجل واسم ملك الروس، وانصرفوا[1].

الغزو الروسي لبلد إسلامي:

قال المؤرخ مسكويه في كتابه «تجارب الأمم» في حوادث سنة ٣٣٢ هـ/٩٤٣م[2]:

وفي هذه السنة خرج عسكر الأمة المعروفة بالروس إلى آذربيجان،

---

(١) رسالة ابن فضلان. وكان ابن فضلان في بعثة أرسلها الخليفة العباسي المقتدر عام ٣٠٩هـ/٩٢١م، إلى ملك البلغار فمرّت البعثة في طريقها ببلاد الروس.

(٢) تجارب الأمم: الجزء الثاني ٦٢ ـ ٦٧ مختصراً.

وقصدوا مدينة برذعة[1]. فتوجّه إليهم المرزبان بن محمد بن مسافر[2] ومعه من المطوّعة نحو خمسة آلاف رجل لجهاد هؤلاء. وكانوا مغترين لا يعرفون شدّة الروس، وحسبوا أنهم يجرون مجرى الأرمن والرّوم. فلما صافوهم الحرب، لم تكن إلا ساعة حتى حملت الروسية حملة منكرة فهزموا العسكر، وولّت المطوّعة بأسرهم وسائر العسكر إلا الديلم، فإنهم ثبتوا ساعة فقُتلوا كلهم. وهرب كل من كان له مركوب، وتركوا البلد، فنزلته الروسية وملكوه. وبادروا فنادوا فيه وسكّنوا الناس وقالوا لهم: «لا منازعة بيننا وبينكم في الدّين، وإنما نطلب الملك، وعلينا أن نُحسن السيرة، وعليكم حسن الطاعة».

ووافتهم العساكر من كل ناحية، فكانوا يخرجون إليهم ويهزمونهم. وكان أهل برذعة يخرجون معهم، فإذا حمل المسلمون على الروس كبّروا ورجموهم بالحجارة، فكانت الروسية تتقدّم إليهم بأن يضبطوا أنفسهم. فأما العامة فكانوا لا يضبطون أنفسهم ويُظهرون ما في نفوسهم ويتعرّضون لهم إذا حمل عليهم أصحاب السلطان. فلما طال ذلك على الروس نادى مناديهم بألا يقيم في البلد أحد من أهله، وأجلوهم ثلاثة أيام من يوم ندائهم.

فخرج كل من كان له ظهر يحمله ويحمل حرمه وولده، وهم نفر يسير. وجاء اليوم الرابع والأكثر مقيمون، فوضعت الروسية فيهم سيوفهم فقتلوا خلقاً عظيماً لا يُحصى عددهم، وأسروا بعد القتل بضعة عشر ألف رجل وغلام مع

---

(١) برذعة، بلدة جنوب جبال القوقاز كانت فيما مضى قصبة ارّان، وهي على بعد ١٤ ميلاً تقريباً من نهر الكُرّ. وكانت في عهد الساسانيين الفرس ثم في عهد العرب حصناً على الحدود لصدّ غارات الغزاة من الشمال والغرب فتحها العرب حوالي عام ٢٢هـ/٦٥٢م. وكانت وقت الغزو الروسي لها في أوج ازدهارها، تشغل مساحة تمتدّ عدة أميال طولاً وعرضاً، في منطقة خصيبة تتوفر فيها مياه الري، وتضارع في الحجم الري وأصفهان.

(٢) هو والي آذربيجان.

نسائهم وبناتهم. ثم جمعوا الرجال إلى المسجد الجامع ووكلوا بأبوابه، وقالوا لهم: «اشتروا أنفسكم». وتوقّف الروسية عن قتل الرجال طمعاً في المال، فلما لم يحصل لهم شيء وضعوا فيهم السيوف فقتلوهم عن آخرهم، إلا عدداً يسيراً. وربما وافق الواحد من المسلمين الروسي على مال يفتدي به نفسه، فيحضر معه إلى منزله أو حانوته، فإذا استخرج ذخيرته وكانت زائدة على المال المتفق عليه لا يمكّن صاحبها منها وإن كانت أضعافاً مضاعفة عليه. فإذا علم أنه لم يبق له عين ولا ورق ولا جوهر ولا فرش ولا كسوة، أفرج عنه وأعطاه ظيناً مختوماً يأمن به من غيره (من الروس). فاجتمع لهم من البلد شيء عظيم يجلّ قدره. وكانوا قد حازوا النساء والصبيان ففجروا بهن وبهم واستعبدوهم.

فلما عظمت المصيبة وتسامع المسلمون في البلدان بخبرهم تنادوا بالنفير. وجمع المرزبان بن محمد عسكره واستنفر الناس، وأتاه المطوعة من كل ناحية، فسار في ثلاثين ألف رجل. ومع ذلك لم يمكنه أن يؤثر في الروسية أثراً، وكان يغاديهم القتال ويراوحه وينقلب عنهم مغلولاً. واتصلت الحرب بينهم على هذه الصورة أياماً كثيرة، فكانت الدبرة أبداً على المسلمين.

واتفق أن الروسية لمّا ملكوا برذعة تبسطوا في أكل الفاكهة، وهناك أنواع كثيرة منها، فمرضوا ووقع فيهم الوباء، لأن بلادهم شديدة البرد ولا ينبت فيها شجر، وإنما يُحمل إليهم الشيء اليسير من البلاد الشاسعة عنهم. فلما قلّ عددهم فكّر المرزبان في الحيلة، ووقع له أن يكمن لهم ليلاً، وواطأ عسكره أن يبادروا الحرب، فإذا حمل عليهم الروس انهزموا فيُطمعون بذلك الروس في المسلمين، فإذا تجاوزوا موضع الكمين، عطف المرزبان ورجاله عليهم، فإذا حصر الروسية في الوسط تمكّنوا منهم. فلما أصبحوا تقدّم المرزبان وأصحابه، وبرز الروسية وأميرهم راكب حمار، واصطفّوا للحرب فانهزم المسلمون، واتّبعهم الروسية حتي تجاوزوا موضع الكمين، واستمرّ الناس على هزيمتهم. فلما رأى المرزبان ذلك اجتهد بالمسلمين أن يراجعوا الحرب فلم

يفعلوا لما تمكن في قلوبهم من هيبة الروس. فرجع المرزبان وحده مع من تبعه، وحينئذٍ استحى أكثر الديلم فرجعوا وخرجوا من وراء الروس وصدقوهم الحرب وقتلوا منهم سبعمائة نفس فيهم أميرهم. وعاد الباقون إلى الحصن في البلد، وكانوا نقلوا إليه غلات كثيرة.

ولم يزل أصحاب المرزبان في قتال الروسية وحصارهم إلى أن ضجر الروس. وأتفق أن زاد الوباء عليهم. فكان إذا مات الرجل منهم دفنوا معه سلاحه. فاستثار المسلمون بعد زوال أمرهم مقابرهم فاستخرجوا منها سيوفاً يُتنافس فيها إلى اليوم لمضائها وجودتها. فلما قلّ عددهم خرجوا ليلاً من الحصن، وحملوا على ظهورهم كل ما أمكنهم من المال والجواهر والثياب الفاخرة، وأحرقوا الباقي، وساقوا من النساء والصبيان والصبايا ما شاؤوا، وقصدوا السفن التي خرجوا فيها من بلادهم، فجلسوا فيها ومضوا، وكفى الله المسلمين أمرهم[1].

وسمعتُ ممن شاهد هؤلاء الروسية حكايات عجيبة عن شدّتهم وقلة مبالاتهم بمن يجتمع عليهم من المسلمين. فمن ذلك خبر شاع في الناحية، وسمعته من غير واحد، أن خمسة نفر من الروسية اجتمعوا في بستان ببرقعة وفيهم غلام أمرد وضيء الوجه من أولاد رؤسائهم، ومعهم نسوة من السبي، وأن المسلمين لما عرفوا خبرهم أحاطوا بالبستان واجتمع عدد كثير على حرب أولئك النفر الخمسة، واجتهدوا في أن يحصل لهم أسير واحد، فلم يكن إليه سبيل لأنه كان لا يستسلم أحد منهم، ولم يمكن قتلهم حتى قتلوا من المسلمين أضعافاً كثيرة لعدّتهم. وكان ذلك الأمرد آخر من بقي، فلما علم أنه يؤخذ أسيراً، صعد شجرة كانت بالقرب منه، ولم يزل يجرح نفسه بخنجر معه إلى أن سقط ميتاً.

---

(١) استمر الاحتلال الروسي لبرذعة عدة شهور، وفي رواية ياقوت (معجم البلدان) سنة.

غزو روسي آخر يصدّه المسلمون:

وقد أورد المسعودي في «مروج الذهب» ذكراً لغزو روسي آخر تمَّ في حوالي ذلك الوقت (أي النصف الأول من القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي)، فيقول:

ورد للروس نحو من خمسمائة مركب، في كل مركب مائة نفس، فدخلوا خليج بنطس المتصل بنهر الخزر، وراسلوا ملك الخزر في أن يجتازوا ببلاده وينحدروا في نهره فيدخلوا بحر الخزر الذي هو بحر جرجان وطبرستان وغيرهما، على أن يعطوه النصف مما يغنمون هنالك من الأمم على ذلك البحر. فأباحهم ذلك، فدخلوا. وانتشرت مراكب الروس في هذا البحر، وطرحت سراياها إلى الجبل والديلم وبلاد طبرستان ونحو بلاد آذربيجان. فسفكت الروس الدماء، واستباحت النسوان والولدان، وغنمت الأموال، وشنّت الغارات، وأخربت وأحرقت، فضجّ من حول هذا البحر من الأمم لأنهم لم يكونوا يعهدون في قديم الزمان عدوّاً يطرقهم فيه، وإنما يختلف فيه مراكب التجار والصيد. وكانت الروس تأوي عند رجوعها من غاراتها إلى جزائر بقرب النفّاطة. فاستعدّ الناس، وركبوا في القوارب ومراكب التجار وساروا نحو تلك الجزائر. فمالت عليهم الروس فقتل من المسلمين وغرق ألوف. وأقام الروس شهوراً كثيرة في هذا البحر على ما وصفنا، لا سبيل لأحد ممن جاور هذا البحر من الأمم إليهم، والناس متأهبون لهم، حذرون منهم.

فلما غنم الروس وسئموا ما هم فيه، ساروا إلى فم نهر الخزر ومصبّه، وراسلوا ملك الخزر وحملوا إليه الأموال والغنائم على ما اشترط عليهم. وعلمت بشأنهم من في بلاد الخزر من المسلمين، فقالوا لملك الخزر، «خلّنا وهؤلاء القوم، فقد أغاروا على بلاد إخواننا المسلمين وسفكوا الدماء وسبوا النساء والذراري». فلم يمكنه منعهم، وبعث إلى الروس فأعلمهم بما قد عزم عليه المسلمون من حربهم.

وعسكر المسلمون وخرجوا يطلبون الـروس منحدرين مـع الماء. فلمـا وقعت العين على العين خرجت الروس عن مراكبهـا وصافوا المسلمين. وكان مع المسلمين خلق من النصارى، فكان المسلمون في نحو من خمسة عشر ألفاً بالخيل والعدد. فأقامت الحرب بينهم ثلاثة أيام، ونصر الله المسلمين عليهم، فأخذوهم بالسيف، فمن قتيل وغريق، ونجا منهم نحو من خمسة آلاف، تعلّقوا بالبر، فمنهم من قتله أهل برطاس، ومنهم من وقع إلى بلاد البرغـر المسلمين فقتلوهم. وكان من وقع عليه الإحصاء ممن قتله المسلمون على شاطىء نهر الخزر نحواً من ثلاثين ألفاً.

ولم يكن للروس من تلك السنة عودة.

فيسّاريون بيلينسكي
ورسالته الشهيرة إلى جوجول

يأتي على الدول المتخلّفة في مضمار الحريات السياسية والشخصية، وفي المضمار الاقتصادي، حين من الدهر تتطلع فيه أنظار المثقفين بها إلى مدى ما وصلت إليه أوروبا في هاذين المضمارين بإعجاب وحسد شديدين. فالرخاء المادي، والديموقراطية السياسية، واحترام الشخصية الإنسانية، يصبح لها لدى هؤلاء المثقفين أهمية لا تعادلها أهمية، حتى ترى الحديث عن «شخصية مستقلة للأمة»، و«ضرورة الاحتفاظ بالطابع المميز لها»، وأن «لكل أمة طريقها الخاص للوصول إلى الحقيقة»، ممجوجاً خليقاً بالسخرية، وترى أصحابه إما من المضلِّلين عن عمد، أتباع الحكومة الرجعية، الساعين إلى تحويل أنظار الجماهير عن مشاكلها الحقيقية (المادية)، وإما من السُّذّج المضلَّلين، الروحانيين اللاواقعيين، قد شبعت بطونهم، وتضاءل اتصالهم بالشعب وهمومه، فشرعوا يتحدثون عن طابع خاص وشخصية مميزة.

فالإرتقاء باقتصاديات البلاد هو عندهم الواجب الأول والذي يليه. والنهوض بالصناعة وتطوير العلم وإشباع الحاجات المادية للفرد، هي الغرض الأسمى، وهي الوسائل الوحيدة للوصول إلى السعادة والحق. وإذ تقوم الحضارة الأوروبية أساساً على هذه المبادىء، فالحضارة الأوروبية إذن هي الأَوْلَى بالتقليد والاحتذاء. وعلينا أولاً أن نُطعم الفرد ونكْسُوَه ونردّ عليه أنفاسه قبل أن نتوقع منه أن يستخدم هذه الأنفاس في التعبير عن شخصيته وذاته. أما أن نتركه يسير عاري القدمين، خالي الوفاض، ثم نتشدّق بعد ذلك بروحانيته

وفضائله، وننادى ببناء كيان متميز للأمة على هذا الأساس، فجهد أشبه بجهد الراسم على الماء، أوباني القصور في الهواء.

إيڤان وأليوشاكارا مازوف:

وقد كان من الطبيعي أن يظهر هذا التيار الفكري في روسيا في بداية العقد الخامس من القرن التاسع عشر، لا لأن الاستبداد القيصري كان قد زاد وقتها زيادة ملموسة، ولا لأن الفقر استفحل واتسع نطاقه، وإنما لازدياد الشعور بالاستبداد القائم، وشروع الناس في التساؤل عن الأسباب الحقيقية للفقر. وإذ كان الاتصال بين روسيا والغرب قد بدأ يعظم خاصة بعد الحروب النابوليونية واشتراك روسيا الفعّال في معترك السياسة الأوروبية، فقد امتدت أنظار المثقفين الروس للتطلّع والمقارنة، والإعجاب والتحسّر، والتحمس والسخط. ألم يزعم بطرس الأكبر أنه قد جعل من الروسيا دولة أوروبية؟ فما بال نظمها السياسية إذن أقرب إلى نظم الشرق؟ وما بال غالبية الشعب فيها لا تزال ترسف في أغلال الرق، وترزح تحت أعباء الفقر والحاجة؟ إن حلق اللحى ليس بالمظهر الوحيد من مظاهر إدخال المدنية الغربية في البلاد. فلندخل المبادىء الاشتراكية، ولنمدّ خطوط السكك الحديدية، ولنقض على سلطان الكنيسة في ميادين العلوم، ولنلغ نظام الرق، ثم لتطلقوا اللحى بعد ذلك إن شئتم إطلاقها!

وقد كان الصراع بين زعماء هذا التيار (بيلينسكي، هرتزن، تورجنيڤ، تشرنشڤسكي، دوبروليوبوڤ)، وبين المؤمنين بأن لروسيا رسالة خاصة، ونمطاً ثقافياً متميزاً مناقضين للمدنية الغربية المادية الآخذة في الأفول والانحلال (جوجول، دوستويڤسكي، أكساكوف، وإلى حد ما تولستوي)، أشبه بالصراع بين عقيلتي إيڤان كارمازوڤ وأخيه ألوشا في رواية «الإخوة كارامازوڤ» لدوستويڤسكي. فأما في ميدان الأدب الروسي في عصره الذهبي، فقد انتصر أليوشا الروحاني المتدين، وكان على إيڤان المنطقي المادي أن ينتظر حتى الثورة البلشفية عام ١٩١٧، حتى تكون الغلبة له. والواقع أنه مهما اختلفت

وجهات نظرنا حول مزاعم المذهبين، فلا شك في أن جانباً كبيراً من الفضل في عظمة الأدب الروسي في القرن التاسع عشر راجع إلى هزيمة مدرسة بيلينسكي، وأن انتصار أشياع الروسية في ذلك الأدب، هو الذي مكّن روسيا من أن تقدم مساهمتها الفريدة في الفكر الإنساني، حيث أن المساهمة القومية، متى اقترنت بطابع إنساني، هي وحدها القادرة على أن تجعل من أدب ما أدباً عالمياً.

السلافيون ودعاة التغريب:

كانت الصحافة قد بدأت تنتعش في روسيا خلال العقدين الرابع والخامس من القرن الماضي، رغم الرقابة الصارمة التي فرضتها حكومة القيصر نيقولا الأول، ورغم الاضطهاد الفكري الشائع في ذلك العصر. وسرعان ما أضحت الصحف والمجلات الروسية، لأول مرة، رائدة للرأي العام في البلاد، وذات تأثير قوي فيه، واتخذت لنفسها شكلاً وطابعاً ظلاّ غالبين على الصحافة الروسية حتى عام ١٩١٧.

فأما عن لواء الثقافة والفكر فقد انتقل بعد هزيمة الديسمبريين إلى الجامعات (خاصة جامعة موسكو)، والحلقات الأدبية التي كانت غالبية أفرادها من غير المنتمين في فكرهم إلى طبقة اجتماعية معينة. وبينما انتعشت الصحافة في العاصمة بطرسبورج تحت رعاية القيصر، وكسب رجالها المال الوفير مقابل إحنائهم الرأس للسلطات، كان تاريخ الصحافة في موسكو سلسلة طويلة من التضحيات والمآسي والمعاناة المرّة من سطوة الرقابة والضائقة المالية.

وقد شهدت جامعة موسكو في أوائل العقد الرابع جماعتين من الشباب المثقف الطموح، اختلفت مطامحهما واتجاهاتهما الفكرية. كانت الجماعة الأولى التي تزعمها الكسندر هرتزن، قد وجهت اهتمامها إلى المشاكل السياسية والاجتماعية متأثرة في فكرها بالاشتراكية المثالية وتعاليم سان سيمون وفورييه وجورج صاند. أما الجماعة الثانية فقد حمل لواءها ستانكفيتسن

وبيلينسكي، وعنيت بدراسة الفلسفة المثالية الألمانية، وتحمس أفرادها لمؤلفات شيلنج وفيخته وهيجل وفيورباخ تحمساً فاق تحمس الألمان أنفسهم لها. غير أن ظهور جماعة ثالثة في الميدان، هي جماعة «السلافيين»، وحّد بين الجماعتين الأوليين، ودفعهما إلى التحالف من أجل مقاومة تأثير هذه الجماعة الجديدة.

كان كل من السلافيين ودعاة التغريب متفقين على ضرورة القضاء على نظام الرق والحدّ من أوتوقراطية القيصر. غير أنهم كانوا كالطبيبين لمريض واحد، قد اختلفا في تشخيص الداء، ووصف الدواء. ذهب السلافيون إل أن لروسيا تاريخاً فريداً في تطورها لا تشاركها فيه غيرها من الدول. وهي قد تكون في حاجة إلى اقتباس العلوم وبعض الأساليب الفنية من أوروبا. غير أن عليها قبل كل شيء أن تجاهد من أجل الحفاظ على شخصيتها، حتى لا تفقد هذه الشخصية المتميزة بتقليدها الأعمى للغرب، وبتهوينها من شأن نفسها. وأما طريق الخلاص فيتمثل في تمسكها بعقيدتها الأورثوذكسية، وحماية تقاليددها الشعبية من الاندثار، والعمل على إقامة علاقات شخصية بين مالك الأرض والفلاح يسودها شعور أبوي كفيل بضمان سعادة الكافة.

وقد سخر دعاة التغريب، وجلّهم من الاشتراكيين، من هذه الآراء، وكرهوا طابعها الديني، ورأوها سنداً للأوتوقراطية القيصرية. وذهب هؤلاء إلى أن حدود الدولة أمر عارض لا قيمة له ولا أهمية، وأن الروس ينتمون إلى الإنسانية أولاً وقبل كل شيء، وأن طريق الخلاص، على حد تعبير بيلينسكي، يكمن في تحسين الظروف المادية وأحوال المعيشة، «ولا يتأتى ذلك إلا بفتح الباب على مصراعيه لريح الآراء الحرة التي تهب من الغرب، وتوثيق الصلات بين روسيا والبلدان الأوروبية».

حياة بيلينسكي:

ولد فيساريون بيلينسكي، أعظم النقاد الروس وزعيم طائفة المفكرين من

دعـاة التغريب، عـام ١٨١١. وهو ابن لـطبيب فقير يقيم ببلدة صغيـرة إقليمية كانت تدعى شيمبـار ثم غيَّرت الحكـومة السـوفييتية اسمهـا فيما بعـد فصارت تحمل اسم «بيلينسكي» وإذ بلغ الصبي الثامنة عشرة من العمر، التحق بجامعة موسكو حيث جمعته الصداقة بطائفة من الشبان المثاليين المتحمسين لهيجل، وعلى رأسهم ستانكفيتش. غير أنه بعد سنوات ثلاث من الدراسة بـالجامعـة، كتب مسرحية طويلة بعنوان «دمتري كالينين» هـاجم فيها نـظام الرق، فهـددته السلطات بالنفي إلى سيبريـا إن هو عـاد إلى كتابـة مثلها. وسـرعان مـا فصلُ الشاب من الجامعة (عام ١٨٣٢)، وبررت الإدارة فصله «بسوء صحته، وقدراته الذهنية المحدودة»! وبذا لم يتمكن بيلينسكي من نيل شهادة جامعية. بيد أنه لم يهمل تعليمه بعد فصله، فقد انكب على الكتب يقرأ فيها السـاعات الـطوال، واتصل بزملائه السابقين في الدراسة يناقشهم ويـناقشونـه فيما يقـرأ ويقرأون، ويغذي عقولهم ويغذون عقله بما اطلع وأطلعوه عليه.

ومع ذلك فقد ظل بيلينسكي ضعيفاً واضح الضعف في اللغات الأجنبية فلم يتمكن طيلة عمره من قراءة الكتب الألمانية أو الانجليزية التي تأثر بها إلا مترجمة. كذلك اعتمد أساساً في تحصيله للمعارف الفلسفية على ما زوّده بـه منها زملاؤه الأكثر ثقافة.

ظل بيلينسكي قرابة عامين بعد فصله من الجامعة يعاني فقراً مدقعاً. ثم تمكن من العثور على وظيفة في مجلة «تيليسكوب»، وبدأ ينشـر فيها وهـو في الثالثة والعشرين مقالات في النقد تحت عنوان «خـواطر أدبيـة»، تعرض فيهـا للرواية الروسية ومؤلفات جوجول بالأخص. وقد اعتبرت هذه المقالات بدايـة النقد الأدبي في روسيا، بل بداية صحافة روسية راقية واعية، وبداية عهد ظل بيلينسكي طواله وحتى وقت وفاته الحَكَم الفصل وصاحب الكلمـة الأخيرة في تقييم الأعمال الأدبية الروسية. وقد تميزت هـذه المقالات بعـدم احترام لكـل ما هو قديم في الأدب الروسي وكل ما ظل الناس أمداً طويلاً يجلونه ويوقرونه. كمـا تميزت بـالتحمس الشديـد للأفكـار المثاليـة الجديـدة ولمستقبل الجيـل

الناشىء من بني وطنه. وقد جلب له تحمسه هذا لقب «ڤيساريون الغاضب»، أطلقه عليه المعجبون به من الشباب الذين اعتبروه زعيمهم ورائدهم، كما جلب عليه نقمة الرقابة، وكراهية المحافظين، وارتياب السلطة، وحنق الكنيسة ورجال الدين.

وفي عام ١٨٣٦، صدر الأمر الحكومي بتعطيل مجلة «تيليسكوب»، فعاد بيلينسكي إلى فقره. وبعد بحث مضن عن عمل يقتات منه، اضطر إلى قبول وظيفة مدرس للأطفال، وتأليف كتاب مبسط في قواعد اللغة. غير أن صداقته بالفيلسوف الفوضوي باكونين صاحب إحدى المجلات الروسية، مهّدت له طريق العمل كصحفي فيها. فلما أفلست المجلة وأغلقت أبوابها، انتقل بيلينسكي إلى مجلة أخرى أصبح الناقد الأول فيها مقابل مرتب ضئيل لم يكن ثمة مفر من قبوله.

وصيته الأخيرة:

وأصبح بيلينسكي بفضل مقالاته منذ ذلك الحين روح التقدمية في روسيا، والمبشر بنوع جديد من الأدب. كان يرى أن الوقت قد حان كي يهجر الأدب الروسي اتجاهيّ الكلاسيكية والرومانسية، وأن يصبح أدباً جديداً متصلاً بالواقع الحاضر، يعكس الحياة الواقعية في صدق وأمانة، ويستمد أسسه من الأفكار الحديثة في الفلسفة وعلم الاجتماع. وكان يرى في الواقعية الاجتماعية في مؤلفات جوجول تحقيقاً لذلك الحلم الذي شغل مخيلته، وتجسيداً لمثله العليا في الأدب.

وفي عام ١٨٤٧ تفاقم عنده داء السل، فاضطر إلى الرحيل عن روسيا يلتمس العلاج في كل من فرنسا وألمانيا: ومن ألمانيا، بعيداً عن سلطان الرقابة، كتب خطابه الشهير إلى جوجول عقب صدور كتاب الأخير «مراسلات مع الأصدقاء»، عبّر فيه عن غضبه على خيانة جوجول للشعب والأدب الروسيين بتحوله المفاجىء إلى مؤازرة حكم القيصر، والولاء للكنيسة الأورثوذكسية،

وإعلانه الندم على كتابة مؤلفاته السابقة. ويُروى عن هرتزن أنه عندما قرأ عليه بيلينسكي الخطاب بعد فراغه من كتابته، مال على صديق كان معهما يهمس في أذنه:

«إنه عمل لا يأتي إلا من عبقري. وليخيل إليّ أنه أيضاً وصيته الأخيرة».

وقد كان. ففي يوم ٢٦ مايو عام ١٨٤٨، بعد عودة بيلينسكي إلى روسيا بفترة قصيرة، توفي من دائه وهو في السابعة والثلاثين من العمر. وإذ بلغ نبأ موته كبير الرقباء على الصحافة، عبر عن حزنه الشديد وصاح فيمن حوله:

«يا للأسف! لقد كنا نأمل أن ندفنه حياً في السجن، فإذا الوغد يتمكن من الفرار!».

تأثير هيجل:

ظل بيلينسكي مدة طويلة (خاصة في الفترة ما بين عامي ١٨٣٤ و ١٨٣٧) شديد التأثر بمؤلفات هيجل، خاضعاً في تفكيره وكتاباته للجانب المثالي من فلسفته. فهو يؤمن مع هيجل بالفكرة المطلقة تصطنع تطور الحياة المادية والروحية في سبيل تحقيق حريتها الكاملة. وهو يرى أن «هذا العالم الجميل الخالد ليس إلا نفحة من فكرة واحدة خالدة تكشف عن نفسها في أشكال غير محدودة، كأنها مشهد عظيم لوحدة مطلقة تظل تتنوع تنوعاً لا يدركه حصر». حتى إذا ما تحول إلى النقد الأدبي رأى في الفن «بعثاً لفكرة روح الطبيعة بواسطة الألفاظ والأنغام والألوان، وتعبيراً عن فكرة الوجود المتجلية في مختلف الظواهر. وإنما يسمو الشاعر بفنه إلى القمة حين ينجح في تمكين قارئه من النظر إلى الوجود من زاوية تبدو له الطبيعة منها مصغّرة كرسم الخريطة، وحين ينجح كذلك في إنعاش روح قارئه بنفحة الحياة التي تحرك الوجود، وباللهب الذي يعطيه الدفء».

وكان في البداية يؤمن بمبدأ هيجل الشهير «كل ما هو حقيقة واقعة

معقول، وكل ما هو معقول حقيقة واقعة». ومعنى هذا أن بقاء أية حقيقة في عالم الواقع دليل على أن تغلّب نقيضها عليها لم يحن أوانه، إذ لو أنها صارت غير ملائمة لزمنها لاكتسحها الجديد. وهي فلسفة رجعية استندت إليها حكومات أوروبا الاستبدادية في تعزيز طغيانها. ففي وجودها دليل على ملاءمتها لاحتياجات الزمن، وتبرير لبقائها، ولا معنى أو مبرر لمحاولة التخلص منها بالثورة عليها.

وعلى هذا أقرّ بيلينسكي في أول عهده بقاء حكومة القيصر على أساس أنها مرحلة انتقال لم يحن بعد أوان تخطّيها وتجاوزها بالنظر إلى أن القوى التقدمية لم تبلغ بعد من النضج القدر الكافي الذي يمكنها من تحقيق رسالتها. وكان مع عدائه لنظام الرق لا يرى مناصاً من تقبله ريثما تنضج القوى التقدمية فتدمره وتطلع بالجديد الذي سيحل مكانه.

أثارت هذه الآراء الرجعية لبيلينسكي سخط الشباب الروسي الثائر وغضبه، وقاد هرتزن حملة على اتجاهه المسالم للسلطة، داعياً إلى خوض ميدان الكفاح وحض الفلاحين على الثورة على نظام الرق. وقد قاوم بيلينسكي هذه الحملة في بادىء الأمر، ثم لم يلبث أن تحول عن موقفه، وقابل هرتزن في بطرسبورج عام ١٨٤٠، وأقر له بخطأه، وبتحوله إلى الاعتقاد بأنه لا سبيل إلى الخلاص إلا بالثورة.

أهم ناقد في تاريخ الأدب الروسي:

وكانت توبته وتحوله عن فلسفة هيجل عميقين صادقين. كتب يقول: «أولى بالإنسان أن يموت من أن يوافق على النتائج التي توصل إليها هيجل». فهو الآن يؤمن بالاشتراكية «التي أصبحت عندي مسألة المسائل، وأمّ الآراء، وكيان الكائنات، والبداية والنهاية لكافة المعارف والمعتقدات». وقد كتب دوستويفسكي في يومياته يقول: «كنا جالسين يوماً إلى بيلينسكي نستمع إليه يتحدث عن المسيحية. فإذا به يقطع حديثه فجأة ويصيح بي: كلما تطرّق بي

الحديث إلى المسيح أجد لونك قد امتقع وبدوت وكأنك على وشك البكاء. صدّقني أيها الشاب، لو أن المسيح ولد في زماننا هذا لاعتنق المذهب الاشتراكي على الفور!».

وبتغير معتقدات بيلينسكي الفلسفية تتغير مفاهيمه عن الأدب والفن. فهو يعرّف الفن الآن بأنه «التأمل المباشر في الحقيقة، وإعادة لخلق الكون دون تحوير». ولا يعني هذا أن الفن يعكس لنا الحياة والطبيعة كما تعكس المرآة الصورة، «غير أن عليه دائماً أن يبرز للناس حقيقة أحوالهم وحقيقة أنفسهم، وأن يتناول المشكلات التي تجثم على صدورهم فيستحثهم على التخلص منها، واجتثاثها من جذورها».

باتت لدى بيلينسكي نظرية نامية واضحة المعالم في الأدب ورسالته. بل إنه يمكن القول (وهو قول لا ينطبق إلا على عدد صغير من النقاد) إن كل ما أصدره من أحكام على ما ظهر من مؤلفات روسية بين عامي ١٨٣٠ و ١٨٤٨، يمكن التسليم به دون اعتراض. أما أحكامه على أدب الأجيال السابقة على تلك الفترة، فقد انتقص من قيمتها تعصبه المذهبي، وإصراره الشبيه بإصرار الشيوعيين في قرننا هذا على تطبيق معايير صارمة محددة لا تلين، وذوق أدبي واحد معين. فبيلنسكي لا يُكنّ احتراماً إلا لنوع واحد من الأدب، عاجز عن استساغة غيره. فإن رفض أديب الدخول إلى حظيرته هاجمه وسفّهه مهما بلغ أدبه من النضج، وإن دخلها أديب قرّظه وأثنى عليه حتى لو لم يبلغ في فنه مبلغ الأول.

وقد كان بيلينسكي أهم ناقد في تاريخ الأدب الروسي نادى بضرورة غلبة الأفكار في الأدب على ما عداها. وبذا بات مسؤولاً عما شاع بين الأدباء في العقدين السابع والثامن من القرن التاسع عشر من إهمال للحبكة الفنية والأسلوب الرصين واللغة القويمة. فالمادة والموضوع هما الأهم. أماالشكل فمقترن عنده بضحالة المادة وفراغ جعبة الأديب.

أعمق الصحفيين تأثيراً:

ومع ذلك، فالكل مجمع على أنه كاتب هو أقرب إلى النبي منه إلى الناقد، وأنه أعمق الصحفيين الروس تأثيراً في الرأي العام التقدمي، وأنه مهما بالغنا فلن يمكننا المبالغة في تقدير أهميته التاريخية. لقد كان أباً للإنتليجنتزيا في بلاده، وزعيماً من الزعماء المثاليين الاشتراكيين، لا همّ له إلاّ صلاح أحوال بلاده دون أدنى احترام لما لا يرضي ضميره عن احترامه. وكان أميناً نزيهاً إلى أبعد الحدود، لم يكترث لترصد أعين الرقباء له، ولم يخن مبدأه طمعاً في حياة أكثر راحة، أو تجنباً لفقر جلب عليه في النهاية المرض والموت. ومن أبرز أفضاله على الصحافة والنقد في زمنه إدراكه الدقيق لروح عصره، وعلله وأمراضه، ومحاولته تطوير المجتمع في الاتجاه الذي ارتآه سليماً ولازماً له. وقد ظلت رسالته إلى جوجول تُشكّل عقيدة المثقفين التقدميين مدة تزيد عن نصف قرن، ومنع الرقيب نشرها وتداولها حتى عام ١٩٠٥ بعد الثورة الروسية الأولى. وهي الرسالة التي حكمت السلطات على دوستويڤسكي بالإعدام بتهمة الاستماع إليها في إحدى الحلقات وهزّه لرأسه إعجاباً بها! وقد كتب عنها إيڤان أكساكوف يقول:

«إن اسم بيلينسكي معروف لدى كل شاب قادر على التفكير والتأمل، ولدى كل من يسعى إلى تنسم الحرية والحياة الحقة. وإني شخصياً لا أعرف مدرساً واحداً في المدارس الثانوية بعواصم الأقاليم لا يحفظ رسالة بيلينسكي إلى جوجول عن ظهر قلب. فإن أردتَ العثور على رجل أمين تكلفه بالسهر على مصالح المضطهدين والفقراء، أو على طبيب نزيه أو قاض عادل تشركهما في الكفاح من أجل الحرية، فلتبدأ بالتنقيب عنهم بين أتباع بيلينسكي وأنصاره!».

رسالة بيلينسكي إلى جوجول:

وأختم مقالي بترجمتي لبعض فقرات من تلك الرسالة:

«لم تُصب إلا جانباً من الحق إذ تبيّنت في مقالي رجلاً غاضباً. فهي صفة من الضعف بحيث تعجز عن التعبير عن الحالة التي سبّبتها لي قراءة كتابك. وقد كان بوسعي احتمال هجومك عليّ، غير أنه ليس بوسعي احتمال إهانة وجّهتها إلى الحق وكرامة الإنسان، أو السكوت إذ أراك تدعو إلى الفن وفساد الخلق تحت ستار من الدين، وتحت حماية سياط السلطة، ملبساً هذا الفن والفساد ثياب الحقيقة والفضيلة.

فإذا كان الجميع (عدا حفنة من الناس كان من الواجب أن تراهم قبل أن تسمح لنفسك بأن تسر لتأييدهم لك)، أقول، إنه إذا كان الجميع قد رأوا في كتابك حيلة لئيمة (وإن كانت مألوفة) كي تحصل على مآرب دنيوية عن طريق الاتجار بالدين، فعليك أنت تقع التبعة والذنب. وقد شاع في بطرسبورج أنك ألّفت كتابك طمعاً في أن تُعين مدرساً خاصاً لوليّ العهد، وأنك كتبت خطاباً إلى وزير المعارف تشكو فيه من أن كتبك السابقة قد أسيء تفسيرها، وتذكر أنك غير راضٍ عنها، وأنك لن ترضى عن كتاب لك إلا متى رضي القيصر عنه. فهل من المستغرب إذن أن يحطّ كتابك الجديد من قدرك لدى الجمهور؟ أن يحط من قدرك كأديب وكإنسان؟ إنه ليس بالأمر الغريب، وإنما الغريب حقاً أن تراه أنت غريباً.

إن بلادنا يا سيدي ليست في حاجة إلى الوعظ، فقد سمعت منه أكثر مما ينبغي، وإنما هي في حاجة إلى من يوقظ لدى شعبها شعور الكرامة الإنسانية، ومن يتيح بمؤلفاته الفرصة له حتى يرى نفسه كما يراها في المرآة. ثم إذا بكاتب عظيم ساهم بفضل أعماله الفنية الرائعة الصادقة في مساعدة روسيا على تحقيق ذاتها، يخرج بكتاب مشين باسم المسيح والكنيسة يتغنى فيه بمدح رجال الدين الروس الحقراء، وينعت الفلاحين بالغوغاء الأوساخ، ويدعو المالك الزراعي إلى أن يبتز من أقنانه المزيد من المال وأن يضاعف من قسوته وبطشه. وكان المفروض ألا أغضب من هذا!! أقسم أنك لو كنت حاولت اغتيالي لما كرهتك كراهيتي لك بسبب كتابك. ثم نراك تحاول بعد ذلك أن تقنع الناس بإخلاص

نواياك! لا. فلو أنك حقاً كنت قد استوحيت المسيح وتشبّعت بتعاليمه لا بتعاليم الشيطان لخرج من قلمك كتاب جدّ مختلف عن كتابك الأخير. فهل من المعقول أن يكون مثل هذا الكتاب ثمرة تفكير عميق، وبحث دقيق، ونور هبط على القلب؟ محال! فإما أنك مريض يلزمك العلاج، أو أنك... إنه لمن الصعب عليّ أن أكمل الجملة. يكفي أن أسألك يا مبشر الغوغاء ويا رسول الجهل ودعامة الرجعية وفساد الخلق، عما أراك تصنعه. إلق بنظرة تحت قدميك فإني لأراك مشرفاً على هاوية سحيقة.

أهذا ممكن؟ أيمكن أن تكون أنت، مؤلف «المفتش العام» و «نفوس ميتة»، قد أثنيت بإخلاص على رجال الدين الروس؟ أحقاً أنك لا تدرك مدى الاحتقار الذي يكنه الشعب الروسي لهؤلاء القوم؟ على من تتندّر الجماهير؟ عن من يروون أبشع القصص؟ عن رجل الدين وزوجته وابنته وخادمته. من يصفهم الشعب الروسي بأنهم قطيع من البله والمجانين؟ القساوسة. أليس رجل الدي في روسيا هو في نظر الشعب ممثلاً للشهوة والبخل والعبودية وانعدام الحياء؟

ثم إني لذاكر لك أيضاً أنك تؤكد في كتابك زعماً تراه حقيقة لا يمكن نقضها، وهو أن التعليم ليس عديم النفع للجماهير فحسب، وإنما هو أيضاً ضار بالغ الإضرار. فكيف يمكن للإنسان أن يجيبك على هذا؟ ألا فليغفر لك إلهك البيزنطي هذه الفكرة البيزنطية، شريطة أن تكون وقت تسجيلك إياها على الورق غير مدرك لما تسجل. وفي اعتقادي أنك لا تفهم الجماهير في روسيا فهماً سليماً. إن شخصية شعبنا تكيّفها ظروف المجتمع الروسي حيث تكافح قوى جديدة من أجل الظهور في حين يحاول الاستبداد قمعها. وإذ تفشل في الانبثاق تصيبها الكلالة والملل واليأس. في الأدب وحده (رغم الرقابة الوحشية) ظهرت حركة تقدمية نشطة. وهذا هو السبب في توقير الناس لوصف «الأديب» عندنا، وهو السبب في سهولة إحراز النجاح في الميدان الأدبي في روسيا حتى لو كان الكاتب صاحب نبوغ ضئيل. إن صفة «الشاعر» ورُسالة الأدب قد سلبتا

المجد من رجال الحرب والإدارة. وهذه هي علة الاهتمام واسع النطاق الذي نوليه لأية ميول حرة حتى الضعيف منها، وعلة سرعة خفوت الإعجاب بأي نابغة يكرس موهبته عن إخلاص أو غير إخلاص لخدمة الأورثوذكسية والأوتوقراطية. وإن بوشكين لخير مثال على هذا. فما كتب قصيدتين أو ثلاثاً في مدح القيصر وارتدى ثوب رجال البلاط حتى حرمه الشعب من حبه.

والجمهور مصيب دائماً في حكمه. فهو لا يرى قادة له غير أدبائه. وأدباؤه هم المدافعون عنه ضد الأوتوقراطية والأورثوذكسية. لهذا فهو على أتم استعداد لأن يغفر للأديب كتاباً سيئاً، غير أنه غير مستعد لأن يغفر له كتاباً مسموماً. وهو دليل قاطع على صدق فراسة هذا الشعب، وعلى ما ينتظره من مستقبل عظيم. فإن كنت تعشق روسيا فلتشاركني فرحتي بفشل كتابك! لقد أزعجني احتمال أن تستغل الحكومة كتابك، أما عن تأثيره في الجماهير فلم أقلق بصدده. وقد أصاب أصحابي الحزن عندما سمعوا أن الحكومة تنوي طبع الآلاف المؤلفة من النسخ من كتابك وبيعها بسعر زهيد. غير أني طمأنت هؤلاء الأصدقاء على أن كتابك فاشل رغم كل شيء، وأن النسيان سرعان ما سيطويه. وإذا بكتابك فعلاً لا يذكره الناس إلا بسبب المقالات التي كُتبت عنه.

قد تكون عقيدتك مخلصة صادقة. غير أني زاعم لك أن عهد السذاجة في مجال الدين قد انقضى حتى في مجتمعنا. فالذين قد أشربت أرواحهم بالتعاليم المسيحية الحقة هم أولئك الذين يتألمون إذ يرون غيرهم يشعرون بالألم، ويجزعون لمشهد اضطهاد أو قسوة. مثل هؤلاء ليسوا في حاجة إلى الحج إلى بيت المقدس سيراً على الأقدام. ولهذا فإني أراك عاجزاً عن إدراك شكل المسيحية في عصرنا وعن فهم روحها. وهي ليست تعاليم المسيح تلك التي ينضح بها كتابك. وإنما ينضح كتابك بالخوف من الشيطان، وبالجزع من الموت وفكرة الجحيم.

ثم أية لغة وأية تعبيرات تلك التي تستخدمها! أأراك كنت تحسبها في قوة

لغة الإنجيل وجماله؟! ألا ما أصدقها من قولة إن الرجل إذا ما استحوذ الباطل على لبّه هجره ما كان يتمتع به من نبوغ وتعقل. ولو أن كتابك لم يحمل اسم جوجول فمن كان عساه أن يصدق أن ذلك السيل من الفقرات القذرة الغبية قد أتى من نفس القلم الذي سطر «المفتش العام» و «نفوس ميتة»؟

ولو أني أطلقت العنان لنفسي لأضحت هذه الرسالة كتاباً. غير أني أكتفي هنا بأن أكرر القول لك إنك مخطىء إذ رأيت في مقالي رجلاً غاضباً قد أحنقه ما كتبتَه عني. فلو كان ذلك وحده ما أغضبني لكان ذلك وحده ما رددت عليه، ولرددت على غير ذلك في هدوء ودون حقد أو حنق. غير أن الأمر هنا لا يتعلق بشخصي أو بشخصك، وإنما يتصل بموضوع أسمى منك ومني. إنه يتعلق بالحق، بالمجتمع الروسي،

وهاك كلمتي الأخيرة:

«إذا كان سوء الحظ وكبرياؤك قد دفعاك إلى التنكر لمؤلفاتك العظيمة، فمن واجبك الآن، وبكل إخلاص، أن تتنكر لكتابك الأخير، وأن تكفّر عن خطيئتك الكبرى إذ أخرجته إلى النور، بأن تطلع علينا بمؤلفات جديدة تذكّرنا بمؤلفاتك الأولى».

الشخصية اليهودية في الأدب السيوفييتي

من الخطأ أن نعتبر الأدب، في مجتمع معين، مرآة دقيقة صادقة لكافة مظاهر الحياة في ذلك المجتمع. ومع ذلك فإن الأدب السوڤييتي - بحكم طبيعته الخاصة، وتوجيه الحكومة والحزب الشيوعي له - يصلح إلى حد كبير أساساً عظيم الفائدة لدراسة التيارات السياسية والأوضاع الاجتماعية في الاتحاد السوڤييتي. وسنحاول هنا أن نرسم ملامح الشخصية اليهودية كما تظهر في صفحات هذا الأدب، ونحدد معالم العلاقة بين اليهود وغير اليهود في المجتمع، وموقف اليهود من الحكومة ومن النظرية الشيوعية، معتمدين في دراستنا على الأدب السوڤييتي وحده.

في أدب ما قبل الثورة:

فأما عن صورة اليهودي في الأدب الروسي السابق للثورة، فهي الصورة التقليدية التي لا تختلف كثيراً عن صورة شايلوك في «تاجر البندقية». فهو شخص هزلي عادة، يعيش على التجارة والربا، ولا يفوّت فرصة لامتصاص دم ضحيته. بل إنه حتى في الصور الأدبية النادرة لليهودي الطيب، كشخصية «جيد» في رواية جوجول «تاراس بولبا»، وشخصية بومشتاين في رواية «منزل الموتى» لدوستويڤسكي، نجد اليهودي أقرب إلى البهلوان، غير خال من النقائص الشائعة عن اليهود، كحب المال والميل إلى استغلال الآخرين. وقد كان العداء للسامية من المشاعر المألوفة في روسيا القيصرية التي كان يسكنها

في القرن التاسع عشر نحو نصف تعداد اليهود في العالم كله. وكان أبرز الأدباء الـذين ظهرت في أدبهم هـذه الكـراهيـة لليهـود الشـاعـر فيت Fet والـروائي دوستويڤسكي. وقد كتب الأخير في إحدى مقالاته العنيفة ضد اليهود أن الادعاء بأن اليهود شعب مضطهد هو جزء من مخطط يهودي يستهدف إزالة العقبات في سبيل السيطرة اليهودية الكاملة على الحياة المالية في العالم بأسره.

وقد سبق الثورة الروسية عام ١٩١٧، محاولات في الأدب، خـاصة في أدب تـولستوي وجـوركي وأنـدريڤ، للدفـاع عن اليهـود، واستنكـار العـداء للسامية، ورسم صور لشخصيات يهودية ممتازة. وقد فُسرت هذه المحـاولات بأنها صدى لتأنيب الضمير لدى المثقفين الروس، أو بأنها تعكس ازدياد تـأثير الفكر الماركسي. غير أن التطور والتغيير الحقيقيين جاءا عقب الثورة البلشفية، نتيجة لما أحدثته من هزات عنيفة في الأنماط الاجتماعية والاقتصادية. ذلك أن الدين لم تعد له مكانته السابقة، كما قضت السياسة الحكومية بمنح الحق في تقرير المصير والتنمية الحرة لكافة الأقليات القومية داخل الاتحاد السوڤييتي. أو كما نصَّت المادة ١٢٣ من دستور سنة ١٩٣٦:

«مـواطنو الاتحـاد السـوڤييتي متسـاوون في الحقـوق، بغض النـظر عن قوميتهم أو جنسهم، في جميع مجالات الحياة الاقتصادية والثقافية والاجتماعية والسياسية... ويعاقب القانون على أي انتقاص مباشر أو غيـر مباشـر من هذه الحقـوق، وكـذا على خلق أيـة امتيـازات مبـاشـرة أو غيـر مبـاشـرة لبعض المواطنين على أساس جنسهم أو قوميتهم، وعلى أية دعوة للتمييز العنصري أو القومي أو للحض على الكراهية والاحتقار».

اليهود والثورة البلشفية:

أثّـرت مثل هـذه المبادىء تـأثيراً عميقـاً في الحياة اليهـوديـة وشخصيـة اليهـودي. فقد أقبـل اليهود في حمـاس على الاستفادة من الفـرص الجديـدة المتاحة لهم، وشغل المناصب والمراكز التي كـانت من قبل مـوصدة دونهم.

فبالرغم من أن نسبتهم إلى مجموع السكان لم تكن تزيد على ١,٧٨٪ عام ١٩٣٩، فإن إحصاءات ذلك العام تشير إلى أن نحو ١٠٪ من المثقفين (الانتليجنتزيا)، و ١٧٪ من الأطباء، و ١٠٪ من طلبة معاهد التعليم العالي في الاتحاد السوڤييتي، كانوا من اليهود. هذا إلى كثرة اليهود بين القادة السياسيين والأدباء والموسيقيين والمخرجين مثل: تروتسكي وزينوفييڤ وكامينيڤ وكاجانوڤيتش وبابل وإهرنبورج وإيلف وكاڤرين وباسترناك وأويستراخ ومايرخول.

لقد انحازت الغالبية من اليهود إلى صفوف البلاشفة وقت الثورة وإبان الحرب الأهلية. ولم يكن انحيازهم هذا في أغلب الأحوال ناجماً عن عقيدة سياسية، وإنما بسبب شيوع روح العداء للسامية لدى القوى المناهضة للثورة، وإقبال جيوش أعداء البلاشفة على إحراق المدن اليهودية، وإعمال القتل في أفراد اليهود خلال سنين الحرب الأهلية. وهو ما طبع الشعر اليهودي في تلك الفترة بطابع الحزن العميق والقتامة، مما دفع النقاد الأدبيين فيما بعد إلى تسمية تلك المرحلة من الشعر اليهودي بمرحلة النواح!

ومع ذلك فقد كان هناك من اليهود من عارض الثورة البلشفية معارضة إيجابية نشطة، نتيجةً لعقيدة سياسية، أو مصالح مالية، وهم اليهود الذين كانوا من البورجوازيين الناجحين في ظل النظام القيصري السابق. ففي رواية «أسبوع» ليوري ليبيدنسكي التي نشرت عام ١٩٢٢، نجد الصيدلي اليهودي رفائيل سيناتور الذي صودرت تجارته، يبكي على مجده الزائل كلما مرّ على صيدليته القديمة باسمها الجديد «الصيدلية الجماعية رقم ١». وهو لحقده على الشيوعيين يجعل من مسكنه مقراً للاجتماعات السرية التي تعقدها جماعة من المناهضين للثورة، وذلك بالرغم من احتقار أفراد هذه الجماعة له لكونه يهودياً، ورغم تسميتهم إياه باليهودي القذر. وعندما يأسر أعداء الثورة ضابطاً شيوعياً، يواجهه رفائيل في فرح شديد وهو يصيح: «سنقتلكم جميعاً أيتها الكلاب

المسعـورة، وأعود إلى صيـدليتي فأضـع عليها اسمي من جـديد.. أتسمـع؟ صيدليتي.. صيدليتي أنا.. فأنا غنيّ، بورجوازي، أتسمع؟ وسأظل بورجوازياً إلى أبد الآبدين»!

التسعة عشر:

غير أن عدداً كبيراً من اليهود كانوا من العـاملين النشطين في الحـركات اليسارية وفي صفوف البلاشفة قبل نشوب الثورة، ولعبوا دوراً بارزاً فيها. وكان هؤلاء هم أساس شخصيات «الأبطال الإيجابيين اليهـود» في الأدب السوڤييتي بعد عام ١٩١٧. ومن أشهر هذه الشخصيـات شخصية ليڤينسـون بطل روايـة «التسعة عشر» التي نشرها فادييڤ سنة ١٩٢٦. وليڤينسون هذا يهودي شيوعي لا يعرف الخوف، ذو لحية حمراء، وبدن سقيم، «وإرادة صلبة ورثها عن آبائه وأجداده». وبالرغم من أن أباه كان تاجر أثاث لم يخبر من الرغبات غير الرغبة في جمع ثروة طائلة، فإن الإبن لا تربطه بنمط حياة أبيه رابطة. فهو ينحاز إلى الجديد، ويعلم سبب انحيازه:

«لقد سحق في نفسه كل ما ورثه من أوهام وأكاذيب عن الأجيال السابقة. فهو يريد أن يرى كل شيء كما هو في الواقع حتى يتمكن من تغيير كل شيء، والتحكم في كـل شيء. وكـان هـذا الـذي أدركـه ليڤينسـون أبسط وأصعب ما يمكن للإنسان أن يدركه».

وصفت غالبية النقاد رواية «التسعة عشر» بـأنها حـدث عظيم في تـاريخ الأدب الروسي، كما كان نجاحها هائلاً لدى جمهور القراء. فقد طبع منها حتى عام ١٩٤٧ نحو ١٦,٢٥٠,٠٠٠ نسخة في خمس وسبعين طبعة، وهو رقم لم تتعدّاه أية رواية سوڤييتية أخرى غير «الدون الهادىء» لشولوخوف. غير أنه من الجدير بالذكر أن كافة النقاد الذين أثنوا على الـرواية تجنبـوا الإشارة إلى دين بـطلها، واعتبـروا ليڤينسون بـطلاً سوڤييتيـاً لا ينتمي إلى دين معين، أو قوميـة معينة.

كذلك تعرض شولوخوف لنفس الموضوع في روايته الكبرى «الدون الهادىء». فشخصية أنّا بوجودكو فيها (وهي ليست شخصية رئيسية)، هي لفتاة يهودية في التاسعة عشرة من العمر، انضمت أثناء الحرب الأهلية إلى فرقة بلشفية، وتعلمت استخدام المدفع الرشاش. سألها قائد الفرقة:

ــ أمن أوكرانيا أنت؟

ترددت لحظة ثم أجابت بحزم: لا.

ــ يهودية؟

ــ نعم. ولكن، كيف عرفت؟ هل أتكلم كيهودية؟

ــ بل عرفت من شكل أذنيك، ومن عينيك... إنه ليسرني أن تكوني معنا.

ــ ولماذا؟

ــ لأن الشائع بين الناس عن اليهود أنهم في المعارك يكتفون بإصدار الأوامر دون أن يعرضوا أنفسهم للخطر. وهو أمر غير صحيح. وستثبتين بتصرفاتك أنه غير صحيح.

ثم تلقى أنّا بوجودكو حتفها في هجوم ضد الجيش المناهض للثورة.

اليهودي بين الأدب والواقع:

مثل هذه الشخصيات توضح التغيير الجوهري الذي طرأ في المجتمع السوفييتي تجاه اليهود. فقد فتح الأدب ـ شأن السياسة والحياة العامة ـ الباب على مصراعيه لهم. غير أن الشخصية اليهودية التي بدأ ظهورها يتردد في الأدب قد طرأ عليها هي الأخرى تغيير كبير. فلم يعد اليهودي في الأدب مشغولاً بالمشكلة اليهودية، يستخدم لغته وحدها في الحديث، شديد الوفاء لعادات قومه ومطامحهم، وإنما هو الآن مشغول بالقضايا العامة، يتحدث بلغة المجتمع

حوله، ويسعى إلى خدمة الوطن السوفييتي والمبدأ الشيوعي. وهو أمر لا نجد مثيلاً له في التاريخ اليهودي.

غير أن هذه الصورة المثالية لليهودي في الأدب، لا يمكن اعتبارها ممثلة لكافة اليهود في الواقع. فقد كان ثمة عدد كبير من اليهود الأقل تمسكاً بالمبادىء والمثل العليا، ممن رحبوا ترحيباً حاراً بالسياسة الاقتصادية الجديدة N.E.P. التي بدأ إنتهاجها منذ عام ١٩٢٢، والتي أزالت قدراً كبيراً من القيود على التجارة. وبذا تمكن الكثيرون منهم من العودة إلى المهنة المفضلة لديهم، فأثروا من جراء التجارة ثراءً عظيماً. وقد كان الأدب السوفييتي وقتئذٍ من الأمانة بحيث لم يغفل تصوير هذه الظاهرة، ورسم شخصيات المضاربين اليهود الجدد.

ففي رواية «إلاّ ستة» لماتڤي رويزمان (وهو من أصل يهودي) نجد صورة حية لأحد اليهود المستفيدين من السياسة الاقتصادية الجديدة، وهو هارون سليمانوڤيتش ڤيشباين، رجل بالغ الدهاء واللؤم، شديد الحرص على المال، يسرق من أبيه في صباه ويدخل في مضاربات وتلاعب مالي حتى تحس السلطات به فتنفيه من موسكو. وهو عاجز عن فهم ما يجري في البلاد من تطورات هامة. ونسمعه يهتف حين يقرأ نبأ البدء في اتباع السياسة الاقتصادية الجديدة: «هذا يعني أنه سيصبح باستطاعتنا العودة إلى استغلال البروليتاريا!».

وقد هاجم النقاد هذه الرواية لما قد تتسبب فيه من إثارة لمشاعر العداء للسامية. غير أن هذا العداء كان قد بدأ بالفعل يصبح حقيقة واقعة في المجتمع السوفييتي بسبب تصرفات اليهود تلك. وإذ ظهرت بوضوح مظاهر الكراهية لهم، اتجه الأدب اليهودي السوفييتي إلى تصوير ما يتعرض له اليهود من اضطهاد، وتذكير الشعب بأقوال القادة الشيوعيين بصدد العداء للسامية، وتصوير اشتراك اليهود الفعال في بناء المجتمع الجديد. ووصف الأدباء اليهود روح العداء للسامية بأنها مناهضة للثورة، ومخالفة للمبدأ الشيوعي. وقد

اشتركت الحكومة نفسها في الحملة المكافحة للعداء للسامية. فإلى جانب الروايات والمسرحيات المدافعة عن اليهود مثل رواية «الرجل الذي يقبّل الأرض» لميخائيل كوزاكوف (١٩٢٨)، ومسرحية «المستوى الخامس» لماركيش (١٩٣٣) التي تتعرض لرفض عمال أحد المناجم قبول عمال يهود جدد، نجد الحكومة السوفييتية تصدر عدداً غير قليل من الكتيبات الدعائية الخاصة بالمشكلة، مثل: «من الذي يفتري على اليهود، ولماذا؟» و «كراهية اليهود» و «الحقيقة عن اليهود».

الوطن القومي:

وبالإضافة إلى نمو مشاعر العداء للسامية لدى الشعب، بزغت عوامل أخرى دفعت الحكومة السوفييتية إلى التفكير واتخاذ الخطوات الإيجابية في سبيل إنشاء وطن قومي لليهود داخل الاتحاد السوفييتي. من هذه العوامل ازدياد تحمس اليهود السوفييت للصهيونية، ثم رغبة الحكومة في حل مشكلة ذلك العدد الضخم من اليهود المتعطلين غير المنتجين الذين بلغت نسبتهم عام ١٩٢٦ نحو ٣٢,٣٪ من مجموع عدد اليهود السوفييت. وقد سعت السلطات في بادىء الأمر إلى حل هذه المشكلة الأخيرة عن طريق إنشاء هيئات إدارية وتنظيمية هدفها مساعدة اليهود المتعطلين على الالتحاق بالوظائف والصناعات، وفلاحة المساحات الشاسعة من الأراضي الزراعية التي خُصصت لليهود في أوكرانيا والقرم. غير أن انتعاش الفكرة الصهيونية في ذلك الحين، حوّل الحكومة السوفييتية إلى فكرة تأسيس دولة يهودية في بيروبيدجان البالغة مساحتها ١٥ ألف ميل مربع، والواقعة في الشرق الأقصى عند الحدود السوفييتية الصينية.

وقد تم إعلان هذه الخطة في ٢٨ مارس سنة ١٩٢٨، ووجهت على إثره الدعوة إلى اليهود داخل الاتحاد السوفييتي وخارجه للهجرة إلى هذه المنطقة. وقد حرصت الحكومة على ألا تقدم على استخدام القوة في نقل اليهود

السوفييت إلى بيروبيدجان، واكتفت بمنح التسهيلات والمعونات السخية لليهود الـراغبين في الاستيطان فيهـا. وفي ٧ مايـو سنة ١٩٣٤، على أثـر مـا حققتـه بيروبيدجان من تقدم كبير في الزراعة والصناعة، أصبحت بيروبيدجان مقاطعة يهودية تتمتع بالحكم الذاتي داخل جمهورية روسيا الاشتراكية الاتحادية. كما صرح القادة السوفييت بأن تخصيص منطقة واسعة لليهود، يستخدمون فيهـا لغتهم، ويمارسون في نطاقها تقاليدهم، من شأنه أن يضمن استمـرار القوميـة اليهودية.

وتـدفق سيل من الكتّـاب اليهود السـوفييت على بيروبيـدجان لـزيارتهـا والكتابة عن الحياة فيها. فكانت كتبهم تلقى الترحيب والتشجيع، وتنشر على نطاق واسع، وتتـرجم إلى لغات جمهـوريات الاتحـاد. ومع هـذا كله، ظلت الغالبية من سكان بيروبيدجان من غير اليهود، وهو ما يفسر لنا التضاؤل التدريجي منذ نهاية الثلاثينات في الإشارة إليها على أنها «المركز القومي للحياة اليهودية السـوفييتية». فقـد تزايـدت مساحـة المقاطعـة شيئاً فشيئـاً، في حين تضاءلت الهجرة اليهودية إليها تضاؤلاً سريعاً رغم محاولة أخرى من جانب الحكومة في السنوات ما بين ١٩٤٦ و١٩٤٨ للحث على هجرة اليهود إلى المقاطعة.

بابي يار:

غير أن فشل المشروع لم يحل دون استغلال الحكومة السوفييتية له في الدعاية لحكمة السيـاسة السـوفييتية الخـاصة بـالقوميـات ومقارنتهـا بالسيـاسة النـازيـة. وفي مسـرحيـة للكـاتب يهـودي من المقـاطعـة بعنـوان «إنـه من بيروبيدجان»، نرى ضابطاً روسياً في الجبهة يتحـدث عن البطل اليهـودي في المسرحية فيقول: «كلما نظرت إلى هذا الملازم الفتى القادم من بيروبيدجـان جـالت في خاطـري صورة الـوديان تغص بجثث القتلى من اليهـود. . . هـذا هو ماحققه هتلر! ثم أفكر في هـذا الضابط اليهـودي وفي المقاطعـة التي جاء منها. . . هذا هو ما حققه السوفييت!».

جاء الغزو النازي للاتحاد السوفييتي في يونيو سنة ١٩٤١، فعانى اليهود من جرائه الأمّرين. أو كما كتب الشاعر الروسي سوركوف:

«وشاهدنا الأرض مرة أخرى إلى الشرق والغرب.
قد لطخت بدماء القتلى من اليهود».

ففي مدينة كييث، عند بابي يار، قتل أكثر من ٥٢ ألف يهودي رمياً بالرصاص. وفي دنيبروبتروڤسك قتل نحو ٢٦ ألف، وفي ڤافلوجراد أربعة آلاف، وفي خاركوف ١٣ ألف. ويقول الكاتب ڤاسيلي جروسمان إنه في مدينة مينسك وحدها قتل أكثر من مائة ألف يهودي في مدى عامين. وبذا عاد الأدب اليهودي إلى طابع النواح، وإن حاول الكتاب اليهود ـ بضغط من السلطات ـ أن يبقوا في أدبهم على عنصر الأمل والتطلع إلى مستقبل منير. ففي مسرحية برجلسون «سأعيش» (١٩٤٢)، نجد إخصائياً زراعياً عجوزاً من اليهود يعذبه النازيون حتى يفضي إليهم بمعلوماته. وعندما يصر على الرفض، يأتون إليه بابنته «فريدا» ويقول الضابط النازي له: «أنظر إليها وامنحها بركتك. فهي من اليوم فصاعداً ستستخدم في إشباع شهوة الأبطال من الشباب الألماني في الجبهة.. باركها أيها العجوز وبارك دعارتها المقدسة!». فيضع اليهودي يديه على رأس ابنته ويخاطبها بقوله: «فلتبقي على نقائك يا بنيتي، وادفعي حياتك ثمناً له لو اضطرتك الظروف إلى ذلك. وإني لأباركك على هذا بدمي الذي يتساقط من يدي على رأسك الآن».

وفي قصة قصيرة لإسكندر بيزيمينسكي، يتحدث الكاتب عن امرأة روسية متزوجة من يهودي. وإذ يسوقه النازيون إلى القتل تختار لنفسها ولولدها نصف اليهودي مصير زوجها وقومه:

«وعادت إلى ذهنها ذكرى مساء قضته مع زوجها في قراءة مقال لينين (العزة القومية لدى الروس).. الآن قد وضح لها مغزى المقال. فهي امرأة روسية. والشعب الروسي هو المدافع عن كافة الشعوب المظلومة، وهو الأخ

الأكبر للكادحين من كافة الأجناس هذه الكلمات التي كانت تبدو لها في الماضي مجردة مبهمة، أضحت الآن قريبة إلى قلبها: حبيبة إلى نفسها، مليئة بالمعاني، تعزّها إعزازها للأرض التي تسير عليها، وللهواء الذي تتنفّسه»!

التحوّل بعد الحرب:

غير أنه ما انتهت الحرب، حتى شرعت الصحف السوفييتية تشن هجوماً عنيفاً على «أولئك الكتاب اليهود الذين اقتصروا في أدبهم على تصوير جرائم النازيين ضد اليهود، وكإنما لم تكن تلك الجرائم في حق الشعب السوڤييتي كله». كذلك هوجم الكاتب اليهودي كيبنيس وطرد من اتحاد الكتاب الأوكرانيين عام ١٩٤٧ حين كتب في قصة قصيرة له: «لكم كنت أودّ أن أرى اليهود أجمعين، يسيرون في جرأة عبر شوارع برلين، وقد علّقوا على صدورهم بين الأوسمة والنياشين، نجمة النبي داود الجميلة!» وقد اتهم أمثال هذا الكاتب من اليهود بالتعصب الأحمق لقومهم، وبالوطنية البورجوازية الزائفة. «فهم لا يريدون أن يفقهوا أن الجنود اليهود السوڤييت لم يحاربوا من أجل داود ومطامح داود، وإنما من أجل الحياة السوڤييتية والدولة السوڤييتية والوطن السوڤييتي».

ومنذ ذلك الحين (منذ عام ١٩٤٨ على وجه التحديد) تضاءلت في الأدب السوڤييتي حتى كادت تختفي، تلك الإشارات إلى اليهود باعتبارهم قومية مستقلة، وأصبح من الصعب الاعتماد على الأدب في تكوين صورة عن أحوالهم ومشاكلهم. فمظاهر البطولة التي قد يبديها أفراد من اليهود في بناء المجتمع السوڤييتي هي نفس المظاهر التي قد يبديها أي سوڤييتي آخر. وإن رسم لنا كاتب صورة لبطل يهودي في رواية أو مسرحية، أفهمنا ضمناً أنه ليس بطلاً «لأنه يهودي»، ولا «بالرغم من أنه يهودي». ومن ثم فقد أصبح ينطبق على تصوير اليهود في الأدب ذلك التصريح السوڤييتي الذي صدر وقت اندلاع حرب فلسطين:

«إن الإتحاد السوفييتي ليس في جانب اليهود، ولا هو في جانب العرب، وإنما هو في جانب المبادىء اللينينية الستالينية».

لقد عرّف ستالين الثقافة القومية في الاتحاد السوفييتي بأنها «ثقافة اشتراكية المضمون، قومية الشكل، تهدف إلى تثقيف الجماهير في ظل الروح الدولية، وإلى تعزيز ديكتاتورية البروليتاريا». وقد انصاع الأدب اليهودي السوفييتي إلى حد كبير لهذا التوجيه. غير أنه بينما اتجه الأدب الروسي على الفور إلى مهمة إرشاد العمال والفلاحين إلى طريق الاشتراكية، كان على الأدب اليهودي أن يجعل من اليهود بادىء ذي بدء عمالاً وفلاحين، ثم يرشدهم بعد ذلك إلى طريق الاشتراكية. وبينما سعى الأدب الروسي إلى استئصال شأفة العداء بين القوميات المختلفة بكافة مظاهره، سعى الأدب اليهودي السوفييتي ـ بتوجيه من الحزب الشيوعي ـ إلى التحذير من أي تأكيد للاختلاف بين اليهود وغير اليهود، وإلى دعوة اليهود السوفييت إلى أن يصبحوا جماعة مساهمة في بناء المجتمع، لا عنصراً غريباً أجنبياً مفسداً ومعرقلاً.

فهل يعني ذلك أن النظام السوفييتي قد نجح في إقناع اليهود بالإندماج في المجتمع الذي يعيشون فيه، (وهو ما نصح به باسترناك اليهود في جميع أنحاء العالم في روايته «دكتور جيفاجو»)؟

إن المقارنة بين وضع اليهود في الاتحاد السوفييتي ووضعهم في الدول الغربية مثلاً، قد تدفع إلى الإجابة بالإيجاب. كما قد يدفع إليها ذلك التضاؤل المستمر في توزيع الصحف اليهودية وفي عددها، وتضاؤل كمية ما يصدر عن دور النشر اليهودية من الكتب، حتى في المناطق التي تغص بالسكان اليهود، وانصراف اليهود الشبان عن تعلم لغة آبائهم. غير أن بعض تصريحات القادة السوفييت تثير من حين لآخر الشك في مدى ما حقّقوا من اندماج في المجتمع. فحين أثير مثلاً عام ١٩٦٢ موضوع العداء للسامية بمناسبة اختيار شوستاكوڤيتش لقصيدة يڤتوشنكو (بابي يار) موضوعاً للحركة الأولى من سيمفونيته الثالثة عشر، صرح خروتشوف بقوله:

«ليس ثمة عداء للسامية في الاتحاد السوفييتي. ومع ذلك فإنه من الأفضل ألا يتولى اليهود المناصب الرفيعة في الدولة حتى لا يثير ذلك سخط الرأي العام. وفي رأيي أن القلاقل والفتن التي حدثت في بولندا والمجر عام ١٩٥٦ سببها تولي عدد كبير من اليهود للمراكز الهامة في الحكم».

وأضاف خروتشوف موجهاً حديثه إلى الكاتب اليهودي إيليا إهرنبوج: «يجب أن تفهم أنني كسياسي محترف أجد لزاماً عليّ أن آخذ الأمور كما أجدها، وأن أحذر الناس من الأخطار المحدقة».

فماذا يمكن أن تعنيه عبارة «إثارة سخط الرأي العام» ما لم تكن هناك بقايا عداء لليهود في الاتحاد السوڤييتي؟ أو الحديث عن مسؤولية اليهود عن القلاقل والفتن ما لم تكن هناك بقايا لمشاعر اليهود بالترابط فيما بينهم والولاء لليهودية ومصالحها دون الدولة ومصالحها؟ وهل هذه المشاعر «بقايا» ومخلفات من عهود طويلة سابقة سيتم استئصالها بازدياد تغلغل المبدأ الشيوعي في النفوس؟ أم أنها صفات لصيقة باليهود أينما كانوا، وأن النجمة السوڤييتية الحمراء لا يمكن أن تحل في قلب اليهود مكان «نجمة النبي داود الجميلة»؟

أسئلة تحتاج إلى المزيد من البحث.

إن استشهاد الشيع المتنافرة، والطوائف المتناحرة، بأقوال مؤسسي الحركات الدينية وشبه الدينية، وإيمان كل فريق بأنه هو التابع الحق لصاحب المذهب، وأن أتباع غيره من الفرق هم المارقون المفسدون، أمران نلمسهما منذ أقدم العصور، وفي صفحات تاريخ كافة الأديان وغالبية المذاهب التي أحيط أصحابها بقدسية شبيهة بقدسية النبيّين. كذلك فإن تمسك بعض الفرق التابعة لمذهب معين بحرفية أقوال مؤسسه، والقول بضلال المجتهدين بعده، وذهاب البعض الآخر إلى تطوير الفكرة وتطبيقها تطبيقاً مرناً على ما يجدّ من شؤون الحياة مما لم يعاصره صاحب الفكرة، هي من الأمور التي وقعت مراراً، وما نراه اليوم يتكرر حدوثه بصدد المبادىء الماركسية اللينينية.

لقد أحاط الشيوعيون كلًا من ماركس وإنجلز ولينين بهالة من الإجلال والتقديس وجدوا فيها بديلاً وعوضاً عن الدّين الذي أداروا ظهورهم له. وهو تقديس يتنافى تماماً مع ما يركز عليه مذهبهم من الإلحاد والمادية، وحتمية التاريخ، والحرص على تجنب المبالغة في تقييم أهمية الزعامة والبطولة. وقد شعر ماركس نفسه في أواخر حياته بهذا الاتجاه من أتباعه، وتمسكهم غير المرن بحرفية كتاباته، مما جعله يصرح بجملته الشهيرة «أنا لست ماركسياً!»؛ يعني بذلك أنه ليس من المتمسكين بعقيدة جامدة غير قابلة للتطوير. غير أن الواضح أن التقديس الديني عاطفة حتمية لصيقة بالإنسان. وهي لا بد لها من

أن تنصبّ على موضوع محدد حتى مع المجاهرة الحماسية بالإلحاد. وهو ما يذكّرنا بقولة هرتزن ودوستويفسكي عن الناقد الإشتراكي الملحد بيلينسكي: «كان من شدة الإيمان بالإلحاد بحيث كان يعتقد أن كافة غير الملحدين مصيرهم جهنم!»

إن التاريخ يعلمنا أن كافة الحركات الجديدة فيه لا مفر من أن تشوبها في التطبيق شوائب من أفكار الماضي ومعتقداته. فوثنية روما، وفخامة معابدها وطقوسها، تركتا تأثيراً عميقاً في الديانة المسيحية حين انتشرت إلى العالم الروماني. كما كان للفكر المسيحي أثره في عقائد الشيعة، وللفكر الفارسي أثره في تكييف دعوة الصوفية في الإسلام. كذلك فإن مبدأ تقديس الفرد في ظل النظام الشيوعي يمكن أن يفسر جانب كبير منه بتخلف رواسب من المشاعر الدينية. وإلا فما الحكمة في تحنيط جسد لينين، وسر هذه الصفوف الطويلة من الخلق التي تحج يومياً إلى قبره، وتلك الأغاني الشعبية عند المسلمين التتر التي تزعم أن لينين لم يمت، وإنما اختفى في الجبال ليعود يوماً إلى الدنيا فيملأها نوراً وعدلاً؟

لقد احتجّت كروبكايا، أرملة لينين، أعنف احتجاج على فكرة تحنيط جسد زوجها، وأكدت أنه ما كان ليرضى عنها لو أنه استشير بصددها. والحق أن لينين كان أكثر الناس استنكاراً لتسرب التعابير والعادات والأساليب الدينية إلى المذهب الشيوعي. سئل مرة: «ما قولك في امرىءٍ يقول: الشيوعية ديني؟» فأجاب: «لو قالها عامل أو فلاح بسيط لكان معناها بدء انحرافه عن الدين إلى الشيوعية. ولو قالها مثقف لكان معناها بدء انحرافه عن الشيوعية إلى الدين»، أو كما قال.

قدسية كتابات ماركس ولينين:

بيد أن هذا لم يبدل من الوضع شيئاً. فكتابات ماركس ولينين لها قدسية الكتب المنزلة التي لا بد لجميع المتنافرين المتخاصمين الإشارة إليها، إن

أرادوا الإقناع بأنهم من أهل السنة المخلصين، والاحتجاج بها إن شاءوا أن يرموا خصومهم بالجحود والخيانة. فكل من المنشفيك والبولشفيك والماركسيين القانونيين يستندون إلى ماركس في نزاعاتهم. يستند بوخارين بكتابات لينين في خصومته مع زينوفييف وكامينيڤ، ثم ستالين في نزاعه مع بوخارين، ثم خروتشوف في هجومه على ستالين، ثم بريجنيف في حملته على خروتشوف، والقادة السوفييت في خلافهم مع القادة الصينيين، دون أن يجرؤ أي منهم، أو يخطر بباله، أن ينسب موقفه إلى ذاته، أو يدعي الحق في انتهاج طريق جديد.

وتكاد تكون كروبسكايا وليون تروتسكي الوحيدين من بين الزعماء السوفييت اللذين حذّرا الشعب والأحزاب الشيوعية من أخطار تقديس لينين والتشبث بحرفية كتاباته تشبثاً أعمى. فقد خطبت أرملة لينين في ١٨ ديسمبر عام ١٩٢٥ في المؤتمر الرابع عشر للحزب الشيوعي، فتحدثت عن العواقب الوخيمة لتأليه زوجها الراحل، وتوسلت إلى المندوبين أن يناقشوا الموضوعات المطروحة على بساط البحث أمامهم على ضوء الاعتبارات الموضوعية المحضة، بدلاً من ملء المناقشات باقتباس لا معنى له من كتابات لينين.

ومن جهةٍ أخرى نقرأ في كتاب تروتسكي «الطريق الجديد» الذي نشره عام ١٩٢٣ أثناء مرض لينين الأخير:

«لقد بدأ الناس يفزعون من كل كلمة جديدة، من كل نقد، ومن كل مبادرة أصيلة أو دلالة على استقلال الرأي. وأصبحت الأداة الحكومية تعيش على الأكاذيب التي تحسب أن من شأنها إشعال الحماس وغرس الإيمان في النفوس، وتُضحّي بالحقيقة من أجل نسج الأساطير. فإن قرأت مثلاً ما يكتبونه عن الجيش الأحمر وتاريخ الحرب الأهلية، خُيل إليك أنه ما من جندي في صفوفنا إلا شجاع بطل يتحرق شوقاً إلى القتال، وأن العدو كان دائماً متفوقاً علينا في العدد والعدّة، وأن جميع أوامرنا العسكرية كانت حكيمة مناسبة تماماً

للظروف، وأن تنفيذها كان دائماً رائعاً في دقته... وفي اعتقادي أن الادعاء بطيب أثر هذه الخرافات في النفوس هو نفسه من الخرافات. وسيستمع الجندي الأحمر إلى هذه الخرافات تماماً كما كان أبوه يستمع إلى «سير القدّيسين» تتلى عليه. فهي رائعة ممتعة، غير أنه لا صلة لها بالواقع أو بعالمنا هذا...».

ويستطرد تروتسكي قائلاً:

«إن أقوال السلف من الماركسيين ليست قانوناً ملزماً ينبغي حفظه عن ظهر قلب، وتقبله تقبل الكتاب المقدس. وما كل ما ينطق به أعلام الفكر الماركسي ينبغي تصديقه لمجرد أنهم هم قائلوه. فلو حدث هذا كنا كمن يشيد بناءه على الرمال... إنني لا أستنكر احترام شبابنا لأولئك الزعماء الذين أدّوا خدمات جليلة لثورتنا. ولكني أقبله بشرط واحد: هو ألا يؤدي احترام السلف إلى محو شخصية الشباب وإرهابهم. وأن أي إنسان تعوّد الموافقة على كل ما يقوله الزعماء إنسان تافه لا قيمة له...

«فالأجدر بشبابنا أن يعتمدوا على أنفسهم فحسب، على تفكيرهم هم، وألا ينظروا إلى سلطان القادة الفكري على أنه سلطان مطلق.. بل إن القادة أنفسهم في حاجة إلى التعاون الإيجابي المستمر مع الشباب، في إطار الديموقراطية، حتى تستمر ثوريتهم قائمة، ويحولوا دون تحجّرهم وتدهورهم إلى مستوى البيروقراطية.

«لنطرح إذن هذه الطاعة العمياء، وهذا القمع للشخصية، وهذه الذلة والسلبية تجاه السلطات. فالبلشفي ليس رجل نظام فحسب، إنه رجل يصل بنفسه إلى رأي حازم بصدد كل موضوع، وكل مشكلة تجدّ، ويدافع عنه في حماس واستقلال، لا ضد أعدائه فحسب، بل وداخل حزبه يأضاً...».

نزاع الورثة:

غير أن تروتسكي، كما نعلم، لم يفلح في مسعاه. فالواقع أنه من

الأسباب التي ساهمت مساهمة كبيرة في بلورة هذاالتقديس للينين، تلك الخصومة التي حدثت أثناء مرضه الأخير وبعد وفاته بين ورثته من القادة السوڤييت. فكما حدث من قبل في العديد من الأديان والمذاهب الفكرية، استغل المتنازعون هنا السلطان الروحي للمذهب من أجل خدمة مصالحهم ومطامحهم الشخصية. ولجأ ستالين وزينوڤييف وكامينيف إلى سلاح كتابات لينين وأقواله للهجوم على تروتسكي، وكذلك قبل تروتسكي حربهم بنفس السلاح. والأمر الذي سهّل على جميع الأطراف سعيهم، أن لينين في تصدية للمسائل والمشكلات التي واجهته أثناء كفاحه السياسي الطويل، قال بحلول مختلفة بالغة التعارض بالنظر إلى أنه تعرّض لها في مواقف مختلفة، وفي ظل ظروف متباينة متناقضة.

كذلك فقد كان من عادة لينين أن يكيل لأتباعه أوصافاً ونعوتاً حادة، يطرحها يميناً ويساراً أثناء مناقشاته وجداله معهم. وكلما زاد القدر الذي يتمتع به التابع من حرية التفكير، زادت هذه الأوصاف والانتقادات اللينينية حدّة وعدداً، فلم ينج منها غير الشخصي الإمّعة الذي لا رأي له. فتروتسكي هو عند لينين في وقت ما «يهوذا جديد». وستالين «وقح متعجرف». وزينوڤييف «هلوع جزوع». وكامينيف «خائن الثوار». وهلم جراً. وقد لجأ كل من ورثته إلى هذه الصفات في الاستشهاد ضد خصومه، (بما فيهم تروتسكي نفسه)، وكأنها لعنات بابوية، واعتبروا الأحكام التي كانت عند لينين مجرد عبارات سياسية لازمة للنضال، في مصاف المبادىء الدينية، متجاهلين أن اللينينية لا توفر دائماً الحلول الواضحة للمشكلات الجديدة، وأن هذه المشكلات التي جابهتهم لم تكن قد نشأت أصلاً خلال حكمه، أو كانت وقته في طور التكوين.

* * *

فإن انتقلنا إلى الاتحاد السوڤييتي اليوم وجدنا أنه بالرغم من إخلاص القادة منذ خروتشوف في حربهم ضد تقديس الفرد، فإن هذه الحرب لا تمس

لينين من قريب أو بعيد. فتقديسه لا يزال قائماً. وهو تقديس لم يحل مع ذلك دون حرية الزعماء السوڤييت منذ وفاته في انتهاج أية سياسة يرون الأخذ بها دون أدنى خشية منهم من أن يعجزوا عن إثبات ولائهم للمبادىء اللينينية. فالمثل يقول: «بوسع الشيطان أن يقتبس من الأناجيل ما يعزّز رأيه». وفي كتابات لينين متسع للجميع كي يقتبسوا منها ما يؤيد مذهبهم: ففيها مبدأ «الثورة الدائمة» الذي أخذ تروتسكي به، وفيها مبدأ «الاشتراكية في بلد واحد» الذي تبناه ستالين، وفيها سياسة مراضاة المزارعين الأقوياء (الكولاك)، وسياسة العمل للقضاء عليهم، وفيها سياسة التصنيع السريع، وفيها سياسة التصنيع البطيء، وفيها سياسة العمل المستمر من أجل إشعال الثورات في الخارج، وفيها سياسة التعايش السلمي مع النظم الرأسمالية. فلا خوف إذن من ألا يجد صاحب أية سياسة فقرات تؤيده في مجلدات أعمال لينين الضخمة. غير أن احترام هذا الرجل مغروس في نفوس الجميع، ولا أحد يمكنه الاستغناء عن الاستدلال بما قال لإضفاء الوقار على ما يكتب، وكإنما قد فقد الفكر الإنساني الحر كل قيمة فيه ما لم يكن مطابقاً لآراء لينين ونابعاً منها. بل إنه ليخيل إلينا أنه لو حدث في وقت من الأوقات أن اضطرت الظروف القادة السوفييت إلى مهاجمة آرائه، لرأوا من الحكمة أن يقتبسوا من أقواله ما يعضد مهاجمتهم إياه!

بوادر التحرر:

ومع ذلك فقد ظهرت بالاتحاد السوڤييتي خلال السنوات القليلة الماضية دلائل تشير إلى بوادر الخروج عن هذا الجمود. وهو ما نلمسه في العديد من المقالات الافتتاحية التي تنشرها صحف كالبراڤدا وإيزڤيستيا، وفي بعض مجلات الحزب والكتب.

وتذهب هذه الكتابات إلى أن بعض المفكرين الشيوعيين قد تنكر لمبدأ من أهم مبادىء الماركسية ـ اللينينية، ألا وهو النظرة الخلاقة إلى المذهب. فهم يقيسون كافة ما يتمخض عنه الفكر الماركسي الخلاق في الاتحاد

السوفييتي على ضوء مدى اتفاقه أو اختلافه مع مؤلفات كتبت منذ أكثر من مائة عام (ماركس)، أو من ستين عاماً (لينين)، أو من ثلاثين (ستالين). وهم بذلك يتجاهلون الحقيقة الموضوعية، ويصرّون على الاستناد إلى فقرات كتبها ماركس وانجلز ولينين عن عصر غير عصرنا، وموقف تاريخي لم نعد نعيش فيه. وهم يتخيلون أن الماركسية ـ اللينينية إن هي إلا مجموعة من المبادىء والشعارات الجامدة، صالحة لكل زمان ومكان، وينبغي على الشيوعيين إلزام أنفسهم بها في صرامة شبيهة بصرامة تمسك رجال الكنيسة بأحكام الكتاب المقدس.

«غير أن هذا الموقف من النظرية غريب عن الماركسية ـ اللينينية ، دخيل عليها. فلم يشعر ماركس ولينين قط بأن مهمتهما النظرية هي الإخلاص لحرفية مؤلفات كتبت قبل عصرهما، وإنما هي الإخلاص لروح النظرة العالمية العلمية لدى الطبقة العاملة، وتحليل الواقع المتغير تحليلاً دقيقاً، وتعميم الخِبرة المكتسبة أثناء الكفاح، وحل المشكلات التي تواجهها كل حقبة من الحقب حلاً خلاقاً.

«وقد حدث أثناء المؤتمر الحادي عشر للحزب الشيوعي السوفييتي الذي عقد في مارس عام ١٩٢٢، أن خطب لينين موجهاً الكلام إلى جماعة من معارضيه الذين استشهدوا بماركس في موضوع معين، فقال:

ــ نعم، هكذا قال ماركس. غير أن ماركس لم يكن يكتب عن روسيا. كان يكتب عن الرأسمالية بوجه عام، عن الرأسمالية كما تطورت منذ القرن الخامس عشر. وقد ظل هذا صحيحاً مدة ستمائة عام. غير أنه غير صحيح إن طبق على روسيا في الوقت الحاضر».

ويمضي هؤلاء الكتاب فيقولون إن هذه النظرة السليمة هي التي تبنّاها الماركسيون الجدد في الاتحاد السوفييتي تجاه تعاليم ماركس وانجلز ولينين. فهم يرون أن الماركسية ـ اللينينية ليست في الأعمال الكاملة لمؤلفين قدامى

فحسب، بل أيضاً في النتائج التي توصل إليها الفكر الماركسي الحديث بعد كل ما خاضه من معارك ثورية خلال السنوات الماضية. والقول بغير ذلك يفقر النظرية ويقعدها، ويجرّدها من ذلك العنصر الذي يحمل طابع العصر، والذي هو بالغ الأهمية بالنسبة لكفاح الطبقة العاملة.

«والحقيقة أن مثل هؤلاء المفكرين يستأصلون الواقع الراهن من الصورة، ويأبون الاقتناع بأن الأمر الجوهري هو دراسة كل حقبة تاريخية على ضوء ظروفها، وكيفية تحقيق وحدة العمال في كافة الدول في وقتنا هذا، وكيفية شن كفاح فعال ضد الإمبرياليين في ظل أوضاع معينة، وأسلوب تحقيق النصر الكامل للثورة البروليتارية في الوقت الحاضر.

«إن في معظم أقطار العالم اليوم أحزاباً شيوعية. وقد أضحت مهام هذه الأحزاب، والظروف التي يعمل في ظلها كل منها، متباينة أشد التباين، فما يحتم ظهور تنوع في الخطط وأساليب الكفاح، واختلاف معالجة كل جزب من هذه الأحزاب للمشكلة الواحدة التي تجابهها جميعاً».

لا أنبياء في الحركة الشيوعية:

ويرى أصحاب هذه الكتابات الماركسية الجديدة أن الحركة الشيوعية الدولية تواجه اليوم موقفاً تاريخياً يختلف عن ذاك الذي عاصره ماركس أو لينين. فقيام النظام الاشتراكي في العديد من الدول، وتداعي الامبراطوريات الاستعمارية، وبزوغ الحركات الديموقراطية الشعبية، قد أيقظت أفراد جماعات كبيرة من البورجوازية الصغيرة في آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية من سباتهم وزجّت بهم في خضم الصراع السياسي. بعض هؤلاء قد استمالته التيارات الدينية، وبعضهم انضم إلى الحركة الثورية العالمية، بعد أن كانوا جميعاً سلبيين ناقصي الوعي، وهو ما أدّى إلى زيادة تأثير العناصر غير البروليتارية في النشاط الثوري.

«إن طبيعة الماركسية ـ اللينينية تحتم الأخذ بعين الاعتبار الخصائص

القومية والظروف اللصيقة بكل مجتمع على حدة. ولا شك في أن خبرة كل من الأحزاب الشيوعية بالغة الأهمية في تطوير الأسلحة النظرية للطبقة العاملة وزيادتها ثراءً. فكل حزب، مهما صغر، يلعب دوراً إيجابياً في تنمية النظرية الثورية والماركسية اللينينية. وقد ساهم الحزب الشيوعي الصيني في ذلك بكفاحه ضد الامبريالية والرجعية، وخلال المراحل الأولى من البناء الاشتراكي، وبالنتائج الهامة التي وصل إليها بصدد حرب العصابات، وبصدد تكوين جبهة متحدة من القوى الوطنية ضد الاستعمار، ووسائل تغيير نظام الملكية الرأسمالية. كذلك ساهمت الأحزاب الشيوعية في فرنسا وإيطاليا وإسبانيا وغيرها في تطوير النظرية، وكان للشيوعيين في أقطار آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية فضل كبير في حل المشكلات الخاصة بربط الكفاح من أجل الاشتراكية بحركة التحرر الوطني، وتأسيس تحالف واسع النطاق مع البورجوازية، وابتداع وسائل من أجل التطوير غير الرأسمالي للبلاد التي تحررت من ربقة الاستعمار. غير أن ادعاء هذا الحزب أو ذاك، أو ادعاء هذا الرهط من المفكرين أو ذاك، بأن الحكم الأعلى في المسائل المتعلقة بالنظرية أو التطبيق، وأنه التابع الحق لماركس ولينين، وغيره من الخونة المنشقّين، فادعاء خليق بكنيسة العصور الوسطى. أما الحركة الشيوعية السليمة الجادة فلا تؤمن بوجود أنبياء فيها من حقهم وحدهم التفكير للآخرين، واتخاذ القرارات نيابة عنهم».

المصالح الخاصة:

ويذهب السوفييت إلى أن القادة الصينيين في زعمهم أنهم الأتباع الحقيقيون الوحيدون للينين، لاتهمهم إطلاقاًمشاكل اللينينية ـ الماركسية، وإنما يلجأون إلى مثل هذا الزعم لتغطية أهداف سياسية معينة تتلخص في فرض إرادتهم على الحركة الشيوعية وحركات التحرير بأسرها، وإخضاعها لمصالحهم الشخصية دون أدنى اعتبار للمصالح الحقيقية لهذه الحركات.

«هم يتباهون بأنهم خير خلف للسلف الماركسي، وبغيرتهم على نقاء النظرية اللينينية. غير أنه متى تعارضت تعاليم ماركس ولينين مع مصالحهم الوطنية، يضربون بهذه التعاليم عرض الحائط. . . إن وطدوا علاقاتهم مع فرنسا والولايات المتحدة وبريطانيا وغيرها فلصالح الماركسية اللينينية، أما إن رأى الاتحاد السوفييتي أن مقتضيات سياسة التعايش السلمي «التي نادى بها لينين» تدعو إلى تحسين العلاقات بينه وبين الدول الرأسمالية، فإنهم يبادرون باتهام السوفييت بالتآمر مع الامبرياليين، والانحراف عن الصراع الطبقي وعن الماركسية ـ اللينينية».

غير أن تهمة «مراعاة المصالح الخاصة والسياسة الوطنية، والانحراف من اللينينية متى تعارضت مع الصالح القومي»، هي تهمة لا تقل انطباقاً على الاتحاد السوفييتي منها على الصين. فالمميزات القومية والجغرافية الخاصة، والمصالح الوطنية، وآثار الماضي الحضاري والتاريخ السياسي، لها الغلبة عادةً على المبادىء والنظريات. وتطبيق النظرية الشيوعية ذاته قد يكون في بعض الدول، كالاتحاد السوفييتي والصين، وسيلة لحماية المصالح الوطنية أساساً، لا مصالح الطبقة العاملة. وفي وسعنا أن نسوق هنا عشرات الأمثلة للحالات التي ضحى فيها الاتحاد السوفييتي بالمبادىء الماركسية ـ اللينينية في سبيل مصالحه الخاصة؛ من وقت تخليه عن الشيوعيين الصينيين في العقد الثالث من هذا القرن، إلى معاهدة الصداقة السوفييتية النازية، إلى الاستغلال الاقتصادي لأقطار أوروبا الشرقية عقب الحرب، بل وإلى الدعوة إلى مبدأ التعايش السلمي.

فالاتحاد السوفييتي اليوم يؤمن بأن استمرار الوضع الراهن في الميدان الدولي على ما هو عليه سيؤدي إلى تغير ميزان القوى في صالح السوفييت. فالاقتصاد المخطط فيه وسيلة أضمن وأسرع لزيادة قوته من التوسع والسعي لقلب نظم الحكم في الخارج. والتنمية الصناعية في الاتحاد السوفييتي كفيلة بأن تضيف إلى موارده في بحر عام أو عامين أكثر مما كان يضيفه إليها إخضاع

دولة أوروبية متوسطة الشأن للنفوذ السوفييتي. وهذا السعي من جانب السوفييت إلى الحفاظ على الوضع القائم هو الذي دفعهم إلى تغيير موقفهم من الحركات الثورية والأحزاب الشيوعية في آسيا وأفريقيا. فهم يشجعون هذه الحركات بقدر إضعافها للدول الغربية. غير أنه متى ما بدأ يلمس أنها قد تؤثر في استمرار الوضع القائم، أحجم عن الاستمرار في مساندتها.

فإن أخذنا السياسة السوفييتية تجاه الشرق الأوسط مثلاً، رأيناها تعتبر نشوب صدام في هذه المنطقة في غير صالح الاتحاد السوفييتي.. وقد كانت موسكو تنظر دائماً بعين الشك والحذر إلى محاولات زعزعة الزعامة البورجوازية للقومية العربية، وإخضاع هذه الحركة للتوجيه الشيوعي. ففي العراق مثلاً كان الحزب الشيوعي القوة الدافعة الرئيسية في ثورة عام ١٩٥٨، وكان بإمكان الشيوعيين وقتئذٍ الاستيلاء بسهولة على مقاليد الحكم. غير أنهم لم يحاولوا. لماذا؟ لأن سياسة خروتشوف تجاه الشرق الأوسط كانت بالضبط كسياسة ستالين تجاه الصين في السنوات ما بين ١٩٢٥ و١٩٢٧ حين كان ستالين يعتبر شيانج كاي شيك حليفه، ويحث الحزب الشيوعي الصيني على قبول زعامة شيانج والخضوع لنظام الكومينتانج. فقد أقنع خروتشوف شيوعيِّي العراق بأن يعترفوا، دون قيد أو شرط، بعبد الكريم قاسم زعيماً وطنياً لهم، بل ولامهم خروتشوف على سماحهم للتيار الثوري المتدفق أن يجرّدهم من الحكمة والحيطة. فإن أضفنا إلى ذلك دعوة السوفييت للشيوعيين المصريين في الستينات لوقف حملتهم المعادية للرئيس جمال عبد الناصر، وإحجام السوفييت عن التدخل في حرب ١٩٦٧ أو في أحداث لبنان مثلاً، فقد نقبل القول بأنهم إنما يهمهم أساساً تجنب المواجهة مع الكتلة الغربية لمدة عشر سنوات أو عشرين سنة تهيىء الاتحاد السوفييتي تهيئة تامة للدخول في النزال الحاسم مع الغرب.

وليس من اللازم أن يكون هذا النزال مسلحاً. فالنظر في الصراع بين النظم الاجتماعية المختلفة سيكون حليف الدولة المتفوقة في مدى فعاليتها، وفي قدرتها على استغلال قوى المجتمع الإنتاجية، وطاقات الإنسان الخلاقة.

وقد ظل الاتحاد السوفييتي أمداً طويـلاً غير قـادر على تحدي الغـرب في هذه المجالات، مما دفعه إلى انتهاج سياسة العزلة والحمـاية الاقتصـادية والستـار الحديدي. غير أن هذه السياسة تنكمش تدريجاً بتزايد قوته الصناعية. وقد يأتي الوقت الذي تضطر فيه الدول الرأسمالية إلى اتخاذ الإجراءات الكفيلة بحمايتها من الغزو الاقتصادي السوفييتي، والذي يدعو فيه الاتحاد السـوفييتي إلى مبدأ حرية التجـارة وفتح الأبـواب. وهذا بـالضبط هو المضمـون الحقيقي لسياسـة التنـافس السلمي والتعايش السلمي. فـالسوفييت يـرون أنـه عنـد تحقق هـذه المرحلة ستجتذب الشيوعية إليها العمال في الـدول الرأسمـالية، خـاصة بعـد التوسع في الحريات السياسية في الاتحاد السوفييتي، إذ يفقد الغرب بذلك كافة مزاياه. وهذا هو مادفع خروتشوف، أثناء المؤتمر العشرين للحزب الشيـوعي، إلى الخروج على مبدأ من أهم المبادىء اللينينية، حين تحدث عن احتمالات «الانتقـال السلمي من الرأسمـالية إلى الاشتـراكية» في مختلف الـدول، دون ضرورة للحرب الأهلية التي كان لينين يظنها أمراً محتوماً.

حديث في الاقتصاد السوفييتي

دعتني الشاعرة التترية الشهيرة بيلا أخمادولينا إلى العشاء في منزلها الريفي على بعد نحو عشرة أميال من موسكو مع نحو أربعين من الروائيين والشعراء والفنانين والاقتصاديين والصحافيين السوفييت. وقد كان جُلّ حديث القوم خلال الأمسية حول ما أعلنه المكتب السياسي في الصباح من خطط تستهدف توسيع نطاق الاستقلال الاقتصادي للمؤسسات، وتقوية نظام حساب التكاليف، وتعديل نظام استثمارات رأس المال،.وللأخذ قبل نهاية الثمانينات بمبدأ التمويل الذاتي في كافة المشروعات مع وقف التمويل الحكوميّ لها.

وقد انتهزت فرصة جلوس خلال العشاء إلى جوار أحد الاقتصاديين الروس، فبادرت بسؤاله عما سمعته يتردد أثناء إقامتي عن تقرير قدّمه مارشال جولدمان، (مدير مركز البحوث الروسية في جامعة هارفارد) إلى السلطات السوفييتية حول «نقل التكنولوجيا الأجنبية إلى الاتحاد السوفييتي»، وما إذا كان قد اطلع على هذا التقرير. وعندما أجاب بالإيجاب، سألته أن يعطيني فكرة عن فحواه.

ــ جولدمان يرى أن معدل سرعة التغيرات الاقتصادية والتطور التكنولوجي في الغرب من شأنه أن يجعل الاتحاد السوفييتي في المرتبة الثانية سواء من الناحية الاقتصادية أو العسكرية، وأن هذا أمر محتوم ما لم يبادر السوفييت من الآن إلى إصلاح الاقتصاد (الذي هو نقطة البداية الرئيسية في أي

إصلاح)، ومواجهة التحدي الذي يتمثل في كيفية التجاوب مع مقتضيات الثورة الصناعية الثالثة. فالاقتصاد الذي يعتمد على درجة عظيمة من التكنولوجيا يتطلب سرعة القرار والأداء، ويتطلب روح المبادر والخلق والابتداع، ويتطلب القدرة على التكيف والتأقلم. وكلها ـ في رأي جولدمان ـ متطلبات سيظل الاتحاد السوڤييتي عاجزاً عن توفيرها مع ما يشلّ اقتصاده حالياً من بيروقراطية، وأخذ بمبدأ التخطيط المركزي، وتركيز على الصناعة الثقيلة.

وهو يرى أن ميخائيل جورباتشوف مخلص النية، صادق العزم، ووافر القدرة على محاولة تحرير اقتصاد بلاده من الأغلال التي تقيّده، بل ويراه أقوى زعيم سياسي شهده الاتحاد السوڤييتي منذ قيام الثورة البلشفية. وعنده أن جورباتشوف يواجه اختيارات ثلاثة: إما إصلاح اقتصادي شامل واسع النطاق ويؤكد اعتماداً كبيراً على السوق (على نحو ما فعله دينج شياو بينج في الصين)؛ أو الأخذ بصورة منقحة من نظام التخطيط والرقابة المركزيين (على نحو ما تحاوله ألمانيا الشرقية)؛ أو الأخذ بنظام هو مزيج من عناصر الخيارين الأوّلين. أما جولدمان نفسه فيفضل للإتحاد السوفييتي الخيار الأول: اللامركزية، والاعتماد على السوق وتقليص دور المخططين المركزيين، وزيادة سلطات مديري المشروعات، والسماح بالملكية الفردية للفلاحين وأصحاب المشاريع التجارية الصغيرة والمشروعات التعاونية، مع الأخذ بمبدأ التنافس بين المشروعات، ومكافأة العمال والمديرين على جهودهم خاصة فيما يتصل بروح الخلق والإبتداع.

قلت لمحدّثي:

ــ ولكن ألا ترى في كل هذه الاتجاهات الجديدة خروجاً عن النظرية الماركسية؟

قال:

ــ دعنا في البداية نتفق على حقيقة أولية ثابتة، وهي أن كارل ماركس لم

يُعن على الإطلاق لا ببيان التفصيلات، ولا بالخطوط العريضة للأحوال الإنتاجية في المجتمع الاشتراكي.. لقد كان معظم ما خلّفه من كتابات متصلاً بتحليل المجتمع البورجوازي القائم في عصره من أجل إثبات أن النظام الرأسمالي، الذي كان في البداية عاملاً أساسياً في إطلاق إمكانية هائلة لاستغلال مصادر الثروة الإنتاجية، قد وصل في تطوره التاريخي إلى المرحلة التي أصبح فيها عقبة في سبيل هذا الاستغلال، وفي سبيل المزيد من التقدم، مما يحتّم قيام نظام اجتماعي جديد يحل محلّه، هو النظام الاشتراكي.

وقد شُغل ماركس أساساً ببيان المتناقضات في المجتمع الرأسمالي دون بيان طبيعة النظام الاشتراكي الذي سيقوم على أنقاضه، قائلاً إن المجتمع الجديد سينظم نفسه بالطريقة التي يرى أنها أكثر الطرق فعالية لاستغلال الموارد الإنتاجية، وأن محاولة بيان هذه الطريق سلفاً أمر سابق لأوانه، ومن قبيل المثالية الحالمة... كتب في مقدمة كتابه «نقد الاقتصاد السياسي» يقول ما معناه:

«إن همة التوجيه إنما تنشأ عند تحقّق الظروف المادية اللازم توجيهها، أو على الأقل، حين تكون هذه الظروف في طريقها إلى التحقّق».

وفي كتابه عن الحرب الأهلية في فرنسا:

«إنه ليست لدى العمال مدينة فاضلة (يوتوبيا) جاهزة، ولا حتى مثل عليا يرمون إلى تحقيقها.. فهم يعرفون جيداً أن عليهم معاناة نضال طويل، وسلسلة من التطورات التاريخية التي تغيّر بدورها من الظروف والأشخاص» وفي كتابه «نقد البرنامج الجوثي»: «إن كل خطوة في سبيل الحركة الثورية أهم من عشرة برامج للمجتمع الجديد». كما ينقل عنه برنشتين أنه قال: «إن الشخص الذي يرسم برنامجاً للمستقبل هو في حقيقة أمره رجعي!».

مثل هذه الأقوال الصادرة عن ماركس تدفعني إلى الاعتقاد بأنه كان مشجعاً ومباركاً للاتجاه التجريبي، وبالتالي فلا محل لاتهام التجارب الراهنة في

الاقتصاد السوفييتي بأنها تخرج عن الإطار الماركسي.

قلت:

أضيف إلى ما ذكرت أنه حتى ضرورة تولّي الدولة لمهمة التخطيط، في إطار النظرية الماركسية، مسألة فيها نظر. فكتابات ماركس لم تحدد قط السلطة أو الهيئة التي ستتولى التخطيط في ظل النظام الاشتراكي، واكتفت بالقول إن هذه المهمة ستكون من شأن «المجتمع». لقد كانت فكرته هي أن التخطيط الاشتراكي ليس من مهام الدولة بقدر ما هو مهمة من شأنها أن تجعل نظام الدولة غير ذي موضوع. وأذكر أنه كتب في «البيان الشيوعي» يقول: «حين يؤدي التطور إلى اختفاء الفوارق الطبقية، ويتركز الإنتاج في يد تنظيم واسع يشمل الأمة كلها، ستفقد سلطة الدولة معالمها الأساسية». غير أن ماركس لم يحاول شرح مفهومه عن ذلك «التنظيم الواسع الذي سيشمل الأمة كلها»، أو تحديد كيفية قيام هذا التنظيم بعمليات التخطيط. والغالب أنه كان يفترض، شأنه شأن سيمون وغيره من الاشتراكيين، أن هذه المهام لن تتولاها الدولة أو أي تنظيم سياسي آخر، بل المنتجون أنفسهم الذين سينظمون عمليات تبادل المنتجات فيما بينهم.

قال محدّثي:

ـ هذا حق. وخلاصة القول إذن أن ما خلّفه ماركس إنما هو تحليل اقتصادي للرأسمالية لا صورة للمجتمع الاشتراكي. فإن كان قد كتب يقول: «إن الاقتصاد السياسي بتقسيماته المألوفة للقيمة والثمن والربح إنما ينتمي أساساً إلى النظام الرأسمالي، ولا يمكن أن يدوم»، وأنه حتى نظريته في القيمة التي تتخذ العمل معياراً لها ستفقد معناها في ظل الاشتراكية، فهو لم يحاول، ولم يرَ من حقه أن يحاول، بيان المعايير التي ستحل مكانها في النظام الشيوعي. بل إنه حتى لينين الذي تولّى عنه هذه المهمة بصدد المجتمع السوفييتي، يمكنه القول بقدر من الثقة إنه كان يقرّ جوهر الاتجاه التجريبي،

معتبراً أي تحليل نظري لا يأخذ في الاعتبار ظروف الإنتاج الواجب العمل على هديها في مجتمع معين، تحليلاً منافياً للماركسية.

الطريق البراجماتيقي:

قلت: في اعتقادك إذن أن الاتجاهات الاقتصادية الجديدة هنا لم تنحرف عن النظرية الشيوعية، وأن اتهامها بالانحراف إنما يصدر عن صورة خاطئة عن الاشتراكية ساهم في رسم ملامحها النظام الستاليني؟

قال: بالتأكيد. فوسائل الإنتاج ما زالت مملوكة للدولة، وهو المعيار الرئيسي في التفرقة بين النظامين الرأسمالي والاشتراكي. ولا يزال التخطيط المركزي قائماً وقوياً، والأثمان تحددها الهيئات المركزية لا إدارات المشروعات، وتحقيق الربح سيتم أساساً لا عن طريق رفع الأثمان أو خفض أجور العمال كما في الرأسمالية، بل عن طريق تخفيض تكاليف الإنتاج وزيادة حجمه وزيادة المبيعات. وهذه الأرباح ستستخدم إما في صرف المنح والمكافآت للعمال، أو في توسيع المؤسسة وتدعيم إنتاجها، دون تحولها إلى رأس مال مستغل. ثم إن الربح في النظام الرأسمالي، كما تعلم، هو هدف الإنتاج؛ هو هدف في حدّ ذاته، يسعى الرأسماليون إلى تحقيقه بأية طريقة، ومتعدّين في سبيله كل حدود. أما في ظل الاشتراكية، وتنظيماتنا الجديدة، حيث الهدف هو مواجهة احتياجات المجتمع، فإن زيادة الربح هي إحدى الوسائل لتحقيق أفضل إشباع لهذه الاحتياجات. والهدف هنا هو المعيار الذي يرسم حدود استغلال عامل الربح. أما تحقيق أقصى ربح ممكن بأية وسيلة بغض النظر عن تأثير ذلك في مصالح المجتمع والمستهلكين وظروف العمل والحياة، فهو ما لم تقل به التنظيمات الجديدة قط.

والخلاصة أن المعايير الاقتصادية مثل: الربح والثمن والقيمة والائتمان، إلى آخره، ستظل تؤدي مهام مختلفة تماماً في ظل النظامين، وأن الاتجاهات الجديدة في الاقتصاد السوفييتي لا تعني انحرافاً إلى الرّأسمالية بقدر ما تعني

الأخذ ببعض الأساليب الإنتاجية الرأسمالية النافعة، وانتهاج الطريق البراجماتيقي الذي تمليه الحياة نفسها والمصلحة المادية الملموسة.

قلت: ـ إذن فأنتم تقرّون بكفاءة بعض الأساليب الرأسمالية وضرورة أخذكم بها؟

أجاب بقوله:

ـ سيدي، لينين نفسه أوصى بأن يكون الاتحاد السوفييتي قادراً وقت الحاجة على الاستفادة من الرأسمالية، والتعلّم منها، وتبنّي كل ما قد يكون لديها من أساليب معقولة ومفيدة. إنها في حقيقة الأمر محاولة للتوفيق بين التخطيط المركزي ومقتضيات السوق الداخلية والخارجية، وإيجاد السبيل إلى إدارة المشروعات التابعة للدولة بربح. وهي محاولة ليست قاصرة على النظم الاشتراكية، وإنما نجد مثيلات لها في الدول الرأسمالية ذاتها التي بدأت تأخذ بقدر من التخطيط.

الحافز المادي:

قلت: إسمح لي أن أذكر اختلافاً واحداً لمسته بين الاتجاهات الاقتصادية الجديدة عندكم والنظرية الماركسية. فهناك عند ماركس إشارة أكيدة إلى حتمية اختفاء الحوافز المادية في المجتمع الاشتراكي وتحوّلها إلى حوافز معنوية محضة بعد خلق الإنسان الشيوعي الجديد. فإن كنتم اليوم تقولون بأن الحوافز المادية نابعة من صميم الاشتراكية، فإن كلاً من ماركس ولينين وعشرات الأيديولوجيين الماركسيين كانوا يرون في مراعاة الدولة لهذه الحوافز أمراً مؤقتاً كفيلاً بالتضاؤل حين يحلّ محلّها الباعث الاجتماعي الناجم عن إدراك الشعب العامل أنه المالك الحقيقي لوسائل الإنتاج، وأن رخاءه يتوقف بصورة مباشرة على تنميته لمصادر الثروة على أكمل وجه. وإنه لمن غير المفهوم عندي، على هذا الأساس وحده، أن نجد الاهتمام بالحافز المادي يتضاعف في ظل النظام السوفييتي حتى بدأ يطغى على غيره، ويتبوّأ المقام الأول، كلما زاد نمو

الأساس المادي والفني للإنتاج الاشتراكي، وبعد نحو سبعين عاماً من بدء محاولات خلق الإنسان الجديد.

صمت لبضع لحظات ثم قال:

ـ إما أن يكون ماركس قد أخطأ في توقّعه هذا، أو أن تكون عملية خلق الإنسان الشيوعي الجديد لم تفرغ بعد. وأقولها صراحة أن الملاحظة العامة في غالبية السلبيات السائدة في الإنتاج السوفييتي، متصلة أساساً بضعف الوعي الاجتماعي والخلقي لدى المشتغلين به، وهو ما ظهرت آثاره في جلاء بعد التحوّل عن سياسة الإرهاب والإكراه التي تميّز بها عهد ستالين. فإن كان الاتجاه الآن هو لتقوية الحوافز المادية، فما هذه الحوافز في حقيقتها سوى الحل البديل الوحيد للوعي والضمير في سبيل تنمية الإنتاج وتحسينه.

لقد وجدنا المبالغ المخصصة في المؤسسات للحوافز المادية غير كافية على الإطلاق لتحميس العامل أو المؤسسة على تحسين نتائج العمل. فالفرص المتوفرة لدى المشروعات لرفع مكافآت العمال فيها من موارد دخل المشروع محدودة للغاية. ولاحظنا أن خمسين في المائة من المؤسسات الصناعية لا تملك أية اعتمادات للحوافز المادية ناتجة عن أرباحها هي. والمؤسسات التي لديها مثل هذه الاعتمادات لا تملك منها غير مبالغ ضئيلة جداً بحيث لا يحصل العامل منها على أية مكافأة ذات قيمة. وتكاد تكون كافة المكافآت والمنح التي تدفع للعمال والموظفين مستمدة لا من الأرباح بل من اعتماد الأجور الذي تموّله الدولة.

كذلك فقد لاحظ الاقتصاديون عندنا أن الهمّ الأوحد لإدارات المؤسسات والمصانع كان تحقيق متطلبات الخطة بأسهل طريقة ممكنة، آخذة في الاعتبار المكافآت التي تصرف متى حقق المصنع الخطّة أو تجاوزها، والعقوبات المفروضة إن لم يحققها. فإن كان حجم الإنتاج يقاس بالعدد، أنتجوا العدد

المطلوب من السلعة مع إغفال ملحوظ لنوعيتها. وإن كان يقاس بالوزن، كان الاتجاه إلى زيادة ثقل المنتجات حتى لو قلّل ذلك من منفعتها! ولعلك قد شاهدت في مجلتنا الهزلية «كروكوديل»، في عددها الصادر يوم أمس، رسماً كاريكاتورياً لعمال مصنع مسامير يسيرون في موكب حاملين مسماراً واحداً بالغ الضخامة، وهم يردّدون: «حققنا الخطّة!». وقد شجّع على ذلك أن المعيار المعمول به هو الإنجاز الكميّ لا الكيفي. وقد بدا لنا الآن أن الأخذ بالمعيار الكمّي المحصن مقياساً للنجاح أو لمنح المكافآت التشجيعية لا يمكن أن يرقى بنوعية السلع ويزيد من تنوعاتها، في الوقت الذي يزداد فيه التقدم الفني، وترتفع مستويات الاستهلاك، وتشتد الحاجة إلى تنويع المنتجات.

أضف إلى ذلك أن إدخال التحسين على السلع وتنويعها يتطلبان وقتاً وجهداً إضافيين، للسماح مثلاً بتجربة السلعة الجديدة أو تعديل في الآلات المنتجة لها.. إلى آخره. وحيث أن هذا يعطل تدفّق الإنتاج، وقد يؤدي إلى إعادة تنظيم عملياته وتعديل أدواته، فإن مديري المؤسسات، متى كانوا تحت ضغط من الجهات العليا لتحقيق هدف كميّ معين، لا يقبلون عادةً هذا التعطيل، مفضلين الاستمرار في إنتاج السلعة بشكلها القديم، سواء كان المستهلك راضياً عنها أم غير راضٍ. ومن ثم فإنه لم يكن للمستهلك أي تأثير مباشر على المنتجين.

كذلك فإن النظام القديم كان يُغْرِي المصانع والمؤسسات بإخفاء حقيقة إمكانياتها. فالمعروف أن سلطات التخطيط مضطرة إلى حد كبير إلى الاعتماد على المؤسسات نفسها في بيان هذه الإمكانيات وتكاليف الإنتاج فيها. صحيح أن المخططين قد يمكنهم التحقق من صحة تقديرات المؤسسة عن طريق ممثّليهم المحليين، أو بمقارنة هذه التقديرات بتقديرات مؤسسات أخرى تعمل في ظروف مشابهة. غير أن جهاز التخطيط، متى كان مثقلاً بالعمل، لا يمكنه التحقق من صحة كل بند في تقديرات ثلاثمائة ألف أو أربعمائة ألف مصنع.

وقد شاع في الاتحاد السوفييتي مثل يقول: إن المدير العاقل قد يتجاوز الخطة في إنتاج مؤسسته بمقدار أربعة أو خمسة في المائة، ولكنه ليس من مصلحته أن يتجاوزها بمقدار عشرين في المائة. فلو أنه فعل ذلك لرفع جهاز التخطيط تقديرات الخطة له في العام التالي بشكل ملحوظ. وقد أدّى هذا الوضع إلى تردّد المديرين المخلصين أنفسهم في تقديم تقديرات واقعية عن إمكانيات مؤسساتهم خشية توقيع الجزاءات عليهم إن لم يحققوها.

لهذا كله كان لا بد من وضع نظم جديدة، نظم تزيد بمقتضاها قدرة المؤسسة على مكافأة عمالها بزيادة إنتاجها وتحسين نوعيته وتضخم أرباحها. فقررنا تخصيص اعتماد في كل مؤسسة، من الأرباح التي تحققها، من أجل الحوافز المادية، بحيث يتوقف حجمه على مدى الزيادة التي تطرأ على مبيعات سلعة. وستكون مبالغ المكافآت التي تصرف عند «تجاوز» تقديرات الخطة، أقل نسبياً من المبالغ المخصصة عند «تحقيق» تقديرات الخطة. وهو ما سيدفع المشروع إلى الموافقة على تقديرات أعلى لخططه. كما سيتوقف حجم اعتماد الحوافز المادية هذا على قدر الدخل الصافي الذي يتحقق للمؤسسة من رفع أسعار سلعها نتيجة لتحسين نوعيتها، مما سيشجع المؤسسة على الإرتقاء بنوعية سلعها وإنتاجِ أصناف جديدة منها في أسرع وقت ممكن.

المركزية المفرطة:

قلت:

ـــ يتحدث الكثيرون في الغرب عن أن جُلّ عيوب الاقتصاد السوفييتي ناجمة عن المركزية المفرطة في التخطيط، في حين يدافع بعض الشيوعيين عنها بقولهم إن من شأنها توفير الوقت، والإسراع بالنمو، وأنها هي التي مكّنت ستالين من جعل روسيا ثاني أكبر دولة صناعية في العالم، ومن تحقيقه نجاحاً نبتت عنه الجملة المشهورة القائلة إنه تسلّم مقاليد الحكم وليس في روسيا غير

المحراث الخشبي، وخلّفها وهي تملك الأسلحة الذرية. ما قولك أنت في هذا الأمر؟

قال محدّثي:

ــ لقد كانت المهام الاقتصادية الرئيسية التي جابهت النظام السوفييتي خلال الأعوام الثلاثين التالية للثورة، أكثر بساطة وأقل تعقيداً من تلك التي تجابهه اليوم، حتى بالرغم من أن نجاح تحقيقها كان يتطلب جهوداً بالغة المشقة. وقد كان لا بدّ من أجل إرساء أساس متين لصناعة متقدمة في بلد متخلف، واللحاق بالغرب عسكرياً واقتصادياً، من إقامة مركزية صارمة في التخطيط، وانحصار الغاية في تحقيق أكبر معدل ممكن من النمو، وتوجيه كافة الإمكانيات الإقتصادية المتوفرة نحو التركيز على الأهداف الرئيسية، مع ترتيب أسبقيات بصدد الصناعات. وقد كان نطاق هذه الصناعات خلال المرحلة الأولى محدوداً، وترتيب الأولويات بينها بسيطاً، كما كان عدد القرارات نفسها أقل حين كان الاستثمار يتعلق أساساً بعدد من المشروعات الإنشائية الكبرى، كمصانع الصلب والمحاريث والسيارات والصناعات الهندسية. وكانت المنتجات في قطاع كبير من الصناعة موحّدة الصنف عن عمد بغية توفير النفقات، وتحديد حجم الإنتاج في هذه الصناعات بسيطاً نسبياً، وعدد المصانع ضئيلاً، مما سهّل على إدارة التخطيط المركزية مهمتها. فإن حدث ومرت إحدى الصناعات الهامة بأزمة ما في المعدات أو المؤن، أو تعذّر تحقيق أهداف الخطة فيها لسبب أو آخر، عولج الموقف عن طريق تدخل إداري مباشر من المركز، وإصدار توجيهات مفصّلة إضافية، مع الإسراع بنقل جزء من الموارد إلى هذه الصناعة من صناعة أخرى ليست في نفس الدرجة من الأهمية، لعدم توفّر الاحتياطي الذي يعتبر أمراً كمالياً في الاقتصاد الذي يهدف إلى سرعة النمو بصفة أساسية. وكان نقل الموارد هذا يتم غالباً على حساب صناعات السلع الاستهلاكية الذي كان الاقتصاد السوفييتي وقت ستالين يعتبرها بمثابة الاحتياطي فيه!

مثل هذه المركزية كانت أمراً مفهوماً في السنوات السابقة للحرب العالمية، وفي فترة إعادة بناء الكيان الاقتصادي بعد الحرب. غير أن الأوضاع الآن قد تغيرت تغيراً باتت المركزية المفرطة معه عبئاً ثقيلاً على الإنتاج وعلى الشعب على السواء:

● فمن ناحيةٍ، نجد أن عدد المنتجات وأصنافها قد زاد زيادة ضخمة، وكذا عدد المصانع المنتجة لنفس السلعة، والعدد الكلي للمصانع بوجه عام. وهو ما يعني أن التخطيط أضحى أكثر تفصيلاً وتعقيداً، وأن الهيئة المتولية له بات عليها أتخاذ قرارات لا حصر لها بصدد حشد من المشكلات، وهي بعيدة عن مواقع الإنتاج الذي ستطبق عليها هذه القرارات. وهو وضع لا شك في أنه يتنافى مع الواقعية والفعالية الواجب توفّرهما في التخطيط.

● ومن ناحيةٍ أخرى، نرى أنه لكي تنمو الصناعة والطاقة الصناعية بدرجة أكبر، لا بد من أن تستحدث على نحو مستمر وسائل إنتاجية توفر العمل على أساس تحسين الأساليب الفنية واتباع أحدثها. غير أن التقدم الفني لا يمكن توفيره بتوجيهات من السلطات العليا، وإنما يتطلب مبادرة مستمرة من جانب المؤسسات، وحماساً لابتكار الجديد في مواقع الإنتاج ذاتها. ومن ثم فقد نجمت الحاجة الملحة في ظل الظروف الجديدة إلى توسيع حرية المؤسسات من أجل التوسع في إدخال هذه الأساليب الفنية، وزيادة إنتاجية العمل فيها.

● ومن ناحيةٍ ثالثة، نجد أن الأمر لم يعد يقتضي مجرد التركيز على أهداف رئيسية معينة مع اعتبار الباقي أهدافاً ثانوية، بل كان لا بد من أن تثمر الجهود والتضحيات التي بذلها الشعب السوفييتي قبل الحرب وأثناءها وفي فترة إعادة بناء الكيان الاقتصادي بعدها، وأن تسفر عن ارتفاع في مستوى معيشته، وإشباع أكمل لاحتياجات المستهلكين.

الإحتياجات الجديدة:

فإن كان إغفال عامل السوق، ومبدأ الربح، وتلك الأوامر التحكمية من

جانب السلطات المتولية للتخطيط المركزي الدقيق، قد ناسبت الأوضاع الاقتصادية غير المعقدة التي تميزت بها الفترة الأولى من النظام السوفييتي، فقد ثبت أنها لم تعد تتفق مع تعقد هذه الأوضاع، ومع النضج الاقتصادي الذي أحرزته البلاد، واحتياجات الشعب التي بدأت تفرض نفسها فرضاً، وتطلع الإقتصاد السوفييتي إلى التوسع في التصدير وغزو الأسواق العالمية، ومع ازدياد أهمية ونفوذ طبقة الفنيين في الحياة الاقتصادية السوفييتية. وقد أدى استمرار التمسك بهذه المبادىء العتيقة إلى ظهور مآخذ خطيرة تهدد اقتصاديات البلاد: كقتل روح المبادرة والحافز الشخصي على العمل، وضياع المال في إنتاج كميات ضخمة من السلع التي لا يريد شراءها أحد بسبب رداءة نوعيتها، والتي بلغت قيمتها في بعض الأحيان عدة بلايين من الروبلات، ثم فوق كل شيء، الانخفاض الملحوظ في معدل زيادة الإنتاج، وهو الذي وإن أمكن تفسيره على ضوء زيادة الاهتمام بتحسين السلع وتنويعها لإرضاء احتياجات المستهلكين وأذواقهم، وتمهيداً للدخول في منافسة مع سلع الدول الأخرى، فإنه لا ينفي وجود ما يشبه الأزمة أو العقدة المستحكمة في الإنتاج الصناعي السوفييتي.

ثم أمضي فأقول، إنه بالرغم من تقدم الاتحاد السوفييتي الملحوظ في مضمار التسلح والعلوم وغزو الفضاء، وبالرغم من أنه قد أصبح دولة صناعية كبرى وإحدى أقوى دولتين في العالم، فإن الغالبية العظمى من الشعب فيه ظلت تعيش معيشة مقاربة لمعيشة شعوب بعض الدول المتخلفة إقتصادياً، وهو ما قد يمكن اعتباره أكبر تناقض داخلي في الاتحاد السوفييتي، وما لم يكن بالإمكان استمراره مدة أطول. فالواضح الآن أن هناك ضغطاً داخلياً متزايداً، وعدم استعداد من جانب الغالبية من أفراد الشعب لقبول فكرة بذل المزيد من التضحيات بعد سنين طويلة من الثورة والحرب الأهلية والتصنيع الثقيل والعهد الستاليني والحرب العالمية وإعادة البناء بعد الحرب، مع شعورهم المتضاعف بحقهم بعد هذا الحرمان الطويل في المطالبة بثمار ثورة وعدتهم منذ نحو سبعين عاماً بالرخاء.

وقد زاد من حدّة هذا الشعور بتخلف الأحوال المعيشية ونقص إنتاج السلع الإستهلاكية ورداءة نوعيتها، تزايد اتصال الاتحاد السوفييتي بالغرب، واطلاع المواطنين السوفييت، بقدر أو آخر، على الأحوال المعيشية في الدول الرأسمالية المتقدمة، وتزايد وطأة الأعباء الخارجية والقروض والمساعدات السوفييتية للدول النامية على الفرد السوفييتي. وقد أصبح الآن من المحتم توجيه الإدارة الصناعية وجهة تضمن إشباع هذه الرغبات، خاصة على ضوء الإدراك أن تمام إنجاز المرحلة الأولى من بناء صناعة قوية، وتهيئة الوسائل الكافية المناسبة للدفاع، يفرض الدخول الآن في المرحلة التالية: وهي رفع مستوى معيشة الشعب، وإشباع احتياجات المستهلكين، وإدراك أن مستوى الإنتاج في الدولة الصناعية الحديثة يتوقف إلى حد كبير على مدى ما تستمتع به الطبقة العاملة فيها من مستوى مرتفع نسبياً في الأحوال المعيشية، وأن الأيدي العاملة والاقتصاد الحديث أكثر تعقيداً من أنه يمكن إخضاعها لتخطيط مركزي دقيق.

تحدّيات المستقبل:

واستطرد محدّثي يقول:

ـ إن النظرية الشيوعية تقوم أساساً على افتراض تفوّقها على النظرية الرأسمالية في مضمار الإنتاج، وتفوق إمكانيتها تهيئة مجتمع الوفرة والرخاء، وحتمية أن تؤدي المتناقضات الداخلية في المجتمعات الرأسمالية إلى عرقلة نمو الإنتاج والتعرض لأزمات اقتصاديات دورية حادة تضر بمصالح المستغِلّين والمستغَلّين على السواء. ومع ذلك فالملاحظ حتى الآن أن النظام الرأسمالي في الدول المتقدمة قد نجح، بوسيلة أو بأخرى، في تجنب تحقق النبوءات الماركسية بصدده، وأن مستوى رفاهية أفراد الشعب في ظله لا يزال أرقى من ذلك الذي يتمتع به الشعب في ظل النظام الشيوعي.

مثل هذا العجز عن تحدّي الدول الرأسمالية المتقدمة بصدد رفع مستوى

المعيشة، وإشباع احتياجات الشعب من السلع الاستهلاكية الوفيرة جيدة النوع، (وهو أهم اعتبار في ميدان التنافس العقيدي بين النظامين)، كفيل بتشكيك الشعب العامل، سواء في الداخل أو الخارج، في مدى فعالية النظام الشيوعي، ويزوّد الرأسمالية بسلاح قوي في الدعاية. لذلك فقد بات من الواضح للقادة السوفييت، أن اللحاق بالدول الرأسمالية الكبيرة في هذا المجال، بل والتفوق عليها فيه إن أمكن، سيؤدي حتماً لا إلى تهدئة الخواطر في الداخل فحسب، بل أيضاً إلى اجتذاب جانب كبير من العمال في الدول الرأسمالية، خاصة بعد أن يتم التوسع في الحريات السياسية والفكرية في الاتحاد السوفييتي.

فإن صدقت توقعاتنا لنجاح الإتجاهات الجديدة في الصناعة، فلا شك في أن هذا النجاح سيسفر عن زيادة التقارب بين النظامين الرأسمالي والاشتراكي، وعن تحسن العلاقات السوفييتية الغربية، والتوسع في التجارة بين الجانبين، بعد تزايد قدرة السوفييت على التصدير، وإحلال المنافسة الاقتصادية محل الحرب الباردة. . وهو في رأينا المفهوم الحقيقي الوحيد لمبدأ التعايش السلمي، إذ تعطي هذه المنافسة الإقتصادية مضموناً واقعياً وعملياً لهذا المبدأ.

وقد بدا للاتحاد السوفييتي بوضوح ضرورة وحيوية التوسع في المبادلات التجارية مع الدول الرأسمالية الغربية على ضوء اعتبارات هامة منها:

● حاجته الماسة إلى مضاعفة دخله من العملات الصعبة عن طريق زيادة صادراته إلى الغرب، لزيادة قدرته على استيراد السلع التي يحتاج إليها من الدول الرأسمالية، (كالمواد الكيميائية الصناعية والمعدات والآلات الحديثة المتقدمة فنياً التي لم يستطع اللحاق بالغرب في إنتاجها بصورة مرضية)، أو السلع التي يصعب عليه مجاراة الغرب في إنتاجها، إما لافتقاره إلى المواد الخام اللازمة، أو لبهاظة تكاليف إنتاجها في الاتحاد السوفييتي، والميزة الاقتصادية للتخصص في إنتاج غيرها.

● أن زيادة قدرته على تقديم المساعدات للدول النامية تحتم عليه العمل على زيادة موارده، وهي زيادة يضمنها التوسع في صادراته إلى الغرب؛

● إدراكه لمدى سيطرة الغرب على كثير من صادرات الدول النامية، وشدة ارتباط اقتصاديات الكثير من الدول حديثة الاستقلال بالتكتلات الاقتصادية الغربية، مما يجعل من صالح السوفييت، في سبيل وصول تجارتهم إلى هذه المناطق، التوسع في التبادل التجاري مع الدول الغربية الأعضاء في تلك التكتلات.

هذه الاعتبارات وغيرها تتطلب منا، من أجل تنمية علاقاتنا التجارية مع الدول الرأسمالية، جهداً ضخماً من أجل النهوض بالاقتصاد والصناعة، والعمل على زيادة الإنتاج، وتحسين نوعية السلع لضمان تسويقها.

الوسائل:

ويكفي الآن أن أشير إلى بعض وسائل تحقيق هذا الغرض:

فالمؤسسات والمصانع عندنا كانت تهمل نظام حساب التكاليف إهمالاً يكاد يكون تاماً، معتبرة إياه من الشكليات المحضة... كان تمويل استثمارات رؤوس الأموال يتم من ميزانية الدولة مجّاناً، وهو ما من شأنه أن يجعل مديري المؤسسات قليلي الاحتفال بتكاليف تعمير المشروع واستغلال رأس المال الإضافي المستثمر، نظراً إلى أن المؤسسات كانت غير ملزمة برد المبالغ المقدمة لها، ولا تتحمل أية مسؤولية اقتصادية عن استغلالها ما دام كل عطل في رأس المال المستغل في المشروع تعوّضه ميزانية الدولة مجاناً.

كذلك فإن مدفوعات المؤسساة من أرباحها إلى ميزانية الدولة لم يكن يتوقف قدرها على قيمة الأصول الثابتة للمؤسسة. وهو أحد الأسباب التي كانت تجعل المؤسسة تحاول الحصول على المزيد من المبالغ من الدولة كاستثمارات لرأس المال، وكاعتمادات إضافية لرأس المال العامل، دون أن تتخذ من جانبها

الإجراءات اللازمة لاستغلال هذه المبالغ استغلالاً مثمراً. بل وكان يحدث أحياناً أن تشتري المؤسسة معدات لا حاجة بها إليها لمجرد أن تنفق المبالغ التي خصصت لها فلا تُتّهم بأنها بالغت في الطلب.

أما الآن فالمشروع مطالب بتغطية تكاليفه من دخله هو مع تحقيق الربح، ومع الأخذ بمبدأ المسؤولية الكاملة للمشروع ومديريه عن النتائج الاقتصادية لأعمالهم. وقد رأينا من أجل تقوية نظام حساب التكاليف ضرورة خلق الظروف التي يتمكن المشروع في ظلها من تحسين إنتاجه، ومضاعفة اهتمامه باستغلال الأصول الثابتة المخصصة له إلى أقصى حدّ من أجل زيادة الإنتاج والأرباح. ولهذا فقد ترك للمشروع قدر أكبر من الأرباح التي يحققها حتى يتمكن من تنمية إنتاجه، وتحسين الأساليب الفنية فيه، وتشجيع عماله مادياً. وتتحدد نسبة الأرباح التي تترك للمشروع على ضوء مدى فعاليته في استغلال موارده، والزيادة في كمية مبيعاته، والتحسينات التي يدخلها على نوعية منتجاته.

كذلك تم تغيير النظام الذي تدفع المؤسسة بمقتضاه جزءاً من أرباحها إلى ميزانية الدولة، بحيث يكون الخصم من الأرباح، (لصالح ميزانية الدولة)، على أساس قيمة الأصول الثابتة المخصصة للمؤسسة، مع اعتبار هذه الخصومات مدفوعات من أصل قيمة الأصول. وهو أمر من شأنه أن يزيد من عناية المشروع باستغلال مخصصاته، وإحجامه عن المطالبة بالمزيد منها إلا في حالة الضرورة.

غير أن مدفوعات المؤسسة هذه تتم على مدى طويل حتى تتمكن من استبقاء أرباح لها، وتغطية مصروفاتها. كما تحتفظ المشروعات التي تحسن استخدام أصولها الثابتة بقدر أكبر من الأرباح لضمها إلى اعتماد المكافآت والمنح. وبالنظر إلى أن الآلات والمعدات الجديدة لا يمكن أن تحقق أقصى

إمكانياتها فور بدء العمل بها، فلا تستقطع الخصومات إلا بعد مدة تسمح بالاستغلال الكامل لهذه الإمكانيات.

وقد رأينا أن الثمن يلعب دوراً رئيسياً في علاج المشكلات المتصلة بتحسين نوعية السلع، وأنه من الواجب تعديل نظام تحديد أثمان السلع بحيث تشمل المصروفات فتغطيها وتضمن للمؤسسة الربح، وأن تراعي الدولة عند تحديدها لأثمان النماذج الجديدة المحسّنة أن يعكس الثمن المصروفات الإضافية للمشروع، والمنافع الإقتصادية الجديدة التي حقّقها التحسين للمستهلك. وهذا كفيل بزيادة رغبة المؤسسة في النهوض بنوعية إنتاجها، كما سيكون من مصلحة المستهلك، إقتصادياً، شراء مثل هذه السلع.

المعارضة:

وسألت محدثي في النهاية عما إذا كانت هذه الاتجاهات الجديدة في الإقتصاد السوفييتي تلقى معارضة ذات شأن من جانب المحافظين الكارهين للتغير. أجاب:

ـ بكل تأكيد. ثمة معارضة قوية لا بين بعض الاقتصاديين فحسب، بل وداخل الزعامة السوفييتية وفي صفوف الحزب والجيش أيضاً. هذا الفريق المحافظ يضم أربع قوى مختلفة:

● الماركسيين المتشردين الذين يرون في هذه الاتجاهات انحرافات رأسمالية خطيرة وتحولاً عن أسس الاقتصاد الاشتراكي، وأنه كان من الواجب استمرار الاعتماد على أجهزة التخطيط المركزية بعد علاج نقائصها المعرقلة للإنتاج بدلاً من توسيع استقلال المؤسسات.

● البيروقراطيين العديدين الذين يخشون كل جديد، ويحسون بالخطر على مراكزهم في ظل الأنظمة المستحدثة.

● رجالاً من الحزب يخشون من أن يؤدي التوسع في استقلال

المؤسسات وفي اللامركزية إلى الحدّ من نفوذهم، أو دخولهم في صراعات جديدة مع الفنيين، ويتوقعون ـ ويحق ـ ألا تقتصر نتائج الاتجاهات الجديدة على الميدان الاقتصادي، بل تتعدّاه إلى الميادين الفكرية والثقافية.

● ورجالاً من الجيش يخشون من أن يتم التوسع في إنتاج السلع الإستهلاكية والنهوض بالصناعة على حساب التسليح.

غير أن الغالبية في بلادنا تعتقد أن النكوص عن الدوجماتيقية، وإدخال التعديلات على النظام الاقتصادي الاشتراكي، أمران قد بات لا غنى عنهما في عالم اليوم. أضف إلى ذلك أنهما يكفلان زيادة إمكانية النظرية الإشتراكية اجتذاب شعوب الدول النامية والطبقة العاملة في الدول الرأسمالية على السواء، واجتذاب المثقفين الذين كان ينفّرهم أساساً من الماركسية دوجماتيقية معتنقيها، ويرفضونها بكليتها كردّ فعل لإصرار الماركسيين على قبولها بكليتها. ولا شك أن استئصال النقائص البارزة في النظام السوفييتي التي كانت تشينه وتسيء إلى سمعته في الخارج، كاستفحال البيروقراطية، والإفراط في المركزية، وانخفاض مستوى المعيشة، ونقص إشباع الاحتياجات الاستهلاكية للشعب، هو خطوة هامة في هذا السبيل.

انطباعات متفرقة عن المسرح السوفييتي

شعرت بقدر كبير من الدهشة، مع بعض الاستياء، إذ أسمعهم يتحدثون عن مسرح الفن عندهم على ذلك النحو من التهكم والازدراء. الدهشة: إذ كنت أحسب الشعب الروسي أميل بطبيعته إلى التوقير منه إلى التشكك، خاصة فيما يتعلق بتراثه الفني. والاستياء: إذ كان مسرح الفن (مخات) في مقدمة ما كنت أتطلع إليه عند قدومي إلى موسكو، وما زال بعض الكتب يشير إلى هذا المسرح الذي أسسه ستانيسلافسكي، وساهم تشيخوف وجوركي بمسرحياتهما في إعلاء شأنه وذيوع حسّيته، على أنه أعظم مسرح في العالم. فما بال هؤلاء الأصدقاء المسكوفيين يستخفّون به؟

«قد أصبح متحفاً أو كاد يصبحه»، هكذا قيل لي، «غير أنه متحف في سبيله إلى الانقراض.

وهم بذلك يقصدون أكثر من معنى:

فقائمة المسرحيات التي يقدمها هذا المسرح ويعيد تقديمها موسماً فموسماً، ثابتة محدودة العدد إلى درجة لا تملك إزاءها إلا أن تستشعر القنوط والغيظ كلما قرأت برنامجه في مستهل كل موسم. فهي أساساً: «نفوس ميتة» عن رواية جوجول، و «أنا كارنينا» عن رواية تولستوي، و «الإخوة كارمازوف» عن رواية دوستويفسكي، و «العروس الفقيرة» لأوستروفسكي، و «الخال فانيا» و «الشقيقات الثلاث» و «بستان الكرز» لتشيخوف، و «الأعماق السفلى»

لجوركي، و «ماري ستيوارت» لشيلر، و «الطائر الأزرق» لميترلنك، و «قصة الشتاء» لشكسبير. (لماذا «قصة الشتاء» بالذات ودون غيرها من مسرحيات شكسبير، تقدم عاماً بعد عام، ويتكرر الإعلان الكئيب عنها كل عشرة أيام؟ الله وحده يعلم!). فإن أضافت الإدارة إلى هذه القائمة بين الحين والحين مسرحية حديثة عن رغبة في استرداد اهتمام الجمهور، بدت لك الإضافة مصطنعة فاترة، وبدت المسرحية وقد حشرت حشراً بين «النفوس الميتة» و «قصة الشتاء»، فزعة هلعة كالسمكة خارج الماء.

والعداء بين هذا المسرح وأي درجة مهما هان شأنها من التجديد عداء عنيف. فالتمثيل لا يزال خاضعاً كل الخضوع لوصايا ستانيسلافسكي العشر، والإخراج والدّيكور والملابس، بل والمكياج، هي اليوم بالضبط كما فرضها منذ قرن كامل هذا الطاغية حسن النية. تدرك ذلك حينما تتجول خلال الاستراحة بردهات المسرح وطرقاته، تتأمل صوراً فوتوغرافية لمناظر من المسرحيات في زمن ستانيسلافسكي يظهر ستانيسلافسكي في غالبيتها، ولا تكاد تختلف في تفصيل واحد عما تراه على خشبة المسرح اليوم. بل إنك لواجد اليوم الممثل القائم بدور دكتور أستروف في «الخال فانيا» شديد الشبه بستانيسلافسكي في نفس الدور، وماشا الأخت الوسطى من «الشقيقات الثلاث» صورة مكررة من أولجا كنيبر زوجة تشيخوف وممثلة هذا الدور منذ أكثر من ثمانين عاماً.

والدار نفسها التي تؤوي الفرقة ليست أقل من الفرقة كراهة للتجديد. فهي كما عرفها وكما تركها المخرج العظيم، شأن غرفة راحل تأبى أرملته أي تغيير فيها. الكراسي قديمة متعبة، والستار عتيق باهت اللون ما زال يحلق في دائرة وسطه طائر النورس، وهو الشعار الذي اتخذته الفرقة قديماً تبركاً بمسرحية تشيخوف حاملة هذا الإسم، وكانت من أوائل ما قدمه المسرح. بل لتكاد تجزم إذ ترى خدم المسرح العجائز ممن يحفظون كعوب التذاكر، أو يقودون إلى المقاعد، أن غالبيتهم تحمل ذكريات كثيرة عن ستانيسلافسكي وجوركي، وربما ربت تشيخوف على كتف بعضهم وهو يمر به!

وجمهـور هذا المسـرح لا يختلف كثيراً عن جمهـور المتاحف. فقـوامه تلاميذ المدارس وطلبتها، يغدون إليها إما فرادى، أو جماعات في طوابير منظمة يحملون شـاراتهم الحمراء، ويقـود كـل جمـاعـة منهم مـدرس. فـأمـا أفـراد الجماعات وهم الـذين اقتيدوا إلى المكـان كما يقـادون إلى فصل أو معمـل، فسلوكهم هنا مشابه لسلوكهم في الفصل أو المعمـل: هذا يتملمـل في مقعده وعلى وجهه علائم السأم، وهذا يهمس في أذن صديقه بحديث، وهذا يـركل جاره عن ملل في ساقه، حتى يلتفت إليهم المدرّس محذراً. وإلى جانب الطلبة غير الأبهـين بمسرحيات قرأوها ودرسوها وحفظوا صفحات منها وامتحنـوا فيها وشاهدوها على شاشة التيليفيزيـون مرات ومـرات، أفراد جمـاعات شيقـة من العمال أو المزارعين، وفـدوا إلى موسكـو في مأمـوريات من الأريـاف أو مدن الأقاليم، قد منحوا تصاريح مجانية لقضاء أمسية ثقافية، فجاؤوا في مـلابسهم المتواضعة يتعثّرون في مشيتهم رهبة، مشدوهين مبهورين بمسارح العاصمـة، وهم مع ذلك ليسوا أقل توقيراً لتولستوي أو جوجول من سائر أفراد هذا الشعب أصيـل الثقافـة. ترى هؤلاء وأولئـك يملأون الصفـوف الخلفية والـوسطى من الصالة وصفـوف الشرفـات. أما الصفـوف الأماميـة فيجلس فيها الأجـانب من الـدبلوماسيين والسيـاح وأعضاء الـوفود الـزائرة للمـدينة. وفي الصف الأول، والمقصـورتين إلى اليمين واليسـار، يجلس عـدد من الممثلين والممثـلات القدامى من أبناء هذه الفرق وغيرها ممن أحيلوا إلى المعاش أو ليس لهم دور في المسرحية المقدمة ذلك اليوم، يراقبون تمثيل تلاميذهم وزملائهم.

* * *

هو إذن من كافة الوجوه متحف لا ريب. غير أنه ما إن ينفرج الستار عن المسـرح الصغير الـذي تهب عبره إلى الصفـوف الأماميـة ريح بـاردة ورائحـة كريهة، ويبـدأ التمثيل، حتى يتبـدد كل شـك في حق هذه الفـرقة في الحيـاة والبقاء، ويخامر النفس الأسى إزاء نبوءة المثقفين المتسكوفيين له بالانقراض.

لقد طفت بمسارح لنـدن وباريس وبـرلين الغربيـة ونيويـورك، وشهدت صفوة فرقها وممثليها، فلم أر ما يمكن أن يوضـع في مصاف هـذه الفرقـة في مجال التمثيل. قد يمكنك الإشارة إلى أوليفييه أو بول سكوفيلد أو جـان فيلار فلا أجد قريناً لأيهم هنا. غير أن الفرقة كفرقة لا تبـارى قد استغنى تمـاماً عن «النجوم»، أو قل، هي فرقة كافة أفرادها من النجـوم، لا يكاد أي منهم يفـوق الآخرين كثيراً، وطول الأدوار لا يصلح دليلاً على أهمية الدور. فإن صفّقت في نهـايـة العـرض، فلشخص معنـوي، للممثلين كـافـة، لمسـرح الفن، لستانيسلافسكي.

دور لا يـزيد أداؤه على خمس دقـائق، كدور البـوّاب «جريجـوري» في «الإخـوة كارامـازوف»، قد يقـوم به ممثـل يحمل لقب فنـان الشعب للاتحـاد السوفييتي، بينما قد لا يحمل ممثل دور دمتري كارمازوف أو أليوشا لقباً ما. هي كالفرقة الموسيقية السيمفونية، للطبل فيها ما للكمـان من دور جاد. فـإن مرّت بك فترة طويلة في مثل هذا الجو المسرحي، ثم زارتك في موسكو فرقة مبرزة كفرقة المسرح القومي البريطانية، فلن تملك إلا أن تصدم وتشعر بالامتعـاض إزاء الضعف النسبي في قـدرات القائمين بـالأدوار الثانـوية فيهـا. وما بهم في الحقيقة من ضعف وإنما هو ما اعتدته هنا من كمال.

مسارح أخرى:

مشكلة مسرح الفن إذن مشكلة إدارة أو سياسة لا تبالي بأذواق الجمهور المتغيرة بقدر ما تهتم بالحفاظ على تراث. وقد ردّ الجمهور على هذه اللامبالاة به بأن ترك المسرح للصبية والأجانب وحاملي التصاريح المجانيـة. هجره في غير أسف، وبشعور أقرب إلى الكراهية والغثيان، بعـد أن حفظ المسرحيـات وطريقة الأداء عن ظهر قلب، وبات لا يلمح إعلاناً من إعلانات المسرح حتى يحول وجهه عنه في حنق ونفاد صبر.

فأما المرتديات الأخرى التي تحول إليها المسكوفيون فهي أساساً مسارح

فاختانجوف، وتاجانك، ومایاکوفسكي، وساتيري، ثم فوق كل شيء «المسرح المعاصر». غير أن دخول الأجنبي هذا المسرح الأخير أصعب من دخول الغني الجنة.

في «المسرح المعاصر» مسرحيات تتعرض أساساً بالنقد للنقائص والمظالم وأوجه الفساد في المجتمع السوفييتي، (أو ما يرى الكاتب أنه من أوجه الفساد)، كالانتهازية عند بعض رجال الحزب وشباب الكومسومول وما يتمتعون به من امتيازات تخلق منهم طبقة جديدة، وكالرشوة والبيروقراطية، . . . إلى آخره. والسوفييت، حكومة وشعباً، لا يحبون عرض غسيلهم القذر أمام أعين الغرباء، ويرون عرض الغرباء غسيلهم القذر أمام أعينهم هم إما سذاجة وسوء تقدير إن صدر عن إحدى الدول المتخلفة، أو اعترافاً صريحاً لا مفر منه بظلم النظام الرأسمالي إن صدر عن إحدى الدول الغربية المتقدمة. أما عندهم، ففضح النقصائص يتم في جلسات مغلقة، خشية الشماتة والتشهير والإساءة إلى سمعة النظام واستغلال ذوي النوايا الخبيثة من الأعداء المتربصين به. وكم من مرة حاولت عن طريق الفندق الذي أقيم به تدبير الحجز لي في ذلك المسرح فرفض طلبي بحجة نفاد التذاكر.

فأما المسارح الأخرى فميدان التجارب الجديدة في التأليف والإخراج والتمثيل قد تعرض عدداً ضخماً من المسرحيات المترجمة (خاصة مسرحيات بريخت وآرثر ميلر وبرنارد شو وناظم حكمت وغيرهم من كتاب المسرح الأجانب الشيوعيين أو المتعاطفين مع الاشتراكية)؛ أو من المسرحيات الروسية الكلاسيكية، (الجريبويدوف وجوجول وأوستروفسكي وتورجنيف. . . إلخ). غير أن النزعة إلى التجديد، والرغبة الملحة فيه، واضحتان حتى في هذه المسرحيات المترجمة أو الكلاسيكية الروسية، والاهتمام باجتذاب الجمهور وإرضائه يغلب كل اعتبار آخر. وإدارات هذه المسارح واضحة الاعتزاز بإقبال الجمهور، عظيمة الثقة في إمكانها اللحاق بالمسارح في الغرب في تجاربها وتجديدها.

أفلم يكن مايرخولد وماياكوفسكي الروسيان من أهم رواد المدرسة الحديثة في الإخراج والتأليف المسرحيين في أوروبا بأسرها في السنوات الأولى التالية لثورة أكتوبر؟ فما بال البعض هنا وهناك يتحدث في قنوط عن تخلفهما وجمودهما، تخلف وجمود مرحليان مرتبطان بعهد ستالين؟ هل نسوا أن شاجال روسي وكذا سترافينسكي وأيسنشتين ودياجيليف ونيجينسكي وبلوك وباسترناك وعشرات غيرهم ممن فتحوا أبواباً في كافة الفنون بهت الغربيون أمام ما وراءها. فلنعوّض إذن ما فاتنا من وقت، ولنصل بالمدرسة الروسية إلى قمم جديدة.

غير أن العجلة البيّنة هنا، وسذاجة الإتجاه، والاهتمام الصبياني بالشكل والتقيّد الراضي أو المجبر بالأيديولوجية الماركسية اللينينية حتى في ظل الأشكال الجديدة جعل المحاولة تبدو للناظر الأجنبي مضحكة متعثرة، كمحاولة مقيد بالأغلال الطيران في لهفة. قد استبدلوا إناء بإناء، والنبيذ واحد. والحزب في اجتماعاته واتحادات الكتاب في مؤتمراتها، والصحف الحكومية والحزبية في مقالاتها، لا تكاد تدعو إلى المزيد من الإبداع والتجديد حتى تعود إلى الإصرار على البطل الإيجابي، والقيم الشيوعية، ونقاد الأيديولوجيا. والجمهور مقدر للصعوبات الإدارية، مغض الطرف عما يدرك بذكائه أنه مفروض من الجهات العليا، مكمل في نفسه ما يشعر بأنه قد حذف من نص المؤلف، مبتهج بالجملة الجريئة قد أفلتت، مخمن مبارك للجملة الجريئة قد وقعت في شباك الرقيب. وشعور الأجنبي هنا وهو يرقب الجمهور في نشوته إزاء ما يراه جريئاً متحدياً، كشعور زير النساء وهو يرقب مراهقاً قد أسكره النصر والزهو إذ أفلح في أن يمسك أطراف أصابع يد محبوبته! جمهور ساذج غير أنه حبيب إلى النفس، نقي بيد أنه مفهوم. ومع ذلك فالإدارة والكاتب والمخرج لا يجدون في هذه الطيبة عزاء، ولا في هذا الذكاء سنداً. فالصراع يبدد طاقة كان يمكن أن توجّه إلى غرض أجدى. والناتج دائماً هزيل وإن أشبع الجوعى.

إن معظم ما استحدثه برتولت بريخت قد أدخلوه في مسرحهم، ثم شكل

من هنا وشكل من هنـاك، قد اجتمعـوا في تشويش دون هضم أو فهم، ودون مناسبة لموضوع.

الستار مرفوع قبل بدء التمثيل. والمسرح عار أو شبه عار من الـديكور. والممثلون يدلفون إليه من الصالـة وهم يتصايحـون. والراوي يـدخل يتهـادى وهو يدخن غليونه. والجوقة تقطع سياق الأحداث بالغنـاء أو التعليق. ثم توال في المناظر كما في السينما. . . ثم بعد ذلك وغيره نرى الموضوع فتـاة لعوب غير مكترثة بالأيديولوجيات، تتزوج من مهندس شيوعي بطل يعمل في سرّ عند مدينة إيركوتسـك. وإذ يغرق هـذا المهندس محـاولاً إنقاذ طفلين أو ثـلاثة من النهر، تتبنى الأرملة قيمه ومثله، وتأخذ مكانه في العمل عند السـدّ. . . . أو: مهنـدس عجوز بـورجوازي، قـد أدركته الثـورة البلشفية فـرفض التعـاون مـع رجالها، وساء به الحال. ثم ترتب له مقابلة مع لينين، فيحادثه أو يحدّثه لينين، فيخرج من هذا الحوار السقراطي مقتنعاً مؤمناً بضرورة التعاون، فينصلح حاله، وتغمره السعادة!

قد تتساءل أنت عن جدوى التجديد في الشكل هنـا. غير أن الجمهـور الروسي مبهور بهذا التجديد. يا له من إخراج! يا لها من جرأة! يا لها من ثورة على القديم البالي! على البيروقراطية في الفن! على الستالينية!

وهو أمر معتـاد وإن لم يكن له مـا يبرره. . فغـالباً مـا نرى الحـاجة إلى التغيير، والرغبـة فيه، تتجهـان خـطأً إلى الشكـل، إمـا استسهـالاً أو ضـلالاً أو تضليلاً. قد يشعر الشاب بنفاق التقاليد السلوكية البورجوازية، أو بثقل وطأة دولة العصر الحديث، أو بالنقمة على نظم معينة. ثم إذا بناتـج ثورتـه لا يكاد يتعدى إرساله شعره، أو إغـرابه في ملبسـه، أو إدمانـه المخدرات. والمسـرح السوفييتي المعاصر شديد الشبه بهذا الشاب: لا هو استفاد من مضمون غربي، ولا هو قدم مضموناً روسياً جديداً. كل ما يمكن أن يكون جديداً هو مدى جرأة المؤلف على انتقاد أوضاع محلية صرفة، كسوء الخدمة في المطاعم، وتعنّت

سائقي سيارات الأجرة في مدينة سوتشي، وهو أمر لا يهم الفن في شيء.

الجمهور:

غير أن ما استمتعت بمراقبته حقاً هو جمهور المسرح السوفييتي لا المسرح نفسه. فإن كان المسرح هنا لا إله له، فجمهوره جاد ديني الحماس، ما عرفت جمهوراً مثله. يكفي أن تشاهده عند زيارة فرقة أجنبية له. الشيوخ والشباب ممن كان لهم حظ الحصول على تذاكر بعد وقفة في طوابير لا نهاية لها، يدخلون المسرح متأبطين نسخة من الأعمال الكاملة لمؤلف المسرحية باللغة الروسية، يستكملوا قراءة المناظر الأخيرة إن كانوا لم يتموها في الأمسية السابقة، أو يراجعون مع الممثلين بصوت خافت جملة أو مشهداً. وهم أثناء الاستراحة يجلسون على سلالم الردهات، الطعام في يد، والكتاب في يد، يقضمون الفطيرة في نهم، ويستذكرون في نهم. والتصفيق دائماً حار، دائماً ودون استثناء، فكإنما لا يمكن إلا أن يعجبهم العرض. فإن انتهى التمثيل فتهليل وعدو إلى خشبة المسرح، يقذفون الممثلين الأجانب بالزهور، ويظل الستار يسدل ويرفع ويسدل ويرفع، حتى ما شاء الله.

غير أني غالباً ما أجدني أتبسم إذ أقرأ في صحيفة لندنية مثلاً، عن الاستقبال الحار الذي استقبلت به فرقة بريطانية معينة، أو أن الستار رفع بعد النهاية سبع مرات أو عشر، ليلتقي الممثلون تحية الجمهور. فالعدد هنا لا يعني شيئاً. والحرارة لا تكاد تختلف سواء كانت المسرحية «عطيل» لشكسبير، أو «المصيدة» لأجاثا كريستي، وسواء كانت الفرقة بريطانية أو برتغالية. هي دائماً متوفرة، وبالتالي لا دلالة فيها على نجاح أو إعجاب. ومن عاش في هذا البلد الغريب مدة طويلة مثلي لا شك أنه أدرك مدى إعجاب السوفييت بكل ما هو غربي تقريباً. فإن ترجمت تصفيق الروس لفرقة غربية في كلمات، جاءت الترجمة كالآتي:

«أنظروا أيها الممثلون الأجانب. ألا ترونا بشراً ومثقفين مثلكم، نعجب

بفنكم وبكم إعجاب مواطنيكم إن لم يكن أكثر؟ هل يستقبلكم مواطنوكم بمثل هذه الحرارة؟ بمثل هذه الزهور في فصل الشتاء؟ هل يطلبون رؤيتكم وتحيتكم عند النهاية سبع مرات أو عشراً؟ رجاؤنا الحار أن تعيدوا النظر في أمرنا، أن تحترمونا، أن تعتبرونا أنداداً لمواطنيكم. . . .».

هو شعور بالنقص من ناحية. وكرم ضيافة. وطيبة قلب. وعلاوة على ذلك فإن المدينة والمنازل التي تنتظرهم خارج المسرح لا تستدعي عجلة. فالمدينة على اتساعها كئيبة. والمنازل ضيقة وكئيبة معاً. فليطيلوا مقامهم بالمسرح قدر الإمكان، واستمتاعهم بالنظر إلى لورانس أوليفييه العظيم ينحني، أو أنا مانياني ترسل قبلاتها لهم في الهواء، أو جون جيلجود تدمع عيناه لهذا التّهليل. لا شيء غير الظلمة ينتظرهم في الخارج. لا مقاه ولا نواد ليلية ولا ما ألف الغربيون التردد عليه بعد المسرح. والروس يكرهون قضاء الأمسيات في مساكنهم، وهو ما يفسر إقبالهم حتى على الاجتماعات الحزبية والسياسية التي لن يسمعوا غير الخطب فيها.

غير أنه من ناحية أخرى حب للثقافة عميق أصيل. وكيف أنسى مروري ببوابة مسكني كل صباح ومساء فأجدها تقرأ لتشيخوف وتورجينيف وبوشكين، أو حديث طباختنا الروسية إليّ وزوجتي عن مسرحية «المفتش العام» لجوجول، وعن زيارتها مع ابنتها الطفلة لياسنايا بوليانا مقر تولستوي الريفي، أو جماعات الروس من مختلف الأعمار في أركان ردهات الكونسرفاتوار، يستمعون قبل بدء الكونسير إلى محاضرات في الموسيقى، في جو يشبه جو حلقات الأزهر منذ عهد غير بعيد؟ والمستوى الثقافي للمعروض يدعو دائماً إلى العجب والاحترام. فلا إسفاف ولا استغلال للجنس ولا فكاهة سطحية. غير أن هذا أيضاً لا يكشف شيئاً غير إرادة السلطات، ولا يعني أن هذا هو وحده، أو هو حتى من بين، ما يريده الجمهور. إذ من يدري ما عسى أن يكون الإقبال عليه لو قدمت هنا مسرحيات تافهة لسمرست موم مثلاً أو أندريه روسان؟ صحيح أن

البوابة تقرأ لدوستويڤسكي وليرمونتوف، غير أنه هنا في الاتحاد السوڤييتي إما أن تقرأ لهؤلاء الأفذاذ أو أن تختار لنفسك هواية غير القراءة!

وهو أيضاً، كما ذكرت، طيبة قلب. طيبة قلب روسية محضة. والقـولة الشهيرة للملكة فيكتوريا: «لم نجد في هذا تسلية»، لا يمكن أن نتصور ما هو أبعد منها عن طبيعة هذا الجمهـور. فكل مـا يقدم جـدير بـالشكر، والتحيـة، والامتنـان لما بـذل من مجهود للتـرفيه. لا صغيـر. لا عبارات امتعـاض. بـل ولا تصفيق فاتر. إن كان الممثل جديداً أو صغير السن، قوبل بتصفيق يدخـل الثقة إلى قلبه. وإن زلّت قدم الراقصة ووقعت كالحجـر أثناء العـرض، صفق الجمهور طويلاً لها حتى لا تحزن أو تبتئس، وصفق لها مرة أخرى عند دخولها لأداء رقصة جديدة حتى يرفع من روحها المعنوية. وإن انفجر كشاف كهربائي ودخلت شظاياه قفا قميص الممثل فـانتفض مذعـوراً في ألم، صفق الجمهور حتى يعيد إلى المسرحية النظام!

وينتهي العرض والتصفيق، ويتجه الجمهور أفواجـاً إلى حيث المعاطف والقبعات، فيتزاحم أفراده ويدفع بعضهم بعضاً في جنبه أو صدره في غير رفق، وينهر كلٌ جاره في غير لين، ثم يخرجون إلى الطريق والبرد القارس، يبحثون عن سيارات الأجرة، تجيء الواحدة منها بعد ربـع ساعـة أو نصف ساعـة من انصراف السابقة، فيحاول كل منهم، وقد نفـذ صبره، أن يخـرج من الطابـور المنتـظر، ويدعي الأولـوية، فيحتجّ الباقون عليه، ويـطعنون في حقـه السبق ويشتمـونه. . . وتتسـاءل إذ ترقب كـل هـذا: أين ذهبت رفـاهـة إحسـاسهم، وما جدوى أثر العمل الفني الذي كانت دموعهم منذ لحظات تنهمر لـه أنهاراً، ويشهقون بالبكاء للمحزن من مناظره. . . . . !

أمسيات في مسرح البولشوي

رفض صديقي عوضين في بادىء الأمر، (وكنا قد وصلنا إلى موسكو قبل أيام) قبول دعوتي له بقضاء أمسية في مسرح البولشوي. غير أنه عاد فقبل بعد إلحاح، على أساس أنه لا بأس في أن «يأخذ فكرة» عن هذا المسرح الذي سمع اسمه يتردد من قبل.

وانحنى على أذني يقول:

ـ لا أكتمك أني لا أفهم هذا الفن ولا أستسيغه. رأيته مرة على شاشة التيليفزيون فأنامني وقد كنت يقظاً. غير أن بعض السيقان جميلة لا شك، وإن كان الصدر عند الغالبية كالبلاط. أقصى ما انتهيت إليه في باب الرقص رقص نجوى فؤاد، مع إلمام بتطوراته على يد سحر حمدي، أو قل، على ساقيها. أي ساقين! أي صدر! فلا تجزعن إن سمعت شخيراً أثناء العرض. يكفي ركلة خفيفة في ساقي إن لحظت امتعاضاً ممن حولنا. وقد أعذر من أنذر.

قلت له مطمئناً:

ـ ما عليك من بأس. فتولستوي نفسه كان شديد الكراهية للباليه، عظيم الازدراء له، لا يراه فناً وإنما مجرد تمرينات رياضية لا تستأهل ما ينفق عليها من مال وجهد.

ـ حقاً؟ لقد كان رجلاً ممتازاً رحمة الله عليه. هل شاهدت له فيلم «الإخوة كارمازوف»؟!

وانتظرت أثناء العرض أن أسمع الشخير فلم ينتبه إليّ. والتفتّ إلى صديقي فإذا هو وقد اتسعت عيناه دهشة وانبهاراً، يدير رأسه شمالاً ويميناً يزدرد العرض ازدراداً، وهو يتمتم بين الحين والحين أن لا حول ولا قوة إلا بالله العظيم.

وسألته في طريق عودتنا رأيه.

ـ ما كنت أتوقع أني سأستسيغه بهذه السهولة، وأفهمه بهذه السرعة. واضح أن الفرقة التي شاهدتها على شاشة التليفيزون لم تكن على مستوى، عال. أرأيت الديكور؟ والنافورات على خشبة المسرح تقذف بماء حقيقي؟ والبجع في البحيرة؟ والغابة، وأوراق الشجر تهتز للنسيم؟ والأسماك الملونة تتطاير في البركة؟

ـ وبيزميرتنوفا؟

ـ أية بيزماروفا؟

ـ بيزميرتنوفا، الراقصة الأولى.

ـ ساقاها لا بأس بهما. غير أن وجهها، إن أردت الحق، كوجه الخروف.

ثم أضاف مكرراً:

ـ غير أني، حقيقة، ما كنت أتوقع أني سأستسيغ فن الباليه بهذه السهولة.

* * *

هذا القول منه، على سذاجته، يحمل دلالة عميقة على الباليه السوفييتي، ويكاد ينطبق بحرفيته بالنسبة لي فيما يتعلق بالأوبرا التي لم أكن في أي وقت من الأوقات مستسيغاً لها، حتى شاهدتها على المسرح الروسي فبهرتني . . . فخامتها.

فالفخامة هي مفتاح المبتدىء إلى الفنون، كالكتاب المصوّر الجميل عند الطفل. وهي دليل الرجل الغبي إلى المسرحية والأوبرا والباليه، أو قل، هي خالقة الوهم لدى من لا يفهم أنه يفهم.

«أرأيت إلى النافورات على خشبة المسرح تقذف بماء حقيقي؟».

كل ما على الخشبة يبهرك. فلو أنك صرفت النظر كلية عن رقص بيزميرتنوفا، وعن الغناء كله في الأوبرا، لوجدت الباليه ممتعاً دون رقص، والأوبرا سائغة دون غناء، ولا حول ولا قوة إلا بالله. بل إنك حتى لو كنت من عشاق الباليه، أو عشاق الغناء، لتحوّل انتباهك مراراً عنهما رغماً عنك إلى الديكور والإخراج، خشية أن يفوتك أمر هنا أو أمر هناك. وكيف يمكنك أن تلتفت إلى غناء في أوبرا «الأمير إيجور». إذ ترى على المسرح عرضاً خلاباً لكسوف الشمس، والمنظر يغيب تدريجاً في ظلمة رهيبة، أو إلى غناء في «بوريس جودونوف» إذ ترى قادة البويار يدلفون إلى منظر تتويج بوريس في قفاطينهم الفخمة المرصعة بالجواهر، يلقون بالقطع الذهبية كالمطر إلى جمهور الشعب؟

وفي الباليه؟ الراقصة ترقص على المسرح في حفل بأحد الميادين. فإن التفت يميناً إلى المقهى، رأيت رجلين يلعبان الشطرنج باهتمام بالغ غير عابئين بالرقص، هذا يبدي سعادته ويفرك كفيه إذ أوقع الآخر في ورطة، وزميله يحرك شفتيه ساخطاً ويحك أنفه مفكراً ويشير إلى صاحب الفندق أن يحضر المزيد من الجعة. وفي الخلف، صبيان متشردان في أسمال بالية جميلة، خفيفا الظل والحركة، يحاولان سرقة كيس نقود متفرج بدين مشغول بالرقص أمامه. وإلى اليسار، في حانون الحلاق، ترى الحلاق مشغولاً بذقن أحد الزبائن، يعلوها بالصابون، ثم يمسك بالموسى وينهمك في عمله حتى يصيح به الزبون (دون صوت) أن قد أصابه بجرح عند خده. وصبي الحلاق أثناء هذا يطرد ذباباً وهمياً بمنشته، وقد ينتهز الفرصة ليشير إلى فتاة بالجمع أنه سيلحق بها بعد الفراغ من

عمله. . . . كل هذا وغيره، والراقصة الأولى المسكينة تؤدي رقصتها في دقة وانهماك وأمانة لا تختلف عن دقة صبي الحلاق وانهماكه وأمانته. . .

* * *

الكل إذن واجد متعته هنا. غير أنك قد تقرّ اعتراضي على مثل هذا الأسلوب، وهو ما بسطته لصديق لي يعمل بالسفارة المصرية في موسكو فاحتج عليّ بقوله:

ــ وما الضرر في أن يعجب بالعرض عاشق الرقص وغير عاشقه؟ هل الفن احتكار لفئة؟ ألا ترى أنه بهذه الطريقة يمكن استدراج غير المتذوقين للفن والناشئين حتى يصبحوا في يوم ما ذواقين حقيقيين له؟ إن شرد انتباههم اليوم إلى صبي الحلاق، فقد يتركز غداً في الراقصة. ثم ما الذي تعترض عليه بالضبط أيغيظك أن يستمتع غير الذوّاقة معك؟ أتخشى أن ترى نفسك أيها الأرستوقراطي في زمرة واحدة معه؟ إن شئت ألا تشغل نفسك بلاعبي الشطرنج، فماذا يمنعك من أن تلتفت كلية إلى الرقص؟

وكان ردّي كما يلي:

إن استدراج الناشئين وغير المتذوقين ينبغي أن يتم في أماكن خاصة أو في مسارح خاصة إن شئت. غير أن الفن الكامل ليس بالمسؤول تجاه هؤلاء، وإنما تجاه عشاقه ومريديه. أتراك تنصح إذن حين نقدم مسرحية «في انتظار جودو» مثلاً، أن نعرض في خلفية المسرح ألعاب حواة، أو تنويماً مغناطيسياً، كي ترضي جميع الأذواق، مبرراً هذا بالأمل في أن يتحول انتباه الجمهور بين الحين والحين إلى حوار صامويل بيكيت: فيرقي مستواهم تدريجياً؟

إن فرقة البولشوي، وهي أعظم فرقة باليه شهدها العالم، ما كان لها أن تشغل نفسها بالأعمال الخيرية الفنية، إن كان الهدف من هذه الأريحية في

الإنفاق على الإخراج والديكور هو تحبيب الباليه إلى المبتدئين كما يدعي البعض. غير أني أرى لهذه الأريحية أسباباً ثلاثة أخرى:

الأول: استمرار التزام الفن الروسي بالواقعية التي لا تترك مجالاً واسعاً لنشاط المخيلة؛

والثاني: حب الجمهور الروسي لفخامة الديكور على المسرح من قبيل العوض النفسي عن فقر الواقع، (وهو ما تلحظه من تصفيقهم الحاد كلما انفرج الستار عن منظر)؛

والثالث: اعتزاز النظام بما بلغه الباليه السوفييتي من كمال، واعتباره إياه إحدى الواجهات الرئيسية له أمام العالم الخارجي، مما يبرر الإنفاق عليه في بذخ، ويفسر القولة التي كثيراً ما يرددونها من أن الباليه ومترو الأنفاق مثلان حيّان لمستقبل كافة مظاهر الحياة في الاتحاد السوفييتي حين يتحقق بناء الشيوعية.

غير أني لم أصل بعد إلى جوهر الأمر. ما أردت قوله هو أن الديكور وحيل الإخراج لا ينبغي الإفراط في الاستعانة بهما ما لم يكن القصد تغطية نقص، أو إكمال قصور... ففي لندن مثلاً، أو في نيويورك، لاحظت أن المسرح يعتمد عليها في اجتذاب الجمهور إلى المسرحيات الضعيفة أو غير القريبة من قلوب المشاهدين من مسرحيات شكسبير مما لا يمكن أن تجتذب جمهوراً كبيراً، فيختار لمسرحيته «ترويلوس وكريزيدا» مثلاً ديكوراً مفرط الغرابة، وملابس نهاية القرن التاسع عشر لأبطال هوميروس، فإذا بيوليسيس يخطر على المسرح في بزّة قائد الأسطول الألماني في زمن بسمارك، بينما تجلس هيلين الجميلة إلى البيانو في فستان سهرة ولفافة تبغ بين شفتيها.

فهنا ينطبق المثل الإنجليزي المعروف: «لو لم يكن الدواء مرّاً لما احتاج إلى برشامة».

فإن انتقلت إلى فرقة البولشوي، تساءلت من فورك عن حاجة هذا الجمال كله إلى وسائل التجميل، وتبادر إلى ذهنك قول بايرون في «دون جوان»: «إنه لمن السخافة حقاً تغطية الذهب بقشرة ذهبية، أو طلاء الزنبقة بالألوان». فإن كان صدقاً أن النفاق يحب الملابس، والحق يحب أن يمشي عريان، لعجبت إذ تجد الحق هنا في المسرح السوڤييتي، (كأفراد الشعب الروسي في شهر يناير)، لا تكاد ترى منه غير طرف أنفه من كثرة الثياب.

أنا لا أنكر على الفن السوڤييتي حقه في التميز والانفراد. (ومتى كان فن شعب ذا قيمة إن كان خلواً من التميز والانفراد؟). غير أني أنكر عليه إغفاله إلى حد كبير الاستفادة مما يجري خارج حدود أرضه. والاتجاه في الفنون خارج الحدود السوڤييتية الآن، حتى في بولندا وتشيكوسلوفاكيا، هو إلى البساطة والتجريد، وإلى المزيد من البساطة والتجريد، حتى يزيد تركز الانتباه في العناصر الأساسية من العرض، وإلى اعتبار الديكور والملابس وحيل الإخراج عوامل مساعدة تخدم العناصر الأساسية وتبرزها، ولا يجوز لها أن تجذب الاهتمام إليها في حدّ ذاتها على حساب تلك العناصر التي تدخل وحدها في تعريفات الفنون المختلفة.

يكفي أن تقارن بين فيلمي «هاملت» السوڤييتي والبريطاني، و«لير» بول سكوفيلد على المسرح البريطاني و«لير» السوڤييتي، وبين فرقة البولشوي وفرقة مارثا جرام للرقص، لتدرك ما أعني.

* * *

غير أني أعود فأورد هنا تحفظين:

الأول: أن الأمر، كما قلت، له جذور نفسية، وأن حاجة الجمهور الروسي إلى الفخامة على المسرح واضحة ملموسة، لا صلة لها بالنظريات الفنية، وإنما بالذوق وبظروف المجتمع. ومن السهل أن يردّ على حديثي كله بالمثل القائل: «إن الأذواق ليست محل مناقشة».

والثاني: أن الأعوام الأخيرة قد بدأت تشهد بالفعل تطوراً مباركاً واتجاهاً إلى البساطة، هما قويان واضحان في المسرحية، مترددان شاحبان في الباليه، ولا أثر لهما في الأوبرا. فأما فيما يتعلق بالباليه، فيكاد يكون في مقدورنا أن نقول إن عام ١٩٦٣ كان عاماً تاريخياً شهد إلقاء بذور عهد جديد للباليه السوڤييتي. فقد وصلت فيه إلى موسكو، طبقاً لاتفاقية ثقافية بين الاتحاد السوڤييتي والولايات المتحدة، فرقة روبرت جيفري الشهيرة للباليه الأمريكي، وقدمت في مسرح أوباريتي أربعة برامج مختلفة كانت بمثابة قنبلة صعق لها القوم.

كنت وقتها أعمل بالسفارة المصرية في موسكو، وحضرت العروض الأربعة. بدت حيرة الجمهور جلية بعد دقائق قليلة من بدء الرقص. والتفت إلى جيراني من حولي فإذا هم يتلفتون إلى بعضهم البعض في تساؤل وصمت وقد ارتفعت حواجبهم دهشة، وهم يهزون أكتافهم علامة العجز عن فهم ما يجري هنا. كانوا كمن جاء لسماع سيمفونية لموتسارت فإذا به يواجه فرقة البيتلز!.. أيسمي الأمريكيون هذا الشيء بالباليه؟ لا مناظر؟ ماذا؟ لا مناظر ولا ديكور على الإطلاق؟ بل أحياناً مجرد رقص دون موسيقى؟ ثم ما هذه الملابس، وهذه الخطوات الغريبة التي ما عرفها أحد منا وما أنزل الله بها من سلطان؟ أهذا ما ألفناه من الكوريوجرافيا؟ وأين القصة؟ وما كل هذا الإغراب في المعاني والرموز؟ وهذا الجو الشاذ؟ أين مضحك الملك وأين السحرة والجنّيات والغابات المسحورة والحسناوات النائمات؟ أيسخر بنا هؤلاء الرأسماليون؟ يقدمون مثل هذا الشيء في عاصمة الباليه؟

وأنارت الأضواء في الاستراحة الوجوه، فإذا القوم على رؤوسهم الطير، لم يتحركوا ولم يبادروا مسرعين كعادتهم إلى البوفيه. ونظرت إلى الصفوف الأولى حيث جلس عدد من نجوم الباليه السوڤييتي: بليستسكايا، كوندراتيڤا، مكسيموڤا، ستروتشكوڤا، ليبيا، ڤاسيلييڤ، فرأيتهم يدخلون مع جيرانهم في نقاش عنيف حاد، هذا يلوح بيديه في حرقة وقد احمر وجهه، وهذه تدير سبابتها

عند رأسها إشارة إلى الخبل، وهذه تمدّ شفتها السفلى وترفع كتفها في قنوط. والكل واجم قد أدرك ما يواجهه هنا من تحدّ واستفزاز، وهو أحد هذه التحدّيات التي لا مفرّ إزاءها من إعادة النظر في الماضي كله، وفي القيم بأسرها. وإذ لمحت كوندراتيڤا بعد حين تترك مقعدها إلى المقصف، فقد تبعتها إليه، وتعلّلت بطلب إمضائها لأخاطبها، ثم سألتها عن رأيها فيما رأت:

ــ لعلك توافقني على أن الأمر ليس من السهولة بحيث أدلي برأيي في الحال. كل ما يمكنني أن أقوله لك الآن هو أني في حالة من الذهول التام.

* * *

غير أن ذهول القوم لم يطل. فما مضت سبعة أشهر أو أقل حتى بدأت أميز نغمة جديدة في الباليه السوڤييتي. بيد أن هذه النغمة، كما توقعت، وكما هو مألوف هنا، اتخذت سمتاً روسياًخالصاً.

هم قد أقرّوا الحاجة إلى التجديد، وأقروا رغبة عشاق الفن في المزيد. غير أن الجديد لا يقدّم في الاتحاد السوڤييتي باعتباره جديداً، خاصة إن كانت ثمة شبهة في أنه مقتبس من الغرب. وعندهم أن كل ما قد يبدو للساذج جديداً، له أصول روسية قديمة، فكإنما التراث الروسي قرآن قد حوى كل شيء. فإن أشرت إلى افتقار المسرح السوڤييتي إلى اتجاه معين، أجابوا بأن ذلك إنما يرجع إلى إهمال أو خطأ، أو أنه متصل بظروف عهد ستالين التي قمعت هذا الاتجاه الروسي الصميم بعد ازدهار... هو الأثر الحي للعقيدة الروسية القديمة أن «موسكو هي روما الثالثة، ولن تكون هناك رابعة»، وأن بلادهم حاملة لواء الدين الصحيح في العالم كله. فإن شاؤوا إذن تدشين أساليب جديدة في الباليه مثلاً، لجأوا إلى إحياء تراث ستراڤينسكي ودياجيليف الروسيين، بعد أكثر من نصف قرن على عرض بالبهاتهما في الغرب. وقد بدأوا في أوائل الستينات يعرضون للمرة الأولى عدداً من الباليهات التي كتب ستراڤينسكي موسيقاها، مثل «الطائر الناري» (لحّنه سنة ١٩١٠)، و «بتروشكا»

(١٩١١)، ثم فوق كل شيء، وللغرابة الشديدة، باليه «طقوس الربيع» الذي أثارت جرأته عند عرضه سنة ١٩١٣ ضجة وفضيحة في باريس نفسها، وانقسم الجمهور الفرنسي إزاءه ليلة الافتتاح إلى فريقين متعاركين بالأيدي واللكمات.

فتدشين الاتجاهات الحديثة هنا ينبغي أن يبدأ بإبراز الأصل الروسي لها، كبدئك باسم الله الرحمٰن الرحيم قبل تلاوة السورة. ثم افعل بعد ذلك ما أحببت... في حدود القانون. وقد تلت الاهتمام بسترافينسكي خطوات ذات شأن، وباليهات (معظمها من فصل واحد) فيها جرأة وتجديد، خاصة تلك التي لا تقوم على قصة، وإنما على جو مستوحى من موسيقى كبار موسيقيي القرن الماضي. فإن كانت المحاولة لا تزال باهتة وعلى هامش الباليهات الكلاسيكية الجليلة، فقد تركت أثرها العميق في الذوق الفني الروسي، وخلفت بذرة لا شك عندي في أنه من المقدر لها أن تنبت.

همست قائلاً لزوجتي:

ــ أنا رهن إشارتك متى شئت الانصراف.

ثم أغمضت عينَيَّ.

وأتانا صوت الممثل من فوق خشبة المسرح يخاطب الجمهور:

ــ. . . غير أني، للأسف الشديد ـ أيها الرفاق السوڤييت ـ أعيش في دولة تهيمن على شؤونها عصابة من الفاشيست. . فكرت طويلاً: هل من الخير، هل من العدل أن أسلم اختراعي لحكومة فاشية؟ أسلمه إليها عالماً أنها لن تستخدمه إلا لضرب الطبقة الكادحة؟ هه؟ ما رأيكم؟

صاح الجمهور:

ــ لا! لا!

ــ وهذا هو رأيي أنا أيضاً. . ولكن، ما العمل إذن؟ قلت لنفسي: ربما كان الأنسب أن أرسل اختراعي إليكم، إلى الاتحاد السوڤييتي، فمن الاتحاد السوڤييتي وحده يمكن استخدام اختراعي لصالح عمال العالم كله. أليس كذلك يا رفاق؟

ــ هو ذاك! هو ذاك! هكذا صاح الجمهور رداً عليه.

قالت زوجتي:

ــ هلم بنا!

ايـزفينيتي. عن إذنك.. بـروستيتي لا مؤاخذة!، بينمـا شعرت بـأنـظار الجالسين في الصف ترمقنا في دهشة أثناء انسحابنا في الظلام.

وسألتنا العاملة في مكان حفظ المعاطف مبتسمة:

ــ لم تعجبكما المسرحية؟

ــ لا.

قالت كالمستهزئة:

ــ عندكما في بلدكما ما هو خير منها؟

عند الباب الرئيسي للمسرح وقفت امرأة روسية في الخمسين تسند رأسها الملفح بشال قديم رث إلى عمود، مغمضة العينين: تردد بصوت لا تزال نبراته إلى اليوم ترن في أذني:

ــ كاك يا أوستالا! كاك يا خاتيوش سبات! «كم أنـا متعبة! كم أريـد أن أنام!»، ثم فتحت عينيها الحمراوين كالدم ترمقنا في توسل.

الكينا الحديدية:

كان لا يزال لدينا نحو ساعة قبل أن يحين مـوعد لقـائنا بصـديقنا النـاقد المسرحي شيبورين فيما يسمى هنا في موسكو بمقهى الفنانين. اتجهنا سائرين الهوينى في شارع أرباط صوب قمتـه حيث بدا لنـا التمثال البـرونزي المهيب لجوجول، منتصب القامة، يتطلع إلى المستقبل في أمـل، ويشع منـه التفاؤل والاطمئنان. هذا التمثال لم يـكـن دائماً منتصب القامة، ولا كـان دائماً يشـع التفاؤل والاطمئنان. كان فيما مضى جالساً على كرسي ضخم، غارقاً في أفكار سوداوية وقد غارت ذقنه في صدره، وبدا صاحبه الذي انتابه في آخر سني حياته من الكآبة ما أشرف بـه على الجنون، مقهـوراً محزونـاً. وقد قـال تمثال هـذا الكاتب الفذ المـريض جالسـاً حتى أنهضته السلطات السـوفييتية، واستبـدلت بالكرسي عصا رشيقة، وجاء التمثال الجديد يفيض صحة وقوة وتفاؤلاً، فكإنما هو إعلان ناطق عن الكينا الحديدية!

ومضينا في سيرنا حتى شارع جوركي، حتى إذا بلغنا ميدان ماياكوفسكي، طالعنا اعلان آخر عن اللبن المبستر في صورة تمثال بالغ الضخامة للشاعر فلاديمير ماياكوفسكي الذي انتحر عام ١٩٣٠ نتيجة حال من القنوط إزاء الاتجاهات الستالينية التي بدأت وقتذاك تكشف القناع عن وجهها الحقيقي. وقد أغفل نعي الإذاعة والصحف السوفييتية لشاعر الثورة أنه قد انتحر، واكتفى بالقول أنه مات عن سبعة وثلاثين عاماً. ومن يشاهد تمثاله في قلب العاصمة لا يمكن أن تخطر بباله أن مثل هذا الشاب القوي المتحمس قد تمر برأسه البرونزي فكرة سوداء.

التفاؤل هنا ليس قانون اليوم فحسب، وإنما هو قانون ذو أثر رجعي . . . تفاؤل إجباري ذو أثر رجعي.

البطل الايجابي:

القت الخادمة بالزجاجات والأكواب على مائدتنا بالمقهى وعلى وجهها علائم الضيق والتأفف شأن سائر الندل هنا. وعندما سألها الناقد شيبورين عن سبب تأخرها في إحضار الطلب، أجابت في قحة وهي تنصرف:

ــ يمكنك التقدم بشكوى إلى إدارة المقهى إن شئت:

قالت له زوجتي ضاحكة:

ــ مسكين من يعتمد على مسرحياتكم ورواياتكم وأفلامكم في تقييمه للحياة السوفييتية. لماذا لا يظهرون مثل هذه الخادمة على خشبة المسرح؟ أراهنك أن جمهوركم سيكون ممتناً للغاية إن فعلوا.

قال شيبورين:

ــ بدأنا نفعل ذلك يا سيدتي.. قد بدأنا بالفعل.. بل أن هناك فيلماً يجري تصويره الآن عن مشكلة الخدمة في المطاعم بالذات. هل شاهدت «قصة من إيركوتسك» الأربوزوف؟

أجابت زوجتي :

ـ نعم. مسيئة.

ـ بسبب بطلها الإيجابي؟

ـ بسبب بطلها الإيجابي.

سألتُهُ في حرقة :

ـ خبرني.. ما هو بالضبط هذا البطل الإيجابي الذي تصر مؤتمرات الحزب واتحادات الكتاب والفنانين على التوصية بإبرازه في الفنون السوفييتية؟

قال وكأنما يسمّع درساً :

ـ هو من وجهة نظر الحزب والدولة : ذلك المواطن الصالح الذي يكرس حياته في حماس وإخلاص لبناء الشيوعية، يقبل قرارات الحزب والحكومة وينفذها، يمتنع عن القيام بأي نشاط معاد للمجتمع، لا يمارس شعائر الدين ولا يقبل مضمونه، ينظر إلى لجنة أمن الدولة باعتبارها منظمة عطوف ترعى مصالح الأمة، يحضر المناقشات والمحاضرات بصفة منتظمة كي يوسع معلوماته عن الشؤون السوفييتية والمشكلات الدولية، ويصوت في حماس في جانب المرشَّح الأوحد في دائرته الانتخابية، مع إيمانه بأن هذا الأسلوب هو خير الأساليب الديموقراطية.

ـ باختصار، شخصية وهمية.

ـ قل نادرة.

ـ ولكن، ألا ترى ما يمكن أن يؤدي إليه التركيز على هذه الصورة من إرهاق النفوس المواطنين الذين سيجدون أنفسهم يومياً يخرقون هذا القانون غير المكتوب؟ ألا ترون الخطر من جراء ذلك الازدواج في حياة المواطن السوفييتي، وعواقب الاستخفاف والاستهتار اللذين سينجمان حتماً عن شعوره بالذنب وإدراكه التناقض بين حياته الداخلية العميقة الحقيقية وبين الواجهة الخارجية التي ينتحلها في علاقاته الاجتماعية؟

صاح شيبورين:

ـ والدّين؟ ما رأيك؟ والمثل العليا أياً كانت؟ ألا تؤدي إلى نفس النتائج؟

ـ قل ما شئت، غير أني قد طفت بأكثر من نصف بلاد العالم، فلم أجد من أهو أقرب إلى شخصية دكتور جيكل ـ مستر هـايد من المـواطن السوفييتي العادي.

صمت شيبورين مدة طويلة يفكر. أشعـل سيجارة وشـرب كأس الفودكا دفعة واحدة، ثم بدأ يقول:

ـ أريد أن أنبهك إلى أمر لا أعتقد أنك قد تنبهت إليه من قبل.

ـ فاشرح إذن.

ـ مع مقدمة سياسية لا بد منها؟

ـ كلي آذان.

الدفاع:

قال شيبورين:

في ظل نظام كالنظام السوفييتي، تنشأ الحاجة إلى تعبئة طاقات المجتمع وتوجيهها وجهة الأهداف التي رسمها الحزب. هذه الحاجة تتطلب خلق جماعة من الصفـوة تعنى بتنمية الايـديولـوجيا وتـطبيقها وفق الـظروف والاحتيـاجـات المتغيرة، واتخاذ القرارات المتعلقة بالمجتمع والاقتصاد.

ـ جميل.

ـ وهنا يجب افتراض أن هذه الصفوة، أو قل الحزب، يمكنها الوصول إلى القرارات المطلوبة على ضوء الشهادات والبيانات والمعلومات المتـوفرة، وتأتي هذه القرارات محققة للصالح العام والوفاق الاجتماعي. وحيث أنك لن تجـد في النظام السـوفييتي تمييزاً بين الصـالـح العـام وبين صـالـح الفـرد أو الجماعات، قد اختفت منه تماماً كافة مـظاهر الصـراع الطبقي، فليست لـدينا

تلك الحاجة الملموسة في الدول الغربية إلى تعدد الأحزاب في سبيل ضمان القدرة على المساومة وتحقيق التوازن بين المصالح.

إن تضارب المصالح من السمات اللصيقة بالمجتمع الرأسمالي. ولهذا سنجد فيه دوماً تلك الأحزاب التي تمثل أصحاب العمل والعمال والمزارعين وغيرهم. سنجد المحامي ووكيل النيابة. أما هنا فقاض عادل فرد، يفحص شهادة أناس هادئين غير متحيزين لا يهمهم غير تحقيق العدالة، ثم يصدر الحكم بما هو خير للجميع.

والمسرح عندنا في الاتحاد السوفييتي تطبيق لهذا المبدأ، كما أن المسرح في الدول الرأسمالية تطبيق لمبدأ تعدد الأحزاب. ففي مسرحهم - أعني في خير حالاته بطبيعة الحال - يتخذ الوضع السليم أو الوضع الأمثل نتيجة لتصارع قوى متطرفة، جلها على خطأ، وقلما تعثر في طيات العمل الفني عندهم على أية إشارة إلى ما يراه صاحبه حقاً، إلى ذلك الوسط العدل، قل مثلاً بين دون كيخوتة وسانتشو بانثا.. فإن تضمن العمل مثل هذه الإشارة، وصفه نقادهم بالسذاجة والفجاجة.

أما عندنا، فإن الوضع الأمثل معروف، والأهداف القريبة والبعيدة واضحة وضوح الشمس. فلم التسكع؟ ولم التظاهر بالحيرة، والاتجار بالضياع؟.. لهذا فإنه عندما كتب مؤخراً شاعرنا روبرت روجد يستفينسكي قصيدة يتساءل فيها لماذا يعيش ويقول أن هذا هو السؤال الصحيح الوحيد، ردّ عليه أحد العمال في صحيفة الايزفستيا موبخاً بأن الجميع في بلادنا يعملون جيداً لماذا يعيشون: من أجل بناء الشيوعية..

خبرني إذن: كيف يمكن لأي كاتب مسرحي يدرك إدراك اليقين حقيقة كل شيء، أن يتجنب تصوير البطل الإيجابي في مسرحياته؟

ثم أنظر بعد ذلك إلى الآثار الوخيمة لتمثيل الشر على خشبة المسرح.

أتعلم أنه في مسارح كوريا الشمالية لا يسمح بأن تظهر على خشبتها شخصيات شريرة (كالأمريكيين واليابانيين مثلاً)، ويكتفى بالإشارة إليهم في الحديث، ويعرض ما يمثل جثثهم بعد انتصار الكوريين عليهم؟ لم أتعلم أنه في الصين ـ على ما سمعت ـ لا يصفق الجمهور للمثل القائم بدور شخصية شريرة مهما كانت إجادة الممثل وإتقانه لدوره؟ فإن شئت ألاّ تأخذ برأي شيوعي، فاسمع ما يقوله أفلاطون في جمهوريته.

يقول أفلاطون:

إنه من الواجب أن يقتصر الشعراء على تصوير الطيب الجميل وحده في أعمالهم. فإن صوروا غيره طردناهم من دولتنا. كذلك غيرهم من الفنانين: علينا أن نحظر عليهم عرض صور للرذيلة والدناء والفجور، فإن فعلوا منعناهم من ممارسة فنهم. فهم يفسدون أذواق المواطنين وأخلاقهم بسردهم حجج الأشرار ومبرراتهم لأعمالهم، خاصة متى التزم الفنان الحياد والانصاف، كما فعل هوميروس في الياذته، أو أبرز بعض النواحي الجذابة من شخصية الشرير.

ذاك رأيي، فهات ما عندك. ولكن لنشرب أولاً كأساً أخرى.. قل، في صحة أفلاطون.

قلت: في العالم السفلي بإذن واحد أحد!

وشربنا نخب أفلاطون.

ــ ابدأ في الرد إذن؟

ــ تفضل.

ــ مع مقدمة سياسية لا بد منها؟

ــ كلي آذان.

الهجوم:

قلت:

ليس صحيحاً ما ذهبت إليه من أن النظام عندكم في الاتحاد السوفييتي قد

استأصل كافة أوجه التضارب في المصالح. فالمعروف أنه منذ بداية النظام الشيوعي كانت ثمة صدامات عنيفة خطيرة بين مصالح طوائف معينة، خاصة بين المدينة والريف.. ولا يمكن أن نصف الصراع السياسي بأنه أهون شأناً، أو أقل حدة وخطراً، لمجرد أنه يدور وراء أبواب مغلقة. صحيح أنه ليست لدينا في الأونة الراهنة معلومة دقيقة وافية عن الخلافات القائمة، ولكن الواضح أن تعقد الاقتصاد السوڤييتي واحتياجات المجتمع يزيد بالضرورة من أوجه الخلاف والتوتر، كالخلاف بين جانب من الانتيليجنتزيا والحزب، والخلاف حول مشكلة الأولوية في الاستثمارات في مختلف قطاعات الصناعة، خاصة بصدد السلع الاستهلاكية والسلع الإنتاجية. فإن كانت قرارات الحزب تتخذ في اجتماعات خاصة، فهل هناك ما يضمن أنه ليست لدى أعضاء الحزب من المصالح الخاصة ما يمكن تخيل سعيهم من أجل تحقيقها على حساب مصالح أخرى؟ ومن ثم يصبح التطهير هو وسيلة العلاج الوحيد في النظام السوڤييتي إزاء عدم توفر المناقشات العامة والوسائل المستساغة للاختيار الشعبي؟

الصراع إذن قائم، والمتناقضات ـ وإن اختلفت عن متناقضات الماضي ـ متوفرة. ولن يستطيع كاتب ككاتبكم المسرحي نيكولاي ڤيرتا «الفائز بجائزة الأدب» أن يقنعني بما يسمى بنظرية انعدام الصراع وقوله إنه حيث أن الشخصيات السلبية في المجتمع السوڤييتي قد بدأت تتلاشى، فإن الصراع الوحيد الممكن تمثيله على المسرح الآن هو الصراع بين الحسن والأحسن.. ما هذا؟! دعاية يقصد بها الخارج؟ وماذا عما يملأ جرائدكم ومجلاتكم اليوم من الشكوى من الرشوة، والاختلاس، والبيروقراطية، والسوق السوداء، ومشاعر الاستهتار والاستخفاف لدى الشباب، وعدم احترام الجيل الجديد للجيل القديم؟

ماذا يسمي غيرنا هذا: الحسن أم الأحسن؟!

صدقني: الدعاية إنما تهزم نفسها في النهاية. فالجمهور يغضب ويثور

حالما يكتشف الحقيقة. ويقيني أن الوقت سيحين حين يقذف جمهوركم الأبطال الإيجابيين على مسرحكم بالطماطم والبيض، هؤلاء الأبطال الذين لا نصادفهم في الحياة اليومية السوفييتية قط، الذين هم نماذج للفضيلة زاهية الألوان، يخبرون الحب كما لا يخبره أحد، وينظمون عواطفهم على ضوء توجيهات الحزب والكومسومول، ولا يشربون الخمر إلا قبيل إسدال الستار، في الأعراس أو في الاحتفالات ببناء سد أو إنشاء مصنع للمخصبات الكيميائية، كما في مسرحيات سوفرونوف.

المجال الوحيد للأبطال الإيجابيين في رأيي هو الحياة لا المسرح ولا غيره من الفنون. . والنتيجة الحتمية لمثل هذه المسرحيات التي تصورهم، إما أن يرى الجمهور كذبها وزيفها فيعمق احتقاره لمؤلفيها ومباركيها، أو أن يصدقها فيزداد شعور الفرد منه بضآلة شأنه، ومدى خروجه على القانون وبعده عن الطريق السوي. فهو يعلم أنه يشرب الخمر في مناسبات غير إتمام بناء مصنع المخصبات الكيميائية، وأنه أحياناً يشتهي ناتاشا اشتهاءً لا يقره مؤتمر الحزب. . وتكون النتيجة أنه يمعن في الشراب، وربما يغتصب ناتاشا اغتصاباً. . بسبب البطل الإيجابي. .

الختام:

لم تلبث أضواء المقهى في الداخل إن أطفئت ثم أعيدت إضاءتها إيذاناً بحلول وقت إغلاقه. وطاف الندل بالموائد لقبض الحساب. وإذ لبس الرواد معاطفهم وخرجوا إلى الطريق ووقفت وزوجتي نصافح شيبورين أمام المقهى، إذا بصوت يصرخ من الجانب الآخر للطريق.

ــ أيها السادة الصحفيون! أيها السادة الفنانون! استمعوا إلي. . أرجوكم! استمعوا إلي. . أيها السادة دقيقتان فحسب!

كان رجلاً مخموراً في نحو الأربعين، بديناً قصيراً أصلع الرأس.

ــ أنا مهندس في مصنع «س» للمنسوجات الصوفية. توصلت إلى

اختراع من شأنه خفض نفقات الإنتاج في المصنع. عرضته على المدير فقال إنه سيقتضي تعديلاً في الآلات، وإن هذا التعديل سيستغرق زمناً يتباطأ خلاله الإنتاج، ويعجزه عن تحقيق متطلبات الخطة، ويعرّضه للمسؤولية والمؤاخذة.. تخطّيته وبعثت باختراعي وبشكواي إلى الجهات العليا.. والنتيجة أيها السادة؟ والنتيجة؟ النتيجة أن مدير المصنع....

والتفتنا، فإذا برجلين يقتربان منه وهما يتعثران تعثر السكارى في سيرهما، وإن كانت بخطواتهما سرعة غير مألوفة من السكارى. وإذ بلغا مكان المهندس وضع كل منهما ذراعاً حول كتفه وجرّاه معهما وهما يغنيان أغنية. غير أنه بعد أن سار معهما عدة خطوات، أحنى جسمه فجأة إلى الأمام وعاد يجري لاهثاً باتجاه ميدان قريب مزدحم بالمارة. هنا تخلّى الرجلان عن تظاهرهما بالسكر، وأقفلا يعدوان وراءه حتى اختفى قلالتهم وسط الزحام.

ومكثنا برهة صامتين.. ثم عدت إلى مصافحة شيبورين مودعاً.

عن حرّية الفكر

بقلم: حسين أحمد أمين

حين نتحدّث عن حرية الفكر، فإنما نعني حرية التعبير عن الفكر. فالفكر حرٌّ في ظل الأنظمة الديموقراطية والاستبدادية على سواء؛ بمعنى أنه ليس بوسع أحد أن يمنع أحداً من أن يفكر كما يهوى.. غير أنه مضطر ـ في ظل الاستبداد ـ إلى إخفاء أفكاره متى كانت هذه الأفكار غير مرضيّ عنها.

غير أنه حتى حرية التفكير هذه ليست بدون حدود:

فهي محدودة أولاً بحدود تجارب الفرد وثقافته، وطبيعة تكوينه وشخصيته، وحدود قوة مخيّلته وقريحته، وما أخذه عن أسلافه وبيئته.

وهي محدودة أيضاً متى اضطر لسبب ما، كالضعف أو الكسل العقلي، أو قوة التقاليد، أو النشأة الأولى والتعليم الذي تلقّاه، إلى تبنّي آراء الآخرين، حتى لو خال أنها آراؤه، وأنه اقتنع بها أو توصّل إليها بِحُرٍّ إرادته.

بل إن معظم المعارف والمعتقدات لدى معظم الناس هي من هذا النوع الثاني: معارف ومعتقدات قد أخذوها دون تمحيص عن آبائهم ومدرّسيهم، ومعارفهم وأصدقائهم وأزواجهم، وعن الكتب والصحف التي يقرأونها.. ولو أنك سألت امرءاً عن سبب اعتقاده شيئاً ما، لربما أجابك بقوله: «قد ذكره فلانٌ وهو حجّة»، أو «هو وارد في كتاب كذا»، أو «إنه أمر معروف لدى الكافة»، أو «ذاك ما تعلّمتُهُ في المدرسة».. وكلها إجابات تعني أن صاحبها قَبِل الرأي

أو المعلومة من آخرين، عن ثقة منه في حكمتهم أو في صدق معلوماتهم، دون أن يفكر في الأمر بنفسه ولنفسه، ودون أن يقلّب فكره فيما سمع أو قرأ.

غير أنه من الواجب أيضاً أن نعترف بأن معارف المرء كانت ستضحى محدودة للغاية، لولا ضرورة تقبّله للكثير منها ـ كالمعارف الجغرافية والفلكية والتاريخية واللغوية وغيرها ـ من المصادر الموثوق فيها، دون التصدّي لاختبار صحتها بنفسه. إذ من ذا الذي بوسعه أن يحقق بنفسه من صحة واقعة عبور هانيبال لجبال الألب، أو من أن قطر الشمس يبلغ ٨٦٥٤٠٠ ميل، أو يكلّف نفسه عناء السفر إلى تسمانيا للتأكد من وقوعها جنوب شرق القارة الأسترالية؟

الرأي والمعرفة:

بيد أن هذا القبول منّا لما يقوله الآخرون، يستوجب شرطاً أساسياً: هو ألاّ نقبل من المصادر أمراً هو غير قابل للإثبات وللتحقق منه. فالطالب على ثقة من أنه لو طلب إلى أستاذه أن يبرهن له عملياً على أن الحديد يتمدّد بالحرارة، أو أن الماء مكوّن من عنصرين هما الأكسجين والإيدروجين، لأجرى الأستاذ أمام بصره من التجارب ما هو كفيل بإقناعه. ولو أني شككت في أن فرنسا تقع في الشمال الغربي من مصر، لكان بوسعي أن أقلع إليها في طائرة أو سفينة توضّح لي بوصلتها اتجاهي وأنا في طريقي إليها. هذا علاوة على أن مثل هذه المعلومات هي عادةً مما لا تخفي وراءها مصالح وأغراض تدفع القائلين بها إلى الكذب.

وهنا نرى الأهمية القصوى للتمييز بين المعرفة والرأي. فالمعرفة قد تكون في وقت من الأوقات غائبة (كجهل البشر في الماضي بقابلية الذرّة للانشطار)، أو قاصرة (كجهلنا اليوم بسبل علاج السّرطان أو الإيدز)، أو حتى خاطئة (كظن الأوائل أن الشمس هي التي تدور حول الأرض). غير أنها دائماً في سبيل التطور والتقدم والتصحيح حتى تغدو ثابتة مُثْبتة لا يختلف حولها اثنان.. أما الرأي فغالباً ما يتأرجح بين الصحة والفساد، والتصديق والتكذيب،

وكثيراً ما يكون غير قابل لأن يجتمع عليه الناس، وعرضة لأن تتحكم فيه الأهواء والمصالح، وأن يكون موضع الجدل والنزاع، والخصومة والقمع، والإرهاب والقتال.

صحيح أن الجدل والنزاع والإرهاب قد ثار أحياناً، في الماضي، حول بعض المعارف العلمية (كما في حالة نظرية جاليليو). غير أنه ليس أمراً نادر الحدوث في التاريخ فحسب، بل والأرجح أن يكون قد انقضى اليوم إلى غير رجعة، بحيث بات الخلاف والخصومة الآن قاصرين على الآراء دون المعارف.

والعلوم والمعارف القطعية ليست في حاجة إلى شنّ حملات صليبية لإبادة غير المصدّقين للنتائج التي توصّلت إليها. بل هي على استعداد كامل لتعديل هذه النتائج متى نجم عن تطور سبل البحث والترجمة ما يقضي بتصحيحها، ولا تعرف التزاماً غير الإلتزام تجاه كل ما في الكون بحبّ استطلاع محايد. والعلماء واجدون في نشاطهم لذّة لا يُفْسدها إباء البعض أن يشترك في نشاطهم، ووليمتُهم لا يعكّر من صفوها رفضُ جيرانهم الانضمام إليهم للاستمتاع بها. وهذا هو السبب في أنه في حين نجد من النادر أن يصبر امرؤ على الاستماع إلى رأي سياسي أو اقتصادي أو ديني من شخص يخالفه، أو أن يعرض قضيته عرضاً موضوعياً نقدياً هادئاً مجرّداً عن الهوى، نرى العالم ينظر إلى كافة الحقائق ـ عدا طرائق الإثبات والتحقيق المنطقية ـ على أنها قابلة للتمحيص والتصحيح، ويرى الشك مطلوباً ومرحَّباً به ومشجَّعاً عليه، بل ويزيد من لذة البحث.

ارتباط حرية الفكر بحرية التعبير عنه:

فنحن إذن حين نتحدّث عن حرية الفكر إنما نعني عادةً حرية التعبير عن الرأي، لا حرية البحث عن المعارف العلمية والتصريح بها. ذلك أن حرية المرء في التفكير في أي أمر شاء تغدو بعد حين غير كافية، بل وأحياناً مؤلمة

للمفكر نفسه، متى لم يُسمح له بالتعبير عن أفكاره للغير، ناهيك عن عدم جدواها بالنسبة لغيره إن لم تتعدّ الأفكارُ رأسَه. أو كما يقول نيتشه «قد غدا زرادشت في سن الأربعين كالنحلة التي جمعت من العسل أكثر مما يسعها حمله، فباتت بحاجة إلى أيدي تمتدّ لتأخذ منه».

أضف إلى ذلك أنه من الصعب للغاية على المرء أن يخفي أفكاره متى كانت مسيطرة عليه. فالشخص الذي يشك في صحة الآراء والتقاليد التي تحكم سلوك مواطنيه، من الصعب عليه ـ متى كان شديد الاقتناع بصحة آرائه ـ أن يخفي مخالفته لهم، وألا يفضح موقفه بسكوته حيناً، وبالكلمة العارضة حيناً، وبسلوكه ومواقفه بصفة عامة، بل وحتى بالابتسامة الهازئة الخفيفة، أو بالتثاؤب أو عبوس الوجه وازوراره. وقد ثبت علمياً أن الاضطرار إلى إخفاء الرأي يضرّ بصحة مُخْفيه ضرراً ليس بالهين. وقد فضّل البعض ـ كسقراط وبرونو والسهروردي ـ مواجهة الموت على إخفاء الرأي. وهو ما يوضح مدى ارتباط حرية الفكر بحرية التعبير عنه.

ولكن، ما طبيعة هذه الآراء التي قد نطالب بحرية التعبير عنها؟

ذلك أن ثمة من الآراء ما تقضي المصلحة أو الضرورة أو الأدب أو السياسة أو غيرها بأن نخفيه، دون أن نرى في الأمر غضاضة أو بأساً؛ كالرأي يخفيه الزوج عن زوجته طالباً لرضاها، أو الصديق عن صديقه خشية الغضب والجفاء، أو المضيف عن ضيفه من قبيل حسن الضيافة، أو الولد عن أبيه من قبيل الأدب، أو الطبيب عن المريض مراعاة لروحه المعنوية، أو الدبلوماسي عن المسؤولين الأجانب من قبيل الكياسة، أ والشخص عن عدوه من قبيل الحذر. . كل هذا وغيره لا يدخل في اعتبار المطالب بحرية التعبير عن الرأي. وإنما يدخل في اعتباره عادةً تلك المسائل السياسية والاقتصادية والاجتماعية والدينية والفلسفية التي يرى أن حرية التعبير بصددها، وحرية مناقشتها، هما في صالح مجتمعه، بل وأحياناً في صالح البشرية جمعاء.

دواعي مناهضة حرية الفكر:

قد غدت حرية التعبير عن الرأي اليوم مقبولة ومسلماً بها في معظم البلدان المتحضرة. غير أنها حرية لم تكتسب إلا في العصر الحديث، وبعد إراقة بحور من الدماء. وكان لا بدّ من مرور قرون طويلة حتى تقتنع الشعوب المتمدينة بأنها في صالح الإنسان لا العكس. بل كان لا بدّ من انقضاء أمد طويل قبل أن تخطر فكرة حرية الرأي نفسها في أذهان الناس.. فثمة من المجتمعات ما عرف حرية التعبير عن الرأي قبل أن يطرأ بباله أنه يتمتع بها، (كالإفريق والرومان في بداية دولتيهما، والعرب في الشطر الأعظم من جاهليتهم)، وقبل أن يعي أن هذه الحرية حق من حقوق الإنسان ليس من حق سلطة أن تمسّه. وحين نسمع يزدانبخت يردّ على الخليفة المأمون الذي طلب منه أن يعتنق الإسلام بقوله: «نصيحتك يا أمير المؤمنين مسموعة، ولكنك لست ممن يجبر الناس على ترك مذاهبهم»، لا نستطيع أن نقطع من ردّه بأن يؤمن بحق كل امرىء في التعبير عن رأيه، أو بحقه في اختيار ما يحلو له من المذاهب.

فمرور الزمن الطويل كان لازماً إذن حتى تنبت في الأذهان فكرة هذا الحق. وهي فكرة تستلزم توفر أمور ثلاثة، الأول: إرساء دعائم مجتمعات ذات أنظمة سياسية واقتصادية؛ والثاني: شيوع آراء وأفكار ومعتقدات بين أفراد هذه المجتمعات تحظى من غالبيتهم العظمى بالقبول؛ والثالث: نشوء مصالح لدى طبقات معينة في المجتمع تكون مرتبطة بآراء ومعتقدات معينة.

وبالتالي يصبح في مقدورنا أن نحكم بأن المجتمعات التي كانت - أو لا تزال - تعارض حرية الفكر، وتناهض الآراء الجديدة، إنما تعارض هذه وتناهض تلك للأسباب الثلاثة التالية:

أوّلها: أن عقل الإنسان العادي هو بطبيعته كسول، وأفكاره يقبلها عادةً من البيئة المحيطة به دون مناقشة. فهو يعارض غريزياً كل ما من شأنه أن

يخلخل النظام الثابت في عالمه المألوف. . والفكرة الجديدة تحتم ضرورة قيامه بإعادة ترتيب أفكاره، وهو أمر شاق. ومن ثم فإن الفكرة الجديدة تبدو له شريرة خبيثة لمجرد أنها مرهقة، ويفضّل عليها اعتناق الآراء والمعتقدات المستندة إلى سلطان كنيسة أو كتاب مقدس أو رأي عام، حتى إن كان من المستحيل البرهنة على صحتها، لمجرد إيمانه المطلق بسلطة أو بفرد.

وثانيها: ذلك الخوف من أن تؤدي الأفكار الجديدة إلى تهديد المجتمع وأسسه، بالنظر إلى ما تعنيه من ضرورة إدخال التغيير والتعديل على النظم السائدة فيه. وقد ظل الناس حتى عصرنا هذا يخالون صالح الدولة في الاستقرار الثابت الجامد. وفي المحافظة على التقاليد والأنظمة دون أدنى مساس بها. ولذا صاروا يرون الشخص خطراً متى شرع في التساؤل عن حكمة المبادىء الشائعة، أو التشكيك في التقاليد.

وثالثها: أن الأفكار الجديدة تهدد مصالح شرائح قوية من المجتمع، كتهديد مبادىء الثورة الفرنسية للطبقة الأرستوقراطية، والماركسية للطبقة البورجوازية، والعلمانية لرجال الدين، وهي طبقات ترتبط مصالحها بالنظام القائم، وبالأفكار التي يستند إليها هذا النظام. ولذا صار من المؤكد أن تلقى هذه الأفكار معارضة قوية من تلك الشرائح. . والواقع أن معظم المعتقدات الخاصة بالطبيعة والإنسان مما لا يقوم على أساس علميّ، كان يخدم بصورة مباشرة أو غير مباشرة مصالح طبقة اجتماعية أو سلطة دينية، وبالتالي فقد كانت القوة تحميه دائماً من هجمات وانتقادات أفراد يصرّون في عناد على الاحتكام إلى العقل. والملاحظ بوجه عام ـ وكما سبق أن ألمحنا ـ أنه ما من شخص يغضب إذا أنكر جاره حقيقة قابلة للتمحيص والإثبات، غير أنه يثور ويغضب متى أنكر هذا الجار معتقدات لا يمكن بأي حال إثباتها علمياً. فإن أصر الجار على أن صلاح الدين الأيوبي لم يكن له وجود، أو أنكر أن الملح يذوب في الماء، فإنه يثير سخريتنا أو شفقتنا. أما إن شك في وجود الملائكة أو في خلود

الروح، فإنه يثير غضب الناس وكراهيتهم ونقمتهم، وقد يُحكم عليه في بعض المجتمعات بالموت بسبب شكّه هذا.

العقلانيون وأعداؤهم:

وقد شهدت العصور الوسطى بالأخص ميداناً شاسعاً من المعتقدات التي فرضت السلطات على الناس واجب قبولها، وحذّرتهم من الخوض في الكلام عنها أو تحكيم العقل فيها. غير أن العقل إنما يخون طبيعته أو وظيفته إن هو قبل الحدود التحكمية أو القيود المفروضة على حريته.. وتأكيد العقل لحقه المطلق في النظر في كافة الأمور هو ما يعرف بالعقلانية. وما إدانة البعض لهذه العقلانية إلا من آثار الصراع المرير بين العقل والقوى المعادية له، لا سيّما في مجال الثيولوجيا التي احتدم فيها الصراع بصفة خاصة.

والحقيقة أن أولئك الذين يهمهم حقاً تأكيد سلطان العقل، كانوا دوماً ـ وقد يظلون لأمد طويل ـ أقلية صغيرة من البشر، ومن المثقفين الذين بوسعهم استخدام السلاح الوحيد المتاح للعقلانيين، وأعني به الجدل. أما السلطات فقد لجأت في حربها ضد هؤلاء إلى العنف المادي، والقهر المعنوي، والضغط القانوني، وإثارة الاستنكار الاجتماعي. وقد لجأت أحياناً إلى استخدام سلاح أعدائها وهو الجدل وتحكيم العقل، غير أنها كانت دائماً في تلك الأحيان تخرج من الصراع جريحة منهزمة، كما هي الحال حين حاربت الكنيسة أفكار جاليليو في أوائل القرن السابع عشر، ثم اعترفت بخطئها في أواخر القرن العشرين. والواقع أن أضعف نقطة في المركز الاستراتيجي للسلطة هو أن حماتها ـ وهم بشر ـ لم يستطيعوا أن يحولوا بين أنفسهم وبين استخدام الجدل والحجج العقلية، مما أدّى إلى حدوث الانقسامات في صفوفهم هم، وإلى إتاحة فرصة النصر للعقلانيين.

قد يعترف البعض بخطأ السلطة في محاكمة جاليليو، ولكنه يرى لها الحق مع ذلك في أن تتحكم في مجال العقائد التي تخرج عن نطاق الخبرات

البشـرية، والتي لا يمكن إثبـاتها أو التـأكد من صحتهـا، كما لا يمكن إثبـات خطئها. وفي الرد على ذلك نقول: إنه بوسع أي مخلوق أن يخترع أي عدد من الافتـراضـات التي لا يمكن إثبـات خـطئهـا، والتي يمكن لأي شخص أبله، أو مندفع، أو سهل الانخداع، أن يقبلها ويعتنقها. غير أنه ما من أحد يملك أن يدعي أن كل هذه الافتراضات جديرة بالتصديق ما لم يثبت كـذبها. فـإن كان بعضها فقط أهلاً لأن يصدَّق، فأيّ سلطان سوى سلطان العقل له أن يميِّز بين ما هو أهل للتصديق وما هو أهل للتكذيب؟ فإن ادعوا للسلطة هذا الحق، أجبنا بأن الكثير من المعتقدات التي آزرتها السلطة في الماضي ثبت على مر الأيـام بطلانها وهُجِرت. . . والخلاصة أن عبء الإثبات لا يقع على عاتق المكـذِّب بل على عاتق المصدِّق. فلو أنه قيل لك إن بـالفضاء الخـارجي كوكبـاً يسكنه جنس من الحمير، يتحدث بلسان عربي مبين، ويقضي يـومه في منـاقشة آراء ابن سينا وابن رشد، لما كان بوسعك أن تثبت كـذب ما يقـال لك. غيـر أنك لستَ مطالباً بالتصديق لمجرد عجزك عن إثبات بطلان الزعم. ومع ذلـك فإن البعض قد يقبل الفكرة ويصدقها متى كررتها السلطات بما فيه الكفاية، وأذاعتها الإذاعة والتليفيزيون صباحاً ومساءً، ونادى بها قوم من أسطح المنازل، وغرسها الآبـاء والمعلمون في ذهنـه منذ طفـولتـه، وأكـدهـا لـه بقـوة أنـاسٌ يـوقِّـرهم ويحترمهم. ونحن نعلم عن يقين قوة تأثير التكرار في ثقة (كما في الإعلانات)، وقدرة هذا التكرار على تثبيت الآراء والعقائد في النفوس.

من صاحب الحق؟

ولاشك في أن قمع الآراء الجديدة كثيراً ما تسبب في الماضي في عرقلة التقدم أو الحيلولة دونه في المجتمعات البشرية. وقـد كان هـذا القمع يستنـد دائماً إلى حجة أن الآراء الفاسدة ليست أخف ضرراً من الأعمال الإجـرامية، وأنه من مسؤولية القائمين بالحكم مكافحة هذه كما أن من مسؤوليتهم مقـاومة تلك. والرد الواضح على ذلك هـو بالتسـاؤل عن الحكَم بصدد تقييم الآراء،

ومن صاحب الحق في الفصل بين الصحيح والباطل، والتمييز بين الإجرامي والبطولي، وبيان ما هو خليق بالمكافحة وما هو خليق بالتشجيع والرعاية. وكثيراً ما حدث في التاريخ أن أدان حكّامٌ رأياً ثم اعتنقه حكام تالون، كمكافحة حكومة القيصر نيقولا الثاني للشيوعية في روسيا، ومكافحة حكومة لينين بعدها للآراء المناهضة للشيوعية، كلٌّ بدعوى أن آراء خصمه آراء فاسدة. غير أن المثال الأقرب على هذا هو تغيير الفرد نفسه لآرائه بمرور الوقت. فالرأي الذي أُؤمن اليوم بكل قوة وثقة بأنه صحيح وفوق مستوى الشبهات،قد أغيّره بعد عام أو عامين وأرى خطله وفساده، ثم قد أنتقل من هذا الرأي الثاني في مستقبل أيامي إلى ثالث فرابع. ففي أية مرحلة إذن من تلك المراحل من العمر يمكنني أن أقول في ثقة بأني على حق؟ وقد سبق ليسجموند فرويد أن عرّف الآراء بأنها «اعتقاد المرء بصحة شيء ما لمجرّد رغبته في أن يكون ذلك الشيء صحيحاً»، وعرّف الشاعر روبرت جريفز الأساطير بأنها ديانات الآخرين. فمن ذا الذي بمقدوره أن يصف عقيدته بأنها العقيدة الحقة، وغيرها بأنها أساطير، وهو يعلم أنه لو كان قد وُلد في بلد غير بلده، وبين قوم غير قومه، لوصف العقيدة التي يؤمن الآن بها بأنها من الأساطير؟

كذلك فإن الاحتجاج بأن عقيدة الأغلبية العظمى في مجتمع معين هي الحَكَم في مضمار صحة الرأي، هو الآخر احتجاج مردود عليه. فقد تخطىء الأغلبية في اعتقادها وقد يصيب إنسان فرد. ولو أن البشرية بأسرها أجمعت على رأي وخالفها فيه شخص واحد، لما حق للبشرية أن تخمد صوته، تماماً كما أنه ليس من حق هذا الفرد أن يخمد صوت البشرية. فإخماد الصوت في حدّ ذاته، وعلى حدّ تعبير جون ستيوارث ميل، «يضرّ بالجنس البشري، بحاضره ومستقبله، كما يضر بقامعي الرأي أكثر من إضراره بصاحب الرأي. ذلك أنه لو كان رأي ذلك الفرد سليماً، لحُرِم الناس بقمعه من فرصة تصحيح خطئهم، ولو كان رأيه باطلاً، لحُرِموا من فضل يفوق فضل تصحيح الخطأ، ألا وهو الرؤية الأوضح للحق الناجمة عن صراعه مع الباطل. ذلك أنه حتى

لو كانت عقيدة الأغلبية هي الحق المطلق، فإن حرمانها من فرصة إثبات نفسها على حساب الباطل يجرّدها من أسسها العقلانية، ويحجب الأسباب التي أحالتها من رأي إلى معرفة قطعية».

* * *

وختاماً فإن تأكيد حق كل إنسان في حرية التعبير عن رأيه، لا يستهدف استمرار اختلاف الآراء بين الناس إلى ما لا نهاية، ولا إبقاء الآراء دوماً محلاً للشك والجدل. بالعكس، لقد كان من أفضال حرية التعبير عن الرأي على البشرية أن زادت (ولا تزال تزيد) من عدد الآراء والمعارف التي لم تعد موضعاً للشك والخلاف، أو هي على الأقل ضيّقت من حدود الشك واحتمال الخلاف. إذ من ذا بمقدوره اليوم، غير قلة يدينها الضمير البشري، أن يدافع عن نظام الرق أو تجارة العبيد، أو عن نظرية تفوّق جنس على جنس، أو عن حرمان المرأة من الحقوق، أو أن ينكر أنه لا إكراه في الدين، أو حقوق الأقليات، إلى آخره؟ فالواقع أن تقدم البشرية يمكن أن يقاس بعدد وأهمية الحقائق التي لم تعد تثار الشكوك حولها.. وهو أمر ما كان ليحدث لولا أن أتيحت للناس فرصة الطعن في المعتقدات السائدة، والحق في التعبير عن آرائهم المخالفة لفكر الغالبية في مجتمعهم، ولولا انتصار دعوى أنه خير امتحان للحقيقة هو قدرة الفكر على أن تلقى القبول في ظل التنافس في السوق، وأنه ما من شخصية أو جماعة قد بلغت من الحكمة مبلغاً يبيت من حقها معه أن تستقل بالحكم على هذا الرأي أو ذاك بالصحةأو البطلان.

حسين أحمد أمين.

الكتاب الحائز على جائزة أحسن كتاب
في معرض القاهرة الدولي للكتاب عام ١٩٨٤
دليل المسلم الحزين
(الطبعة الثالثة ـ مكتبة مدبولي)

قالوا عنه :

● من أخصب ما قرأت من كتب إسلامية، كتاب يشحذ الذهن، في صياغة بالغة الرقة والسلاسة.

أحمد بهاء الدين (صحيفة الأهرام)

○ يتجه مباشرة إلى قلب المشكلة بوضوح وقوة.

أنيس منصور (مجلة أكتوبر)

● هو أهم كتاب ديني قرأته خلال عام ١٩٨٣ .

فتحي رضوان (مجلة الهلال)

● كتاب خطير وهام، يتكلم بدرجة عالية من الصدق والمعرفة.

علاء الديب (مجلة صباح الخير)

● صوت جاء في مرحلة التدهور والتراجع والشتات ليقف على أرض ثابتة من التراث والمعرفة، يتكلم بأكبر قدر ممكن من الموضوعية والعلم عن الإسلام المطلوب لزماننا هذا، وليكمل المشوار الذي بدأه الشيخ محمد عبده.

يوسف القعيد (مجلة الهلال)

- عرض رائع يستخدم أدق أساليب النقد التاريخي.

ب. ڤاتيكيوتيس (كتاب «الإسلام والدولة»)

- كتاب جدير بالقراءة والاهتمام. خرج عن نطاق الكتابة الدينية التقليدية إلى آفاق تحمل سمات الحداثة والاستنارة. وهو دراسة كبيرة مجتهدة، شائقة ذكية مشكورة، تستحق جائزة أحسن كتاب صدر في عام ١٩٨٣ التي حصل عليها من معرض القاهرة الدولي للكتاب.

مصطفى بهجت بدوي (مجلة عالم الكتاب)

- يكتب بلغة تهز السكون القاتل، ويطرح أشياء جديدة لم نتعودها، ويفتح باب الاجتهاد مرة أخرى.

يسرى حسين (صحيفة العرب اللندنية)

- يطرق عقولنا بمطرقة صلبة.

محمد نور فرحات (مجلة الأهرام الاقتصادي)

- أسلوب غير تقليدي، وجهد كبير، وبحث عميق ودقيق في قضايا حيوية وأساسية من مفكر إسلامي كبير.

السيد حجازي (صحيفة الأنباء الكويتية)

- جرأة افتقدها الإسلام منذ عصر العلماء الأوائل.. والتجريد الذي يضفيه حسين أمين على الأصول الدينية خالعاً عنها كل الشوائب التي ألمت بها منذ غابر الأزمان يجعله من تلاميذ مدرسة المصلحين الذين مروا في فترات تاريخية متعاقبة بدءاً بأحمد بن حنبل وابن تيمية ومروراً بمحمد بن عبد الوهاب وانتهاءً بالشيخ محمد عبده.

أحمد الدعيج (كتاب «أين الطريق؟»)

- يتمحور حول موضوع شائك مصيري، ويعالج مختلف القضايا الفكرية الدينية المطروحة حالياً بموضوعية وبروح علمية يندر أن نجدها في أغلب

الكتب المؤلفة حديثاً حول هذا الموضوع الخصب الثري.. وقد حاز الكتاب على جائزة أحسن كتاب في معرض القاهرة الدولي للكتاب عام ٨٤. وربما كان هذا دليلاً قاطعاً على أهميته البالغة في وقتنا الحاضر بسبب القيمة الضخمة لموضوعاته وثيقة الصلة بواقعنا وأوضاعنا الراهنة».

عمر أورتيلان
(صحيفة «المساء» الجزائرية)

حول الدعوة إلى تطبيق الشريعة الإسلامية
(الطبعة الثانية ـ مكتبة مدبولي)

قالوا عنه:

- كتاب فذ للكاتب الثائر والمثير الأستاذ حسين أحمد أمين الذي أفزعت كتاباته قوماً وأسعدت قوماً وأهمت آخرين.. إنه يضرب بمعول كبير يحمله ساعد شديد في موروثات عزيزة على المسلمين والعرب، غير ملق بألا لما يبعثه من ألم وحسرة هذا العمل الجريء.

فتحي رضوان.

- وصلت إلى اقتناع بأن حسين أمين هو خير ما في مصر اليوم، وضوح فكر، وروعة قلم، وشجاعة اتجاه.

ب. فاتيكيوتيس

- التحليل الرائع والشجاعة الفائقة هما السمتان الغالبتان على كتابات حسين أمين، وهما سمتان طالما أثارتا إعجابي.

نورمان دانييل

- حسين أمين ظاهرة فكرية بكل المقاييس، يملك قدرة نادرة على أن يخط لنفسه مساراً منفرداً، ويعيد منحنى مدرسة التجديد الإسلامي للصعود مرة أخرى.

صلاح عيسى

- رؤية عصرية متنورة لبعض القضايا الإسلامية. ومهما كانت درجة الاختلاف مع اجتهادات المؤلف فإن شجاعته في طرحها تجعل من صدور هذا الكتاب حدثاً لا جدال حول أهميته.. إنه يواصل سيره في الطريق الصعب الذي بدأ بكتابه المثير للجدل «دليل المسلم الحزين».

مجلة «العربي» الكويتية

- فرضت شخصية حسين أمين نفسها بسرعة عظيمة باعتباره أحد القادة المعاصرين للفكر الإسلامي المستنير.

فيليب كاردينال.

- قرأته بشغف بالغ، فزادتني قراءته إعجاباً بشجاعة مؤلفة وقوة قريحته.

إيمانيويل سيفان.

- يناقش ويشرح ويطرح عدة نقاط هي من صميم معضلات الإنسان المسلم اليوم.

صحيفة «المساء الجزائرية»

- كتابا «دليل المسلم الحزين» و«حول الدعوة إلى تطبيق الشريعة الإسلامية» للسفير المصري حسين أحمد أمين هما أفضل ما ألّفه المفكرون المسلمون خلال العامين الماضيين. إنهما كتابان ممتازان يتّسمان بالشجاعة والوضوح ودقة التحليل والثقافة الواسعة.

ب. ڤاتيكيوتيس (كتاب «الإسلام والدولة»)

الإسلام في عالم متغيّر
(الطبعة الأولى ـ مكتبة مدبولي)

قالوا عنه :

● «مما يهنّأ المؤلف عليه تلك المقارنة التي عقدها بين المواجهتين التاريخيتين بين العالم الإسلامي والغرب، في زمن الحروب الصليبية ثم إبّان الحملة الفرنسية على مصر. فهو إطار مفيد جداً للتحليل، ويدخل فيه كل مفهوم المدارك والاختلافات الحضارية، بالإضافة إلى إلقائه الضوء على ما يحدث اليوم».

ب . ڤاتيكيوتيس

● **في بيت أحمد أمين (دار الهلال)**

«هو أهم كتاب صدر في عام ١٩٨٥».

د. سيد عويس

«يرسم صورة شخصية لنفسه ولطفولته بالغة الصراحة والعنف. وهو هنا يمارس صفة الأديب بعد أن أثبت في كتبه الأخرى صفته كباحث ومفكر، وهي صفات اجتمعت عنده كما اجتمعت عند والده الكريم. . وهو يقدم لنا في كتابه هذا نموذجاً طيباً لأدب الاعتراف، وعملاً تربوياً هاماً يستطيع به أن يقف في صفوف المعلمين وغارسي القيم».

علاء الديب

«قطعة أدبية صغيرة ممتعة».

ب . ڤاتيكيوتيس

«هذا الكتاب الخليق بالإعجاب لا يحيي الماضي فحسب، بل وينقل إلى القارىء كل نكهته ومذاقه».

إيمانويل سيفان

«إن نجاح وجودة هذا الكتاب يدفعنا دفعاً إلى وضعه في مصاف كتاب «الأيام» لطه حسين».

فيليب كاردينال

- **الحروب الصليبية في كتابات المؤرخين العرب المعاصرين لها (مكتبة النهضة المصرية).**

- **ألف حكاية وحكاية من الأدب العربي القديم ـ المجلد الأول (دار الشروق)**

«جرعة ثقافية ومتعة ذهنية للقارىء.. إنها زهور من حديقة التراث العربي القديم. والحقيقة أن الكاتب أحسن اختيار أجمل القطوف والثمرات من أمهات الكتب».

محمود فوزي

- «كتاب قد يكون نسخة معاصرة (مع الاحتفاظ بكل نكهة التراث) عن كتاب «الأغاني» لأبي الفرج. يعكس كل الداخل العربي عبر قرون عديدة. ولو سلمت هذه الحكايات إلى شخص آخر لما خرجت بالانتقاء والتنظيم والبراعة التي خرجت بها. فحسين أمين لا يزيح الغبار بل إنه يجلو اللآلىء وينظمها بصورة فذة».

صحيفة «الوطن» الكويتية

- **ألف حكاية وحكاية من الأدب العربي القديم ـ المجلد الثاني (دار الشروق).**

- **فضل الإسلام على الحضارة الغربية ـ مترجم عن مونتجومري وات (دار الشروق).**

«هو أفضل كتاب صدر بالعربية في بيروت خلال عام ١٩٨٣».

مجلة «الحوادث» اللبنانية

«كتاب هام وجدير بالقراءة».

مجلة أكتوبر.

- **معضلة الرجل الأبيض ـ مترجم عن لورد بويد أور (سلسلة الألف كتاب):**

كتب بالاشتراك مع غيره:

- التسامح الديني والتفاهم بين المعتقدات (اتحاد المحامين العرب).
- التراث وتحديات العصر (مركز دراسات الوحدة العربية ـ بيروت).
- L'Islam en Questions (دار برنار جراسيه ـ باريس) .
- تكنولوجيا تنمية المجتمع العربي (المركز الإقليمي العربي للبحوث الاجتماعية ـ القاهرة) .

تحت الطبع:

- ألف حكاية وحكاية من الأدب العربي القديم ـ المجلد الثالث (دار الشروق) .

كتب معدة للنشر:

- مسرحية «الإمام».
- متنوعات.
- مصابيح أقوال العرب.
- حوليات العالم الإسلامي.
- محمد.

المحتويات

تليجرام

هنا

سور الأزبكية

تليجرام

هنا سور الازبكية

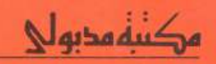
غواص في بحر الكتب

باحثون

محمد خطاب

المؤلف

- ولد في القاهرة في ١٩ يونيو ١٩٣٢ . وهو نجل المؤرخ الإسلامي الكبير الدكتور أحمد أمين .
- تخرج في كلية الحقوق، جامعة القاهرة عام ١٩٥٣ ، ثم درس الأدب الإنجليزي بجامعة لندن .
- عمل محامياً، فمذيعاً بالإذاعة المصرية، فمذيعاً بالقسم العربي بهيئة الإذاعة البريطانية .
- التحق بالسلك الدبلوماسي المصري وعمل ملحقاً فسكرتيراً ثالثاً بالسفارة في أوتاوا (كندا)، فسكرتيراً ثانياً بالسفارة في موسكو (الاتحاد السوفيتي)، فمستشاراً بالسفارة في لاجوس (نيجيريا)، فوزيراً مفوضا بالسفارة في بون (ألمانيا الاتحادية)، فقنصلاً عاماً في ريو دي جانيرو (البرازيل)، ورقي إلى درجة سفير عام ١٩٨٧ .
- يعمل حالياً سفيراً لمصر في الجزائر .
- انتدب خلال عمله بوزارة الخارجية مستشاراً فنياً لوزير الثقافة، وأعير للعمل نائباً لمدير مركز الأمم المتحدة للإعلام بالقاهرة .
- يجيد الانجليزية والفرنسية والروسية والألمانية والبرتغالية .
- حصل كتابه «دليل المسلم الحزين إلى مقتضى السلوك في القرن العشرين» على جائزة «أحسن كتاب في معرض القاهرة الدولي للكتاب» عام ١٩٨٤ ، وترجم إلى الفرنسية .
- كما أهدت له حكومة ألمانيا الاتحادية وسام الاستحقاق الأكبر عام ١٩٨٣
- له العديد من المقالات والبحوث نشرت في مجلات «الثقافة» و «الرسالة» و «المجلة» و «المسرح» و «روز اليوسف» و «صباح الخير» و «الأهرام الاقتصادي» و «أكتوبر» و «المصور» و «العربي» الكويتية و «الفيصل» السعودية و «الدوحة» القطرية، وجرائد «المصري» و «الأخبار» و «الجمهورية» و «الوطن» الكويتية . كما أذيعت له تمثيليات في إذاعة الشرق الأدنى والإذاعتين المصرية (البرنامج الثاني) والبريطانية (القسم العربي) .
- متزوج وله ثلاث بنات .


MADBOULI BOOKSHOP

6 Talat Harb SQ. Tel: 756421

٦ ميدان طلعت حرب القاهرة ت ٧٥٦٤٢١